الباحث

مجلة للأبحاث العامة

السنة الأولى — المجلد الثاني — 1972

تصدرها:

وزارة الثقافة
والتعليم العالي والثانوي والأصلي

مديرية الشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

البحث

مجلة للأبحاث العامة

تصدرها

وزارة الثقافة

والتعليم العالي والثانوي والأصلي

وتكوين الأطر

مرتين في السنة

مديرية الشؤون الثقافية

شارع ميشو بيلير - الرباط

تيلفون : 91 - 318

92 - 318

93 - 318

مدير المجلة : 64 - 205

رئيس التحرير : 70 - 212

الباحث

مجلة للأبحاث العامة

تصدر:
مرتين في السنة

المدير: محمد ابن البشير
رئيس القسم الثقافي بالوزارة

رئيس التحرير: محمد الصباغ
رئيس مصلحة الآداب بالوزارة

السنة الأولى — المجلد الثاني — 1972

الاشتراكات:
18 درهما او ما يعادلها سنويا
10 دراهم للنسخة الواحدة

جميع الابحاث المنشورة في هذه المجلة تعبر عن آراء أصحابها

الجغرافي ابن عبد المنعم الحميري السبتي *

بقلم محمد الفاسي

إن من يلقي نظرة على تاريخ الانتاجات الفكرية عند المغاربة في عصور الازدهار الموحدية والمرينية يلاحظ أن قسطا وافرا منها يتعلق بالجغرافية . اذا أردنا أن نستند الى هذه الملاحظة لنقيس درجة انحطاطنا وذلك بالمقارنة بين ما وصلت اليه معلوماتنا في هذا الفن وبما كانت عليه أيام الموحدين والمرينيين يأخذنا رعب عظيم لبعد ما بين الحالتين . فمن يصدق أن أمتنا سبق لها أن أنجبت مثل الشريف الادريسي ودرجته في هذا العلم هي ما عرفه المستمعون الكرام وما صار معلوما لدى جميع المثقفين بما كتبت حوله من الدراسات بمناسبة مرور ثمانمائة سنة على وفاته ومن لا يأخذه العجب عندما يعلم أن كتاب الاستبصار وتأليف الفلكي الكبير أبي الحسن المراكشي ورحلة العبدري وقد تكلمت عن كل هذه الآثار في أحاديثي السابقة ـ كتبت جميعها بأقلام مغربية .

وإن سبتة موطن الادريسي كان لها قصب السبق في هذا المضمار فقد أنجبت بعد الادريسي جغرافيا آخر نخصص له اليوم ولاثره هذا الحديث ، كما أنجبت أيضا رحالتين

---

* نص حديث كنت ألقيته من مذياع الرباط منذ ثلاثين سنة وهو ينشر الآن لاول مرة وقد تركته على حالته كما ألقي يوم فاتح مارس سنة 1942.

آخرين سنتكلم عنهما بعد، وهما : ابن رشيد الفهري وأبو القاسم التجيبي كما أن شقيقتها وجارتها طنجة أنجبت أشهر من رحل ابن بطوطة الذي يضرب به المثل في التجوال واختراق الآفاق شرقا وغربا .

ويظهر لنا أن السر في اقبال المغاربة على البحث في هذا الفن يرجع لموقع بلادهم الجغرافي فإن وجودهم في أقصى الدنيا من جهة الغرب وإحاطة البحار والصحارى بأرض المغرب من أكثر جهاتها جعلهم يتوجهون بأنظارهم الى أقطار العالم ليستطلعوا أخبارها ويعرفوا أحوالها ويقارنوا بينها وبين بلادهم التي كانوا يحسون أن لها ميزة خاصة بموقعها هذا الذي ينبههم اليه في كل حين اسم البلاد الرسمي وهو المغرب الاقصى . وإنه ليس من مجرد المصادفة أن يكون أكثر هؤلاء الجغرافيين من أقاصي بلاد المغرب فان العبدري من بلاد حاحة وهي في أقصى غرب المغرب الجنوبي والادريسي وابن رشيد وأبو القاسم التجيبي وابن بطوطة من أقصى غرب المغرب الشمالي .

وكذلك ابن عبد المنعم الحميري صاحب كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار فإنه كان على ما سنبينه من أهل سبتة أيضا . وهو كغيره من أكثر رجال العلم والادب عندنا لا تعرف أحوال حياته بالتفصيل وإنما من حسن حظنا قد حوفظ لنا على أثره وسنصفه ونبين قيمته وفائدته بعد هذا . إلا أنه يتعين أولا أن نتعرض لشخصية المؤلف ولمشكلة تتعلق بتحديد الزمان الذي كان يعيش فيه .

وذلك أن صاحب كشف الظنون ذكر كتابا باسم روض (كذا) المعطار في أخبار الاقطار منسوبا لأبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد الحميري وقال إنه توفي سنة تسعمائة ثم ذكر كتابا آخر بنفس هذا الاسم سوى أن فيه لفظة خبر عوض أخبار بالجمع ونسبه للشيخ العمدة أبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري .

فهل هناك روضان لمؤلفين ينتسبان كلاهما لحمير ؟

أم وقع غلط لصاحب كشف الظنون وجعل من المؤلف والمؤلِّف كتابين وكاتبين ؟

قد حاول أحد المستشرقين ممن اهتموا بهذا المشكل وهو شيخنا الاستاذ كَودفروا دي مومبين الجواب عن هذين السؤالين قائلا إنه لا يبعد أن يكون وقع غلط لحاجي خليفة فجعل من رجل واحد اثنين . أما تاريخ الوفاة فربما تصحفت فيه سبعين بتسعين اذ لا يمكن أن يكون توفي في سنة تسعمائة و الحالة أن القلقشندي ينقل عنه في كتابه صبح الاعشى المؤلف سنة أربع عشرة وثمانمائة كما أنا نعلم أن المقريزي المتوفى سنة 845 اختصر الروض المعطار وسمى مختصره "جني الازهار من الروض المعطار" وتوجد منه نسخ ببرلين والقاهرة وفينة.

وقد رد على هذا الحل الاستاذ ليفي بروفنصال في مقدمته الفرنسية الممتعة التي صدر بها ترجمة ما يتعلق بالاندلس من كتاب الروض المعطار مع نشر النص العربي فقال : "إن اكتشاف عدة نسخ من الروض لم يؤيد هذا الفرض الخلاب الذي افترضه الاستاذ كَودفروا دي مومبين اذ أن سنة تسعمائة التي ذكرها حاجي خليفة في أحد فصليه عن الروض تظهر ممكنة تماما اذا قارناها بتاريخ إتمام الكتاب كما ورد في آخر نسخة تنبكتو وذلك التاريخ هو السابع عشر صفر من سنة ست وستين وثمانمائة يعني خمسا وثلاثين سنة قبل وفاة المؤلف" .

وعلى هذا فإن حاجي خليفة محق في ما قال وقد بلغه حقيقة خبر كتابين باسم الروض المعطار . فمن مؤلفاهما ومن السابق الذي نقل من كتابه القلقشندي واختصره المقريزي ؟

ذلك ما سنراه الآن . إن اسمي هذين المؤلفين يردان في نسخ الروض وعند حاجي خليفة وعند من ينقل عنهما منسوبين لحمير . ونحن نعلم أن هذه النسبة العربية تكاد تكون منعدمة في عرب المغرب والاندلس . ثم إننا نعلم أنه ورد في آخر نسخة "تنبكتو" أن المؤلف فرغ من تأليف

كتابه بجدة . وعليه فربما كان المؤلف من أهل المشرق ، هذا ما يمكن أن يتصوره الانسان لأول وهلة . ولكننا نرى من جهة أخرى أن المقري في نفح الطيب عندما تكلم على موقعة الزلاقة أورد فصلا طويلا نقله عن الروض المعطار ثم نقل كلاما لابن الأثير و نقلا عن ابن خلكان ثم قال : " ولنرجع الى كلام صاحب الروض المعطار فإنه أقعد بتاريخ الاندلس اذ هو منهم وصاحب البيت أدرى بالذي فيه (1) ".

وهذا نص صريح في أن ابن عبد المنعم ليس من أهل المشرق ولكن المقري وهم اذ جعله أندلسيا والواقع أنه مغربي من أهل سبتة ودليل ذلك أنه كان بسبتة عائلة صنهاجية تعرف ببني عبد المنعم ونحن نعلم أن النسابة يجعلون القبيلة البربرية العظيمة التي كانت منها الدولة المرابطية عربية المحتد ترجع بأصلها الى عرب اليمن الحميريين .

وقد ترجم ابن الخطيب في الاحاطة لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم كما في الجزء المخطوط الفريد وإننا ننقل هذه الترجمة بنصها إذ نعتقد أن هذا الذي ترجم له ابن الخطيب هو مؤلف كتاب الروض المعطار وإن كان لم يذكره له ولم ينسب له أي تأليف قال ابن الخطيب : " محمد بن عبد المنعم الصنهاجي يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن عبد المنعم من أهل سبتة الاستاذ الحافظ حاله من العائد : كان رحمه الله رجل صدق طيب اللهجة سليم الصدر تام الرجولة صالحا عابدا كثير القرب والاوراد في آخر حاله صادق اللسان قرأ كبيرا وسنه تنيف على سبع وعشرين ، فشأى أهل الدرب والسابقة وكان من صدور الحفاظ لم يستظهر أحد في زمانه من اللغة ما استظهره فكاد يستظهر كتاب التاج للجوهري وغيره ، آية تتلى ومثالا يضرب قائما على كتاب سيبويه يسرده بلفظه اختبره الفاسيون في ذلك غير ما مرة ، طبقة في الشطرنج يلعبها محجوبا ، مشاركا في الاصول آخذا في العلوم

(1) النفح ص . مصر ج 2 ص . 527

العقلية مع الملازمة للسنة يعرب أبدا كلامه ويزنه . مشيخته : أخذ ببلده عن الاستاذ أبي إسحق الغافقي ولازم أبا القاسم بن الشاط وانتفع به وبغيره من العلماء . دخوله غرناطة : قدم غرناطة مع الوفد من أهل بلده عندما صار الى إيالة الملوك من بني نصر لما وصلوا بالبيعة . وفاته : كان من الوفد الذين استاصلهم الموتان منصرفهم من باب السلطان ملك المغرب بأحواز تازة حسبما وقع التنبيه على بعضهم . " (1)

هذه الاوصاف التي ذكرها ابن الخطيب تنطبق على مؤلف الروض المعطار فإن أثر ورعه وكثرة قربه وأوراده تظهر في كتابه فإنه كثيرا ما يورد أدعية مباركة كما يقول وما يناسب ذلك من الحكايات التي فيها العبرة والموعظة حتى أنه قال في مقدمة كتابه متأسفا على إقدامه على تأليف كتابه الجغرافي . " ومع هذا فقد لمت نفسي على التشاغل بهذا الوضع الصادر عن الاشتغال بما لا يغني عن أمر الاخرة والمهم عن العلم المزلف عند الله تعالى .(2)" ثم إن ما وصفه به من كونه آخذا في العلوم العقلية يظهر لنا سبب إقباله على علم الجغرافية مع اشتغاله بالعبادة واعتباره أن تعمير الوقت بغيرها مضيعة وضلال .

ثم إن التاريخ الذي ذكره لوفاته غامض مبهم إذ لم يصرح به وإنما جعله مقرونا بتاريخ وباء ربما كان هو طاعون سنة تسع وأربعين وسبعمائة الذي استاصل كثيرا من أهل المشرق والمغرب ولكن ليس لنا ما نؤيد به هذا الفرض ولا نعرف تاريخ وباء آخر في هذا العصر . وعلى كل فإنه توفي بعد سنة تسع وسبعمائة وهو تاريخ استرجاع بني مرين لمدينة سبتة بعد أن دخلت تحت طاعة ملوك غرناطة النصريين أربع سنين قبل ذلك .

---

(1) ص. 25 – 26 من جزء الاحاطة المخطوط وقد نقل هذه الترجمة باختصار السيوطي في بغية الوعاة ص . 69 .

(2) صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ص. خ

ويستفاد من ترجمته في الاحاطة أنه دخل مدينة فاس وإن كان لم ينبه على ذلك في فصل فاس من كتابه إلا أنه وصفها وصف من يظهر أنه شاهدها فمن ذلك قوله : " ومدينة فاس اليوم في نهاية العمارة والصلاح قد بنيت أكثر جناتها الملاصقة لها دورا وأضيفت إليها... ثم يقول : وهذه المدينة قطر بلاد المغرب وكملت بهجتها في أيام بني عبد المومن ومنها يتجهز إلى بلاد السودان وإلى بلاد المشرق ومنها يحمل النحاس الأصفر إلى جميع الآفاق (1)" .

وقد ذكره أيضا ابن القاضي في الجذوة إلا أنه لم يذكر من أحواله شيئا وإنما اكتفى بذكر اسمه هكذا : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي السبتي ذكره صاحب البلغة ولم أقف على وفاته (2) .

ثم إن أبا عبد الله محمد بن القاسم الانصاري السبتي ذكر في تقييده المسمى اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار ممن دفن بمقبرة المنارة : الشيخ اللغوي الحافظ الأنبل المتفنن في المعارف أوحد زمانه في ذلك أمام عصره أبا عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي من أهل سبتة . (3)

ولا شك أيضا أن هذا الشيخ اللغوي الحافظ المتفنن في المعارف هو مؤلف الروض المعطار ومن هذه التحلية وبما ذكره ابن القاضي وابن الخطيب يظهر أن النسبة التي عرف بها خصوصا في المشرق وهي الحميري ليست هي النسبة الأولية وإنما هو من صنهاجة وبنسبته إليها كان معروفا عند أهل وطنه وإنما بما أنه صنهاجي فهو حميري ضرورة عند من يعتقد أصل صنهاجة عربيا .

(1) من مخطوط سلا .

(2) ص. 201 والبلغة للفيروزابادي صاحب القاموس وهي في طبقات ائمة اللغة .

(3) قد نشر صمجلة المعهد . انظر ج 12 ص 149 .

فابن عبد المنعم هذا إذا المتوفى في النصف الأول من القرن الثامن هو مؤلف الروض المعطار وعن كتابه نقل القلقشندي وإياه اختصر المقريزي . فمن هو يا ترى أبو عبد الله محمد ابن محمد المتوفى على ما ذكره حاجي خليفة سنة 900 بعد أن ألف كتاب روض (كذا) المعطار في اخبار الأقطار ؟

هنا يقدم لنا الأستاذ ليفي بروفنصال جوابا عن هذا السؤال قائلا : "لا يبعد أن يكون أحد ذرية ابن عبد المنعم راجع النظر في هذا التأليف في لنصف الثاني من القرن التاسع فحوره وزاد فيه وحرف شيئا ما اسمه جاعلا لفظة أخبار عوض خبر ثم نسبه لنفسه كأنه هو الذي وضعه أول مرة .

ويظهر لنا أن هذا الفرض قريب للصواب ويؤيده أن كل الأخبار التاريخية الواردة في النسخ المعروفة من الروض لا تتعدى القرن السابع حتى النسخة التي عليها أنه كان الفراغ منه بجدة سنة ست وستين وثمانمائة . ولكننا مع ذلك لا نجزم بهذا ونعتبره مجرد فرض حتى نقف على النص الصريح الذي وحده يمكنه ان يزيل الاشكال .

والآن وقد تعرضنا للمشكلات المتعلقة بمؤلفه وبتاريخ تأليفه يجب أن نصفه ونذكر قيمته العلمية .

إن كتاب الروض المعطار معجم جغرافي ومعنى ذلك أن البلاد والجبال والمدن والقرى والأنهار مرتبة فيه على الحروف وهو يتبع طريقة المغاربة فيجعل بعد الزاي انطاء ثم الظاء إلى آخر ترتيبنا المعروف . ويظهر من كلامه أنه طاف ببعض بلاد المغرب إلا أنه لا يعول في كتابه إلا على تآليف من سبقه وأهم مصادره كتاب نزهة المشتاق للادريسي إلا أنه يكاد لا يذكره ولم يرد اسمه في كل القسم المتعلق بالأندلس إلا مرة واحدة وذلك بعد ما نقل عن النزهة فصلا طويلا متعلقا بقرطبة فقال : "هذا ما حكاه محمد بن محمد ابن إدريس . (1)" ولم يزد شيئا . وقد كنا

(1) ص . 156 من طبعة القسم المتعلق بالاندلس .

قلنا في دراستنا للادريسي أنه لم ترد ترجمته في كتاب مغربي واحد سواء من كتب الطبقات أو الانساب أو التاريخ وإنما ذكره في مقدمة كتابه عالم جغرافي واحد وهو ابن عبد المنعم الحميري ولم يذكره إلا ليغض منه ويبرر اقباله على تأليف معجم جغرافي عام رغم وجود نزهة المشتاق تأليف الشريف الادريسي . "على أنه لم يصرح باسمه وإنما قال : ثم إني قِسْتُهُ (يعني مؤلّفَه الروض) بالكتاب الاخباري المسمى بنزهة المشتاق فوجدته أعظم فائدة وأكثر أخبارا وأوسع في فنون التواريخ وصنوف الاحداث مجالا حتى في وصف البلاد فإنه إنما ذكر نبذة منها وشيئا قليلا في مواضع مخصوصة معدودة بل إنما عظم حجمه بما اشتمل عليه من قوله : "من فلانة إلى فلانة خمسون ميلا أو عشرون فرسخا ، ومن فلانة إلى فلانة كذا وكذا" أما الخبر عن الاصقاع مما يحسن إيراده ويلذ سماعه ، من خبر طريف أو وصف يستغرب أو يستملح ، فإنما يوجد فيه في مواضع قليلة معدودة ، إلى غير ذلك من عسر وجدان الناظر فيه بمطلوبه بأوّل وهلة بل بعد البحث والتفتيش .(1)"

وإننا لا نعيب على ابن عبد المنعم مدحه لكتابه بنفسه فتلك عادة المؤلفين العرب ولم يختص بها دون غيره إنما كان يحسن به أن لا ينقل عن الادريسي شيئا حيث يعتبر كتابه خاليا من كل تلك المزايا التي عددها ويرى أنه قصر حتى من الناحية الجغرافية المحضة . أما وهو قد ملأ كتابه بكثير من الفوائد المهمة المشتملة عليها نزهة المشتاق فكان الأحرى به أن يعترف بفضل الشريف الادريسي عليه . على أنه غير محق في نقده وإن بين كتاب النزهة العظيم وبين الروض المعطار بونا شاسعا لايسده مجرد ادعاء عبد المنعم الحميري .

هذا من الناحية الجغرافية ولكن كتاب الروض المعطار يشتمل على أخبار تاريخية لا تكاد توجد في غيره

---

(1) ص . ح من القسم المطبوع

وذلك فيما يتعلق بالخصوص بتاريخ الدولة الموحدية فإنه كلما ذكر مدينة من مدن إسبانيا أو الشمال الافريقي التي كان لها اتصال بهذه الدولة إلا ويذكر تاريخ افتتاحها ودخول الخلفاء والسادة الموحدين لها ويفصل أخبار الحروب التي وقعت حولها أو بالقرب منها إلى غير ذلك مما يرجع لأخبار الموحدين .

فلذا يتعين نشر هذا الكتاب كاملا إذ القسم المطبوع منه الآن وقد نشر سنة سبع وثلاثين وتسعمائة وألف لا يشتمل إلا على ما يتعلق ببلاد إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا الغربي وقد انتقى هذه الفصول من مجموع الكتاب للأستاذ ليفي بروفنصال ونشرها نشرا متقنا الغاية مع ترجمة وتعاليق كثيرة إضافية مفيدة . وقد اطلعت على قسم كبير من غير المطبوع تفضل بإعارته لي عند كتابة هذا البحث فضيلة العلامة الجليل مؤرخ العدوتين بل مؤرخ المغرب حقا أبو عبد الله السيد محمد بن علي الدكالي حفظه الله (1) .

إلا أنه لا توجد نسخة كاملة (2) من الروض المعطار إلا عند أحد أساتذة باريس وهذه النسخة هي التي ورد فيها تاريخ التأليف وهي التي ذكرناها في أول هذا البحث باسم نسخة تنبكتو لانها نسخت بهذه المدينة السودانية .

وعسى أن تكون هذه النسخة لا تزال محفوظة حتى إذا ما قيض الله من يقوم بنشر كتاب الروض المعطار أمكنه التعويل عليها والسلام عليكم ورحمة الله (3) .

---

(1) وقد توفي بعد كتابة هذا البحث رحمه الله رحمة واسعة .

(2) قد وقفت بعد ذلك على نسخة كاملة من الروض بخط مشرقي وهي غير مؤرخة . وعندي منها الآن نسخة مصورة فعسى ان اوفق لاصدارها لان الروض المعطار كما شرحنا من اهم ما انتجه المغاربة في الجغرافية والتاريخ .

(3) وقد ارتأينا ان نعطي نموذجا من المعلومات التي يحتوي عليها كتاب الروض المعطار فاخترنا لذلك كلامه عن فاس .

نموذج من كتاب الروض المعطار

فاس

فاس مدينة عظيمة وهي قاعدة المغرب ، وهما مدينتان مفترقتان بينهما نهر كبير يسمى واد فاس يأتي من عيون تسمى صنهاجة ، وفي كل زقاق ساقية يجرونها متى شاؤوا وفي كل دار صغيرة كانت أو كبيرة ساقية ماء ، وبين أهل المدينتين فتن ومصاولات ، وفيهما معا ضياع ومعايش ومبان سامية وقصور ، ولأهلها اهتمام بحوائجهم نِعَمُها كثيرة والحنطة بها رخيصة وفواكهها كثيرة وخصبها زائد . وفي أهلها عزة ومنعة . ومنها إلى سجلماسة ثلاث عشرة مرحلة . وبالجملة فمدينة فاس قطب بلاد المغرب الأقصى ويسكن حولها قبائل من البربر لكنهم يتكلمون بالعربية ، فهي حضرة المغرب الكبرى وإليها تشد الركائب وتقصد القوافل وتجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة ، وأهلها مياسير ولها من كل شيء حسَن أوفر حظ . ويدور عليها سور عظيم وبين المدينتين قناطر كثيرة وتطرد إفيها جداول لا تحصى تخترق كلها المدينتين وفيها عيون كثيرة لا تحصى وهي أبدا تزيد في مواضع الانخفاض من المدينة ، وفيها أرحاء الماء نحو ثلاثمائة وستين رحا يضمها السور سوى الأرحاء التي خلف السور وهي في المزيد وربما وصلت أربعمائة والنهر الذي يخترق مدينتي فاس ينبعث من عين عظيمة لها منظر عجيب فيها نحو الستين فوارة في دائرة يجتمع منها هذا النهر الكبير ، بينها وبين المدينة نحو عشرة أميال في بساط من الأرض لا يكاد يستبين جري الماء فيه لاستواء أرضه ، ومدينة فاس محدثة أسست عدوة الاندلسيين في سنة اثنتين وتسعين ومائة وعدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة في ولاية إدريس بن إدريس الفاطمي ، ومن ذريته بقايا إلى اليوم . ومدينة فاس اليوم في نهاية العمارة والصلاح وقد بنيت

أكثر جناتها الملاصقة لها دورا وأضيفت إليها . وفيها اليوم ثلاثة جوامع بثلاث خطب ، جامع عدوة الاندلس وهو جامع كبير متقن البناء يقال إن ابن أبي عامر زاد فيه ، وجامع عدوة القرويين الأكبر من جامع عدوة الاندلس ، وزيد في العهد القريب في هذا الجامع باب كبير مشرف جميل المنظر من جهة الجوف ، وسقاية متقنة البناء ملاصقة له ماؤها من الواد ، وجلب لها ماء عين هو في أيام الحر في نهاية البرد وفي أيام البرد فيه بعض الحرارة . وكذلك صنع بجوف جامع القرويين سقاية متقنة البناء ومياه جارية مع عتبة الباب الجوفي وفوارة مرتفعة نصف قامة داخل الصحن . فُعِلَ كلُّ ذلك في حدود ثمان وسبعين وخمسمائة وكذلك بقصبة السلطان جامع شريف معظم فيه الخطبة أحدثها فيه خلفاء بني عبد المومن لأن القصبة منحازة عن البلد بسور فوجب أن يكون فيها جامع وفي كل عدوة شريعة لخطبة العيدين .

ومدينة فاس كثيرة الخصب والرخاء كثيرة البساتين والمزدرعات والفواكه وجميع الثمار . ولها أقطار واسعة العمائر . وعدوة القرويين من هذه المدينة أكثر بساتين وأشجارا ومياها وعيونا من عدوة الاندلسيين وكلاهما عظيمة القدر . ويقال إن رجال عدوة الاندلس أشجع وأنجد من رجال عدوة القرويين ونساؤهم أجمل من نساء القرويين ، ورجال القرويين أجمل من رجال الاندلسيين . ويقال أن بعدوة الاندلسيين تفاحا حلوا يعرف بالاطرابلسي جليل حسن الطعم والرائحة يصلح بها ولا يصلح بعدوة القرويين ، وكذلك بعدوة القرويين أترج جليل ولا يوجد بعدوة الاندلسيين ، وكذلك سميد عدوة الاندلسيين أطيب من سميد عدوة القرويين . وهذه المدينة قطر بلاد المغرب وكملت بهجتها في أيام بني عبد المومن . ومنها يتجهز إلى بلاد السودان وإلى بلاد المشرق ، ومنها يحمل النحاس الاصفر إلى جميع الآفاق . وموقع واد فاس بواد سبو على ثلاثة أميال من المدينة . وواد سبو هذا نهر عظيم من أعظم أنهار بلاد المغرب ، مبعثه من جبل بني وارتين ورأس العين في شعراء غامضة يهاب الداخل الدخول

فيها ، وهي دهشة عظيمة لا يدرك لها قعر ، وللبربر المجاورين لذلك الموضع فيها تجارب منها أن المريض إذا أرادوا أن يعلموا هل يعيش أو يموت حملوه لرأس العين فيغطسونه في ذلك الموضع المهول حتى يقرب أن يهلك ثم يخرجونه فإن خرج على فيه ذم استبشروا بنجاته وإلا ايقنوا بهلاكه ، وهذا عندهم متعارف لا ينكر . ويتصيد في هذا الواد الشابل الكثير ويطلع إلى رأس العين أو قريب منه يدخل في ذلك الواد الحوت الكثير وبين فاس وتلمسان عشرة أيام في عمائر متصلة ، وكانت فاس دار مملكة بني إدريس العلويين وملكوا منها بلاد المغرب كلها إلى أقصى بلاد السوس طاعة ومعصية ، وكانت في أيامهم دولة برغواطة الذين يدينون بديانة الغوي صالح بن طريف البرغواطي . وملك العلويون بعض بلاد الاندلس . وتسموا بأمراء المؤمنين وخطب لهم بالامامة . ومن فاس أبو عمران الفاسي الفقيه الامام المشهور بالعلم والصلاح وهو أبو عمران موسى بن عيسى ابن أبي حاج الغفجومي الفاسي توفي بالقيروان في الثالث عشر من شهر رمضان سنة تسع وعشرين وأربعمائة . وقال أبو عمر ابن عبد البر ولدت مع أبي عمران في سنة واحدة سنة ثمان وستين وثلاثمائة .

محمد الفاسي

أبو عبد الله ابن المناصف
المجتهد المغرّبي

ترجمته ، آثاره ، منحاه في الاجتهاد

بقلم : محمد ابراهيم الكتاني

المحاضرة القيمة التي القاها الاستاذ السيد محمد ابراهيم الكتاني في تونس بدعوة من اللجنة الثقافية القومية التونسية . وكان لها صدى واسع في الاوساط الثقافية التونسية .

دعاني لاختيار موضوع :

أبي عبد الله ابن المناصف المجتهد المغربي للحديث في هذه المناسبة عدة أسباب :

أولها - إن الدعوة الكريمة التي تلقيتها من اللجنة الثقافية القومية بوزارة الشئون الثقافية لزيارة الجمهورية التونسية الشقيقة والمحاضرة بها ، تضمنت - أن من دواعي هذه الدعوة : دعم التعاون الثقافي بين قطرينا الشقيقين ، وتلبية رغبات إخواني بتونس الذين يقدرون بالغ التقدير - حسب تعبير الاستدعاء - جهودي في خدمة التراث المغربي بحثا وتحقيقا .

وهي في نظري جهود متواضعة جعلتها عين الرضا من إخواني الأكرمين هنا تستحق التقدير .

ولذلك كان من الطبيعي أن يكون الموضوع الذي سأتحدث عنه متصلا بالتراث .

ثانيها ـ إن أبا عبد الله ابن المناصف قد حقق صفة المواطن المغربي على أكمل الوجوه ، حيث إنه ولد بالمهدية ونشأ ودرس بتونس ، وعاش مدة بتلمسان ، واستقر أخيرا بمراكش حيث مات وأقبر ، وبذلك كان الحديث عنه من خير ما يذكر بوحدة المغرب العربي الكبير التي نتوق إليها ونتطلع لليوم السعيد الذي ستتحقق فيه ونعتقد أن الوحدة الثقافية التي استمرت متحققة في أقاليم المغرب العربي الكبير طوال عهدها الاسلامي العربي من أهم ما يجب العمل الجاد على المحافظة عليه وتنميته والسير به نحو الوحدة المنشودة .

ثالثها ـ إن الجمهورية التونسية انفردت من بين جميع البلاد العربية والاسلامية ـ فيما نعلم ـ بفضيلة السبق إلى تدريس موضوع الاجتهاد والتجديد في التشريع الاسلامي في مادة التربية الاسلامية لقسم الباكالوريا ، وهو موضوع حيوي وأساسي في سبيل الانبعاث الاسلامي المنشود ، ما برح الدعاة يلحون على ضرورته القصوى على تعاقب الأجيال والقرون . في مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

وقد اشتد إلحاح الموضوع بصورة مضاعفة بعد الغزو الاستعماري للبلاد الاسلامية بعد الثورة الصناعية بأوربا وأمريكا وما صاحبها من انقلابات جذرية في الأوضاع الفكرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والعلاقات الدولية ، الأمر الذي لفت أنظار قادة الفكر الاسلامي الأصيل إلى ضرورة بعث الاجتهاد الاسلامي لمواجهة التطورات الجديدة والضرورات الملحة .

وقد عاش أبو عبد الله ابن المناصف على عهد الدولة الموحدية التي حاربت تقديس الآراء الاجتهادية لمختلف الأئمة ، ودعت للرجوع للمنبع الأصلي للتشريع الإسلامي ، وهو الكتاب والسنة ، وفي هذا الاتجاه سار ابن المناصف ، فعرض آراء الأئمة المجتهدين في مختلف المسائل التي تناولها على الكتاب والسنة ، ورجح منها ما ظهر له أنه يؤيده الدليل الشرعي ، متحررا من ربقة التقليد والتزام مذهب خاص من مذاهب المجتهدين .

وقد وفقت في هذا الموضوع للعثور على الأثرين المهمين اللذين خلفهما فكانت هذه خير مناسبة للتحدث عنهما ومحاولة التعرف على الاتجاه الذي سار عليه فيهما ، إحياء لذكراه ، ولفتا للأنظار لناحية طريفة من تاريخنا الفكري .

فعسى أن أكون قد وفقت في هذا الاختيار .

*

* *

ترجمته

أبو عبد الله محمد بن الفقيه أبي الاصبغ عيسى بن قاضي الجماعة بقرطبة أبي عبد الله محمد بن كبير المفتين بقرطبة أبي القاسم أصبغ بن صاحب الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة أبي عبد الله محمد بن محمد، ابن أصبغ ، بن عيسى ، بن أصبغ ، الأزدي عرف بابن المناصف ، وابن أصبغ .

ولد بالمهدية في رجب سنة 563 هـ 1168 م.

وكان أبوه قد انتقل من قرطبة موطن أسلافه ، زمن الفتنة التي عمت الأندلس ضد الدولة المرابطية منذ أوائل سنة 539 هـ فتجول في بلاد إفريقيا واستوطن القيروان .

وكان روجار الثاني ملك الفرنج النورمان قد احتل ثغر المهدية في صفر سنة 543 هـ (يونيه 1148) وفي الثامن عشر من شهر رجب سنة 554 هـ 5 غشت 1159 وصل أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي الموحدي إلى المهدية وحاصرها زهاء ستة أشهر ، ثم دخلها في صبيحة يوم عاشوراء من المحرم سنة 555 هـ (21 يناير 1160) .

وقد انتقل أبو الأصبغ عيسى الأزدي إلى سكنى المهدية بعد تحريرها،وإن كنا لا نعرف سنة انتقاله إليها ، حيث ولد له أبو عبد الله محمد ، وأخوه أبو عمران موسى .

ونشأ أبو عبد الله بتونس فأخذ عن أعلامها . ولكنا لا ندري متى انتقل من المهدية إلى تونس .

ثم انتقل إلى تلمسان حيث أقام كثيرا ، متلبسا بعقد الشروط ، ولكنا لا ندري متى انتقل إليها .

ثم استقضى ببلنسية ، ولكنا كذلك لا ندري متى كان ذلك ، غير أن ابن الآبار يذكر أنه لقيه بها سنة ثمان وستمائة .

ثم نقل منها إلى قضاء مرسية في سنة لا نعرفها فاستمرت ولايته القضاء بها كثيرا ، مشكور السيرة .

ثم ألزم سكنى قرطبة في سنة لا نعرفها أيضا ، إثر غلطة ظهرت منه في تأديب بعض أهلها ، لإفراط حدة كانت فيه ـ حسب تعبير ابن الآبار وابن عبد الملك المراكشي ـ

وسيأتي أن ابن المناصف فرغ من نظم أرجوزته (الدرة السنية) بقرطبة في مستهل صفر من سنة أربع عشرة وستمائة .

وذكر ابن سعيد في (المغرب) أنه حج وأقام بمصر قليلا ، وكر راجعا فمات ، ولكنه لم يذكر في أي سنة كان ذلك .

ونحن نجده في ختام معلم السيرة من (الدرة السنية) التي قلنا أنه فرغ من نظمها في صفر سنة أربع عشرة وستمائة يتمنى زيارة القبر الكريم قبل مماته ، فيقول مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم :

يا ليتني إذ كنت لما أشهد

منك الحياة لا تخار المولد وفاتني عيان ذاك المشهد

رزقت من قبل الحمام المرصد زيارة القبر الكريم الأمجد

والسعي في عراصه والمسجد ألثم ءاثار النبي الأسعد !

ومهما يكن ، فقد استقر أخيرا بمدينة مراكش عاصمة الأمبراطورية الموحدية في تاريخ لم يعينه مترجموه مناوبا أيمة صلاة الفريضة حسبما عند ابن الآبار ، وخطيبا بجامع بني عبد المومن الأقدم، أي جامع الكتبيين، حسبما عند ابن عبد الملك المراكشي ، ولا مانع من أنه كان إماما وخطيبا في نفس الوقت .

إلى أن توفي بها غداة يوم الأحد لثمان عشرة خلت من شهر ربيع الآخر سنة عشرين وستمائة ، الموافق حادي وعشرى ماي سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف ميلادية ، ودفن خارج باب تاغزوت ، وشهد جنازته خلق كثير ، وأسفوا لموته ، وأثنوا عليه صالحا رحمه الله .

وهكذا عاش أبو محمد ابن المناصف حياته كلها في ظل الخلافة الموحدية فولد على عهد يوسف بن عبد المومن وعاصر خلافة يعقوب المنصور وولده أبي عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله وقد احتفظ لنا ابن سعيد في المغرب ببيت من قصيدة لابن المناصف في مدحه :

دانت لك العرب طوع الحق والعجم

وأصبح الدهر عن علياك يبتسم

وقد كان ابن المناصف قاضيا ببلنسية في السنة التي محص الله فيها المسلمين في غزوة العقاب .

كما عاصر عهد ولده أبي يعقوب يوسف الذي أشرفت الدولة الموحدية فيه على الهرم ، وظهر بنو مرين .

وهكذا نرى أن أبا عبد الله ابن المناصف قد حقق في حياته صفة المواطن المغربي على أكمل الوجوه ، فقد ولد بالمهدية ، ونشأ بتونس وعاش مدة بتلمسان ، واستقر أخيرا بمراكش إلى أن توفي وأقبر بها .

وذلك ما جعل ابن عبد الملك المراكشي يثور ثورة عنيفة ـ هو فيها على حق ـ بكل من ابن الآبار الذي ترجمه في الأندلسيين ، ضنانة بعلمه على بر العدوة كما قال !

وبابن الزبير الذي تبع ابن فرتون السلمي ـ مع علمه بخطئه ! متعللا بأتباع الشيخ وغيره ، وبتأصله الأندلسي وعراقته !

فقال عن ابن الآبار : وقبح الله الحسد المذموم ! فقد حمل أبا عبد الله ابن الآبار على ذكره في الأندلسيين تشيعا لهم !

وقال عن ابن الزبير : وتبعيته للشيخ ـ مع علمه بخطئه ـ أقبح من الخطأ ! مع شدة عنايته بإصلاح أخطائه !

ولا عبرة بالتأصل والعراقة بالنظر إلى ما تقرر الاصطلاح عليه في الغرباء ، والله يعصمنا من الزيغ والزلل ، ويحمينا من مواقعة الخطأ والخطل !

*

* *

شيوخه

روى أبو عبد الله بتونس عن أبيه عن جده

وعن أبي الخطاب عمر بن الحسن المعروف بابن جميل وبابن دحية السبتي نزيل مصر .

وكان قد حدث بتونس عند مروره بها سنة 595

وتفقه بأبي الحجاج يوسف المخزومي ولازمه كثيرا

وحلاه ابن الآبار في التكملة أثناء ترجمة أبي عبد الله ابن المناصف بقاضي تونس ، ولم يحله ابن عبد الملك بذلك .

وترجم ابن الآبار في التكملة (رقم 2080) لأبي الحجاج يوسف ابن إسماعيل المخزومي القرطبي ، يعرف بابن المرادي وهو من أهل القرن السادس ، وقال عنه أنه كان حافظا للعربية واللغة شديد العناية بها ، واستقضى ببعض الكور ، ولم يقل أنه كان قاضيا بتونس .

وقال ابن الآبار في ترجمة ابن المناصف : أنه سمع بتونس من أبي عبد الله بن درقة .

وقال ابن عبد الملك أنه تفقه أيضا بقاضي تونس أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد القحطاني ابن أبي درقة .

وقد ترجمه ابن الآبار في التكملة (834 مجريط) وقال إنه قرطبي سكن تونس وولي القضاء بها ، وتوفي سنة 595 .

وزاد ابن عبد الملك المراكشي أن ابن المناصف تفقه أيضا بأبي إسحاق الكانمي وتأدب به .

وكان أبو إسحاق عالما بالآداب شاعرا مفلقا ، قدم المغرب قبل الستمائة بيسير ، وسكن مراكش ، ودخل

الأندلس فيما بلغ ابن الآبار ، وتوفي بمراكش سنة ثمان أو تسع وستمائة ترجمه ابن الآبار في التكملة ، (177/1 القاهرة) وفي تحفة القادم (رقم 71 مجلة المشرق)

ولم يذكر أنه مر بتونس في طريقه إلى مراكش واستقر بها مدة يمكن لابن المناصف فيها أن يتأدب به ، كما لم يذكر أنه كان فقيها لدرجة يمكن لابن المناصف أن يتفقه به أيضا .

وزاد ابن عبد الملك ممن تأدب بهم ابن المناصف أبا بكر عتيق بن علي الفصيح ، ولم يلقب ابن عبد الملك أحدا ممن اسمه علي بن عتيق بالفصيح ، ولا ذكر أن ابن المناصف أخذ عن واحد منهم .

وأخذ ابن المناصف بتلمسان عن أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبي الأندلسي نزيل سبتة ثم بجاية ثم تلمسان المتوفى بها سنة عشر وستمائة ، وكان حافظا للحديث محافظا على إسماعه كما قال ابن الآبار .

هؤلاء هم شيوخ ابن المناصف الذين ذكرهم ابن عبد الملك المراكشي وذكر بعضهم ابن الآبار .

*

* *

مصادر ترجمته

بين يدينا من مصادر ترجمة أبي عبد الله بن المناصف :

1 ـ ترجمة تلميذه أبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الآبار ، في كتابه (التكملة ، لكتاب الصلة) (رقم 962 ج 1 ص 325 ـ 326 طبع مجريط ، ورقم 1606 ج 2 ص 611 ـ 612 ط القاهرة) .

2 ـ ترجمة تلميذه أبي الحسن علي بن محمد الرعيني في برنامج شيوخه المسمى كتاب (الايراد ، لنبذة المستفاد ، من الروايات والإسناد ، بلقاء حملة العلم في البلاد ...) ص 128 ـ 129 ط دمشق .

3 ـ ترجمة ابن سعيد في (المغرب) ناقلا عن والده الذي اجتمع بأبي عبد الله ابن المناصف كما اجتمع بأخويه أبي إسحاق إبراهيم ، وأبي عمران موسى وذاكرهم (ج 1 ص 105) .

4 ـ ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد ابن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي في قسم الغرباء من كتابه (الذيل والتكملة ، لكتابي الموصول والصلة) الذي توجد من نصفه الثاني نسخة فريدة في قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (د 3784 ص 121 ـ 125) .

هذه هي التراجم الأصلية التي بين أيدينا ، وتعتبر ترجمة ابن الآبار وابن عبد الملك أهم هذه الأربعة ، وقد استفاد ابن عبد الملك من ترجمة ابن الآبار وأضاف إليها معلومات كثيرة ، وتلافى بعض أخطاء ابن الآبار ونبه على بعضها .

5 ـ 6 ـ ترجمة أحمد بابا السوداني في (نيل الابتهاج ، بتطريز الديباج)(ص 223 ط فاس ص 228 ـ 229 ط القاهرة) ناقلا عن صلة الصلة لابن الزبير ، وتحرفت في المطبوع إلى (الرحلة) ! كما ترجمه أحمد بابا في (كفاية المحتاج) التي هي اختصار لنيل الابتهاج .

7 ـ ترجمة محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج ، في الحلل السندسية في الأخبار التونسية (ج 1 ص 197) ناقلا عن أحمد بابا .

8 ـ ترجمة تقي الدين ابن قاضي شهبة أبي بكر بن أحمد الدمشقي ، في الجزء الرابع من تاريخه ، (مخطوط خ ع (شريط رقم 97 عن نسخة في ملك الأستاذ خير الدين

الزركلي ، ولعلها مبيضة المؤلف وهي ترجمة مختصرة عن ابن الآبار .

9 ـ ترجمة محمد بن محمد مخلوف التونسي في (شجرة النور الزكية) (رقم 574 ص 177 ـ 178) معتمدا على ابن الآبار .

10 ـ ترجمة عباس ابن إبراهيم قاضي مراكش في (الإعلام ، بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام) (ج 3 ص 95 ـ 97) ناقلا عن ابن الآبار وابن عبد الملك وأحمد بابا وفهرسة ابن خير ورحلة العبدري وصبح الأعشي ونفح الطيب .

11 ـ ترجمة خير الدين الزركلي في (الإعلام) ج 7 ص 114 .

12 ـ ترجمة عمر رضا كحالة في (معجم المؤلفين) ج 11 ص 107 ـ 108 .

13 ـ ترجمة كتبها الشيخ عبد الحي الكتاني بأول نسخته من (الدرة السنية) وهي بقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط ك 1075 .

14 ـ تترجمة عبد الله عنان في (عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس) ج 2 ص 691 عن ابن الآبار .

تراجم مفقودة

نقل ابن الآبار في ترجمته لابن المناصف عن ابن غالب وابن فرتون ونقل الرعيني عن كتاب أبي الحسن ابن القطان في (شيوخه) ونقل ابن سعيد عن أبي العباس بن عمر القرطبي ، ونقل ابن عبد الملك عن ابن الزبير .

وذكر ابن عبد الملك من تلامذة ابن المناصف أبا الخطاب

محمد بن أحمد ابن خليل ، وذكر في ترجمته أن له كتاب (التذكرة) ضمنه التعريف بشيوخه وبمداركهم في العلوم وتبيين أحوالهم وكيفية أخذه عنهم ، (5 ص 631)

فلا شك أنه ترجم لابن المناصف

وكل هذه التراجم لم تصلنا .

*

* *

أقوال مترجميه في حقه

وصفه تلميذه ابن الآبار - الذي لقيه ببلنسية عندما كان قاضيا بها - بأنه (كان عالما متفننا نظارا صاحب استنباط وتدقيق واقفا على الاتفاق والاختلاف ، معللا مرجحا .

مع الحظ الوافر من علم اللغة والآداب ، والتصرف في قرض الشعر .) وأنه (في قضائه) كان ذا سيرة عادلة وأبهة وشارة جميلة ، جامد اليد ، صليبا في الحق ، وكانت فيه حدة مفرطة ، وغلظة في تأديبه) .

وقال : ولم يكن له علم بالحديث ، ولا عناية بالرواية !

وحلاه تلميذه أبو الحسن الرعيني في (برنامج شيوخه) (بالشيخ الفقيه القاضي الجليل) وقال : هو من أهل العلم والفطن والاجتهاد) .

(وعنايته بالنظر أغلب عليه من الرواية)

ولعل هذه العبارة أكثر دقة من عبارة ابن الآبار .

وزاد الرعيني (وهو يميل إلى الشافعي في أغلب نظره ، ويقطع نفسه رتبة الاجتهاد !)

ووصفه ابن عبد الملك المراكشي بأنه : (كان فقيها نظارا ، جانحا إلى الاجتهاد . مائلا إلى القول بمذهب الشافعي ، ناصرا له مناظرا عليه !) وأنه (كان حافظا للغات ، ريان من الآداب شاعرا مجيدا ، مرجزا مطبوعا ، من بيت علم ورياسة فيه ، وتنقل في خططه السرية ، بارع الخط : يكتب ثلاث عشرة طريقة هو فيها كلهامجيد ! وكتب الكثير ، وكان مقلا من الرواية ، ضابطا لما يحدث به ، ثقة فيه) وأنه (كان مبرزا في معرفة الشروط ، بصيرا بعللها ،) (مشكور السيرة) في قضائه ، (من قضاة العدل والجزالة ، جميل الهيئة ، بهي المنظر ، تام المروءة .)

(وهو كان خاتمة بيتهم النبيه.) (د $\frac{3784}{7}$ ص 121 ـ 125 .)

ونقل ابن سعيد في (المغرب) عن والده أنه اجتمع ببني المناصف الثلاثة ـ يعني أبا عبد الله هذا ، وأخويه عمران موسى ت 627 بمراكش ، إسحاق إبراهيم المتوفى بسجلماسة 627 وذاكرهم وقال عنهم : أنه لم ير منهم إلا نجيبا ، لأنه تفنن في العلوم ، وولي أكبر خطط القضاء ، وإن كان موسى أرق شعرا ، فإنه ـ يعني أبا عبد الله أمتن علما فيما يتعلق بالأصول والفروع . (ج 1 ص 105 ـ106.)

*

*   *

آثاره

ولأبي عبد الله ابن المناصف عدة آثار ، منها :

1 ـ أرجوزته الشهيرة ، (المذهبة في نظم الصفات ، من الحلي والشيات) .

ذكر فيها أعضاء الإنسان وصفاتها : من السن ، والقامة ، واللون والأنف والعين ، والحاجب ، والوجه ، واللحية ، والفم ،

وألوان الشفاه ، والأسنان والرأس ، والشعر ، والأذنين ، والأطراف ، والمنكبين ، وما اتصل بهما ، واليدين ، والبطن وما والاه ، والفخدين ، والساقين ، والرجلين .

يقول في مقدمتها :

وقلت قولا ليس بالمدفوع : أن اليها حاجة الجميع
من طالب وكاتب وعاقد وشاعر وكل ندب ماجد
فإنها عنوان نبل الهمة عناية الكل به مهمة
إذ يستعيب ذو الحجا من نفسه إن لا يجيد علم وصف نفسه !

ويقول في آخرها :

ألفاظها معسولة مستعذبة سميتها من أجل ذاك (المذهبة)
تجلو حلاها عند كل واصف وتعتزى إلى بني المناصف !

وتقع في 432 بيت .

2 ـ ثم أضاف إليها (المعقبة ، لكتاب (المذهبة) ، في الأنعام والظبا وحمر الوحش والنعام) :

في قطعة مونقة مرجزة بوزنها وحسنها مميزة
تكون ردفا للحلي المرسومة وتغتدي في سمطها منظومة
فيستوي معزاهما في المرتبة ويحتوي عليهما اسم (المذهبة)

وتقع (المعقبة) في 568 بيت

قال ابن الآبار : حملت عنه ، وسمعت كثيرا منه

وقال ابن سعيد : وله الرجز المشهور بالمغرب في الشيات

وقال ابن عبد الملك المراكشي : وقفت عليهما بخطه المغربي مجموعين في مجلد واحد وقد خدم (المعقبة) منهما وطرر حواشيها بخطه المشرقي .

وذكرها أحمد بابا في نيل الابتهاج وقال أنه نظمه بمراكش في جمادى الأولى عام عشرين وستمائة . وقد

لاحظ القاضي عباس ابن إبراهيم المراكشي على ذلك أنه مات قبل هذا التاريخ .

وذكر في صبح الأعشى (ج 1 ص 152) أن الكاتب يحتاج إلى معرفة غريب اللغة ، وإن (كفاية المتحفظ) لابن الأجدابي والمذهبة والمقتضبة (كذا) لابن أصبغ كافلتان بالكثير من ذلك .

وذكر العبدري في رحلته أنه قرأها بتونس على ابن أبي هريرة ورواها عنه بسنده إلى ناظمها (ص 59 ـ 60) .

كما ذكرها إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين (ج 2 ص 109) .

وقال القاضي عباس ابن إبراهيم المراكشي أن هذه المنظومة في ملكه في مجموع بخط اليد اشتملت على 33 ورقة من مسطرة 16 . وقد ءالت هذه النسخة إلى قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د $\frac{3748}{4}$

كما توجد منها بقسم المخطوطات نسخة أخرى تحت رقم د $\frac{1725}{1}$ من ورقة 1 ب إلى 17 ـ ب ولكن الناسخ حذف منها 348 بيت !

وذكرها بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 497 وفي الذيل 1 910 وإنها توجد ببرلين ، والأسكوريال وهذه مؤرخة بسنة 614 عن خط الناظم . ومنها نسخة في مكتبة ييل بالولايات المتحدة تحت رقم 238 كتبت سنة 621 .

وذكر الأستاذ محمد المنوني في كتابه (العلوم والآداب والفنون) على عهد الموحدين (ص 61) أنها نشرت كاملة ضمن التقويم الجزائري لسنة 1330 هـ 1912 م فيما بين ص 73 ـ 122 .

*

*   *

3 ـ (فصل السلم) استدركه على (كتاب التلقين) في الفقه المالكي للقاضي عبد الوهاب البغدادي .

قال ابن عبد الملك المراكشي : وكان ابن المناصف شديد العناية بكتاب التلقين ، جيد النظر في فقهه وتبيين غوامضه .

وقد أورد ابن عبد الملك فصل السلم المذكور أثناء ترجمة ابن المناصف وقال : أودرنا هذا الفصل هنا ـ وإن لم يكن من شرط الكتاب ـ لغزارته وللإفادة به ، ولندل على جلالة محرره ، وتمكن معرفته ، وبراعة تصرفه .

4 ـ تنبيه الحكام ، في الأحكام .

جمع فيه مؤلفه ـ كما في (برنامج المكتبة الصادقية) (ج 4 ص 283 رقم 2440 / 648 طبع تونس 1329 هـ) ـ ما يحتاج إليه في مسائل القضاء على وجه الاختصار ، وفيه خمسة أبواب :

في سيرة القضاة ، وفي قبول الشهادات ، وفي تلقي كتب القضاة وفي تنفيذ الأحكام ، وفي الحسبة على تغيير المناكر .

نسخة بخط مغربي تقع في 106 أوراق . وذكره بروكلمان في الذيل 1 / 910 .

ولعله الذي سماه ابن الآبار كتاب الأحكام .

ولعله الذي ينقل عنه فقهاء المالكية في كتب وأبواب فقه القضاء ، مثل المسائل التي نقلها عن المناصف أبو عبد الله ابن غازي الفاسي في تكميل التقييد وتحليل التعقيد ، ونقلها عنه الشيخ ميارة الفاسي في شرح تحفة ابن عاصم أوائل فصل في خطاب القضاة ، ج 1 ص 42 ـ 44 ، وراجع أيضا ص 65 من نفس الجزء .

وراجع أيضا حاشية أبي علي بن رحال المغربي بالهامش ص 243 .

ونقل عنه إبراهيم ابن فرحون في (تبصرة الحكام ، في أصول الأقضية ومناهج الأحكام) حوالي 12 مرة . وسماه في إحداها (تنبيه الحكام على مأخذ الأحكام) 1 ـ 182 .

ثم إني وقفت منه على ثلاث نسخ بتونس اثنتان بدار الكتب القومية تحت رقم 8241 ، ورقم 8892 وهذه كتبت سنة خمس وأربعين وثمانمائة ، وقد أخذت من هذه شريطا لقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط .

والنسخة الثالثة في مكتبة صديقنا العلامة الشيخ الشادلي النيفر حفظه الله .

والكتاب في فقه القضاء على المذهب المالكي ، ليس فيه شيء من النزعة الاجتهادية التي في مؤلفات ابن المناصف الأخرى ، وهو في حاجة إلى دراسة خاصة .

ثم علمت أن في مكتبة جامع القرويين المعظم بفاس مخطوطا اسمه (المختصر في فقه القضاء) لابن المناصف ويحمل رقم ل 588/80 فلعله هو.

5 ـ 8 ـ وأرجوزته (الدرة السنية ، في المعالم السنية) وهي في أربعة معالم .

المعلم الأول في العقائد ، عرف فيه بكلمات دينية كالإيمان والإسلام والكافر ، والمنافق ، والزنديق ، والملحد ، والفاسق ، والظالم ، والفاجر ، وتأويل بعض الكلمات الواردة في الشرع تشكل ظواهرها ، وشرح الألقاب الواقعة على أهل البدع ، كالمرجئة والقدرية ، والمعتزلة ، والرافضة ، والخوارج .

المعلم الثاني في متعلق النكت الأصولية ، ومجاري الأدلة الشرعية.

وكتاب المعلم الثالث في مقتضى الألقاب الفقهية ، والمسائل الفروعية .

وكتاب المعلم الرابع في السيرة النبوية والأعلام المصطفوية .

وهي في أزيد من سبعة آلاف بيت ، نظمها في قرطبة وختمها مستهل شهر صفر من سنة أربع عشرة وستمائة. نسبها له ابن الآبار وابن عبد الملك وحاجي خليفة في

كشف الظنون 740 والبغدادي في هدية العارفين ج 2، ص 109 وقال إنها في الفروع والأدلة الشرعية . وابن سعيد في (المغرب) ناقلا عن المحدث أبي العباس بن عمر القرطبي ، وقد ذكر الرحالة المغربي أبو سالم العياشي في (رحلته) أنه رأى بمكة المشرفة السفر التاسع من كتاب (منتهى السول ، في مدح الرسول) لمحمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري ، مؤرخ بربيع الآخر عام ثلاث وسبعين وستمائة .

ومن جملة ما في هذا السفر (المعلم الرابع من كتاب الدرة السنية) هذه .

وتوجد من الدرة السنية في قسم المخطوطات بالخزانة العامة نسخة ضمن مجموع يحمل رقم ك $\frac{1075}{1}$ وتقع في 441 ص مسطرتها 17 ويظهر أن فيها نقصا قبل (باب في الحدود) وهي بخط مغربي وسط وبها كثير من التحريف والتصحيف .

كما توجد نسخة بمكتبة الجامع الكبير بمكناس تحت رقم 404 في 180 ورقة وقد فتكت بها الأرضة فتكا ذريعا ويتخللها هي الأخرى نقص ، وربما تممت إحداهما الأخرى ومنها شريط مصور في قسم المخطوطات بالخزانة العامة تحت رقم 1254 .

كما توجد عدة شذرات منها بمكتبة القرويين بفاس بخط أندلسي تحت رقم 2648

وقد وقفت في دار الكتب القومية بتونس على :

النكت الأصولية ، ومجاري الأدلة الشرعية تحت رقم 998 في 73 ورقة بخط محمد المنوبي الغراتي غرة شوال1326

وكتاب السيرة والأعلام المحمدية .

تحت رقم 234 في 58 ورقة . بخط المنوبي الغراتي في رمضان 1326 .

ولم يذكر بروكلمان (الدرة السنية) .

*

*   *

المعلم الرابع من (الدرة السنية) في السيرة النبوية

وسنتحدث فيما بعد عن المعلمين الثاني والثالث عند ذكر آرائه الأصولية والفقهية . ولعل الصورة تبقى ناقصة إذا لم ننقل كلمة عن معلم السيرة النبوية من (الدرة السنية) .

فابن المناصف يرى أن معرفة حوادث السيرة النبوية تلي في الأهمية معرفة كتاب الله .

وإن أولى ما تحلي المسلم ... بعد كتاب الله إذ يقوم
علم بأيام رسول الله ... من لدن النشيء إلى التناهي
وحفظ ما يحق إن لا يجهلا ... من أمره وحاله مفصلا

وجعله هذا الموضوع قرينا للعقائد والأصول والفقه أمر له دلالته الخاصة .

وهو عظيم الحب لرسول الله لا يترك فرصة سانحة تمر دون أن يعبر عما تمتليء به نفسه من هذا الحب والإجلال وبذلك يبتديء هذا المعلم بعد الخطبة :

حب رسول الله فرض أول ... به ندين وبه التوسل
نجله نكبره نعزره ... نفديه بالآباء حين نذكره
وبالبنين وحياة الأنفس ... محله أعلى المحل الأنفس
به هدانا الله ذو الجلال ... من العمي وظلم الضلال

وعندما يذكر بعثة رسول الله يقول :

نشهد لا إله إلا الله ... وأنه رسوله اصطفاه
نؤمن بالله الكريم المجمل ... وبالرسول والكتاب المنزل
ونرتجي فضل الذي به هدى ... أن يحفظ الدين علينا أبدا

وعندما ذكر غزوة أحد قال :

يا ليت أنا قد شهدنا المجلسا ... نبذل من دون النبي الأنفسا

فإن نغب عن نصرة الرسول   إذ لم نكن من أهل ذاك الجيل
فنشهد الله على البدار   بالعز والتأميل والإقرار

ويبلغ به التأثر منتهاه عندما يصل إلى ذكر شكوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما اختار الله تعالى له من كرامته ، والنقل إلى جناته فينظم سبعة وعشرين بيتا يرثي فيها رسول الله ويندب حظ المسلمين بفقده ويختمها بقوله :

حب رسول الله أعلا عددي   خالط لحمي وارتقى في كبدي
يا رب حبا في رضاك فاشهد   واختم لي اللهم ربي وزد
بحبه وحسن عقبي المقتدي   واجعل لي النجاة يوم الموعد

ويعبر عن هذا الحب في كل مناسبة ، فيقول عند ذكر موت أبي طالب :

مات أبو طالب المناضح   عن النبي أبدا والناصح

ويقول :

ثم أبو طالب المحمود   بحبه النبي لا أزيد !

ويعبر عن عواطفه نحو فاطمة الزهراء البتول بنت رسول الله وولديها الحسنين ريحانتي الرسول وأبيهما علي ابن أبي طالب الذي يهتم بتعداد فضائله وبطولاته من غير أن يعتبره وصيا أو معصوما أو أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر كما يشيد بنصرة الأنصار لرسول الله .

وهو يهتم بأخبار الرسول وتفاصيل أحواله ويشيد بكمالاته الخلقية ومزايا الدعوة الإسلامية ولا يقتصر فقط على ذكر المعجزات والخوارق والغيبيات .

9 ـ (مقالة في الإيمان اللازمة)

نسبها له ابن عبد الملك المراكشي أثناء ترجمته له.

10 ـ قصيدة ختم آخر كل شطر من أشطار أبياتها

بكلمة (العجوز) مستعملا كل مرة في معنى من معانيه غير المعنى السابق .

ذكر الشيخ مرتضي الزبيدي في (تاج العروس) عن شيخه العلامة ابن الطيب الشرقي الفاسي . أنه كان رآها ، ووصفها بالانسجام وكثرة الفوائد .

ثم أورد في (التاج) البيتين الأولين منها ، ثم قال : من أدركها فليلحقها . (ج 4 ص 52 مادة عجز)

11 ـ كتاب (الإنجاد ، في أبواب الجهاد ، وتفصيل فرائضه وسننه وذكر جمل من آدابه ، ولواحق أحكامه) .

ذكر المؤلف في مقدمته أنه ألفه استجابة لاقتراح الأمير المجاهد في سبيل الله ، أبي عبد الله بن أبي حفص ، بن أمير المؤمنين ، يعني عبد المومن بن علي الموحدي .

وذكر ابن عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكملة) : أن ذلك كان أيام ولاية أبي عبد الله بن أبي حفص ببلنسية وابن المناصف قاض بها .

ونحن نعلم أن أبا عبد الله ولي بلنسية سنة خمس وستمائة لابن عمه أمير المؤمنين الناصر لدين الله بن المنصور الموحدي ، الذي جرت بينه وبين الاسبانيين حروب عديدة منها غزوة العقاب التي انهزم فيها هزيمة شنيعة في خامس عشر صفر تسع وستمائة .

وذكر ابن الآبار في (التكملة) أنه لقي المؤلف في بلنسية عندما كان قاضيا بها واستجازه فأجاز له لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة ثمان وستمائة .

ذكره ابن الآبار ، وقال أنه ظهر فيه علمه وبان تقدمه .

وقال أبو الحسن الرعيني في (برنامج شيوخه) ": وكتابه في الجهاد من أجل الموضوعات ، نفعه الله به .

وذكر أن ابن المناصف أهداه إلى تلميذه المحدث الناقد أبي الحسن ابن القطان ، وحمَّله إياه .

وقال بعد ذكره وذكر (المذهبة) و(المعقبة)" : وكل ذلك مما يرز فيه ، وأبان به عن معرفته ورسوخه .

وقال عنه ابن عبد الملك المراكشي : وهو مما ظهر فيه حسن اختياره . وجودة نظره ، وصحة فقهه واستنباطه ، وقفت منه على نسختين بخطه المشرقي .

وقال عنه أحمد بابا : وهو كتاب مفيد ، استوعب فيه فقه الجهاد ، مع حسن اختياره ، وإتقان تأليفه ، لم يؤلف في بابه مثله .

وذكر عبد العزيز الملزوزي في (نظم السلوك) أن كتاب (الإنجاد) كان من بين الكتب التي كان يدرسها أمير المسلمين أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ـ الذي ملك فيما بين سنة سبع وخمسين وستمائة وسنة خمس وثمانين وستمائة . ـ حيث قال (ص 77 ـ 78) :

يقرأ أولا كتاب السير والقصص الآتي بكل خبر

ثم (فتوح الشام) باجتهاد وبعده المعروف (بالانجاد)

وقد ورد البيتان في (الأنيس المطرب بروض القرطاس) فاس ص 215 وفي (الذخيرة السنية) ص 101 .

وفي القرن الحادي عشر الهجري (17 م) نجد كتاب الإنجاد) من بين مصادر كتاب (فلك السعادة ، الدائر بفضل الجهاد والشهادة) الذي ألفه للحض على تحرير سبتة ومليلية وغيرهما من المدن التي كانت محتلة من المغرب ، ، العالم الفقيه المتفنن الصالح المصنف أبو محمد عبد الهادي بن عبد الله بن علي بن طاهر الحسني السجلماسي نزيل المدينة المنورة ودفينها ، ولكنه لم يسم الكتاب وإنما اكتفى بالنقل عن مؤلفه .

ولم يذكره صاحب كشف الظنون ولا البغدادي في ذيليه (إيضاح المكنون) و (هدية العارفين) كما لم يذكره بروكلمان

وقد طال بحثي عن كتاب (الإنجاد) سنوات عديدة ، إلى أن عثرت على نسخة منه في حالة سيئة بمكتبة ابن يوسف بمراكش ، وهي النسخة الفريدة المعروفة منه لحد الآن ـ فأحضرتها لقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط حيث وقع ترميمها وتجليدها وأخذ صورة منها على الشريط ، ثم أرجعتها إلى مكتبة ابن يوسف بمراكش حيث هي الآن .

وتقع هذه النسخة في خمس وخمسين ومائة ورقة من الحجم الكبير ، بخط مغربي جميل .

وهي نسخة أمر بنسخها الخليفة الإمام الواثق بالله المعتمد عليه ، أمير المؤمنين أبو العلاء ، بن الأمير المجاهد في سبيل الله أبي عبد الله بن المجاهد في سبيل الله أبي حفص ، بن الخليفة الإمام أمير المؤمنين .

وكان كمالها في عاشر جمادى الأولى ، وأكلت الأرضة بقية التاريخ .

وأبو العلاء هذا هو إدريس المعروف بأبي دبوس ، آخر ملوك الموحدين ، الذي ملك مراكش من المحرم سنة خمس وستين وستمائة ، إلى المحرم سنة ثمان وستين وستمائة .

وهو ولد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ، الذي أشار على أبي عبد الله ابن المناصف بتأليف الكتاب

وعلى أول النسخة تحبيس يظهر أنه مريني على المدرسة بقصبة مراكش ، وتحبيس على ضريح أبي العباس السبتي مؤرخ برابع وعشرى جمادى الآخرة عام ثمانية وخمسين ومائة وألف .

وكان الشيخ عبد الحي الكتاني قد وقف على هذه النسخة بالخزانة العباسية ، قبل نقلها لمكتبة

ابن يوسف ، حسبما ذكره في الترجمة التي كتبها لابن المناصف أول نسخته من (الدرة السنية) قال : ولم أره بغيرها .

*

* *

موضوعاته

وقد تكلم فيه على حد الجهاد ووجوبه ، وتفصيل أحكامه ، وحكم الهجرة . وعلى فضائل الجهاد ، والرباط والنفقة في سبيل الله ، وما جاء في طلب الشهادة .

وعلى شرط صحة الجهاد ، وما يحق فيه من طاعة الإمام ومياسرة الرفقاء ، وما جاء في آداب الحروب ، والدعوة إلى القتال.

وعلى وجوب الثبوت والصبر عند اللقاء وحكم المبارزة ، وما يحرم من الانهزام ، وهل يباح الفرار إذا كثر عدد الكفار ؟

وعلى ما يجب وما يجوز أو يحرم من النكاية في العدو والنيل منهم ، ومعرفة أحكام الأسرى والتصرف فيهم .

وعلى الأمان وحكمه ، وما يلزم من الوفاء به ، والفرق بينه وبين مواقع الخديعة في الحرب ، وهل تجوز المهادنة والصلح .

وعلى الغنائم وأحكامها ، ووجه القسم ، ومن يستحق الإسهام ؟ وبم يستحق ؟ وسهمان الخيل ؟ وما جاء في تحريم الغلول .

وعلى النفل والسلب ، وأحكام الفيء والخمس . ووجوه مصارفهما وتفصيل أحكام الأموال المستولى عليها من الكفار .

وعلى حكم ضرب الجزية ، وشرط قبولها ، وممن يحق أن تقبل من أصناف الكفر ؟ ومقاديرها على الرؤوس وما يجب لأهلها وعليهم .

وعلى المرتدين ، والمحاربين ،وقتال أهل البغي ،وتفصيل أحكامهم وذكر ما يتعلق بجناياتهم ، ويلزم من عقوباتهم .

ويتجلى من هذا العرض أن هذه الموضوعات التي تناولها المؤلف تتصل :

بالعلوم القرآنية : من تفسير ، وأسباب نزول ، وناسخ ومنسوخ وفقه القرآن .

وبالعلوم الحديثية : من نصوص الأحاديث ومخرجيها ، وتأويل مختلف الحديث ، وفقه الحديث ، وفضائل الأعمال ، والوعظ والإرشاد .

وبالدراسات الفقهية : من أصول الفقه ، والخلاف العالي المعبر عنه بالفقه المقارن ، والقانون الدولي ، العام والخاص ، والقانون العسكري ، والمالي .

*

*   *

ونسب له خير الدين الزركلي في (الأعلام) (7 ـ 114) :

كتابا في أصول الدين .

وآخر في السيرة النبوية .

ويظهر أنهما قسمان من (الدرة السنية) السابقة الذكر .

ونقل القاضي عباس ابن إبراهيم المراكشي في (الإعلام . بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام(ج 3 ص 97) عن نفح الطيب قول ابن مسدى :

أملى علينا ابن المناصف النحوي بدائية ، على قول

سيبويه : (هذا باب ما الكلم العربية) عشرين كراسا، بسط القول فيهافي مائة وثلاثين وجها .

متوهما أن المراد أبو عبد الله ، مع أن ابن المناصف النحوي هو أخوه أبو إسحاق إبراهيم ،وهو الذي كان قاضيا بدانية ، وتوفي قاضيا بسجلماسة .

وقد ترجمه ابن الآبار والسيوطي في (بغية الوعاة) (ص185)

ونسب له العشرين كراسا المذكورة .

ومن الغريب أن عباس ابن إبراهيم ترجم لأبي إسحاق هذا في الجزء السادس الذي ما يزال مخطوطا من (الإعلام) (ص 264 نسخة خاصة) ناقلا عن ابن الآبار ، ولم يسمه بابن المناصف ، ولم يشر إلى أنه أخو أبي عبد الله ، كما لم ينسب له العشرين كراسا !

هذا وقد روى أبو عبد الله محمد بن عبد الملك القيسي المنتوري المتوفى سنة 834 في (برنامج مروياته) تآليف القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى بن أصبغ ابن المناصف الأزدي القرطبي ومنظوماته بسنده إلى مؤلفها .

*

*　　*

الحالة الفقهية على عهد ابن المناصف

وقبل بيان منهجه في (الإنجاد) و (الدرة السنية) وإيراد أمثلة في اختيارات المؤلف الأصولية والفقهية نشير إلى الحالة الفقهية في عصره .

فمن المعلوم أن الغرب الإسلامي ، في المغارب الأدنى والأوسط والأقصى وما والاها من الصحراء الكبرى وما يقع

جنوبها من الأقطار الإسلامية وإلى الأندلس كلها ، قد تمسك فقهاؤه وقادة الرأي فيه بالمذهب المالكي ونبذوا ما عداه من مذاهب الفقهاء المسلمين من سنيين ومبتدعين ، وخاضوا معارك فكرية عنيفة في هذا السبيل ضد السلطة القائمة أحيانا ، ومعها وبتأييدها أحيانا أخرى .

وقد قامت الدولة الموحدية ـ التي ولد المؤلف ونشأ وعاش في عهدها ـ على أساس الدعوة إلى العمل بالحديث النبوي ومحاربة فقه الرأي ، والتقليد المذهبي ، وفي عهد المؤلف أحرق الموحدون كتب الفقه المالكي ، وامتحنوا فقهاء المالكية واضطهدوا بعضهم ، ويقال أن خلفاء الموحدين كانوا يتجهون ، في نطاق العمل بالحديث ومحاربة الرأي اتجاها ظاهريا حزميا ، وقد عرفت هذه المنطقة على عهدهم جماعة من المحدثين الظاهريين .

ذكرت منهم في كتابي (طبقات المجتهدين وأعداء التقليد في الإسلام) ممن عاصروا ابن المناصف ممن هم أكبر منه سنا أو أصغر حوالي ثلاثين شخصا .

منهم أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن الموحدي (ت 550 هـ) صاحب المحادثة الشهيرة مع أبي بكر ابن الجد ، التي أوردها عبد الواحد المراكشي في المعجب. والتي قال فيها لابن الجد : والله ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ، وأشار إلى سنن أبي داود ، أو السيف !

وولده أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب المنصور بالله (ت 595) الذي أمر برفض فروع الفقه ، وإحراق كتب المذاهب ، وأن الفقهاء لا يفتون إلا من الكتاب والسنة النبوية ، ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والاجماع والقياس .

وامتحن جماعة من الفقهاء اتهموا بإقراء الفروع منهم أبو بكر الجياني محمد بن علي بن خلف التجيبي

الإشبيلي (ت 596 هـ) الذي سجن وكاد يقتل صبرا . كما سجن وأخيف أبو الحسين ابن زرقون محمد بن محمد بن سعيد الإشبيلي (ت 621 هـ) واختفى أبو محمد عبد الكبير ابن أبي بكر محمد بن عيسى بن محمد بن بقي الغافقي .

وليعقوب المنصور فتاوي مجموعة حسبما أداه إليه اجتهاده .

ومنهم أبو الوليد ابن عفير : سعد السعود بن أحمد الأموي اللبلي المحدث الحافظ (ت 588 هـ له كتاب حفيل في السنن سماه (السبيل) .

ومنهم قاضي القضاة أحمد بن عبد الرحمن ابن مضاء اللخمي القرطبي (ت 592 هـ) صاحب (الرد على النحويين)

وقاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان التلمساني (ت 601 هـ) الذي مدح المنصور بقطعة. يقول فيها :

قطعتم فروعا قد أضرت بأصلها ! الا هكذا من كان بالعدل يشمل

والقاضي أبو محمد ابن حوط الله عبد الله بن سليمان الأنصاري (ت 612 هـ :القائل)

عليك كتاب الله والسنن التي رواها رسول الله والعدل فالعدل

هما الحق والبرهان والنور والهدى فما لهما عدل ولا عنهما عدل

ودع عنك آراء الرجال فما لمشتر بها بدين الله صرف ولا عدل !

والقاضي أبو الحسن ابن خطاب علي بن عبد الله المعافري الإشبيلي (ت 629 هـ) .

وأبو العباس ابن الرومية النباتي أحمد بن محمد الأموي الإشبيلي المحدث الحافظ صاحب المؤلفات العديدة (ت 637هـ) .

وأبو علي الزبار : عمر بن أحمد الأنصاري الطرياني (ت 637 هـ) اختصر صحيح مسلم وأضاف إليه زيادات البخاري .

وأبو بكر ابن سيد الناس اليعمري محمد بن أحمد الإشبيلي دفين تونس (659 هـ) .

وقد عرف الفكر الإسلامي وخصوصا في الغرب الإسلامي صراعا عنيفا حول الأشخاص ، فقد كان مقلدة المالكية يركزون على (مناقب) الإمام مالك مثلا وأحقية مذهبه بالاتباع ، مع التأكيد على أن الأمر قد استقر على التزام (تقليد) مذاهب معينة لا مجال للتفكير في الخروج عنها أو مخالفتها ، وإنما المجال الوحيد الباقي هو المفاضلة بينها والنتيجة المحتومة التي لا محيد عنها لهذه المقارنة هي أفضلية (المذهب) المالكي وأحقيته وحده (بالتقليد) والاتباع ، مثل ما نجد عند القاضي عياض في مقدمة (ترتيب المدارك) ، بينما كان أعداء التقليد المذهبي من أنصار الحديث مثل ابن حزم وأتباعه ينكرون ادعاء القول بعصمة أحد غير الأنبياء كائنا من كان ، ويلحون على تكامل الفكر الاسلامي السني وإمكانية إصابة أي مجتهد أو خطئه ولذلك كان كثير من فقهاء المالكية يغالون في الطعن في ابن حزم والنيل منه في إقذاع وفحش متناهيين في كثير من الأحيان ، بينما يغلو بعض أنصار ابن حزم من جهتهم في تقديسه وتعظيمه ، وكانت هذه المعركة على أشدها على عهد ابن المناصف .

وقد درس ابن المناصف فقه الرأي المالكي على أعلامه ، حتى صار مبرزا في معرفة الشروط ، بصيرا بعللها ، وكان شديد العناية بكتاب التلقين جيد النظر في فقهه ، وتبيين غوامضه ، كما قدمنا .

كما روى الحديث عن أعلامه ، ومن بينهم أبو الخطاب ابن(دحية الظاهري) .

آراؤه الاصولية والفقهية

وفي ضوء هذا الجو الفكري الذي نشأ فيه ابن المناصف وتعلم وتكون ، نحاول التعرف على آرائه الخاصة .

ولما كانت الاختيارات الفقهية نتيجة لاختيارات أصولية سابقة ، فمن الضروري التعرف أولا على بعض اختياراته الأصولية التي نجدها في المعلم الثاني من (الدرة السنية) .

1 ـ فخبر الآحاد ـ وإن كان لا يفيد علما ضروريا ـ فإن الله تعبد العباد به ، خلافا لمن أحال التعبد به عقلا ، ولمن منع التعبد به شرعا .

2 ـ والإجماع حجة قطعية ، بظواهر الآيات الكثيرة ، والأحاديث المتواترة المعنى .

3 ـ ولا يقدح في الاجماع خلاف المبتدع الكافر ببدعته ، أما إذا كانت بدعته لا تؤدي به إلى الكفر ، فخلافه قادح في الاجماع .

4 ـ وذهب داود وأهل الظاهر إلى امتناع إجماع غير الصحابة ومذهب الجمهور جوازه في كل عصر :

أما الصحابة فنص قاطع إجماعهم حقا ولا منازع
لكنه يعود كالمظنون

5 ـ وإذا اختلف المجتهدون في مسألة على قولين فلا يجوز إحداث قول ثالث ، خلافا لبعض شذاذ الظاهرية .

6 ـ وإذا لم يجد المجتهد دليلا من قرآن أو سنة أو إجماع اعتمد البراءة الأصلية .

7 ـ وقول الصحابي غير حجة .

8 ـ وقال قوم باتباع المصلحة التي راعاها الشرع في حفظ الدين والأنفس والعقول والأموال .

وبعد ما أورد عدة أمثلة قال : إن بعضها يمكن تسليمه ، وبعضها لا يحسن .

ولكنه عاد فقال : إن الصحيح منع كل ما لا يشهد له دليل الشرع بالتعيين ، وهو القرآن والسنة والاجماع .

8 ـ ويعزي للنعمان القول بالاستحسان .

وأنه يقضي به في حال وذاك قول ظاهر المحال
... وليس الاستحسان أصلا فاعلم ولا له في الشرع من ترسم !

9 ـ وينكر اعتبار العرف والعادة :

إذ لا اعتبار في خطاب الشرع بعادة في الرفع أو في الوضع!

10 ـ وصيغة الأمر تدل على الوجوب ، إلا إن وقع النص على أنها للندب فتصرف إذ ذاك عن الوجوب ، وذلك ما تدل عليه الروايات المستفيضة عن الصحابة ، وعليه جمهور الفقهاء .

وقال قوم : إنها تدل على الوجوب بالوضع أيضا ، وقال آخرون : لا تدل على الوجوب لا بالشرع ولا بالوضع !

والمرتضى عندي هنا في الشأن وجوبه بالشرع لا اللسان

11 ـ وبعدما حكى مذهبين في تعيين اللفظ المشترك في معنييه أو معانيه قال :

والمذهبان في محل النظر والبحث للمجتهد المعتبر

12 ـ وأقل الجمع ثلاثة ، وقد يستعمل في الاثنين مجازا ووهم من قال : أقل الجمع اثنان .

وإنما زل عن الصواب من لم يمارس صنعة الإعراب !

13 ـ والمفهوم ، أو دليل الخطاب ، وهو الذي يفهم نفي الحكم عما عدى الموصوف ، كقوله تعالى : ومن قتله منكم متعمدا ، فتخصيص العمد هل يدل على نفي الحكم عما عداه ؟

وبعد ما ذكر أن الصحيح أنه ليس بدليل ، عاد فذكر أن الناس اختلفوا في ذلك على ثلاث فرق : مثبت وناف ،

ومفصل ، وقال : إن التفصيل هو الأرجح عند النظر ، وهو على أربعة مراتب :

الأولى : ما يستبعد مفهومه ، كالتعمد في قتل الصيد ، وقد قال بالمفهوم في هذه جماعة من كبار الأئمة كمالك والشافعي .

وقال قوم منهم القاضي أبو بكر بن الطيب (الباقلاني) وابن شريح : أن ذكر الوصف لا يقتضي نفي الحكم عن غيره .

وهو الذي يبدو له الترجيح والمسلك المحقق الصحيح

الثانية : الشرط ، وقد ذهب شريح إلى اعتباره ، وذهب القاضي لرفضه : وهو الأصح في طريق العلم !

الثالثة : الحصر بإنما والألف واللام ، وقد أثبته قوم ونفاه آخرون وفصل القاضي أبو بكر بن الطيب فأنكره في الألف واللام ، وقال في إنما : إنها ظاهرة في الحصر ، محتملة للتأكيد .

ومذهب القاضي إلينا أعجب .

14 ـ 15 ـ القياس والاجتهاد

وقد كانت المعركة عنيفة بين أهل الحديث وأهل الرأي وخصوصا على عهد الموحدين ، حول إثبات القياس واعتباره دليلا شرعيا ، أو إنكاره ، وحول الاجتهاد أو تقليد مذهب معين .

ولذلك كان من المهم التعرف على موقف ابن المناصف من المسألتين : فأما القياس فإنه عقد بابا لدلالة الألفاظ من حيث المعنى والمعقول وهو المعبر عنه بالقياس ، ابتدأه بالدعاء للقارىء ليبصر الحق ويتبعه ثم يستعيذ بالله من التقليد بغير برهان ، فهو الذي يورط الإنسان في عمايات الخطأ .

نعوذ بالله من التقليد بغير برهان ولا تسديد

... وطالما استمر خبط الناس في المسلك المعروف بالقياس

واختلفوا فيه اختلافا طبق الآفاق ، ما بين ناف ومثبت :

ففرقة تزعمه واجبا شرعيا قطعيا أو تضيف إلى ذلك وجوبه عقلا أو تدعي الاجماع عليه نقلا .

وأخرى تنفيه نفيا قطعيا بالعقل أو بالسمع ، ويعقب :

وهو كلا القولين في الإفراط جد غلو واجب الإسقاط !

فالعقل لا يستقل بالحكم بالاثبات أو النفي ، وكل ما يستطيعه أن يجوز إمكانه إن ورد به نص عن الشارع .

ولا سبيل إلى إدعاء القطع في المنقول .

كما لا تثبت دعوى الاجماع ، فالنقول مشتهرة باختلاف الصحابة في ذلك ، وإنكار هذا إنكار للمحسوس ، ولا سبيل لتأويل ما ورد عنهم من الخلاف ، ولا مجال لرد خلافهم إلى وفاق ، وكل ادعاء للاجماع على تأويل ما ورد عنهم فهو ادعاء باطل بالقطع .

فبان الاقطع في الوجهين في الدعويين من كلا الصنفين

فهو إذا في مسلك الانصاف ليس بأصل قاطع الأوصاف

حتى يعد رابعا في الباب لأصلي السنة والكتاب

وتلوها المرسوم بالاجماع بل هو في الدعوى إلى امتناع

كلا ، ولا يكون قطعا يبطل لكن له حال عليها يحمل

... ثم كلا القولين باتصاف فممكن : من مثبت وناف

من غير مالوم ولا تحريم في جهتي ذاك على التصميم

فمثل هذا عندنا يحتمل أن يثبت القول به والعمل

بل هكذا إن افتقدت تجد نهج الصحابة فقل واجد

لأنهم لم يحكموا بالفسق في أحد الوجهين عند الفرق

إذ لو بدا فيه الدليل القاطع لكان في الخلاف فسق واقع

وعندما تصفح الأثار … في ذاك والكشف والاعتبار
تعلم كالقاطع في البيان … إن على ذاك مدار الشان

ثم تصدى لذكر مسالك العلة ، فقسمها إلى أربعة أقسام .

منها جلي واضح لا يعترى … فيه على الأنصاف أمر نمتري
... منقسم نوعين في التفصيل … كلاهما متضح السبيل
فالأول الجاري على استعمال … عرف اللسان

مثل الحديث الوارد في تحريم غلول المخيط ، فلا شك أن معناه تحريم غلول ما ينتفع به بدون نزاع .

فمثل هذا لايكاد ينكر … إلا على العناد فيما يظهر

وهو في التحقيق دلالة لغوية

ونوعه الثاني هو التصريح … في الحكم بالعلة والتصحيح
... وجملة الأمر فهذا المسلك … على كلا النوعين حقا مدرك
خطته في رتب المعقول … لا يبتغي بالترك والتعطيل
بل واجب في جنسه يعتبر … أما التخلي عنه فهو (فيه) الخطر

والمسلك الثاني أن يرد النص بالحكم من غير تعليل ولا يتناول الملحق عن طريق المفهوم ، ولكن الملحق والملحق به لا فرق بينهما إلا بما لا تأثير له في الحكم .

فعند ذاك تطرح الفوارق … ويشرك المنطوقفيه اللاحق
... لكنه في مسلك الحقائق … قد لا يسلم انتفاء الفارق
فهو إذا بكل حال يضعف … عن رتبة الأول حين يكشف
وهو ـ على هذا الذي نعتمد … مظنة اجتهاد من يجتهد :
فلا نرى لوما على من ألحقا … بمثله عن اجتهاد صدقا
ولا نلوم فيه من تأخرا … للسبب الذي به الذكر جرى
والمسلك الثالث في التفصيل … ظاهره الدعوى على التعليل
لأنه في ذاك لا يستند … لسبب في اللفظ أو يعتمد

علـى سبيـل الـأصـل فـي معـنـاه

وهـذه دعـوى بـلا تـحـقـيـق : إذ اخـتـلاف الحـكـم والـطـريـق
مُخـرِجـه عـنـه إلـى احـتـمـال لا يُتـعـاطى ضـبـطـه بـحـال

وبـعـد مـا أطـال فـي بـيـان ضـعـف هـذا الـمـسـلـك ذكـر أنـه لايـرى فـيـه إلا اغـتـرارا ، وإن كـل مـا صـح عـن الـصـحـابـة مـن أقـيـسـة لـم يـكـن مـن هـذا الـبـاب .

ولـذلـك فـربـمـا صـح الـقـول بـعـدم تـعـدي الـمـسـلـكـيـن الـأولـيـن .

وبـعـد فـهـو لـيس مـمـا يـقـطـع بـخـطـإ الـذي إلـيـه يـنـزع
لـكـنـه أبـعـد فـي الـغـايـات بـحـيـث نـخـشى در َك الآفـات !

أمـا الـمـسـلـك الـرابـع الـمـقـطـوع بـخـطـئـه فـهـو مـا يـسـمـونـه بـقـيـاس الـشـبـه وهـو الـذي يـعـتـمـد عـلـى اسـتـنـبـاط عـلـة مـظـنـونـة .

إذ لـم تـكـن تـدرك عـيـن الـعـلـة بـواحـد مـن واضـح الـأدلـة

وبـعـد مـا أطـال فـي الـكـلام عـلـيـه خـتـم بـقـولـه :

وجـمـلـة الـأمـر فـهـذا الـمـوضـع مـمـا عـلى الخـطـأ فـيـه نـقـطـع
وأكـثـر الـقـوم أولـى الـأبـصـار الـقـائـلـيـن بـالـقـيـاس الجـاري

كـفـوا عـن الـإقـدام فـي ذا الـمـسـلـك .

ثـم خـتـم الـقـول بـالـتـنـبـيـه عـلـى حـكـمـي الاجـتـهـاد والـتـقـلـيـد اسـتـهـلـه بـقـولـه :

والاجـتـهـاد مـن فـروض الـديـن في طـلـب الـأحـكـام بـالـتـعـيـيـن

ولـكـنـه عـاد فـاسـتـدرك أن تـحـقـيـق هـذه الـفـريـضـة مـتـوقـف عـلـى تـوفـر شـرائـط لا بـد مـنـهـا :

ولـيـس الاجـتـهـاد في الـأحـكـام رتـبـة كـل نـاظـر وسـام
لـكـن عـلـى شـرائـط تـقـدم فـيـه وآلات بـهـا يـسـتـقـدم

أما إذا قصر في الحالات   عن الشروط فيه والآلات
فحقه التقليد والسؤال   فيه لأهل الذكر ليس يالو :

ومن شرائط الاجتهاد عند ابن المناصف التدرب على الاجتهاد بين يدي خبير ماهر :

وليس من أحرز آلة العمل   بناهض في كل ماشاء فعل
حتى يرى الصانع كيف يضع   آلته تلك وكيف يصنع
وكلما شافهه واعتبرا   كان أجل وأتم نظرا
وذاك أمر لا يكاد يخفى   أن العيان قد يفوت الوصفا

ثم يحدد موطن الاجتهاد

والاجتهاد إنما يكون   في كل ما دليله مظنون
أما الذي فيه الدليل القاطع   فهو كما جاء ولا منازع

ثم عقد فصلا في المقلد والتقليد

بدأه ببيان معنى لفظة التقليد فهو قبول القول من غير دليل وإنما ثقة بقائله .

وليس للعلم على التحقيق   في مسلك التقليد من طريق
لكن إذا دل دليل الشرع   عليه ، كان واجبا عن قطع
كمثل ما يلزم في التكليف   من لم يطق علما على التخفيف
إذ كلف الله لمن لا يعلم   سؤال أهل الذكر ، فهو يلزم
وهكذا اجمعت الصحابة   أن له السؤال عما نابه
فينزل العالم في التمثيل   في حقه منزلة الدليل
لكن على المقلد المذكور   نوع اجتهاد وهو في التفسير
تعرُّف منه لحال المفتي   في علمه ، وعدله ، عن ثبت .

وقد نقل الونشريسي في أواخر الجزء الثاني من المعيار (2 ص 394) كلاما لأبي عبد الله المناصف رحمه الله في التنديد بالفوضى الفكرية على عهده ، والتي يظهر أنها نشأت عن الدعوة الموحدية إلى الاجتهاد وإنكار التقليد المذهبي : جاء فيه :

ولقد انتهى الحال اليوم إلى أن ينظر أحد العوام في أوراق من الفقه أو الكلام ، ويقدم على الخوض فيما يهلكه والمستمع منه ، أو يقف على مسائل من الخلاف فيختار منها بحسب ما يوافقه من شتى المذاهب ، ويفيده سوء نظره الكاذب ، ثم يتصدى للقول ، ويطلب الفتوى ، فيقول فيما ليس له به علم : هذا حلال وهذا حرام يفترى على الله الكذب !

قال : ولقد أخبرني غير واحد ، عن رجل من العامة أعرفه الآن ، ممن وقف على كلام بعض أهل الظاهر ، من غير تفهم لمعانيه ولا ملاقات شيخ فيه أنه أفتى الناس ، مجاهرا غير مستتر ولا مستحي من الله تعالى أو مراقب لمن يقيم عليه حدوده ، بأشياء من الفواحش منكرة ...

وعن آخرين يفتون في عظيم النوازل على حسب أغراضهم بما قد سمعوه فلم يفهموه ، أو قاسوه فحرفوه من رخصة قائل ، أو علة ناظر في مذهب من المذاهب الشاذة ، والأقوال الفاذة .

وربما مر بنظره الفاسد في أشباه هذه الأقوال إلى استنباط أشياء لا رأس لها ولا ذنب ، يخرق في بعضها الاجماع !... إلى آخر ما قال .

منهج ابن المناصف في كتاب (الإنجاد) ونبذة الفقه من (الدرة السنية) .

بين ابن المناصف منهجه في تأليف كتابه : (الإنجاد) فذكر أنه توخى فيه أن يكون :

مبنيا على أدلة الكتاب والسنة .

منزها عن شبه التقليد ، وأتباع مذهب بغير دليل . فلذلك التزم في عُمَد أبوابه ، وأصول مسائله ، ذكر ما بنيت عليه من الكتاب والسنة .

وتحرى ـ فيما يكون فيه من ذلك خلاف ـ سوق المشهور

من مذاهب العلماء ، والإشارة إلى مستند كل فريق من وجوه الأدلة ، بأقرب اختصار ممكن .

وأنه - ربما - نبه في مواضع من ذلك على الأرجح عند المؤلف، ووجه الترجيح ، متى أمكن ، ما لم يكن وجه الترجيح داعيا للإطالة .

أما إذا لم يظهر عنده للترجيح وجه ! فإنه يترك القول فيه .

وقد يقتصر تارة في فروع المسائل ، فلا يتعرض في بعضها إلى ذكر الخلاف إما لأن المذكور أظهر دليلا ، وتتبع الخلاف فيه يؤدي إلى التطويل ، وإما لأنه لا يعرف فيه خلافا ، مع أنه يحتمل أن يكون فيه خلاف ، لم يطلع عليه !

وذكر : أن من الأدلة والتوجيهات التي يوردها ما وقف عليه نقلا ، ومنها ما استدل به انتزاعا من أصولهم .
وإن أكثر ما أورده من حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو حجة ثابتة ، لأنه خرجه من الصحيحين البخاري ومسلم ، أو مما هو صحيح من غيرهما .

وإن كان قد يكون في بعضها اختلاف بين أهل الحديث في أثبات القول بصحته ، من أجل اختلافهم في بعض رجال سنده ، - مثلا - إلا أن ما هذه سبيله مما لم يرق إلى الصحة المتفق عليها عندهم فله - مع ذلك - درجة في العلو والحجة عن كثير مما يسامح به بعض أصحاب المذاهب في كتبهم !

ثم رجى أن يكون وقوع هذا النوع - الذي اعتذر عنه - قليلا جدا في كتابه ، وأكثر ما يقع - إن وجد - في أبواب الرغائب والآداب ، وما لا يقع موقع الفصل في الأحكام من الحلال والحرام ، والواجب والمحظور .

ومع هذا ، فقد التزم أن ينسب كل حديث إلى الأصل الذي نقله منه ، كالبخاري ، ومسلم ، والنسائي وأبي داود ، والترمذي ، وغيرهم .

ويقول عن القسم الفقهي من (الدرة السنية) :

لم نبنه على يد التقليد   لكن بالاستدلال والتجويد
منزها في جانب الدليل   عن نازل الآثار والتعليل
فتارة من محكم التنزيل   وتارة من سنة الرسول
لا نأتى صوب الحديث المسند   من الصحيح الثابت المجود
ولم نسامح فيه أو نستهل   سوق الضعيف حجة والمرسل

هذا هو المنهج الذي وضعه المؤلف ، فإلى أي حد وفق في تطبيقه ؟

إننا إذا رجعنا إلى كتاب (الإنجاد) ـ مثلا ـ نجد أن المؤلف :

1 ـ يورد الآيات القرآنية مصحوبة بتفسير غريبها وقد يستشهد على تفسيره بكلام العرب ، وتتجلى في تفسيره ثقافته اللغوية المتينة فهو كثيرا ما يورد المعاني المتعددة للكلمة ، ويذكر المعنى الذي تدل عليه المادة ، واشتقاق الكلمة وصلة المعنى اللغوي بالمعنى الشرعي .

2 ـ ويذكر ما يلزم من أسباب النزول إن اقتضاه المقام .

3 ـ والناسخ والمنسوخ ، إن كان في الآية ما قيل فيه ذلك .

4 ـ ولكنه يحرص على تضييق دائرة النسخ ضمن شروط معينة .

5 ـ ويذكر الاختلاف في تفسير الآية إن كان له تأثير في استنباط ا لاحكام منها .

6 ـ ويورد الأحاديث النبوية ، مسميا راويها من الصحابة ومعقبا بمخرجها .

7 ـ وقد يذكر مرتبتها من صحة أو ضعف .

8 ـ وقد يذكر الراوي المتكلم فيه .

ويعقب كذلك ببيان الغريب والاستدلال عليه من الشعر العربي .

9 ـ وقد يستدل أحيانا بالنظر ، إلى جانب الاحتجاج بالأثر .

10 ـ وربما أشار إلى مراعاة مقاصد الشريعة .

11 ـ ومن الأمور المحببة له قوله باختلاف الأحكام لاختلاف الأحوال .

12 ـ وهو يذكر مذاهب الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب السنية المتبوعة وآراء أصحابهم ، وقلما يشير إلى مذاهب الخوارج والشيعة .

13 ـ معقبا غالبا ببيان حجة كل واحد ووجهة نظره .

14 ـ وقد يلتمس له هو الدليل أو وجهة النظر الممكنة .

15 ـ وقلما ينكر أن يكون لرأي قاله أحد الفقهاء مستند يعتمد عليه وأكثر ما يفعل ذلك مع أبي حنيفة وأصحابه .

16 ـ ويمتاز في عرضه لمختلف الآراء بالنزاهة والتجرد وهدوء الأعصاب ، وعفة القلم ، وتحديد موطن الخلاف وبيان منشئه .

17 ـ وقد نجح المؤلف فيما قصد إليه من التنزه عن شبه التقليد واتباع مذهب معين بغير دليل حيث إنه يدور مع النص الشرعي حيث دار ، ويقول : ((وحيثما وجد دليل من الشرع وجب الانتهاء إليه ، ما لم يرد دليل آخر على نسخه أو تخصيصه ، وما أشبه ذلك من الوجوه التي يجب المصير إليها)) ص 136 .

18 ـ وكثيرا ما يرجح من بين المذاهب والآراء ما يظهر له .

19 ـ وأحيانا يوافق صاحب القول في جزء من قوله ، ويخالفه في جزء آخر .

20 ـ وهو كما يختار من الأقوال ، كذلك يختار في الأدلة والتوجيهات .

21 ـ وهو في آرائه الأصولية أثري يرى القرآن والحديث مصدري التشريع ، ولا بد للاجماع من نص شرعي يستند إليه ، كما لا بد للقياس من نص يشعر بالعلة ، مما يجعله أقرب إلى الظاهرية منه إلى غيرهم ، ولكنه في

الفروع الفقهية التي يتناولها لا يلتزم مذهبا معينا لا يتعداه ، بل تجده يوافق مذهب مالك أحيانا ، ويرجح أحد قولين أو أقوال في مذهبه ، كما قد يخالفه تارة أخرى وقد يوافق الشافعي ، وقد يخالفه وقد يوافق ابن حزم وقد يخالفه ، بل إنه قد يرجح أحيانا رأي أبي حنيفة الذي يخالفه في كثير من الأحيان .

22 ـ وقد يتوقف عن الترجيح إذا لم يتبين له وجه الترجيح .

23 ـ وكذلك يجتهد في وجه الاشتقاق اللغوي لبعض الكلمات الشرعية .

*

*　　*

مصادره

ومما له أهميته الخاصة معرفة المصادر التي ينقل عنها .

والملاحظ أنه كثيرا ما يكتفي بذكر اسم المؤلف ، من غير تسمية الكتاب الذي ينقل عنه .

وهو يورد آيات القرآن ، والأحاديث معزوة إلى مخرجيها ، وأحيانا يذكر اختلاف عباراتها عندهم مما يدل على أنه كانت بين يديه نسخ منها ينقل عنها ، وهي موطأ مالك ، وصحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وسنن أبي داود والترمذي والنسائي والدارقطني وابن هشام في مغازي ابن إسحاق .

وكتب اللغة هي غريب الحديث لأبي عبيد ، ومختصر العين للزبيدي .

وكتب فقه القرآن والحديث والاجماع والاختلاف : أحكام القرآن للقاضي إسماعيل ، وكتاب الأموال لأبي عبيد ، والمحلّى ، ومراتب الاجماع ، لابن حزم ، والمعلم للمازري .

وكتب الفقه المالكي هي : المدونة ، والمعونة للقاضي عبد الوهاب ، وكتاب ابن المواز ، وشرح مسائل العتبية لأبي الوليد ابن رشد .

وينقل كثيرا عن ابن حزم ، وأبي عبيد ، والقاضي عبد الوهاب ، وابن رشد من غير ذكر اسم الكتاب .

وكذلك ينقل كثيرا عن ابن عبد البر ، وأبي بكر ابن المنذر ، والنحاس ، وهو أبو جعفر المفسر ، والباجي ، وأبي الحسن اللخمي وعبد الملك بن حبيب ، وفضل وهو أبو سلمة البجائي ، وكل واحد من هؤلاء له مؤلفات لا نعرف ما نقل عنه منها .

ومما يلفت النظر في هذه القائمة بوجه خاص أمران :

أولهما ـ أن المؤلف الذي يذكر مذاهب المجتهدين في المسائل التي يدرسها لم يكن ينقل آراءهم من مؤلفاتهم أو مؤلفات أصحابهم مباشرة ـ باستثناء المذهب المالكي ، والشافعي والظاهري ـ فليس في هذه القائمة التي أوردناها شيء من مؤلفات الأحناف أو الحنابلة مثلا الذين يورد مذاهبهم كثيرا ، وإنما كان يعتمد على ما ينسبه لهم المؤلفون الذين ذكرنا ، وتلك ناحية ضعف ولا شك ، فمن المعروف أن كثيرا من الأقوال تنسب إلى بعض الأئمة خطأ بسبب عدم التحري في نقلها من المصادر المعتمدة عند أصحاب ذلك المذهب .

وأبو بكر إبراهيم ابن المنذر الذي ينقل عنه كثيرا من غير أن يعين اسم الكتاب الذي ينقل عنه من مؤلفاته . يقول عنه الذهبي أنه كان مجتهدا لا يقلد أحدا ، ولكن التاج السبكي يصر على القول بأنه وإن بلغ درجة الاجتهاد

المطلق فإن ذلك لم يخرجه عن كونه من أصحاب الشافعي المخرجين على أصوله المتمذهبين بمذهبه !
(طبقات 2 ص 126) .

ومن الطريف أن ابن المناصف قد يساير ابن المنذر في ترجيح مذهب الشافعي في مسألة من المسائل ويقول :

وارجح الأقوال عند النظر قول ابن إدريس قضي ابن المنذر !

ثانيهما ـ اشتمالها على كتب فقه الرأي المالكي ، مما يدل على أنها كانت موجودة بين يدي المؤلف ينقل عنها مباشرة . وذلك ما يتنافى مع ما ذكره المؤرخون من أن الموحدين أحرقوا كتب الرأي ، ومع أنهم لم يعطونا تفاصيل كافية عن هذه العملية وكيف كانوا يفرقون بين كتب الرأي وغيرها ، وإذا كانوا يعتبرون أحكام القرآن للقاضي إسماعيل أو المعلم للمازري مثلا كتب تفسير وحديث، فإن المدونة والمعونة والبيان والتحصيل والتبصرة وما ذكرنا معها هي كتب رأي بدون إشكال ، فكيف بقيت موجودة يرجع إليها المؤلف وينقل عنها ويناقش بعض آرائها في كتاب يؤلف باقتراح من أمير موحدي ؟

لا شك أن ذلك أمر يلفت النظر ، ويدل على الأقل على أن عملية الإحراق لم تكن شاملة لجميع أنحاء الأمبراطورية الموحدية الشاسعة ، وليس من الممكن الفرض أن جميع النصوص التي أوردها المؤلف كان يحفظها عن ظهر قلب !

*

*   *

اتهامات مترجميه

وعلى ضوء هذه النتائج التي توصلنا إليها من آثاره ، نعود إلى الاتهامات التي اتهمه بها مترجموه .

1 ـ فقد اتهمه ابن الآبار بأنه لم يكن له علم بالحديث ، ولا عناية بالرواية ، مع أنه قال : أنه سمع من أبي عبد الله ابن أبي درقة ومن أبي عبد الله التجيبي ، وله رواية عن أبيه عن جده ، ولم يعلل إسناده، وأنه استجازه فأجاز له .

وعبارة الرعيني : وعناية بالنظر أغلب عليه من الرواية .

وعبارة ابن عبد الملك : وكان مقلا من الرواية ، ضابطا لما يحدث به ثقة فيه .

وزاد ابن عبد الملك كما تقدم : أنه روى أيضا عن أبي الخطاب ابن دحية .

وأورد ابن عبد الملك ثلاثة وعشرين ممن رووا عنه : منهم الفقيه المحدث الحافظ أبو بكر ابن سيد الناس اليعمري، ومنهم الفقيه الحافظ المحدث المتقن أبو بكر محمد ابن محرز الأندلسي نزيل بجاية ، ومنهم أبو الخطاب محمد ابن خليل اللبلي ، وإن كان ابن عبد الملك لم يذكر ابن المناصف من شيوخه أثناء ترجمته .

قال : وحدثنا عنه من شيوخنا أبو الحسن الرعيني ، وأبو محمد حسن ابن القطان .

وقد رأيناه عارفا بالحديث مفرقا بين ما يصلح منه للاحتجاج به ومالا .

وبهذا يتبين تهافت ما قاله ابن الآبار .

2 ـ واتهمه ابن الآبار وابن عبد الملك بأنه كانت فيه حدة مفرطة ، ونحن لا نجد في آثاره أي أثر لهذه الحدة . بل إننا نجد في كل من الإنجاد والدرة السنية هدوء أعصاب، أين منها ما نجده في كلام ابن حزم أو ابن العربي المعافري مثلا ، وفي النماذج والأمثلة التي أوردناها من كلامه فيما سيأتي ما يؤيد ذلك .

3 ـ واتهمه الرعيني بأنه يقطع نفسه رتبة الاجتهاد ، فإن كان يقصد بذلك توقفه أحيانا عن ترجيح أحد الأقوال

التي يوردها فهذا فيما نرى مظهر من مظاهر التحري والتثبت وترك المجال للمجتهد واحترام آراء المجتهدين .

وإن كان يقصد ضعف وجهة نظره فيما يختاره فتلك دعوى تحتاج إلى تمحيص .

4 ـ واتهمه ابن عبد الملك المراكشي بأنه كان مائلا إلى القول بمذهب الشافعي ، ناصرا له ، مناظرا عليه !

ونحن عند الرجوع إلى آثار ابن المناصف نجده ـ كما قدمنا وكما سيأتي ـ إذا كان يوافق الشافعي أحيانا ، فإنه يخالفه أحيانا ، وليس ذلك شأن الناصر له المناظر عليه .

5 ـ وأما ترجمة أحمد بابا السوداني ومحمد مخلوف له في (المالكية) فلعل مرجعه إلى أنه ـ وإن كان قد خالف في ترجيحه واختياراته المذهب المالكي في كثير من المسائل ـ فإنه لم يصدر منه في حق مالك والمالكية ما من شأنه أن يثيرهم أو يجرح عواطفهم .

وإلا فإن ابن المناصف لم يكن مجتهد مذهب يختار داخل نطاق المذهب وفي دائرة أصوله الخاصة ، بل كان ـ كما يتبين من الأمثلة والنماذج التي أوردناها فيما بعد ـ فقيها مختارا لايلتزم أصول مذهب مالك كما لا يلتزمه في الفروع .

وعلى كل حال ، فهو من باب ما قاله ابن السبكي عن ابن المنذر الذي لم يخرجه اجتهاده المطلق ـ في نظر ابن السبكي ـ عن أن يبقى مع ذلك شافعيا !

*

* *

نماذج وامثلة

1 ـ الفرق بين مايجوز من الخديعة وما يكون له حكم الأمان

عقد المؤلف فصلا في بيان ما يجوز من الخديعة في الحرب والفرق بينه وبين ما يكون له حكم الأمان .

ذكر فيه أن الخديعة المباحة هي كل ما يرجع إلى إجادة النظر في تدبير غوامض الحرب وإدارة الرأي فيه بما يوهم العدو الإعراض عنه والغفلة دونه وما أشبه ذلك من التقدم بكل ما يقع به توهين العدو ، أو تلتمس فيه غرته وإصابة الفرصة منه على وجه لا يوهم الأمان ، ولا يتضمن الإشعار بالأنس إليه على حال .

ثم قال بعد كلام : وليس من ذلك أن يظهر لهم أنه منهم ، أو على دينهم ، أو جاء لنصيحتهم فإذا وجد غفلة نال منهم ، هذا داخل في باب الأمان ، لأن العدو يستشعر منه المودعة والموالفة ويسكن إليه ، والايهام عليه بمثل ذلك لا يجوز ، وهو خيانة كما تقدم .

وبعد ما أورد نكتة الفرق (بينهما) قال : ولتمثيل مسألة تكون بظاهرها من باب الأمان تارة ومن المكيدة الجائز فلعلها تارة ، ولا فارق إلا اختلاف عوارض اطمئنان العدو ، على القانون الذي رسمناه :

وذلك لو أن رجلا من المسلمين أبصر حربيا في جهة ما من بلاد العدو أو غيرها فتظاهر المسلم بالقاء السلاح وأقبل على جهة الحربي مظهرا له أنه رآه فقصده مستسلما أو مستنيما إليه ونحو هذا ، فاطمأن الآخر إلى ذلك ، حتى أصاب المسلم غرته ، فهذا لا تجوز به الخديعة ، وهو أمان .

ولو أنه عندما رآه فعل أيضا من إظهاره الاستنامة ووضع السلاح والإقبال إلى جهة ذلك الحربي مثل ما فعل الأول ،

إلا أنه فقط يظهر أنه غافل عن الحربي ومعرض عن رؤيته بحيث لا يستشعر الحربي أنه رآه فقصده مسالما ، لكن يوهم أنه ما شعر بمكانه ، وأن فعله ذلك فعل المستريح من حالة حمل السلاح إذا أمن في موضع ، ونحو ذلك ، حتى اطمان الحربي لما توهم من غفلة عنه . لا لموادعة استشعر منه ، لكان هذا جائزا ، وهو تورية ومكيدة . لا تتعلق بها خيانة ولا للأمان حرمة ، (ظ 65 ـ 66) .

وهنا تواجه المؤلف قضية قتل كعب بن الأشرف ، وظاهرها جواز قتل من اطمأن إليه بعد إظهار المسالمة والمؤالفة .

ولأهل العلم في ذلك أقوال : منها أن قتل كعب بن الأشرف قد كان وجب بما آذى الله ورسوله وجوب الحدود التي لا تندفع بالتأمين بل يجب إقامتها بكل سبيل ، ويروى نحو هذا أو بعضه عن الطبري ، وقيل انه نقض عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهجاه وسبه وكان عاهده ألا يعين عليه أحدا ، فجاء مع أهل الحرب معينا عليه فوجب أن يغتال كالحكم فيمن نقض وقاتل ، وإليه ذهب المازري وقال : وقد أشكل قتله على هذه الصفة على بعضهم ولم يعرف هذا الوجه .

ثم عقب على ذلك قائلا : ويحتمل عندي أن يقال أنه ـ مع ذلك ـ أمر خاص ، وحكم الله تعالى عدل أذن فيه تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فهو خاص لا يتعدى إلى غيره ، ومما يدل على هذا المذهب ما وقع في الحديث من قوله : إيذن لي فلأقل ، قال : قل ، فأتاه فقال : إن هذا الرجل قد أراد صدقة وقد عنانا ، إلى آخر قوله ، وهذا قول له ظاهر الكفر ولا يحل لمسلم التلفظ به ولا الخديعة في الحرب بمثله إلا أن يأذن الله لأحد بعينه في شيء بعينه كما أذن لهذا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيكون خاصا ليس مما يتعدى بحال ...

ثم قال بعد ذلك : وقد زعم ابن المنذر أن الذي يجوز له أن يقتل غيره هو من لا أمان بينه وبين صاحبه القاتل

ولا عهد وهذا صحيح ، ورأى أن قتل كعب بن الأشرف من ذلك . وفي هذا نظر ، والله أعلم (ـ 60) .

وقد اقتصر المؤلف في (الدرة السنية) على ما قاله المازري حيث قال :

فقتلوه غيلة إذ خانا

ذلك حكم الله فيمن غدرا   وناصب الدين الهدى وكفرا .

*

*   *

2 ـ مراعاة مقاصد الشريعة :

يجب على المكلف الجهاد باللسان ، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزجر أهل الباطل ، والإغلاظ عليهم ، وما أشبه ذلك مما يجب إبداء القول فيه .

وقد قيل : أن ذلك لا يجب إلا أن يرجو في قيامه كف ذلك المنكر ، أما إذا لم يرج كفه فلا يجب عليه إلا تبرعا .

قال ابن المناصف : والأظهر عندي فيهذا الوجه أنه يجب عليه القول وإن كان يائسا من كف ذلك المنكر ، لأن الإنكار فرض برأسه ، لا يسقطه عدم تأثر المنكر عليه ، ألا ترى أن إنكار القلب حيث لا يستطاع الإنكار بالقول واجب ، باتفاق ، وهو لا أثر له في دفع ذلك المنكر ، فكذلك يجب القول وإن لم يؤثر .

وأيضا في إعلان الإنكار ، تقرير معالم الشرع ، فلو وقع التمالؤ في مثل هذا على الترك حيث (لا يرجى الكف والإقلاع لأوشك دروسها . (ظ 4)

ومن ذلك ما ذكره في الشروط التي يلزم أهل الجزية الوفاء بها كعدم الطعن في الإسلام ، وعدم الدعاء لدينهم .

والإعلان بمعالم شركهم في أمصار المسلمين : من ضرب النواقيس ، وبناء الكنائس ، وإظهار الصليب ، وشرب الخمور ، وغير ذلك ، مما لا يحل للمسلمين ـ مع الاطلاع عليه ـ إقراره ، فهذه كلها شروط واجبة لا ينبغي إسقاطها ، ولا ترك العمل بشيء منها ، ولا تحل إجابة الكفار إلى أن يشترطوا إسقاط ذلك عنهم أو شيء منه ، ولا يجب الوفاء لهم به إن التزمه لهم من يعقد على المسلمين ، ممن لعله يجهل ذلك (125 وجه و ظ)

وبعد ما أطال في الاستدلال على ذلك قال : قلت : وأما ما يشترط بعد ذلك عليهم : من تغيير الزي والملبس والهيئة في المركب ، والمنع من التشبه بالمسلمين في مثل ذلك ، فقد يكون هذا من المستحب غير الواجب ، لأن ذلك كله ليس فيه قدح في الدين ، ولا تنقص على المسلمين . (ظ 127) .

3 ـ اختلاف الأحكام لاختلاف الأحوال

اختلف أهل العلم في مقتضى الآيات الواردة بالتشديد في الأمر بالقتال ، فقيل : كان فرض القتال في أول الأمر على جميع المسلمين كافة إلا من عذره الله تعالى ، ثم نسخ ذلك بالكفاية ،

وقال الجمهور : بل كذلك كان فرض القتال على الكفاية من أول الإسلام ، وحملوا ما وقع في ذلك من التشديد والتعميم على أحوال : وذلك إذا احتيج إلى الجميع . إما لقلة المسلمين ، كما كان ذلك أول الاسلام ، أو لما عسى أن يعرض ، أو يكون ذلك خاصا بأهل النفير الذين يعينهم الإمام في الاستنفار ، وإذا لم يكن شيء من ذلك فهو على الكفاية .

وعقب بقوله : ولا نسخ على هذا في شيء من الآيات ، بل هو راجع إلى الأحوال وما يجب في مقاومة الكفار ، وهذا الأرجح والله أعلم ، لأن النسخ لا يصار إليه إلا بتوقيف ،

أو اضطرار لايمكن معه الجمع بين الأمرين ، ويعلم مع ذلك المتأخر ، فيكون هو الناسخ ، وإلا فلا (وجه 7) .

وذكر أن أهل العلم اختلفوا : إذا لم يقبل أهل الحرب في فدية الأسير إلا الخيل والسلاح ، والخمر والخنازير ، ونحو ذلك مما هو محظور ، فأجازه قوم ومنع قوم ، ثم قال :

وكان ينبغي أن يقال : إن إجازة ذلك أو منعه راجع إلى اختلاف الحال : فإن كان ذلك مع قدرة المسلمين على استنقاذهم بالقتال فلا ينبغي الإجابة إليه ، لأنه محرم لم تدع إليه ضرورة ، وإنما يفعل للرفاهية عن القتال وإن كان ليس للمسلمين بهم طاقة جاز ، لقول الله تعالي :

(وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، إلا ما اضطررتم إليه) (ط 59) .

4 ـ الاستدلال بالنظر

قال في (الدرة السنية) بعد ذكر الخلاف في وقت النية للصوم

ومن طريق النظر المسدد نقول : كل عمل مجدد
فالحكم في النية فيه إما تقدم أو اقتران ثما
لأنها إن حدثت من بعد فجزؤه السابق لا يعتد
وهو متى ما انخرمت أجزاؤه عن حدها فباطل إجزاؤه
فالواجب التعيين قبل الفجر لكل صوم ، كل يوم ، فادر
قال به ثقات أهل العلم والمزني قال ، وابن حزم

واختلفوا في توريث ذوي الأرحام ، فأنكره زيد بن ثابت والزهري ومالك ، والشافعي ، والفقهاء السبعة ، وأكثر فقهاء الحجاز .

وورثهم جمهور الصحابة والتابعين ، وعمر ، وعلي ، وابن مسعود ، والقاضي شريح ، ومسروق ، وطاوس ، والشعبي ، والنخعي ، والثوري ، واتفق عليه أهل العراق ، والنعمان

وأصحابه ، وإسحاق ، وأحمد وأبو عبيد ، في جملة من الأئمة المتبوعين وبه يقول الشيعة .

لظاهر القرآن : فيه وردا :	(بعضهم أولى ببعض) شهدا
ومن طريق عبرة المعاني	فهو لهم به دليل ثاني
لأنه في النظر المستصوب	ذو السببين سابق ذا السبب
فسببا الدين وقربى الرحم	أولى به من بيت مال المسلم

*

* *

5 ـ منشأ الخلاف

ذكر الخلاف فيمن خرج للغزو فصده عنه مرض ، أو موت ، أو ضل في طريقه عن الوصول ، وما أشبه ذلك من الأعذار التي لا يكون له فيها اختيار : هل يسهم له مع المقاتلين أو لا ؟ ثم قال :

ومنشأ الخلاف عندي في جميع ذلك والذي ترجع إليه المسائل على تبددها هو :

هل يوجد دليل على أن للقصد والنية أثرا إذا أخذ في الشروع ثم قطعه عن تمام العمل في ذلك أمر غالب لا اختيار له فيه فهل هناك دليل أنه يستحق بذلك صاحبه ما يستحقه بالعمل أو لا ؟ فمن توجه عنده أن ذلك يقوم مقام العمل شرعا وإن لم يكمل ...

فمن سلك هذا المسلك ، وبخاصة في باب الاسهام من الغنيمة ، فإن ذلك يستحقه من قاتل من الجيش ومن لم يقاتل ، والكبير الغناء ومن لا كبير غناء عنده ، والقوي والضعيف على حد سواء ، وفهم بذلك من الشرع سقوط المشاحة في هذا الباب ، رأى أن هذه الأعذار المانعة من الإتمام ، بعد وجود العزم والشروع ، لا يحبط حظهم من السهمان .

ومن لم ير ذلك بحجة أن العمل لا يعادل مجرد النية على الإطلاق .

وهو وإن جعل الشرع للنية حكما فقد جعل لوجود العمل مزية وفضلا ، كما ثبت في الفرق بين مقدار ما يكتب لمن هم بحسنة فلم يعملها وما كتب لمن همّ بذلك فعمل... فكان للعمل مزية وحظ لا يدرك بمجرد النية .

ثم قسم الخارجين في الجيش إلى أربعة :

أحدها لاخلاف ولا إشكال أنه يقسم له : وهو من نوى الغزو وعمل في مشاهد الحرب ، ويدخل في ذلك المريض ، وإن لم يقاتل .

وثانيها لا خلاف ولا إشكال أنه لا حق له .

وثالث لم ينو غزوا فلما حضر القتال قاتل ، فالظاهر أن لهذا سهمه ، وإن كان في ذلك خلاف ، لأنه لما حضر القتال فعمل فيه حصل منه ساعتئذ النية والعمل وذلك حقيقة الجهاد ، ودخل بذلك في جملة من تنسب الغنيمة إليهم ، فكان الوجه أن يسهم له .

ورابع نوى الغزو فانقطع به قبل مشاهد القتال ، فهذا الذي جرى فيه ذكر الخلاف في هذا الفصل ، والذي ترجح إن شاء الله أن لا يكون له في الغنيمة حق إن لم يحضر من مشاهد الحرب شيئا ، ويدخل في ذلك المريض الذي لا يستطيع شيئا من الحضور والتكثير فما فوق ذلك .

فإن شهد هؤلاء شيئا من ذلك ، وإن قل زمانه ، فلهم سهمهم أعني فيما غنم عن ذلك الموطن ،أو كان لذلك الموطن في أسباب اغتنامه أثر .

وذلك أن الذي أثبته الشرع للنيات من الحظ وإدراك بعضها رتبة العمل إنما جاء النص به فيما يرجع إلى ثواب الله تعالى وجزيل ما عنده ، وأما أحكام الدنيا وما يستحق

فيها بالعمل فلم يرد الشرع في شيء من ذلك بأن للمتناوي فيه مثل ما للعامل ، بل لعله مما يستحيل التكليف به لأن الاطلاع على النية لا يعلمه إلا الله عز وجل ...

وأما من فرق من الفقهاء بين الإدراب وما قبله : فأوجب لمن دخل مع الجيش أرض العدو ، وحيث تبتديء الشدة والمخافة أن يسهم له ، وإن صده عن التمام أمر غالب ، ولم يوجب ذلك لمن اعترض قبله فسببه أن الإدراب عنده نوع من مشاهد الحرب التي ينتفع الناس فيها بعضهم ببعض في القوة على التقدم ، فإن الجمع هناك إنما يحملهم على الدخول الاعتداد بمن معهم ، فيكون ذلك سبب الجرأة على الإقدام الذي هو سبب الغنيمة فرأى من ذهب إلى ذلك أن لدخولهم معهم حظا في الإعانة وتسبيبا للمغنم ، فهذا وجه من فرق .

وعلى هذا المسلك والقانون الذي ذكرنا تدور جلمة المسائل المبددة في هذا الفصل عنهم ، ومرجع أسباب الخلاف في ذلك عندهم (87 ـ وجه 90) .

*

*   *

6 ـ التمسك بالدليل

اختلف العلماء فيمن كان من العرب على دين أهل الكتاب : فلهم في نصارى تغلب ثلاثة أقوال :

قول أن حكمهم حكم عبدة الأوثان من العرب ...

وقول ثان أنهم كسائر أهل الكتاب في قبول الجزية وسائر الأحكام .

... وقول ثالث أنه يوخذ منهم بدل الجزية ضعف ما يوخذ من المسلمين في الصدقات في كل نوع من المال الذي تجب فيه الزكاة .

... وممن ذهب إلى هذا الشافعي وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم وجاء مثل ذلك عن عمر بن الخطاب .

ومثل هذا لا يدرك بالاجتهاد والنظر ، فإن لم يكن في ذلك توقيف . ـ وهو مالا يوجد ـ فالمصير إليه شاق !
(ظ 120 وجه 121)

*

* *

7 ـ ترجيح رأي مالك

حكى في (الدرة السنية) الخلاف في قاتل العمد إذا عفى عنه ولي الدم أو افتدى : هل عليه كذلك عتق رقبة مومنة كما في قتل الخطإ ـ وإليه ذهب الشافعي أولا عتق في قتل العمد ، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة :

لأنه نص من الكتاب يختص بالمخطيء في العقاب
... والشافعي قال : كل يجب في العمد فهو القتل فيه السبب
وأنه من باب حكم الأولي ومن نفى أرجح فيه قولا
لأن قتلى الخطا والعمد لا يستوي نظمهما في الحد

فلم يصح فيهما الالحاق

واختلفوا في حد المسروق الذي يجب فيه حد السرقة :

فذهب الحسن البصري والخوارج إلى أنه يجب في سرقة الكثير والقليل على السواء ، وإليه ذهب أبو محمد بن حزم ، إلا في الذهب فلا حد ـ عنده ـ في أقل من ربع دينار .

وقيل : لاحد فيما قيمته أقل من ربع دينار ، وهو مذهب جلة من الصحابة وعصابة من أئمة الهدى ، منهم الليث والأوزاعي والشافعي .

وقال مالك : لاحد في الذهب في أقل من ربع دينار ، أما الفضة فلا حد في أقل من ثلاثة دراهم :

وهو الأسد عندنا المرجح دليل ذاك الخبر المصحح

*

* *

8 ـ الترجيح بين أقوال المالكية

قال ابن القاسم في فرس انفلت من ربه بأرض العدو ، فأخذه آخر فقاتل عليه حتى غنموا ، أو لما شد القوم على دوابهم للقتال عدا على فرس آخر فقاتل عليه فغنموا : أن سهم الفرس في ذلك كله لربه .

وقال سحنون في المتعدي : سهم الفرس له ، وعليه لربه أجر مثله ، إلا أن يأخذه بعد انشاب القتال ، فيكون سهم الفرس لربه .

وكلا القولين للشافعية في استحقاق سهم الفرس المغصوب .

ثم عقب ابن المناصف : بأن قول سحنون غير سديد ، والأرجح ما ذهب إليه ابن القاسم : لأن المتعدي عمل بالفرس على غير وجه الشرع ، فلم يستحق له شيئا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : وليس لعرق ظالم حق ، خرجه أبو داود والترمذي وقال فيه : حسن غريب ، قال أبو الوليد الطيالسي : العرق الظالم الغاصب ، ذكره الترمذي .

وإذا لم يجب ذلك له فيتحمل أن يقال : لا يسهم لذلك الفرس ، لأن المقاتل عليه لا يستحقه ، ومالكه لم يشهد القتال عليه، بناء على أحد القولين : أن لا سهم للفرس حتى يشهد به القتال .

ويحتمل أن يقال : يسهم له ، لأن القتال عليه قد وجد فوجب الإسهام ، وبطل أن يكون في ذلك حق للمتعدي ، فاستحقه مالكه الذي أدخله وأعده لذلك ، وملك منافعه المتعدّى فيها ، كما ذهب إليه ابن القاسم (96) .

*

* *

9 ـ وهو قد يخالف الشافعي أحيانا .

فقد حصل في حكم الفيئ ثلاثة أقوال :

منها قول الشافعي أن فيه الخمس كالغنيمة ، ثم عقب عليه بقوله :

وقد خولف الشافعي في إثبات الخمس في الفيئ ، ونقل قول ابن المنذر : ولعمري لا يحفظ عن أحد قبل الشافعي أنه أوجب في الفيئ خمسا كخمس الغنيمة (110 ـ 111) .

وكذلك رجح في (الدرة السنية) مذهب الجمهور أن الفيئ كله في مصالح المسلمين ، وذكر أن الشافعي خالف بقوله : إن فيه الخمس والباقي لجميع الناس .

وشذ الثوري فقال جميع الفيئ للأصناف التي جعل لها الشافعي خمس الفيئ : لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

والأرجح ، المستعمل ، المشهور هو الذي قال به الجمهور دليله التبث عن الرسول وصحبه الأئمة العدول

وذكر الخلاف في قاتل العمد : هل عليه تحرير رقبة مومنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين مثل قاتل الخطأ وإليه ذهب الشافعي قائلا : إنه من باب أولى ، أولا عتق عليه وبه قال مالك وأبو حنيفة ثم قال :

ومن نفى أرجح فيه قولا

وذكر أن مذهب مالك والشافعي في نكاح الشغار إذا كان فيه مهر مسمى فإنه يصح بمهر المثل .

وقيل : بل العقد حكم الباطل وحكمه الفسخ فلا تماطل
هذا هو الأرجح عند الناظر وهو الذي به يقول الظاهر

وذكر الخلاف في التلفظ بالطلاق بدون نية ، وإن الجمهور قالوا : إنه لغو لا عبرة به ، وقال الشافعي ـ وهو ظاهر المدونة ـ أنه لازم

وكله قول ضعيف تفسده أدلة الشرع ولا تؤيده
من ذاك حكم المحكم الآيات في إنما الأعمال بالنيات

ومن أعتق شقصا في عبد مشترك بينه وبين **غيره** لزمه عتق باقيه .

واختلفوا إذا كان معدما فقيل ، يُلزم العبد بالاستسعاء لتحرير ما بقي منه مملوكا ، ولم ير مالك والشافعي وأحمد وأبو عبيد لزوم الاستسعاء :

وإنما لم يوجبوا استسعاءه لخبر جا أشعر انتفاءه
لكنه في معرض الدليل محتمل أو عرضة التأويل
والنص باستسعائه لا يدفع فهو الصحيح عندنا المتبع

وذكر الخلاف في قصاص الجراحات بين الحر والعبد : فقال مالك وأبو حنيفة : لا قصاص بينهما ! وإنما لهما الأرش .

كلاهما خالف أصل مذهبه ! ...

لأن مالكا يقول : العبد يقتل بالحر ، كذا يعتمد
ولا يرى في قطعه قطع يده للحر فيما افتات من تعمده!
وهو إذا اقتص له وأجرى في النفس كان في الجراح أحرى!
أما أبو حنيفة فالقود على السواء بينهم يعتمد

ثم يرى القصاص في الأعضاء ممتنعا فيه على القضاء
وذاك مالا يشكل التعارض فيه ! ولا يخفى به التناقض

وقال الشافعي : لا قصاص بين الحر والعبد في نفس ولا غيرها

وفيه قول ثالث مجود لا خلل فيه ولا تأود
أن القصاص بينهم سواء تدخل فيه النفس والأعضاء
فيستوي الأحرار والعبيد لا نقص في صنف ولا يزيد
يقتل كل منهما بصاحبه وهكذا الجروح في القضاء به
فالمومنون كلهم أكفاء دماؤهم حرمتها سواء
جاء به السنة والقرآن وقام في الحكم له البرهان
وأيضا الجروح في الكتاب يعمهم في الحكم والخطاب
قال بذاك كله داود وابن أبي ليلى ومن يجيد !

*

*　　*

10 ـ موافقة الظاهرية

نكاح الشغار ـ وهو البضع بالبضع ـ لا يجوز

فإن يكن في صورة الشغار مهر مسمى مع ذاك جار
فمالك والشافعي صححا ذاك لمهر المثل فيما أوضحا
وقيل : بل للعقد حكم الباطل وحكمه الفسخ ، فلا تماطل
هذا هو الأرجح عند الناظر وهو الذي به يقول الظاهر

وذكر الخلاف في مقدار ما يفرض في النفّل ، وهو الزيادة على السهم لبعض الجيش لمصلحة يراها الإمام في ذلك .

فذهب الشافعي إلى أن ذلك راجع لاجتهاد الإمام ·

وذهب جمهور العلماء إلى أنه لا يزاد في النفَل على الثلث .

وذهب أهل الظاهر إلى أنه لا يبلغ بالنفَل سهم راجل إلا أن يكون النفَل لسرية أو أحد ممن ساق غنيمة إلى الجيش فللأمير أن ينفُل من أتى رُبُع ما ساق بعد الخمس في الدخول إلى أرض الحرب وثلث ما ساق بعد الخُمُس في الخروج منها ، لا زائد على ذلك .

وروى عن مكحول وعطاء وإبراهيم أن للإمام أن ينفُل السرية جميع ما غنمت من غير تخميس ، وعامة الفقهاء على خلافه .

وروى عن الثوري أنه قال في أمير أغار فقال : من أخذ شيئا فهو له : هو كما قال .

ثم عقب على ذلك قائلا :

وليس لشيء من ذلك دليل يعتد به ، وأظهر الأدلة رجوحا ما ذهب إليه أهل الظاهر . (106)

*

*　　*

11 ـ وإذا كان يوافق داود وابن حزم أحيانا فإنه كثيرا ما يخالفهما فقد أجمعوا على وجوب الزكاة في الزبيب :

حاشا خلافا شذ في الزبيب　　يعرفه ذو البحث والتنقيب
أسقط ذاك بعض أهل العلم　　منهم أبو محمد ابن حزم

واتفق العلماء على أن الجهاد واجب على الكفاية ، وشذ داود فقال بوجوبه على الأعيان مرة في العمر .

وذاك قول غير ذي تحصيل .

وذهب الجمهور إلى أن المحصن الذي يلزم قاذفه الحد هو : المسلم الحر البالغ ، العاقل ، العفيف عن الزنا .

وأوعب الاطلاق عند الحكم فيه أبو محمد ابن حزم
... وذاك قول شذ في التحصيل وما أرى عليه من دليل
لكن دخول العبد في الاحصان أولى إذا كان على الإيمان
وفي دخول البالغ المجنون عندي محل نظر مكين

واختلفوا فيما جنى المجنون والصبي ، فقيل أنه جُبَار .

وكان ممن قاله ابن حزم وهو بعيد عند أهل العلم !

وذهب ابن حزم إلى أن من تعدى على عبد فيما دون النفس فعليه القصاص حقا للعبد وعليه لمالكه قيمة ما انتقصه منه .

وشذ أيضا عند أهل العلم قول أبي محمد ابن حزم

واتفق الجمهور على أن الجزية لا تفرض على النساء والصبيان ، ولا على العبيد ، إلا على الرجال الأحرار البالغين ، روى ذلك عن مالك وأبي حنيفة والشافعي وأبي ثور وغيرهم . قال أبو بكر ابن المنذر : لا أحفظ عن غيرهم خلاف قولهم .

وقال أبو محمد ابن حزم : الرجال والنساء والأحرار والعبيد في كل ذلك سواء . واستدل على ما ذهب إليه من ذلك بعموم قول الله تعالى : قاتلوا الذين لا يومنون بالله ولا باليوم الآخر - إلى قوله : من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية -

وفي الاستدلال بذلك على إدخال النساء في هذا العموم نظر : لأن الصيغة موضوعة للذكر ، وإنما يدخل النساء في صيغة الجمع المذكر بحكم التبعية وتغليب التذكير ، فهو يفتقر إلى ما يدل عليه ، بل لو سلم أن الصيغة بأصل الوضع عامة في المذكر والمؤنث لكان

خروج نساء الكفار من القتل والقتال معلوما من الشرع ، فعموم الآية هنا لا يتناول النساء على كل حال ، وأما العبيد فالعموم صالح فيهم . (ظ 122 ـ ج 123) .

وورد الحديث الصحيح بقتل السكران في المرة الرابعة ، فأخذ شواذ من أهل العلم بهذا الحديث ، منهم ابن حزم .

وذهب جل أهل العلم والتحقيق إلى أنه منسوخ بحديث أنه جيئ للنبي صلى الله عليه وسلم برجل المرة الرابعة فضربه ولم يقتله، وحديث ابن عمر : لا يحل دم امريء مسلم إلا بإحدى ثلاث

وجملة الأمر أن الدماء حرمتها عظيمة .

فكان حكمها مع الإشكال توقفا عنها بكل حال

*

* *

12 ـ وقد يوافق أبا حنيفة أحيانا

ففي عتق من وقع ملكه من ذوي الأرحام خمسة أقوال قال أبو حنيفة : كل ذي رحم وقع عليه الملك من ذوي رحمه فهو عتيق .

والأرجح الذي له برهان هو الذي قال به النعمان

وذكر الخلاف في قتل المقر بوجوب الصلاة الممتنع من أدائها وقال :

وقيل : بل لا يستباح قتلا إن كان بالاسلام قد تحلى
لكنه يوجع ضربا إن أبى حتى يتوب ويوالي أدبا
فالمومن الايمان واق لدمه إلا بقتل أو زنى أو عدمه (ردته)
جاء به حديث عبد الله وعائش زوج نبي الله

وذاك مروي عن الزهري وغيره في السلف المرضي
وقاله النعمان في أصحابه معتبر الواضح من صوابه
وهكذا قال به داود وهو الذي القول به سديد
والبسط في الترجيح قد يطول يكفيك إن لم يقضه التنزيل
ولا أتى نصا عن الرسول ولا بدا في واضح الدليل
وكل ما احتج به المخالف فهو بتأويل ، أباه العارف
يرده الأصل ونص الخبر وقد أشرنا آنفا للأثر

ورجح قتل الحر بالعبد وفاقا للنعمان وأهل الرأي وأهل الظاهر وخلافا لمالك والشافعي وأحمد .

وورد النهي عن بيع الثنيا

واتفق العلماء على منعه في الكثير ، وأجازه مالك في الثلث فما دونه .

ومنع الجمهور في الجميع في القل والكثر بلا تنويع
والمنع في الإطلاق حكم الشارع عند أبي حنيفة والشافعي
حسبما دل عليه النهي مالا مريء من دون ذاك رأي
وجملة الأمر فكل ثنيا لم يك في الشرع عليها فتيا
تخص من عموم نهي الخبر فهي على المنع به واختبر

*

*   *

13 ـ وأما أبو حنيفة فهو كثيرا ما يخالفه :

واختلفوا في عمل التثويب أعني الذي في الصبح من تعقيب

ـ أي قول المؤذن الصبح : الصلاة خير من النوم ، مرتين

فذهب الجمهور لاستحبابه وقال قوم : ليس من آدابه
وكرهوه منهم النعمان وغيره وما لهم برهان
لأنه قد سنه الرسول فقام للقول به الدليل

وقال في اشتراط النصاب لوجوب الزكاة :

وشذ قوم ها هنا فذكروا ـ منهم أبو حنيفة وزفر :
إن جميع فائد النبات ليس له النصاب في الزكاة
وإنها تجب في القليل وفي الكثير دون ما تفصيل

وذكر الخلاف في وجوب الزكاة في الخيل وفي العسل

فذهب الجمهور إلى عدم وجوب الزكاة في الخيل وأوجبها فيها أبو حنيفة .

وقال جماعة من أهل العلم بوجوب الزكاة في العسل ، منهم الزهري والثوري ، والأوزاعي ، وأبو حنيفة ، وأصحابه ، وإسحاق ، وابن حنبل ، وابن وهب :

وربما روى الذين وصفوا فيها الزكاة خبرا يضعف
فلا يصح ذاك في الدليل عند أولى الاتقان والتحصيل
لذاك ما أسقطه الجمهور ممن سواهم وهو المشهور
وخالف الجم الغفير زفره فقال : يجزي ، وهو قول منكر !

ومن أركان الصيام النية

وذكر الخلاف في وقت النية ، فقال أبو حنيفة تجزيء قبل الزوال : وذاك قول ليس بالمرضى

وفي اليمين :
وقال أهل الرأي قولا يضعف : إن على المكره حنثا يوصف
وذاك قول ماله برهان بل هو مما قد عفي القرآن

وذكر بطلان نكاح الشغار وفسخه .

للنهي فيه الثابت المشهور وهو اتفاق الأكثر الجمهور
وخالف النهي أبو حنيفة وتلك منه عادة معروفة !

وأجاز الجمهور المساقات لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل خيبر ، وخالف النعمان فلم يجزها :

وهو شذوذ قد جرى في فعله على كثير من بناء أصله !

وأجاز مالك والشافعي هبة المشاع

ورده النعمان فيما ذهبا ... وذاك تقصير في الاعتبار ...
ثم هو النعمان قد تناقضا في قوله ذلك عندما قضى
لأنه أجاز في المشاع شراءه والقبض للمبتاع

وذكر أن كل ما أسكر فهو خمر ودليل ذلك من المنقول والمعقول ، ومن قال ذلك ، وقيل أنه مقصور على عصير العنب .

وهو الذي قال أبو حنيفة والوهم منه سمة معروفة !
وانعقد الاجماع غير نكر في الخمر تحريما وفعل السكر
من كل شيء من نبيذ كانا أو غيره فلتعرف الأركانا

*

* *

وقال بالاعجوبة الطريفة جماعة منهم أبو حنيفة
أن يقتل المسلم بالذمي وذاك قول ليس بالمرضي

واتفقوا على القصاص في الجروح بين الرجال ، واختلفوا هل كذلك بين الرجال والنساء ، وإليه ذهب مالك والشافعي

وهكذا قال به الجمهور وهو الصحيح الثابت المشهور
لظاهر العموم مما قد ورد ولاستواء النفس في باب القَوَد
وخالف النعمان حكم الظاهر ومسلك القياس في البصائر
فانكر القصاص في الاعضاء وقد قضى في النفس بالامضاء

وذهب الجمهور في جنايات العبيد بعضهم على بعض إلى القصاص بينهم في النفس وسائر الاعضاء ، وهو قول مالك والشافعي .

وأسقط النعمان فيما اعتمدا أمر الجراح ، وأقر القودا
وهكذا بدون (كذا) ضبط مذهبه لو كان عن أصل صحيح دربه

يقضي لهم بالقود السواء ويمنع القصاص في الاعضاء !

*

* *

وشذ قوم ها هنا فذكروا منهم أبو حنيفة وزفر
إن جميع فائد النبات ليس له النصاب في الزكاة
وإنها تجب في القليل وفي الكثير دون ما تفصيل

*

* *

واختلفوا في عاقد الايمان يخالف العقد على نسيان
فالشافعي قال : ليس يحنث ومالك رآه حنثا يحدث
والوجه أن لا حنث في النسيان لظاهر السنة والقرآن
واتفقا في أنه أن أكرها عليه أن لا حنث فيه منتهى
وقال أهل الرأي قولا يضعف أن على المكره حنثا يوصف
وذاك قول ماله برهان بل هو مما قد عفى القرآن

*

* *

وورد الأمر بالعقيقة ، فاختلف في وجوبها أو سنيتها

وخالف الجماعة الموصوفة برأيه الشيخ أبو حنيفة
فقال : تلك بدعة لم تشرع فجاء بالبدع ونكر أشنع
خالف جهرا ثابت الأخبار والعمل المشهور في الأمصار
وذاك ما لم يختلف في نقله عن الرسول قوله وفعله
فقر شرعا ثابتا في الباب وإنما الخلاف في الايجاب

*

* *

وورد النهي عن نكاح الشغار

وخالف النهي أبو حنيفة وتلك منه عادة معروفة !

*

*   *

وصح الحديث البيعان بالخيار ما لم يتفرقا :

فقال أهل العزم والاحتقاق : لا ينقضي إلا بالافتراق

... ومالك قال وأهل الرأي : قولا ينوؤون به عن لأي ؟

قالوا : يتم العقد بالتراضي من غير فرقة فذاك ماض

وهو خلاف الأثر الصحيح وليس يخفى مسلك الترجيح

هذا ، وإن كانت لهم أعذار ليس بها يحسن الاعتبار !

لأنها الخروج في التأويل عن ظاهر الحكم بلا دليل .

وقال أهل الرأي بشفعة الجار :

وذاك قول ليس بالسديد

لأن في الصحيح ذا مردود جاء إذا وقعت الحدود

قال : فلا شفعة فهو نص يعيي به الخلاف أو يغص

*

*   *

وأجاز الجمهور عقد المساقات لفعل النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل خيبر ، وخالف النعمان فلم يجزها .

وهو شذوذ قد جرى في فعله على كثير من بناء أصله !

اختلف العلماء في سهم ذي القربى بعد النبي صلى الله عليه وسلم اختلافا كثيرا تحصل إلى أربعة أقوال :

قول أنه باق لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم بعده ، وهو قول مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأحمد وأبي ثور وأهل الظاهر وغيرهم وهو الصحيح .

وبعد ما استدل لهذا القول بالقرآن والحديث ، وأورد الخلاف في تعيين القرابة وما احتج به كل واحد قال :

وقول ثان : سهم ذي القربى هو بعد النبي صلى الله عليه وسلم لقرابة الإمام ، روى ذلك عن الحسن البصري وقتادة .

ولا مستند لهذا القول . إلا ما لعله أن يتوهم في قوله تعالى : ولذي القربى ، إن ذلك يجري في كل من له الأمر على المسلمين ، لا يختص بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك بعيد !

ثم أورد قولا رابعا أن يرد سهم النبي صلى الله عليه وسلم وسهم ذي القربى على الاصناف الثلاثة الباقين ، وهو مذهب أبي حنيفة قال : وهو بعيد ، لا دليل عليه (117) .

*

*   *

14 ـ وأحيانا يختار التفصيل في المسألة المختلف فيها

فقد ذكر الخلاف في شركة الوجه ، وهي أن يشتريا في ذمتهما وإن مالكا والشافعي منعاها ، وأباحها النعمان وسفيان واسحاق واحمد ثم قال :

وجملة الأمر الذي نراه ... تفصيل ما يبني له معناه
فإن يكن ذاك على الضمان ... في حظه وفي النصيب الثاني
ولم يكونا حضرا جميعا ... لعقده ، فذا نرى ممنوعا
لأنه مضمن الغرر ... وليس يخفي في وجوه النظر
وإن يكن ليس على الكفالة ... أو كان ، لكن حضرا الشرا له
فذاك في الحضور لا إشكال ... وهو مع الغيبة قد يقال
بأنه يكون كالتوكيل ... فالظاهر الجواز في التحصيل

*

*   *

15 ـ وهذه أمثلة لاختياره في الاشتقاق اللغوي لبعض المصطلحات الشرعية :

قال في باب الجنائز :

وأهل الاشتقاق فيما ذكرا   من جنز الشيء إذا ما سترا
فالميت المدرج في الاكفان   يستر محجوبا عن العيان
وجائز عندي أن يكونا   الأصل فيه كله يعنونا
من جُنز الشيء : إذا ما جمعا   فافهم وكن ممن إذا قال وعى
لان نفس من يموت تجمع   في موقف فيه النفوس جمع
وهو لما جمعت جوارحه   عن حركاته فلا تبارحه
قيل له جنازة ، فممكن   في الاشتقاق كل ذاك يحسن
وهكذا الأعواد من سريره   قد جُمعت لمبتغى تسييره

وبعد ما ذكر في الربا أنه من الزيادة جوز أن يكون من ربا يربو ربوا أخذه الربو :

لأنه فيه فساد الجسم   فشبهوا منه فساد الحكم

وذكر الخلاف في معنى كون الطهور شطر الايمان أي نصفه .

ثم قال : وها أنا أقول قولا أعتمد   فيه على الله الهدى واجتهد
فربما وافق وضع العرب   والشرع واستحق أعلا الرتب
أقول : شطره بمعنى قصده   ووجهه لا نصفه في حده
... وجاء في القرآن شطر المسجد   أي قصده ونحوه فلتقتد
ولا يصدنك عن تحصيله   إن لم يقل من قبل في تفصيله
فالعاقل الكيس من تاملا   بعقله الارجح فيما استعملا

وذكر الخلاف في اشتقاق الزكاة وقال :

وقيل : بل مخرجها احتسابا   لله يزكو عنده اقترابا
فهي له التطهير والزكاة   جاء به القرآن والآيات
وهذه أوضحها دليلا   في ذلك المعنى وأعلى قيلا

وذكر أن اشتقاق الشركة من الاشتراك أي الاختلاط ، ثم جوز هو أن تكون من الشَرَك لأنها تعقل عن حرية التصرف إلا بإذن الآخر .

ونقل عن القتبي (ابن قتيبة) أن الشفعة في البيع من الشفاعة ، ثم جوز هو أن تكون من الشفع ضد الوتر .

ونقل عن ابن قتيبة في شركة المفاوضة أنها من التفاوض ثم قال :

قلت : ويبدو وكأن ميسمه من فوض الأمر له أي أسلمه
كلاهما فوض إذ فوض له فكان ذا أحرى لمن تأوله

واختار في اشتقاق بيع المزابنة وجها غير الوجه الذي ذكره ابن قتيبة وقال :

وهو صحيح مستوفي النظر فلا يصدنك إن لم يذكر !

*

* *

16 ـ رثاء رسول الله صلى الله عليه وسلم

هل لي إلى العزاء والتجلد من مسلك ؟ أو موقف ؟ أومشهد ؟
أم هل جميل الصبر والتأيد في مثلها غير الجميل الارشد ؟

بل جل في فقد النبي أحمد رزؤ بني الاسلام ،فاجزع ! واجهد!
يا روع كل مومن موحد ! من مات أو حيى ، أو لم يولد !
هل هو في النفوس أن يجدد إلا المصاب مثله لم يعهد
يا عين جودي عَبرة واسعد واكتحلي بالذعر كحل الارمد
وصوبي الدمع دما ! لا تجمد أن تجزعي يا نفس أو تبددي
أو تهلكي من أسف أو تفندي أو تتشظى قطع المقدد !
لا تنصفي ! فزد أسى واستفدى حزنا على ما فاتنا من اسعد
بفقده لا قر عين الحُسَّد ! أما رسول الله مهما يغتدي
ففي النعيم الدائم المخلد وفي جوار الله أعظم باليد
ما شاء من عز ونعمى أبد وإنما نبكي لحظ أنكد !
من بعده يا صاح فاكمد واكمد موت النبي المصطفى محمد
رسول رب العالمين المرشد موت الهدى في يومه وفي الغد

محيي غبيات القلوب الهمد ... موت الجلال والعلا والسؤدد
والبر والتقوى وفعل الرشد ... بالنفس والأهل إذا والولد
والوالدين وجميع العدد ... نفديه لو أصبح لنا أن نفتدي
يا خير من نُهدى به ونهتَدي ... يا نعم من سن الهدى لنقتدي
يا من أزاح ظلم كل معتد ... يا من به صلاح كل مفسد
ويا رسول ربنا لا تبعد ... وجهي يقيك ترب ذاك الملحد
نفسي الفدا في مصدر ومورد

*

*　　*

وبعد ،

فأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه من لفت النظر إلى هذا الفقيه المجتهد المختار ، الذي أضاف إلى تجارب الفقهاء المجتهدين قبله تجربته الخاصة التي لها طابع الاختيار من مختلف مذاهب المجتهدين حسب ما يظهر له أنه يؤيده النص الشرعي ، فن غير تقيد بآراء مذهب معين .

ومن حسن الحظ أن تحتفظ لنا المكتبة المغربية بثلاثة آثار من آثار المؤلف ، اثنان منها في المغرب الأقصى ، وواحد في المغرب الأدنى (تونس) في الوقت الذي لم يبق بين أيدينا شيء مما كتبه دعاة الاجتهاد أو العمل بالحديث في هذه الحقبة وما قبلها بيسير ، في هذه المنطقة من العالم الاسلامي ، وذلك ما من شأنه أن يساعدنا على التعرف على ناحية طريفة من نواحي تاريخنا الفكري والثقافي في هذه المرحلة الدقيقة من حياتنا التي نحرص فيها على التعرف على تراثنا ودراسته وتقييمه والعمل على إحياء ما يستحق الاحياء منه ، ومحاولة الاستفادة مما تنفع الاستفادة منه في إغناء ثقافتنا وإحياء أصالتنا ، ومساعدتنا على مواجهة مشاكل الحياة الحديثة بروح استقلالية أصيلة .

وإذا كنت لم أهتم بمناقشة ابن المناصف في ترجيحاته واختياراته فذلك أولا : لأن المهم في نظري هو المحاولة التي قام بها وهي شيء له قيمته العظمى في أقاليم فرضت عليها ظروفها التاريخية الخاصة أن تبرز عبقريتها الفقهية في حدود المذهب المالكي في الأغلب الأعم ، الأمر الذي حرمها من أن يبرز فيها من كبار المجتهدين مثلما برز في كثير من أقاليم المشرق الاسلامي .

وثانيا لأن مناقشة المؤلف في ترجيحاته معناه استعراض اختلافات المجتهدين ومناقشة احتجاجاتهم والترجيح بينها في كل مسألة بخصوصها ، وذلك يعني وضع مذهب جديد !

وكل ما أرجوه أن يساهم هذا العرض في حمل المهتمين على العمل على نشر آثار ابن المناصف ليتمكن الباحثون والدارسون من مناقشتها وتقييمها والاستفادة مما يمكن الاستفادة منه من بينها ، وإحلالها المكان اللائق بها في تاريخ الفكر الاسلامي الفقهي ، فإذا وفقت في ذلك فهو حسبي وهو غاية ما قصدت إليه .

محمد إبراهيم الكتاني

سرد الموضوعات

ترجيح رأي مالك
الترجيح بين أقوال المالكية
مخالفة الشافعي في بعض الاحيان
موافقة الظاهرية
مخالفة الظاهرية
قد يوافق أبا حنيفة أحيانا
مخالفة أبي حنيفة
وأحيانا يختار التفصيل في المسألة المختلف فيها
اختياره في الاشتقاق اللغوي
رثاء رسول الله
وبعد

كتاب زين الاخبار

II

اخبار يمين الدولة

إن كل ما قدمت من الأخبار ليس له من الشان ما هو لاخباره هذه ، فإن تلك أشياء تلقيناها وقرأناها في الكتب، ولا شك أن المصنفين والرواة ، لتلك التصانيف والأخبار ، قد رووا وذكروا قليلا أو كثيرا ، وهم ماخوذون بالكلام المعجب والتأليف المعزز .

اما هذه الأخبار ، فإن اغلبها ما شاهدته برؤية عيني ، مما فعله الأمير محمود رحمه‌الله ، في الهند ونيم روز (1) وخراسان والعراق (2) وما فتح فيها من قلاع ، وكم صحار وجبال وسبل مخوفة سلكها ، وكأين من حرب خاض غمارها ، وكم ملوك عظام قهرها ، مما لم يره أنسان ، ولم يسمع بمثله من تلك الحرب ، والحيل الخارجة عن طوق البشر !

وبصفة خاصة ، ما اتفق مثله لممالك العالم هذا (3) السلطان عز الدولة ، وزين الملة ، سيف الله ، معز دين الله

قد أهديت الينا من المعاهد الايرانية ، نسخة اتم مما عندنا ، واغزر تعليقا وتحقيقا ، فاستفدنا منها في هذا الجزء ، شاكرين لاصحابها وللسفارة الايرانية بالمغرب ، اذ كانت الواسطة في هذا الاهداء .

(1) اسم لولاية سجستان ونواحيها (2) المراد عراق العجم ، وهو شمالي كرمان وغربي خراسان ، وكثيرا ما تذكر العراق ازاء خراسان والجبل (3) بالاصل « اينجنين اتفاقي كه مرين خداوند عالم » .

أبي منصور ، عبد الرشيد ، ابن يمين الدولة وأمين الملة أبي القاسم ، محمود ، ابن ناصر الدين والدولة ، أطال الله بقاءه وأدام سلطانه وثبت ملكه ، وكب أعداءه ،

لقد أتت إليه المملكة بدون أي تكلف ، وانتهى إلى مقصوده ومرغوبه في الحين ، وبدون أي مهل أو عائق ، فهؤلاء آلاف من الخلق صاروا إليه ، بلا دم مراق ، ولا طمع ولا ترح ، ولا تسلط ولا حيلة (ورقة 112 ب) أوكيد ، طائعين له ومنقادين إليه ، فلتدم دولته ثابتة على الأبد ، ولتخلد رايته منصورة ، وليبق أعداؤه مقهورين ، ولا زال أحباؤه مسرورين ولتظل كل البلايا بعيدة عن ساحته !

إني قد انتقيت من جملة أخبار دولة هذه المملكة ، أدام الله ثباتها ، ما هو أفضل وأعجب ، فأتيت بذلك هنا ، على قدر ما استطعت من اختصار ، بعد ما كنت تناولت ذلك بالتفصيل ، فجاء كثيرا ، فانتخبت من ذلك أخبارا ، أتيت بها هنا بإذن الله تعالى .

دولة الاجل ، السيد يمين الدولة ، وأمين الملة وكهف الاسلام أبي القاسم ، محمود ابن ناصر الدين والدولة ، سبكتكين رحمه الله

لما فرغ الامير محمود ، رحمه الله ، من فتح مرو ، وصار أمير خراسان ، توجه إلى بلخ ، فلما كان في بلخ ، أتى رسول القادر بالله ، من بغداد إلى حضرته ، بعهد خراسان واللواء والخلعة الفاخرة والتاج وقد لقبه القادر بيمين الدولة وأمين الملة ، أبي القاسم محمود ولي أمير المومنين .

فلما وصل ذلك العهد واللواء ، جلس الأمير محمود على تخت السلطنة ، ولبس الخلعة ، ووضع التاج على رأسه ، وأنعم على الخاص والعام . وذلك في ذي القعدة سنة تسع وثمانين وثلاثمائة .

وفي سنة تسعين وثلاثمائة ، توجه من بلخ إلى هراة ، ومن هناك سار إلى سجستان ، فحاصر خلف بن أحمد ،

بحصن اسبهبد (1) فوسط خلف أناسا ، وتصالح مع الأمير محمود ، على أن يعطيه مائة ألف دينار ، ويخطب له (ورقة 113 آ).

فلما فرغ من هذا ، توجه إلى غزنين ، ومن غزنين نحو الهند ، فاستولى على قلاع كثيرة ، وحينما عاد من الهند ارسل الخان إليه رجلا يطلب منه المعاهدة ، فتواضعا على أن يكون ما وراء النهر للخان ، وما دون النهر للأمير محمود ثم جاء إلى نيسابور في منسلخ (2) جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة .

وقد حارب أبو إبراهيم السامانى "سبهسلار" نصر بن ناصر الدين ، رحمهما الله ، فهزم الأمير نصرا ، وأسر هندوبجه (3) وكان ذلك يوم الأربعاء ، آخر ربيع الأول ، سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة ، فعظم امر أبي إبراهيم في نيسابور ، وقصده الأمير محمود ، رحمه الله ، فذهب منها أبو إبراهيم ، وصار إلى إسفراين وكرمان (4) ومن هناك سار إلى جرجان ، ثم عاد مرة أخرى إلى نيسابور ، فجاء الأمير نصر من نيسابور إلى بوزكان (5) .

واتى على أثره جيش أبي إبراهيم فهزمهم الأمير "سبهسلار" نصر ، ثم دعا رئيس سرخس أبا إبراهيم ، لمحاربة الأمير نصر ، فتحالف هذا مع الرئيس ، وتوجها من هناك نحوه ، فعاد الأمير نصر مرة أخرى إلى تلك الجهات ، فتحاربوا ، وكسر أبا إبراهيم ، وأسر "توزتاش" (6) الحاجب ،

---

(1) (بالباء الفارسية) اسم لكورة بطبرستان ، وهو في اصله اسم يختص به ملوكها ، كما في معجم البلدان .

(2) ا ، ب ، بلغ ن . (3) (بالباء الفارسية يبدو ان بعض قواد الهنود كانوا في جيش اخي محمود ، وان لم يعرف بالعين هذا القائد الذي اسره ابو ابراهيم اسماعيل المنتصر ، نوح بن منصور الاول .

(4) اسفراين بلدة حصينة من نيسابور ، اما كرمان فولاية مشهورة ذات مدن واسعة ، بين فارس ومكران وسجستان وخراسان ، وقد كتب الناشر ازاءها «كذا» لما بينهما من بعد . (5) (بالكاف الفارسية) بليدة بين نيسابور وهراة ، عربت «بوزجان» .

(6) لانعرف هذه الشخصية التي ذكرت ايضا في تاريخ اليميني ، الا بما ذكر هنا من أنها اسرت مع ابي القاسم علي بن محمد السيمجوري .

وأبو القاسم "سيمجوري" ثم توجه أبو إبراهيم إلى باورد ، ومن هناك قصد الأتراك الغز ، فاستنجد بالغز ، فأنجدوه وعزم الأتراك أن يسيروا معه إلى الحرب ، وكان "يبغو" رئيسهم (1) قد أسلم وتحالف مع أبي إبراهيم ، وجاء هو وأبو إبراهيم (ورقة 113)ب إلى كوهك (2) وحاربا سباشي تكين ، فكسرا سباشي تكين ، وأتى إيلك (3) إلى سمرقند ، على هجومهم ذاك ، فأسروا ثمانية عشر من القواد "سرهنكان" وأتوا بالغز والأسرى (4) وأصبح أبو إبراهيم قانطا فجاء مع ثلاث مائة فارس وأربع مائة من المشاة إلى ورغان (5) فعبر لأن الثلج كان قد تجلد ، ثم أتوا في طلبه وأرادوا أن يعبروا النهر ، فتكسر الجليد وغرقوا جميعهم ، وتأخر أبو إبراهيم عند جيحون وأرسل مرس النقيب إلى الأمير محمود رحمه الله برسالة ، وقال ، إن اعوجاج آل سامان لم يستقم من جهتي ، فلعله يكون بعنايتك ، فانظر أي صواب ترى فأفعله ، فلما سار النقيب توجه أبو إبراهيم إلى مرو ، وحينما وصل إلى كشميهن (6) طلب من أبي جعفر خواهر زاده ، محالفة فلم يجبه ، واستخف بالرسول، وخرج فحارب أبا إبراهيم وهزمه ، وذهب هو إلى باورد .

ولما وصل مرس الرسول إلى الأمير محمود رحمه الله ، أحسن إليه كثيرا وكرمه جدا ، وأعاده بمال عظيم وضمن

(1) كذلك (2) جبل بسمرقند ، وباب كوهك من ابوابها ، كما في معجم البلدان ، وقد كتب الناشر ازاءه « كذا » .

(3) تقدم ذكره في ولاية ابي الحارث منصور الثاني واخيه عبد الملك ، وانه ابو الحسن ابن نصر بغراخان وقد ذكر في الايرانية بأنه «برادرخان» فهو اذن اخو الخان ، وفي ابن الاثير ان هذا الخان « تامش » ابو نصر احمد بن علي ، ولقبه شمس الدولة ، واسمه الاصلي ، كما في مسكوكاته ، ابو الحسين نصر بن علي ، الامير السيد وناصر الحق او نصر بن علي بن سليمان بن موسى بن ستوق بغراخان عبد الكريم ، كما في « تسامباور » .

(4) فراغ ، انظر العتبي ، ن ، اما سرهنكان ، بالكاف الفارسية ، فهو جمع سرهنك ، اي القائد الكبير ، دون سبهسلار ، بالباء الفارسية ، الذي هو القائد الاعلى ، والغز صنف من الاتراك ، وقد استخدمتهم الدولة الموحدية في فرق جيوشها ، وهم اشداء ، يقول المثل المصري «سلام الغز علقة» وهي «الطريحة» بالعرف المغربي .

(5) صححت بدرغان ، في النسخة الايرانية ، وعلق عليها بأنها مدينة كانت على ضفة نهر جيحون ، حيث اول تخوم خوارزم .

(6) قرية عظيمة من قرى مرو .

له كل المراد الذي أتى من أجله ، وكتب رسالة إلى أبي جعفر ليعمل كل ما يستطيع له ويعتذر إليه . وذهب أبو إبراهيم إلى بخاري ، ومن هناك إلى السغد (1) فأتاه بسر (2) علمدار الذي كان رئيسا للعيارين بسمرقند ، مع ثلاثة آلاف رجل (3) وشيوخ سمرقند مع ثلاث مائة غلام (ورقة 114 آ) وجاء الخان الكبير لمحاربته ، فكسر الخان في شعبان سنة أربع وتسعين وثلاثمائة ، وذهب من عند أبي إبراهيم بسر سرخك (4) متوجها إلى الخان فتابعه .

ثم كتب رسالة إلى أبي إبراهيم متلطفا فيها كثيرة ومؤكدا له أن كل ما ذكر مما فعله مع الخان ، كان كذبا ، فلما وصل الخبر إلى الخان ، بأن السامانى قد هزم ، استولى على كل معابر النهر ، وأقام عليها رجالا ، وحينما سمع أبو إبراهيم هذا الخبر ، فر مع ثمانية أنفار ، والتجأ إلى حصن بسر تهنت (5) من العرب ، في صحراء مرو ، وكان أحد الرؤساء (6) يدعى "ماه روى (7) قد أمر بأن يراقبوا طريق أبي إبراهيم . فلما جن الليل قتلوه (8) في ربيع الآخر 20 سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، فصارت دولة آل سامان بهذا ، منقطعة من الوجود تماما .

ولما سمع الأمير بخبر قتل أبي إبراهيم ، وجه في الحين "أرسلان" الجاذب ، فأغار برجاله على حصن بسر

---

(1) وبالصاد ايضا ، كورة عظيمة قصبتها سمرقند
(2) بالباء الفارسية ، ومعناه الابن ، واسمه الحارث ذكره برتولد ، وعلمدار صاحب العلم ، وفي العتبي ان ابنه علمدار كان رئيسا لفتيان سمر قند (تعليق للارانية) .
(3) ا ، ب ، « بوده باشد كه هزار مرد از » وهو تصحيف ، صححه الناشر عن العتبي 145 ، بما ترجمناه ، كما صحح في الايرانية .
(4) تقدم ان بسر معنه ابن ، اما سرخك فكان معناه داء الحصبة ، ولكنه هنا علم لقبوا به هذا السامانى ، والخان الاكبر هو ايلك خان نصر بن علي ، الذي هزم عند حدود سمرقند بقرية بوزبند .
(5) ورد كذلك مصحفا ، نهيب وتهيب ، وجميعها تصحيف لبهيج كما في العتبي ن وصحح في الايرانية .
(6) بالاصل بندار ، فسر بانه صاحب تجمل ومكنة ، كما فسر بغير هذا .
(7) العتبي ، « ابو عبد الله ماه روى بندار » ن ومعنى ماه روى الوجه القمري .
(8) العتبي 148 ن .

نهيب ، وقتلوا ماه روى وبسر تهيت ، شر قتلة ، وكان الأمير محمود قد جاء نيسابور ، وثار الغلمان ، فعلم الأمير محمود بذلك في الحين ، وأخذ بالحزم ، وأمر بالقبض عليهم وتأديبهم فارتاعوا منه وقبض على بعضهم وفر بعض آخر ، فسار الأمير محمود رحمه الله على إثر الفارين ، وقتل بعضهم وأسر بعضا وصار بعض آخر نحو السامانى ، وفي هذا الوقت فر أيضا أبو القاسم سيمجوري (ورقة 114 ب) وسار إلى السامانى (1)

فعاد الأمير محمود إلى هراة في خامس رمضان سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة . ومن هناك توجه إلى غزنين ، ومن غزنين سار إلى الهند في جيش عظيم ، فنزل في مدينة بيشاور (2) ومعه عشرة آلاف من غزاة الرجال . وقد عسكر ملك الهند "إجيبال" (3) قبالة الأمير محمود في اثني عشر ألف فارس وثلاثين ألف من المشاة وثلاثمائة فيل أتى بها . فاصطفت الصفوف وامتدت للحرب الأذرع ، فأنزل الله النصر على المسلمين ولقي الأمير محمود رحمه الله الظفر وقهر أجيبال ، وصار الكفار ممحوقين . وقتل المسلمون في تلك المعركة خمسة آلاف كافر وأسروا أجيبال مع خمسة عشر نفرا من أبنائه وإخوته وغنموا كثيرا من الغنائم والأموال والعبيد والخيول .

يحكى هكذا أنه كان في عنق أجيبال قلادة مرصعة بالجواهر ، قدر أهل البصر قيمتها بمائة وثمانين ألف دينار ، كما وجدوا في رقاب القواد الآخرين قلائد كذلك قيمة . وكان هذا الفتح يوم السبت ثامن محرم سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، ثم توجه من هناك إلى "ويهند" (4) ففتح كثيرا من تلك الولاية . فلما أقبل الربيع رجع الأمير محمود رحمه الله إلى غزنين .

---

(1) المراد ابو ابراهيم وفيه اضطراب

(2) هي الان على الحدود الافغانية الباكستانية اي انه من اسرة الشاهانيين .

(3) علق عليه الناشر بقوله Jaipala of the Shahiyya dynasty

(4) ا ، ب ، بهند ، والتصحيح من العتبي ، وهي على الساحل الايسر لنهر السند على حدود عشرة اميال غربي « اتك » .

وفي المحرم سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة توجه إلى سجستان . وصار خلف بن أحمد إلى حصن طاق (1) لأن تلك القلعة كانت محكمة فأقام الأمير محمود رحمه الله محاربا ، فلما مضت أيام على ذلك أمر بأن يلقى بالفيلة لحصار طاق مرة أخرى (ورقة 115 آ.) فاستولى الخوف على خلف وطلب الأمان ، وخرج وقدم للأمير محمود كل مفاتيح كنوزه فوضعها أمامه . وتلطف الأمير محمود معه وأجمل في الخطاب وسأله ، أين تريد أن أرسلك ؟ فقال خلف ، إلى جوزجانان ، فأرسله إلى هناك ، وكانت إمارة الأمير خلف بدهك (2) .

فلما عاد الأمير محمود إلى غزنين قصد بهاطية (3) فعبر من طريقوالشتان (4) والقلعة (5) وسار إلى بهاطية، وحارب هناك ثلاثة أيام ، وقد أعد بجيراو راجه (6) بهاطية الجيش ، ووجهه إلى محاربة الأمير محمود ، وذهب هو في جماعة على شاطئ نهر السند (7) فلما تخبر الأمير محمود وجه جماعة من الفرسان في إثره فانقضوا عليه وقبضوا على جميع القوم الذين كانوا معه ، فلما رأى بجيراو ذلك الحال ، استل سكينا وقتل نفسه ، فاحتزوا رأسه وأسروا جميع أولئك القوم ، وأتوا بهم إلى الأمير محمود ، فسر لذلك كثيرا ، وأمر بوضع السيف في الكفار فقتلوا كثيرا ، واستولوا على مائتين وثمانين فيلا .

---

(1) وهو بطبرستان ، كما في معجم البلدان .

(2) كتب الناشر ازاءها «كذا» ، وفي تعليق على الايرانية ، انها كانت منزلا في زابلستان، بين زرنج وبست ، عن ابن حقول

(3) بهت وبهتيان قبائل في السند ، عربت بهاطية .

(4) تردد ذكره في تاريخ البهيقي ، وقد نص عليه في تعليق على الايرانية ، بأنه حد بين كوه كودك ووادي بولان او بشين (بالباء الفارسية) يمتد الطريق منه بين وادي قندهار والسند الى اخر ما ذكر

(5) «حصار» كتب الناشر ازاءها «كذا» .

(6) راجه كلمة هندية معناها حاكم او سلطان ، وبهاطية هنا قلعة حصينة كانت واقعة على تخوم ملتان ، وقد وردت اختلافات في كتابة بجي راو .

(7) « اب سند » ا ، ب ، اسا سند وهو تصحيف .

ولما عاد الأمير محمود من بهاطية ، وصل الخبر بأن قوم سجستان ثاروا ، فتوجه إلى سجستان ، فلما وصل هناك انجاز جميع القواد السكزيون إلى حصن "أرك" (1) فحاربهم الأمير محمود يوما ، وقبض على رئيسهم ، فجاء جميع السكزيين طائعين ، وعاد هو إلى غزنين بالظفر والنصر .

ثم قصد ملتان من غزنين ، وفكر إذا هو سلك الطريق السوي ، فربما تسرب الخبر إلى داود بن نصر الذي كان أمير ملتان (ورقة 115 ب) لهذا اتخذ الحزم (والحيطة) فسار في طريق مخالف ، وكان "أنندبال" بن أجيبال (2) في الطريق ، فلم يخل الطريق للأمير محمود ، فأطلق الأمير محمود رحمه الله يد الجيش ، فانقضوا على ولاية أنندبال ، واستولوا على كل شيء وقتلوا وأغارو. وفر أنندبال وأوغل في جبال كشمير . ووصل الأمير محمود بطريق الهند إلى ملتان ، وحاصر تلك المدينة سبعة أيام إلى أن جاء أناس يتوسطون في عقد الصلح فعقد على أن يعطى كل سنة عشرين ألف درهم ، من ولاية ملتان ووقع القرار على هذا . ورجع الأمير محمود ، وكان ذلك في سنة ست وتسعين وثلاثمائة .

ثم انتهى الخبر إلى الأمير محمود ، بأن الأتراك قد عبروا من النهر وهم آتون إلى خراسان يعيثون فسادا ، فخف عائدا من ملتان إلرى غزنين بعهد قريب . وكان قد أتى إلى هراة سباشي تكين الترك (3) واستولى عليها ووجه الخيل إلى نيسابور ليضبط تلك الناحية ، وعاد أرسلان الجاذب خادم الأمير محمود من نيسابور . ولم يكن الأتراك في ذلك الحين يقر قرارهم حتى جاء الخبر بأن الأمير

(1) بالكاف الفارسية ، كلمة افغانية قديمة ، معناها مقر المملكة ، وفي معجم البلدان انه اسم لابنية عظيمة بزرنج ، مدينة سجستان اما ملتان فهي مدينة قرب غزنة ، كما يقول ياقوت ، من الهند .

(2) علق عليه الناشر بقوله : Anandpal, sonef Jaipal اي اننربال بن جيبال

(3) كان امير الجيش لايلك خان .

محمود قد عاد من الهند وتوجه إلى بلخ . فذهب أصحاب الخان متوجهين إلى الخان ، وكان رجال الأمير محمود قد أخذوا عليهم السبل ، فتحير الأتراك وولوا وجهتهم نحو نواحي مرو الرود وسرخس ونسا الرود . وكان أرسلان الجاذب يتعقبهم مدينة ممدينة ، يأسر ويقتل كل ما يقع بيده ووجه الأمير محمود التونتاش الحاجب مددا (ورقة 116 آ) له . ثم عمل الأتراك حيلة فأتى بعضهم إلى المعابر وخاطر جماعة منهم فصاروا إلى جيحون فهلك أغلبهم وخلا ما دون النهر منهم ، فتخبر الأمير محمود بأن جملة منهم توجهوا إلى حافة النهر ، ولا يريدون العودة لمرو فعزف (جيش محمود) لحنا تركيا على طريقة الختنيين (1) فلما سمع الأتراك الذين كانوا ما يزالون هناك ذلك اللحن ألقوا بأنفسهم في النهر من الرعب فغرقوا . وقتل هناك الغازي آخر سالار في تلك الحرب (2) فقصد الأمير محمود رحمه الله إلى حربهم ولما كان جيشهم قد استولى عليه التعب من الحرب فقد فكروا إذا هم توقفوا فإنهم يصيبون أتراك الخان ولا غرو أن الحشم يتمكن من هذا الظفر والنصر .

فلما وصل سباشي تكين إلى إيلك ، لام سباشي تكين جدا . فقال القواد ، إنه لم يكن لشخص قدرة على مقاومة تلك الفيلة والسلاح والآلات والرجال ، فوجه بعد ذلك إيلك شخصا إلى سائر ما وراء النهر في طلب الجيش فأتى إليه أربعون ألف فارس ، فعبر إيلك النهر وبذلك الجيش جاء إلى بلخ فسار الأمير محمود رحمه الله إلى هناك ، فحاربوا بصحراء "كتر (3) وحينما اصطف الجيشان

---

(1) ورد في هذا نص غامض ، كتب ازاءه الناشر «كذا» ولكنه اتى بترجمة بارثولد ، فاعتمدنا عليها ، قال الناشر ، اتيا بنص بارثولد .

Barthold (G. M. S.), 273, gives the folloiwng translation of the passage : Mahmad's solders «sang a Turkish song to a Khotanese melody»

(2) كذلك هنا عبارة غامضة كتب ازاءها «كذا» .

(3) ا ، ب ، «كتر» او «كر» والتصحيح من فرخي ، ن ، اذ قال وهو يمدح السلطان :
زبت برستان جندان بكشت وجندان بست   كه كشته بود وكرفته زخانيان بكتر
ويقول العتبي ، ان هذا المعسكر كان على مسافة اربعة فراسخ من مدينة قنطرة جرخيان، ويقول ابن الاثير ، على فرسخين من مدينة بلخ .

صلى الأمير محمود ركعتين ودعا الله عز وجل أن ينصره ، ثم توجه إلى الحرب ، وأمر بأن يرسلوا عليهم جملة الفيلة فحملوا بها وسرعان ما انهزم الأتراك ، وقتل جيش الأمير محمود كثيرا منهم ، وأسروا كثيرا (ورقة 116ب) وغرق كل من فر منهم في النهر ، فاستولوا على خيلهم وسلاحهم . وكان هذا الفتح يوم الأحد ثاني وعشرين شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة .

فلما فرغ الامير محمود من هذه الحرب وصل الخبر بأن شوكبال نبسه شاه (1) ، الذي كان قد وقع في يده أسيرا أبو علي سيمجور ، وكان قد أسلم ، قد ارتد في هذا الوقت . فشن الأمير محمود رحمه الله عليه الغارة وقبض عليه في جبال كشنور (2) وقد عرض شوكبال أربع مائة ألف درهم فمنحها الأمير محمود لتكين (3) الخازن ، وحبسه ألى أن مات في ذلك الحبس . ثم سار من هناك إلى الهند في سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، فحارب أنندبال وهزمه شر هزيمة واستولى على ثلاثين فيلا وغنم الجيش غنائم كثيرة ، وسار هناك إلى قلعة بهيم نكر (4) فحاصر تلك القلعة ، وحارب ثلاثة أيام حتى أتى أهل القلعة طالبين للأمان ، وسلموا القلعة ، فدخل الأمير محمود مع نفر من خاصته إلى القلعة ، واستولى على تلك الخزائن من الذهب والفضة والماس وكل ما كانوا قد وضعوه من عهد بهيم باندو (5) ووجد مالا في تلك القلعة لا حد له ولا قياس ، فتوجه من هناك إلى غزنين ووضع العرش

(1) عن العتبي ، انه يدعى «نواسه شاه» ، ن .

(2) ربما «كهيوره» الواقعة في السلسلة الملحية بالبنجاب ، ن ، ويستظهر في تعليق على الايرانية ، انه «كشمور» حيث اراض واقعة في السند العليا وجنوب شرق ملتان في الشمال ، على الضفة اليسرى لنهر السند الى اخر ما احتمل له .

(3) اعتمادا على تصحيح عبد الحي لطبعة ايران ، وفي نسختنا «لفكين» ولم يعلق عليها وتكين بالكاف الفارسية ، وهو من الالقاب العسكرية التركية ، التي تصادفنا كثيرا في هذا التاريخ ، وعلى رأسها «البتكين» و «سبكتكين» .

(4) يقال لهذه القلعة أيضا «نكركون» وهي التي تسمى الان «كانكره» واقعة في جنوب شرق لاهور .

(5) في النسختين «بيم باندى» وسيأتي اخر هو «بيم ديوا» و«نكر» بالكاف الفارسية كما ان «باندو» بالباء الفارسية كذلك .

الذهبي والفضي على باب قصره ، وأمر بذلك المال أن يفرغوه في العراء حتى شاهده جميع الحشم والرعية وكان هذا في سنة أربع مائة .

فلما كانت سنة إحدى وأربع مائة ، خرج (ورقة 117 آ) من غزنين وقصد ملتان ، وتوجه من هناك إلى باقي ولاية ملتان فاستولى على ذلك بتمامه ، وقبض على كثير من القرامطة الذين كانوا هناك ، فقتل بعضهم وقطع أيدي بعضهم ونكل بهم ، وحبس بعضهم بالقلعة ، حتى ماتوا كلهم (1) بتلك الجهات ، وفي هذه السنة قبض على داود بن نصر ، وأتى به إلى غزنين ، ومن هناك وجه به إلى قلعة غورك (2) حتى مات بتلك القلعة .

وقد أخبر الأمير بأن "تانسر" له مكان عظيم ، وفيه قوم كثيرون ، وأن تانيسر هذا عند الهنود كمكة عند المسلمين فالهنود يعظمون كثيرا تلك القلعة ، وفي المدينة بيت للأصنام قديم جدا ، وفي بيت الأصنام ذلك ، صنم يدعونه "جكرسوم" (3) فلما سمع الأمير محمود هذا الخبر ، وقعت رغبته على أن يذهب فيستولي على تلك الولاية ، ويهدم بيت الأصنام ،ذاك ، ويحصل له ثواب (4) جزيل ، وهكذا في سنة اثنتين وأربع مائة سار من غزنين وقصد تانيسر .

وحينما تخبر ترجنبال (5) شاه الهند ، فاهتز لذلك وأرسل رسولا إلى الأمير محمود بأنه "إن عدلت عن الإتيان إلى تانيسر ، فإنني أعطيك خمسين فيلا" فلم يلتفت الأمير محمود رحمه الله إلى ذلك الكلام ، وتوجه إلى قصده،

(1) ذكر الناشر اختلافا في النسخ لا تهم فاهملنا ذكرها
(2) ذكرت في تاريخ البيهقي «بوزغورك» مرارا .
(3) علق عليه بالايرانية « في كتاب الهند 429 مطبوع جكرسوام » .
(4) « مزدى » وصحف في نسختنا بالراء « مردى »
(5) علق عليه الناشر هكذا : Trolocanapal, probably son of Anandpal .
طرولوكانابال ربما ابن لاناندبال ، وفي الايرانية « تروجنبال » .

فلما وصل إلى ديره رام (1) تعرض لطريقه أهل رام ، واكتظوا مقيمين كامنين له في الآجام والجبال ، فأصابوا كثيرا من المسلمين ، فلما وصل محمود إلى تانيسر ، كان هؤلاء قد أخلوا المدينة . فأغاروا على كل ما وجدوه ، وقتلوا كثيرا من القوم (ورقة 117 ب) وأتوا بذلك الصنم "جركسوم" إلى غزنين ، ووضعوه في القصر ، واجتمع خلق كثير لمشاهدته .

وفي سنة ثلاث وأربع مائة ، فتح "غرجستان" (2) وأتى بشارشاه غرجستان ، وقيده ووجه به إلى مدينة مستنك (3) ولما كانت أواخر سنة ثلاث وأربعمائة وصل أبو الفوارس بن بهاء الدولة من كرمان إلى بست وجاء إلى الامير محمود رحمه الله مستعيذا من أخيه أبي شجاع سلطان الدولة ، وبقي بغزنين ثلاثة أشهر . فكتب الأمير محمود رسائل في هذا الصدد ، وأبدى اهتمامه حتى وقع الصلح بينهما. وضمن أخوه بأنه لن يعود مرةأخرى إلى إزعاجه والتعصب عليه ، ثم عاد أبو الفوارس وتوجه إلى كرمان ، وجلس على رأس ولايته بأمن وهناء .

وفي نفس السنة جاء رسول عزيز مصر ، وكان يدعى التهارتي . فلما وصل إلى خراسان ، قال الفقهاء وأهل العلم ، أن هذا الرسول قد أتى بدعوة من عزيز مصر إلى مذهب الباطنية فلما سمع محمود هذا الخبر لميسمح لذلك الرسول أن يتقدم نحوه ، وأمر بأن يعهدوا به إلى الحسن ابن طاهر بن مسلم العلوي . فضرب الحسن بيده عنق التاهرتي بمدينة بست .

وفي سنة أربع وأربعمائة قصد قلعة نندنه (4) في

---

(1) في الاصل : دره رام

(2) بين باميان هراة في شمال مجرى هريرود غرستان او غرجستان او غرشستان .

(3) فراغ في النسختين ، ومستنك ، بالكاف الفارسية ، عرب بمستنج ، مدينة في بلوجتان، بالجيم الفارسية، وهي مشهورة الان بهذا الاسم، كما في تعليق على الايرانية

(4) هذه القلعة غالبا كانت تقع في ميانوالي بنجاب ، حيث جبل جود كذلك في ذلك المكان

جيشه ، فلما تخبر تروجنبال ملك (1) الهند عين رجالا القيام على تلك القلعة ، فحافظوا على تلك القلعة ، وانسحب هو إلى خليج كشمير وترك مكانه . فلما استولى الأمير محمود على موقع نندنه وقطع الحفارون السمج (2) كان الأتراك (ورقة 118 آ) يرمون بالنبال على رؤوس الأسوار . فلما رأى أهل الحصن تلك الحرب هكذا ، طلبوا في الحين الأمان ، وسلموا الحصن . فدخل الأمير محمود مع بضعة من خواصه الحصن ، وحملوا ما كان هناك من المال والسلاح وعين الأمير محمود السارغ أميرا لتلك القلعة . ومن هناك توجه إلى نهر كشمير ، حيث كان هناك تروجنبال ، فلما تخبر بذلك تروجنبال فر من هناك .

فأمر الأمير محمود ، بأن يستولوا على سائر تلك القلاع التي كانت بوادي كشمير ، فأغاروا عليها وغنم الجيش غنائم كثيرة وسبيا من تلك القلاع ، وجاء كثير من الكفار مسلمين . وفي هذه السنة أمر في كل الجهات التي فتحها من ديار الكفار بأن تبنى بها المساجد الجامعة وأمر الأساتذة بالتوجه إلى تلك الجهات جميعا، حتى يعلموا الهنود شعائر الاسلام . ورجع هو بالظفر والنصر إلى غزنين . وكان فتح نندنه هذا في سنة خمس وأربعمائة .

فلما حلت سنة ست وأربعمائة قصد كشمير ، فتوجه من غزنين إلى تلك الجهات ، فلما وصل إلى نهر كشمير ، هب هواء بارد وحل الخريف ، وكان حصن في نهر كشمير ، جد حصين ، وكان محاطا بالماء وجمهور من الناس ، وكان ذلك الحصن يدعى "لوهكوت" (3) أي الحصن الحديدي ، فنزل الجيش إلى ذلك الحصن ،

---

(1) صحفت في النسختين « بروجبال » وكلتاهما بالباء الفارسية .

(2) بضم الاول وسكون الثاني الذقب والنفق تحت الارض (تعليق عن برهان) .

(3) علق عليها الناشر بقوله : Kalhan, II, 293-300, Loharakotta ; wodern Lohariu
كلهان ،،، لوهاراكوتا ، لوهارين الحديثة .

واستعرت الحرب ، ولما مضى على ذلك بضعة أيام ، ظهر أن الاستيلاء على الحصن في منتهى الصعوبة وقد اشتد البرد وتراكمت الثلوج ، وانعقد الجليد ، فلم يقدر احد أن يأتي بعمل ، من شدة البرد ، وقد وصل عن طريق جبال (ورقة 118 ب) كشمير المددالي أهل الحصن من كشمير وحصلوا على القوت . فلما رأى الأمير محمود رحمه الله الحال على تلك الجملة ، فكر في وسيلة يتأتى بها لجيشه العبور . وعدل عن أخذ تلك القلعة ، وخرج إلى الصحراء من ذلك الجبل والمضايق ، فلما جاء الربيع توجه الى غزنين

وفي نفس سنة ست وأربعمائة ، وصل أبو العباس المامون ابن المامون خوارزمشاه من خوارزم ، طالبا المصاهرة بأخت يمين الدولة ، فأجابه الأمير محمود ، وزوجه من أخته فحملت إلى خوارزم . ثم إنه في سنة سبع وأربعمائة اجتمع قوم من الفضوليين بخوارزم والأوباش فثاروا وقتلوا إذ ذاك خوارزمشاه الذي كان صهرا ليمين الدولة ، رحمه الله . فوصل الخبر إلى الأمير يمين الدولة ، فسار من غزنين إلى بلخ ومن هناك قصد خوارزم فلما وصل إلى "جعفربند" (1) الذي كان حدا لخوارزم ، عبا الجيش ، ووجه محمد بن إبراهيم الطائي على مقدمة الجيش ، فعسكر محمد الطائي بكل خيله ، فلما كان الفجر وكان المسلمون منهمكين في التوضئ والصلاة ، أتى خمارتاش قائد الخوارزميين بجيش محتشد من الصحارى فهجم عليهم وقتل قوما من خيل محمد الطائي .

فلما وصل هذا الخبر إلى الأمير محمود رحمه الله اغتم ووجه فوجا من غلمان القصر ليسيروا في إثر خمارتاش ، فصيروا جيشه ذاك كله شذر (ورقة 119 آ) مذر (2) وأسروا خمارتاش وأتوا به ، وكان القتلى والجرحى فوق

---

(1) كذا بالنسختين ، وفي الايرانية جكربند ، وعلق عليها ، بأنها ، او جتربند ، واقعة في طريق بربر وامل ، على الضفة اليسرى لجيحون ، بين الطاهرية ودرغان .

(2) بالاصل الفارسي «تارومار» وهو ازدواج ، يعني ما في «شذر مذر» منه .

الحصر (1) . ثم لما وصلوا إلى هزاراسب ، كان جيش خوارزم في أتم تعبئة مزودا بأسلحة جيدة وعتاد فتقدم جيش يمين الدولة ، واصطفت الصفوف ، ورتبت الميمنة والميسرة والقلب والجناحين ، فاستعرت الحرب ، ولم تمض برهة حتى كان جيش الخوارزميين منهزما ، ووقع ألبتكين البخاري الذي كان القائد الأعلى للخوارزميين أسيرا ، وتوجه جيش يمين الدولة إلى خوارزم ، فاستولى على مدينة خوارزم .

وكان أول ما فعله يمين الدولة أنه أمر بالقبض على سائر المجرمين مثل البكتين البخاري (2) وغيره . فأحضروا إليه ، فأمر بأن يجازوا كل واحد حسبه ، فنال من يستحق القصاص قصاصهم ، وصفح عن بعضهم وأدبهم ووضع بعضا آخر في القيود وزج بهم في السجون .

وقد عين الأمير محمود رحمه الله حاجبه الكبير التونتاش أميرا لخوارزم ، وأعطاه خوارزم وكركانج (3) وجعله خوارزمشاه فبقي حتى آخر عهده ، وظل تحت طاعة وامتثال أمر الأمير محمود رحمه الله وأسرته . وكان فتح خوارزم في خامس صفر سنة ثمان وأربعمائة ، ثم عاد (الأمير محمود) من هناك وأتى إلى بلخ ، فأقام هناك بضعة أيام ، ودعا الأمير مسعود رحمه الله إلى بلخ (4) . فلما مثل أمام أبيه ، خاطبه خطابا جميلا ، وأعطاه ولاية هراة ، ووجهه إلى هراة ، وجعل أبا سهل محمد بن

---

(1) في تاريخ البيهقي « سالاران ابن بغاوبت البتكين بخاري وخمارتاش شرابي وشادتكين خاني بودند » كان قواد هذا التمرد البتكين البخارى وخمارتاش الشرابي وشادتكين الخاني .

(2) ا ، ب ، ابو العباس ، والتصيح من العتبي والبيقي ، ن .

(3) بكافين فارسيتين ، وتقدم انها عربت بالجرجانية .

(4) ا ، «خواندند» اي دعوا ، بالاسناد الى الجماعة ، وهذا يستعمله احيانا تعظيما لمحمود كما وجدنا هذا الصنيع فيما بعد يتطرق الينا ، عند كتاب الموحدين، مثل ابن صاحب الصلاة ، وعند عامة شعرائهم «امير مسعوردا رحمه الله ببلخ خواندند» ويصح ان يكون الاسناد الى رجال محمود ، او يراد مايراد عند البناء للمجهول ، كما في قوله تعالى « يقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ... »

الحسين الزوزني (119 ب) مستشاره (1) فوجهه معه إلى هراة . وأعطى الأمير محمد رحمه الله ولاية كوزكنان ، وكذا خلع عليه في ذلك وأجمل في مخاطبته ، ووجهه إلى كوزكانان ، وأرسل معه أبا بكر القهساني .

فلما كانت سنة تسع وأربعمائة فكر الأمير محمود في الذهاب إلى "قنوج" (2) وكانت تلك الولاية عظيمة وعامرة ، وبها كثير من أغنياء الكفار . فخاطر بعبور سبعة أنهر ، فلما وصل إلى أول حدود قنوج، كان "بكوره" (3) المعروف الذي كان أمير الحدود يرسل رسولا ويعلن الطاعة ويطلب الأمان ، فأعطاه الأمان وسار من هناك إلى قلعة "برنه" (4) وكان أمير تلك القلعة "هردت" قد فر وذهب ناجيا إلى قومه (5) . وتحصن قوم هردت بالقلعة حين أدركتهم جيوش الاسلام . ولما رأى أهل الحصن عدتهم وأبهتهم ، وجهوا أناسا وسطاء وأعطوا ألف ألف درهم وثلاثين فيلا ، وفدوا أنفسهم ثم ساروا من هناك إلى قلعة "مهاون" (6) وكان أمير تلك القلعة كلجندر (7) وكانت هذه القلعة على حافة نهر جون (8) . فلما سمع كلجندر بخبر مجيء الأمير يمين الدولة ، امتطى فيلا كان أعظم أفياله جميعا ، وأراد أن يعبر النهر . فتخبر الأمير محمود رحمه الله فأمر أن يأخذوا عليه الطرق . فلما علم بذلك كلجند استل سكينا وقتل نفسه ، فوقع جيش يمين الدولة على تلك القلعة ، وغنموا خمسة وثمانين ومائة فيل بحليتها ، وغنموا أموالا طائلة لا عد لها . ومن هناك توجه إلى قلعة

(1) «كدخداى» او «وكدخدا» او «كتخدا» هو الموكل بالشئون الخاصة ، ويكون له الحل والعقد ، فله سلطة تنفيذية بهذا .

(2) على الضفة اليمنى لنهر «كنكار ، بالكافين الفارسيتين ، في الجنوب الغربي لدهلي ، وذكرها ياقوت بأنها موضع في بلاد الهند .

(3) كذا في النسخة الايرانية والتي بأيدينا ، الا أنه أثبت في الفهرس العمومي للايرانية بدون باء هكذا (كوره) ولم يعلق عليه في الجميع .

(4) وردت في النسختين « ترنه » وفي اليميني طبعت « بربه » ويستظهر الناشر ان تكون برنوه ، لكن ولاية «برن» كانت مشهورة .

(5) يذكر عنصري في طبقاته والعتبي ان Hardat كان قد أسلم . ن .

(6) كان رباطا لمدينة « اكره » .

(7) بالجيم الفارسية ، وفي ابن الاثير واليميني « كلجند » كما في تعليق على الايرانية

(8) نهر بالهند معروف .

ماتوره (1) (ورقة 120 آ) وهي مدينة عظيمة وبيت صنم الهنود ، ويقال أن "كشن" بن "باسديو" الذي يعتقده الهنود نبيا لهم ، كان من ماتوره هذه .
فلما وصل الأمير محمود رحمه الله إلى ولاية ماتوره هذه ، لم يستقبله أحد بحرب ، فأمر أن ينزل الجيش إلى تلك الولاية ، وأن يهدموا كل مكان يكون بيت أصنام ويحرقوها وحملوا مال تلك الولاية غنيمة . وقد حصل للأمير محمود من بيوت الأصنام تلك وخزائن تلك الديار أموال طائلة لا مثيل لها وأصاب حبة من الياقوت، كحلية ، تزن أربعمائة وخمسين مثقالا (2) وعلى كل حال ، فإنه لم ير إنسان مثل هذه الجوهرة ، أما الأصنام التي كانت من الذهب والفضة ، فلا حصر لها ولا مثال ، وقد أمر الأمير محمود رحمه الله ، بأن يحطموا صنما ذهبيا ، ويزنوه ، فكان ثمانية وتسعين ألف وثلاثمائة مثقال من الذهب المسبوك ، وقد حصل كثير من مثل هذا المال والجواهر بتلك الجهات وكانت هذه الفتوح (3) في ثامن شعبان سنة تسع وأربعمائة .

ولما تمكنوا من "راى" قنوج (4) عاد من هناك سريعا ، وفي الطريق الذي كان يأتي فيه من قنوج إلى غزنين ، كانت تتقدمه خزائن "جند راى" (5) وفيها مال عظيم ، وكان لجندراى هذا فيل هائل شهير لدرجة أنهم كانوا في الهند كله يضربون المثل به ، وكان الأمير يمين الدولة قد سمع بأسم هذا الفيل ، فأراد أن يشتري هذا الفيل ، بأي ثمن كان يطمع فيه ، حتى ولو طلب خمسون فيلا بدل ذلك الفيل وحده لكان يعطيها ، ومن الاتفاق الحسن ، أن هذا الفيل قد فر في الطريق من قدام جندراي ، وجاء بدون فيال إلى مثوى يمين الدولة ،

---

(1) متوره هي الان بنفس الاسم واقعة على 53 ميلا ، شمالي «اكره»
(2) كتب الناشر ازاءه «كذا» وهو واضح
(3) بالاصل « اين قنوج » وهو تصحيف « اين فتح »
(4) « راى » بمعنى امير او زعيم ، كما يبدو
(5) بالجيم الفارسية ، كان احد كبراء الهند بقلعة «شروه»

فلما رأى الأمير محمود ذلك ، شكر الله (ورقة 120 ب) تعالى ، وسمى دلك الفيل "خداداد" (1) . ومن هناك أمر بالعودة إلى غزنة ، مع الفتح والنصر والغنائم الكثيرة .

وهكذا يقول الثقات ، إنه في تلك السنة عدت الغنائم من حملة قنوج ، فيما حمل الأمير يمين الدولة ، فكانت نيفا وعشرين ألف ألف درهم ، وثلاثة وخمسين ألف مملوك ، ونيفا وثلاثمائة وخمسين فيلا

ولما طلع عطارد (2) لسنة عشر وأربعمائة ، قصد الأمير يمين الدولة رحمه الله "ننـدا" (3) لأنه كان قد سار إلى راجبال ، أمير قنوج فأحسن إليه ، حيث انهزم من وجه جيش محمود ، واستقبل "تروجيبال" (4) الذي نصره وأعاد الجيش إلى ولايته . فلما وصل الخبر بمجيء محمود رحمه الله ، إلى تلك الديار ، عبر "جيپال" (5) من كنك (6) وتوجه إلى "بارى (7) ، فعبر يمين الدولة النهر ، ورد تلك الجيوش كلها على أعقابها ، وفر جيبال (5) ، مع جماعة من الهنود ، فلم يعودوا مرة أخرى إلى التعرض لمحمود .

ثم قصد مدينة باري ، فوجدوا المدينة خالية من الناس فأحرقوا كل بيوت الأصنام ، وأغاروا على كل ما وجدوا ، وزحف الجيش من هناك على ولاية ننـدا ، وعبر من نهر

---

(1) معناه «عطية الله»

(2) يفهم من هذا أن محمودا كان كمعاصريه ، يعتمد على علم احكام النجوم ، وله في هذا حكايات نجد بعضها في كتاب « جهار مقالة »

(3) امير من أمراء الهنود ، وكان اسمه «كندا» بالكاف الفارسية ، كما يقول الناشر :
His name was Ganda. See Epigraphica Indica, I, 295-307.
اما «راجبال» بالباء الفارسية فقد اثبته هكذا :
Rajyapal. cf. V. A. Smith : Early History of India, 383.
ولكنه في النسخة الايرانية «تروجنبال» بالباء الفارسية ، كما تقدم ، وبالنون

(4) بالباء الفارسية ، وكان بالاصل « جيبال » فعلق عليه الناشر ، بقوله :
Probably a mistake for تروجيبال or Trilocanapal .

(5) كذا بالاصل ، والصواب « تروجنبال » كما هو مثبت في الايرانية

(6) بالكافين الفارسيين ، وهو واد في بلاد الهند معروف

(7) على الضفة الشرقية لنهر كنج ، المذكور ، وكان عاصمة لحكام تلك النواحي ، كما نقل عن المسعودي .

" جند" (1) العظيم ، وتلقى "تندا" خبر مجيء جيش الإسلام ، فتهيأ للحرب ، وحشد جيشا عظيما حوله ، وهكذا يقال ، إنه كان في جيشه ستة وثلاثون ألف فارس وأربعون ومائة وخمسة آلاف راجل ، وست مائة وأربعون فيلا وما يقابل هذا الجيش من السلاح (ورقة 121 ب) والذخيرة والعلف.

فلما اقترب منه الأمير محمود عبأ الجيش ونظم الميمنة والميسرة والقلب والجناحين والساقة ، ووجه الطلائع ، ونزل هو آخذا بالحزم والحيطة ، ثم وجه رسولا إلى "تندا" يعده ويوعده ويحذره ، موجها إليه الإنذار والإعذار "أن اسلم تسلم من كل سوء وضر" فأجاب نندا " إنه لن يكون معك إلا الحرب "

وقد سمعت من بعد الثقات ، أن الأمير يمين الدولة رحمه الله ، طلع ذلك اليوم ليشاهد جيش "تندا" فاطلع عليه ، فرأى عالما من الخيام ، ومتون المطايا والسرادقات ، والفرسان والمشاة والأفيال ، فألقى في روعه شيء من الندامة، ثم استعان بالله وطلب الظفر من الله تعالى فلما جن الليل ألقى الله تعالى الرعب والفزع في قلب "تندا" ، فجمع جيشه وانسحب .

فلما انتهى الرسول إلى معسكر "تندا" لم يلق به ديارا (2) فالمعدات قد حملت والرجال قد انسحبوا ، والخيل والفيلة قد سيرت .

فعاد الرسول وأخبر الأمير محمود بذلك ، فأمر بأن يوجه في هإثرهم العيون ، فعاينوا مؤخرات الجيش وقد ذهبوا جميعا ، فشكر الأمير محمود يمين الدولة ، الله عز وجل ، وأمر بالاغارة على معسكر نندا ، فوقعت الغارة واستولوا

---

(1) بالجيم الفارسية
(2) وردت هذه الكلمة العربية في النص ، فأبقينا عليها ، وهي قرءانية «رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا » فسرت في التعليق بالفارسية «شهر نشين» اي المقيمين بالمدينة ، ولا وجه لهذا التخصيص بالمدينة ، كما هو واضح من الآية الكريمة

على مال كثير من كل نوع ، ثم عاد من هناك إلى غزنين بالظفر والنصر . وفي الطريق تراءت لهم بيشة (1) فدخل الجيش البيشة "ورقة 121ب) فوجدوا في تلك البيشة خمسمائة وثمانين فيلا لنندا فأتوا بها كلها وساقوها إلى المعسكر . ثم ورد الخبر على الأمير يمين الدولة بأن هناك نهرين أحدهما يدعى قيرات والآخر نور (2) ، وأن تلك الجهات محكمة وأن قومها كفار وعباد أصنام . فقصد يمين الدولة ذينك النهرين في جيشه ، وأمر حتى توجه جماعة العملة من الحدادين والنجارين والحجارين (بمطارقة لتكسير الحجار) مع الجيش ، فمهدوا الطرق وقطعوا الأشجار وكسروا الصخور . فلما وصلوا هناك ، قصدوا أولا قيرات ، وقيرات مكان منزه ، وأهله عباد الأسد ، وهواؤه بارد وهو وافر الفواكه العديدة ، فلما تخبر شاه قيرات أتى ماثلا وقدم الطاعة وطلب الأمان . فاستقبله الأمير محمود رحمه الله ، وأكرم وفادته فأسلم شاه قيرات ، كما أسلم ناس كثيرون من قيرات . واستجابوا مع ذلك الملك لتعاليم الأساتذة ، وشرعوا يتلقون شرائط العلم والشريعة . ولكن أهل "نور " تمردوا ، فأمر الأمير محمود رحمه الله الحاجب علي بن إيل أرسلان القريب أن يذهب إلى نور . ففتحه وبنى القلعة ، وأعطى رباط تلك القلعة علي بن قدر الحوقي وأمره أن يضع سيف الإسلام بالعنف والإكراه في رقابهم ، فتقبلوه طوعا أو كرها ، وانتشر الإسلام في تلك الديار (ورقة 122 آ) ، وكان فتح نور وقيرات هذا في سنة إحدى عشرة وأربعمائة .

---

(1) وردت الكلة كذلك بنصها ، فأثرنا الابقاء عليها ، وهى الماسدة ، وسمى بهذا ايضا واد بطريق اليمامة ، فهي عربية اصلا

(2) بولاية كشمير ، قيل غير هذا ، وفي تعليق على الايرانية : ان دره نور ، واقع الان على فم انهار كز ، وهنا مع برور تزك نفسها ، مكان يذكر باسم قراتو ، وهو واقع بين ذلك وبين ولغمان كوتل باديس (بالباء الفارسية) ولكن كتاب تيرت (جعلوها) «لكهرات» (بالكاف الفارسية) على II ميلا من «كوهاله» الواقعة بولاية كشمير ، ونور لناره واقع مقام شمال الضفة ، غير انه في كتاب الهند للبيروني ، ذكر ان نهرى نور وقيرات من روافد نهر كابل ، وحتما يكون الان نهر كز (عن طبقات ناصرى)

فلما حلت سنة اثنتي عشرة وأربعمائة ، قصد كشمير ورابط على حصن "لوهر كوت" وأقام هناك شهرا وبسبب أن تلك القلعة كانت غاية في الإحكام والمنعة فإنه لم يستطع فتحها ، وفي تلك السنة لقي مصيره الأمير نصر بن ناصر الدين رحمه الله . وكان الأمير يوسف بن ناصر الدين قد ذهب إلى يمين الدولة . فلما لم يكن ممكنا فتح "لوهركوت" ، خرج من ذلك الوادي ، وتوجه إلى جانب لوهرتكيشر (1) و فرق الجيش حتى يغزوا في تلك الوديان ، فلما حل الربيع توجه إلى غزنين . فلما أتت سنة ثلاث عشرة وأربع مائة ، قصد الأمير محمود رحمه الله ولاية نندا (2) فلما وصل إلى قلعة كواليار (3) طوق تلك القلعة وحاصرها ، وأمر الجيش أن يأخذوا عليها نواحيها ، وحيث إن تلك القلعة كانت منيعة محكمة ، مقامة على شاهق فإنها ، بهذه المناعة التي كانت عليها لم يكن يد للحفارين والرماة بها ، ولم يكن ممكنا الاستيلاء على تلك القلعة وقد بقي الأمير محمود رحمه الله هناك أربعة أيام بلياليها .

ثم إن قائد الحصن أرسل رجلا وطلب الصلح ، وأعطى خمسة وثلاثين فيلا ، فرجع جيش يمين الدولة من هناك وذهبوا صوب كالنجر (4) حيث كانت قلعة "نندا" ، وكان نندا في تلك القلعة مع جميع الحشم والحاشية والخاصة ، فأمر الأمير (ورقة 122 ب) محمود بأن يحدقوا بتلك القلعة فتوجه جيشه إليها ، وأحكموا التدبيرات. لأن تلك القلعة كانت في مكان عال جدا ومنيعة (5) ، ولهذا لم تكن هناك طريق للحيلة والشجاعة إليها ، وأيضا فإن بناء القلعة كان على شاهق بحيث إنه لم يكن هناك وجه للحفر أو النحت ولم يكن لليد تدبير آخر ، فأقام

---

(1) تاكيشر ، كانت واقعة قريبة من لاهور ، كما في تعليق الايرانية ولوهور مثلها أيضا.
(2) تقدم أنه «كندا» بالكاف الفارسية احد الامراء
(3) بالكاف الفارسية ، في جنوب «اكره »
(4) في الجنوب الغربي لآله اباد ، بالهند ايضا تردد ذكرها عند بيهقي
(5) «برجاي سخت بلندومنيع بود»

(الجيش) تحتها وظل هناك بضعة أيام ، فلما شاهد "نندا" أن ذلك الجيش قد اكتظ (محدقا) ، وكانوا قد أخذوا كل الطرق ترددت الرسل بينهما (1) فتكلموا في معنى الصلح ، واتفقوا على ذلك ، أن نندا يعطي الجزية ، ويرسل في العاجل هدية برسمها ، ويسلم ثلاث مائة فيل بحليتها.

لقد سر نندا بهذا الصلح ، وأمر في الوقت بالثلاثمائة فيل ، حتى تساق من القلعة بدون فياليها ، وأمر الأمير محمود رحمه الله ، حتى يستعد الأتراك وأصحاب العسكر ، ويمسكوا تلك الفيلة ، فيمتطوها ، وكان أهل الحصن ينظرون ، فتعجبوا كثيرا من شجاعتهم تلك .

ثم إن نندا قال شعرا ، ووجه إلى الأمير محمود باللغة الهندية ، فأمر الأمير محمود رحمه الله حتى يعرض ذلك الشعر على جميع شعراء الهند والفرس والعرب . فكلهم (ورقة 123 آ) استحسنوه ، وقالوا : إن كلاما أبلغ من هذا وأطنب لا يمكن أن يكون . فابتهج الأمير محمود بذلك ، وأمر بأن يكتبوا قرارا لنندا بالإمارة على خمس عشرة قلعة ، ووجهوه إليه ، قائلا : "هذه صلة ذلك الشعر الذي نظمته فينا" . ووجه مع ذلك كثيرا من الأشياء ، ومن الطرائف والجواهر والخلع ، كما أن نندا أرسل مالا كثيرا وجواهر . وعاد الأمير محمود رحمه الله بالفتح والظفر من ذلك المكان ، وأتى إلى غزنين .

وفي سنة أربع عشرة وأربعمائة أمر بأن يعبئوا الجيش فجاء أربعة و خمسون ألف فارس ، وحضروا العرض في صحراء "شابهار" (2) وكانوا صادرين من فرسان كانوا بأطراف المملكة ، إذ كانوا شرطة النواحي . وتم عدد الفيلة ثلاثمائة وألف

---

(1) « رسولان اندرميان كرد » .

(2) شاه بهار = «وهاره» يعني معبد ملكي كما في تعليق على الايرانية ، وكان في أطراف كابل شاه بهار ، وقد فتح جيش الفضل بن يحيى البرمكي شاه بهار كابل هذا، وكان فيه صنم يعبد ، وكان هناك عدة شاه بهارت، بغزنة وكابل ، فحطمت وأحرقت، اما صحراء شابهار التي ذكرها المؤلف فذكرت للبيهقي وعلق عليها ، بأنها لعرض

فيل ، مع الآلة التامة وأحمالها التي كانت قد عبئت تلك التعبئة بها . أما البهائم مثل الجمال والأفراس فلم يكن لها عد .

فلما حلت سنة خمس عشرة وأربع مائة ، قصد الأمير محمود رحمه الله بلخ ، فجاء إليها ، وكان الشتاء ، فلما انتهى إلى بلخ ، كان دائما يأتي إليه من جانب ما وراء النهر المتظلمون من علي تكين . وكانوا يشتكون من علي تكين ، أنه ارتكب كثيرا من الجور ، ونال كثيرا من الناس بالأذى ، وقاسى الرعايا وأهل الصلاح منه بلاء . فلما عظم التظلم ، قصده الأمير محمود ، وأخذه بما كان قد ارتكب ، ووضع عن أولئك المسلمين ، ذلك البلاء ، وكانت أيضا له رغبة في أن يعبر جيحون ، فيطالع تلك الديار ، فوقع التدبر في ذلك وقال "إذا نحن عبرنا بالسفن ، فربما يقع خلل" (ورقة 123 ب) فبقي هناك بضعة أيام ، حتى اتخذت الوسائل لذلك (العبور) وكانت هكذا : أنه أمر باتخاذ سلاسل سميكة ، من ذكر وأنثى (1) وكانت كل واحدة مقدار ذراعين ، وثلاثة أذرع ، فجعلت تلك السلاسل في جلود البقر ، وأتى بالسفن ، فربطوا كل واحدة بأخرى ، في عرض جيحون ، بهذه السلاسل ، الذكر والأنثى ، وركبوها في تلك على القرينات ، وقد أحضروا من سجستان أليافا قوية ، بحيث إن كل جمل كان يحمل ليفا ، وبتلك الألياف ربطوا أيضا السفن ، وملأوا تجاويف السفن بالحشو، بحيث إن الفرسان والمشاة والجمال والأفراس والحمير تمكنت بسهولة من العبور عليها ، فكان للجيش عبور على هذه القنطرة ، وعبر (محمود) هو نفسه .

فلما وصل الخبر بأن يمين الدولة بما وراء النهر ، وقعت لأهل تلك الديار هزاهز (2) واستولت على ملوك

(1) يعني من حلقات متدخل بعضها في بعض ، وهو استعمال ، معروف في مثل هذه الادوات الحديدية والخشبية ونحوها عندنا .

(2) هكذا وردت الكلمة عربية ، ومعناها الفتن التي تهز الناس ، وقد صحفت في ا ، هزار هنر ، كما ذكر الناشر .

تلك الأقاليم ، وكان أمير الصاغانيان أول إنسان أتى إليه مقدما الخدمة ، مع جيشه كله ، وعرض نفسه عليه ، وقدم كل ما استطاع من طاعة ، ثم جاء خوارزمشاه الحاجب ألتونتاش " مع جميع جيشه إلى الأمير محمود ، فأمر الأمير محمود بأن يقام سرادق عظيم ، بحيث إن ذلك السرادق قد احتوى عشرة آلاف من الفرسان . وضربوا سرادق لخاصته كان من الديباج الشستري الأحمر ، وكان تأثيثه وستائر الأفراس من نسيج الديباج .

ثم أمر بأن يعبئوا الجيش ، وأن يتخذوا الميمنة والميسرة والقلب والجناحين ، وأمر بأن يجعل في مؤخرة كل تعبئة دارا للصناعة (ورقة 124 آ) والأفيال مع راكبيها ، والسروج يقيسونها . ثم أمر بالأبواق والدبدبات والطبول والطبلات تقرع دفعة واحدة ، وعلى ظهور الأفيال "التهالي" (1) والطبول العظيمة (2) والأبواق "الشبورات" والحلزونية ، والنقارات الكبار (3) والسجور يقرعونها ، فصارت الدنيا ، من أصواتها التي تصم الآذان ، قائمة ، ودهش الناس ، وحضر كل إنسان من تركستان وما وراء النهر إلى ذلك المعسكر ، وانبعثت فيهم الاحاديث(4) .

ملاقات يوسف قدرخان مع السلطان محمود رحمهما الله

لما علم قدرخان الذي كان القائد الأعلى لسائر تركستان، والخان الأعظم (لها) بعبور يمين الدولة من جيحون ، توجه من كاشغر وقصد لقاء الأمير محمود ، ليأتيه فيراه ويجدد له العهد . وهكذا ذهب من كاشغر إلى سمرقند، ومن هناك تقدم على سبيل الصلح والود حتى وصل

---

(1) طبق واسع عظيم معدني ، عن «قاموس هندي

(2) كانت تقرع على ظهور الافيال ، « اينه فيلان » ، أما « مهره سبيد » فهو المعروف في العربية بشبور ، وهو نوع من الابواق ، المعروف في الانجليزية باسم Clarion

(3) « شندف » بوزن اشرق يقول الشاعر فرخي :

تا بدر خانة تو بركة نوبت   سيمين شندف زنند وزرين مرنار

ففسروا «شندف» بالطبل العظيم والنقارة الكبيرة ، وحيث تقدم ذكر الطبول العظيمة، فقد اقتصرنا على النقارات وقد أحال الناشر على Barthold

(4) ا. كفيدكويند ، الكاف الفارسية ، ف . بخواست كفتد ، واصلحها الناشر هكذا (كفيد) واثبتت كذلك في الايرانية .. اما « بارتولد » فقد جعله « بخواست كفتن » فاعتمدنا هذا في ترجمتنا

بفرسخ إلى معسكر الأمير محمود، فنزل هناك، وأمر بأن يضربوا السرادق وأرسل الرسل، فأخبر الأمير محمودا رحمه الله بمجيئه وأبدى اشتياقه لرؤيته، فأجاب الأمير محمود بمقتضى ذلك جوابا حسنا، وعين المكان الذي سيلتقيان فيه.

ثم إن الأمير محمود رحمه الله أتى مع فرق من الفرسان وأتى قدر خان كذلك مع فريق من الفرسان، إلى ذلك المكان، فلما شاهد كل منهما الآخر ترجلا، وكان الأمير محمود رحمه الله قد سلم مجموعة جوهر قيمية جدا مع عمامة إلى صاحب الخزينة (1) وأمر أن توصل إلى يد قدرخان، وكان قدرخان قد جاء كذلك بجوهر ومن الرعب والفزع الذي حل به (2) ذهل (عن تقديمها) فلما رجع من وجهة محمود (ورقة 124 ب) تذكر، فوجه مع أحد رجاله ذلك معتذرا وعاد أدراجه. فلما كان اليوم التالي، أمر الأمير محمود رحمه الله أن يضربوا خيمة عظيمة من الديباج المنسوج وأن يهيئوا ما يلزم وأرسل مضيفا ورسولا ودعا قدرخان إلى ضيافته.

صفة المجلس والضيافة

فلما جاء قدرخان أمر أن يعدوا مائدة بكل ما لذ وطاب، وطعم الأمير محمود رحمه الله معه على مائدة واحدة، فلما فرغوا من المائدة، توجهوا إلى مجلس الطرب، وكانوا قد زينوا مجلسا، بديعا جدا، قد حف بغريب زهر الحبق، ولذيذ الفواكه وفاخر الجواهر ومذهب المفارش وبديع المرايا والبلور النادر، بحيث إن قدرخان دهش من ذلك، وظلا واقفين، ولم يتناول قدرخان الشراب، لأنه لم يكن من

1) «خزينه دار» كانت مثل هذه الالقاب معروفة انذاك، ولهذا نجدها بلفظها موجودة في كتبنا العربية، مثل ابن الاثير وهذا اللقب مؤلف من كلمة عربية ومادة فارسية من «داشتن، دار» مصدر الامتلاك ومادته، كما اثبتناه، ونحو هذا التركيب شراب دار، ورسولدار، وركابدار، ومعدل دار، ووكيل دار، بمعنى الموكل بالشرب، وضيافة الرسل، والركائب، والمحاسب ووكيل البلاط، وهو الذي يوفده حكام الاقاليم الى بلاط السلطان في مهام الدولة

2) ابقينا على الكلمتين كما هما في الاصل « ازرعب وفزع كه بدورسيد » والمراد بهما الانبهار

عادة ملوك ما وراء النهر أن يتناولوا الشراب . خاصة ملوكهم الأتراك أولئك (وبقوا). مدة ينصتون إلى السماع ثم نهضوا .

ثم أمر الأمير محمود رحمه الله ، أن يحضروا كل ما يلزم للنثار (1) من الأدوات (2) الذهبية والفضية والجواهر الفاخرة والطرائف البغدادية والملابس الجميلة والأسلحة الفائقة ، والخيول الكريمة بسروجها ولجمها الذهبية وبعصيها المرصعة بالجواهر ، مع عشرة فيلة محلات بالمذهبات والعصي المرصعة بالجواهر ، والجمال البردعية (3) مزينة ببندقات مذهبة وكانت هوادج الجمال بالأحزمة والأهلة الذهبية والفضية ، والجلاجل والهوادج من نسيج الديباج ، والأنسجة والفروش الفاخرة ، من المحفوريات (4) الأرمنية ، والقاليات (5) الأويسية (ورقة 125 آ) والثياب البوقلمونية وفضل النسج والمنسوج والطبرية المعلمة الموردة (6) والسيوف الهندية ، والعود القماري والصندل المصفري والعنبر الأشهب والايائل (7) وجلود النمر البربرية وكلاب الصيد والصقور والعقبان الهائلة والغرانيق على الكراكي والغزلان والوعول ، فأعاد قدرخان بإعزاز وتلطف معه كثيرا واعتذر إليه (8) .

فلما انتهى قدرخان إلى معسكره ، ورأى ذلك الذي بهره من أصناف الطرائف والأسلحة والأمتعة لم يدر أية مكافأة تفي بما صنع ، ثم أمر صاحب الخزينة أن يفتح الخزينة ويخرج منها أموالا طائلة ويوجه بها نحو الأمير

1) وردت في النص «نثاری» وهي ما يوزع على الحضور من هدايا وينثر عليهم .

2) قرأها Barthold : « أونيهات » أي الاواني ، وهو رجيه

3) نسبة الى بردعة بارمينية ، اشتهرت بالجمال الجميلة ، فكانت تجلب منها ، وذكرت بالذال في معجم البلدان ، وهو مركز ملوكي كان بها .

4) نسبة الى محفور ، مدينة على ساحل الابيض المتوسط ، كما نقل عن منتهى الارب، اشتهرت هذه الفرش بها ، في الشرق .

(5) في الاصل : وقالى هاء اويسى .

(6) بالاصل «مورر» وهو تصيف مورد ، اذ كانت الورود ترسم عليها وصححه Barthold

7) بالاصل « كوران ماده » بالكاف الفارسية ، فاستظهرنا أن تكون « كوزن ماده »

8) ترد هذه العبارة على لسان المحسنين ، والمراد انهم يدعون تقصيرهم في هذا الاحسان ، فيعتذرون الى من احسنوا اليه ، مبالغة منهم في الاكرام .

محمود مع أشياء كانت تركستان تنتجها من الأفراس الجيدة مع النثار والآلة الذهبية والغلمان الأتراك الممنطقين المنبلين بالمذهبات والبيزان والشواهين وأوبار السمور والسنجاب والقاقم (1) والثعالب والأواني المصنوعة من أضلاع الكركدن (2) وطريف الديباج الصيني والخار صيني (3) وما يشبهه هذا .

وهكذا انفصل كلا الملكين عن الآخر ، برضي وصلح وخير.
فلما تخبر علي تكين (بذلك) فر وسار إلى الصحاري . ونصب الأمير محمود المخبرين ، على جهات علي تكين ، فجاءوا بالخبر ، أن إسرائيل بن سلجوق قد اعتصم ببعض الجهات . فأرسل يمين الدولة أناسا ، أخرجوه من هناك فوجهه إلى غزنين ومن هناك أرسله إلى الهند ، فكان آخر العهد به هناك .

ثم أتوا بخبر أن عيال وأبناء (4) على (ورقة 125 ب) تكين سيذهبون على إثره ألى الصحاري فوجه الأمير محمود رحمه الله الحاجب بلكاتكين في طلبهم ، فذهب بفرقة من الخيل حتى تمكن من امرأة وبنت وابن علي تكين ، وأتى بهم إلى الأمير محمود وكان هذا سنة ست عشرة (5) وأربع مائة .

ابتداء (أمر) الأتراك السلاجقة

وفي هذا الوقت كان الأمير محمود بما وراء النهر ، فكان جماعة من القواد ورؤساء الجيش لتركستان يفدون ويشكون من ظلم أمرائهم إياهم ، ومن الأضرار التي كانت تحل بهم . قالوا ! إننا أربعة آلاف أسرة فإذا صدر الأمر من سيدنا لنابان نعبر من النهر لنتخذ خراسان وطنا لنا ، فإنه

1) حيوان من فصيلة السموريات تصنع من جلوده فراء جيدة غالية
2) كان محمود يتفاءل بألواح الكركدن فهي «جلابة الممالك»
(3) بالاصل « دارخاناك جيني » بالجيم الفارسية
(4) بالاصال «بنه» كما سيتكرر ذكرها فيما ياتي .
(5) بالاصل « سنة ست وعشر واربع مائة »

ستكون له منا راحة ، وستنمو ولايته بنا ، فإننا رجال صحراء ولنا مواش كثيرة ، وفي جيشه يكون منا ذكر .

فوقعت رغبة الأمير محمود رحمه الله ، أن يعبرهم من النهر ، فانشرح صدرهم ، وبدت لهم الرغاب الحسان ، وهكذا أعطى المثال بأن يعبروا النهر ، فعبر بناء على أمره ثلاثة آلاف بيت برجالهم ونسائهم ومتاعهم ومواشيهم وجمالهم وخيولهم وبغالهم على التمام . فنزلوا في صحراء سرخس وصحراء فراوه (1) وباودر ، وضربوا الخيام الأميرية (2) وبقوا هناك في نفس المكان .

فلما عبر الأمير محمود النهر ، تقدم إليه أمير طوس أبو الحرث أرسلان الجاذب ، وقال لماذا أتيت بهؤلاء التركمان إلى ولايتك (ورقة 126 آ) إن ما فعلته كان خطأ ، فاقتل الآن جميع من أتيت بهم ، أو كل ذلك إلي حتى أقطع اصابع ذكورهم ، فلا يستطيعون أن يرموا بالسهام .

فتملك الأمير محمود رحمه الله العجب من ذلك ، وقال ، أنت رجل غير رحيم ، وذو قلب قاس (3) جدا فقال أمير طوس ، فإذا لم تفعل فإنك ستتجرع غصص الندم وهكذا كان ، فإنه حتى هذه الغاية لما يأت منهم صلاح .

ثم جاء الامير محمود رحمه الله من بلخ الى غزنين . فأقام هناك الصيف فلما اقبل الشتاء ، توجه كما هو عادته ومعهود منه إلى الهند للغزو . وقيل له : إنه على ساحل البحر المحيط مدينة عظيمة ، تدعى سومنات (4) وتلك المدينة بالنسبة للهنود بمثابة مكة للمسلمين ، وبها أصنام كثيرة ، من الذهب والفضة ، كانوا قد هربوا

---

1) بالاصل «فرا» صححها الناشر ، وهي من اعمال نسا

2) « خركاه » بالكاف الفارسية الخيمة او مضرب الخيام .

3) بالاصل «سطبر دلي» وهو «ستبر دلي» اي غليظ القلب ، او خشن القلب

4) واقعة شمالي دلهي بسبعين ميلا ، وهذه المدينة ، تردد ذكرها جدا في ذكر محمود ، يقول الانوري :

شاد باش أي عنصر محمود يان را روى تو   رو كه محمود عصري ما بتان «سومنات»

أيام سيد العالم صلى الله عليه وسلم مناة من الكعبة بطريق عدن إلى ذلك المكان (1) وهناك ذهبوه وحلوه بالجواهر ، ووضعوا في بيت ذلك الصنم أموالا طائلة بخزائنه ولكن الطريق إليه صعب ومليء بالأخطار (2) والمخاوف والمشاق الكثيرة .

فلما سمع الأمير محمود هذا الخبر ، وقعت رغبته على أن يذهب إلى تلك المدينة ، ويحطم تلك الأصنام ويغزوها ، فتوجه من الهند إلى سومنات ، فلما وصل إلى المدينة ، رأوا هناك الشمنان (3) والبرهمان (4) ، منهمكين جميعا في عبادة الأصنام . فخرج القائد الأعلى لتلك المدينة منها ، وركب (126 ب) في سفينة مع عياله ومتاعه وتوجه إلى البحر ونزل بجزيرة ، وبقي هناك مصمما أنه مادام جيش الإسلام لا يذهب من تلك الديار ، فانهم لن يخرجوا من تلك الجزيرة .

فلما اقترب جيش الإسلام من تلك المدينة ، حاصروا أهل تلك المدينة ، وقامت الحرب (بينهم) فلم يمض وقت كثير حتى فتحوا الحصن وانقض عليه جيش محمود وقتلوا (كثيرا) فقُتل كل من كان أشد نكرا وأكثر كفرا ، وأمر الأمير محمود رحمه الله أن يؤذن المؤذن على كوم رؤوسهم (5) للصلاة . وهكذا فقد كسروا تلك الأوثان جميعا

---

1) هذه قصة عجيبة ، ولا ندري صحتها من وقائع التاريخ ، وكنت قد اطلعت عليها في كتاب « الأدب الفارسي في العصر الغزنوي » لعلي الشابي التونسي ، فاستغربتها، في كتابتي على كتابه القيم .

2) يتردد الخطر في الفارسية بمعناه المعروف الآن ، ولكن التركية ، تستعمل تهلكة بذلة ، وهو من المخاطرة ، كما هو في قول حنظلة البادغيسي :

مهتري كر بكام شير در است شو خطر كن ز كام شير بجوى

(ان كانت العظمة في شدق الاسد فاذهب وخاطر وانشلها من شدق الاسد)

3) جمع «شمن» وهو الكاهن

4) جمع « برهمن » وهو عالم الدين ، نسبة الى براهما الاله الاعلى في معتقد قدماء الهنود ، وقد امتزجت ديانته بالبودية ، فيما بعد ، ولها الآن في الهند حظوة عظيمة ومكانة عالية .

5) هو ما فعله بعد هذا بنحو ستين سنة ، يوسف بن تاشفين ، في موقعة الزلاقة .

وأخرقوها وأعدموها ، واقتلعوا ذلك الصنم الحجري "مناة" من الأساس ، وحطموه إربا إربا ، ووضعوا بعضا منه على جمل وأتوا به إلى غزنين ، حتى ألقوه بهذه البقية في مسجد غزنين .

وكان هناك كنز تحت الأصنام ، فاستولوا على ذلك الكنز ، وحصلوا على مال عظيم من ذلك ، كما كانت الأصنام من فضة وبها جواهر وكانت الكنوز ما أعظمها فعادوا بغنائم من هناك وكنوز أخرى .

وكان سبب ذلك أن بهيم ديو (1) الذي كان ملك الهنود كان في الطريق ، فقال الأمير محمود : "إنه لا يليق أن تصيب العين (2) هذا الفتح العظيم " فلم يأت من الطريق المستقيم ، وأخذ دليل ذلك الطريق ، وتوجه نحو ملتان من طريق المنصورة (3) وساحل سيحون ، وفي ذلك الطريق كان التعب قد استولى على الجيش جدا، بعضهم من الصحراء القاحلة وبعضهم من جتان (4) السند ، وهلك من كل نوع قوم كثير من جيوش الإسلام في ذلك الطريق ، كما هلك كثير من البهائم ، إلى أن وصلوا إلى ملتان . ومن هناك توجهوا إلى غزنين (ورقة 127 آ) وكأن مجيء الأمير محمود رحمه الله إلى غزنين بجيشه سنة سبع عشرة وأربعمائة .

---

(1) بالاصل «برم ديو» بالباء الفارسية ، ولكنه مثبت في قصيدة فرخى التي قالها في فتح سومنات كذلك وهو اسم لراجه الذي تقاتل مع محمود ، وفي مصادر أخرى « بهيم التي تقدم ذكرها ، مقابلة للجرجانية .

(2) هكذا بالاصل «نبايد كه اين فتح بزركوار راجشم رسد» .

(3) هي بالسند بينها وبين الملتان أثنتا عشرة مرحلة ، كما يقول ياقوت ، وليست هذه التي تقدم ذكرها ، مقابلة للجرجانية .

(4) القاموس : الزط بالضم جيل من الهند ، معرب جت بالفتح ، والقياس يقتضي فتح معربه أيضا ، الواحد «زطي» وفي اللسان والتاج ، أن خالد بن عبد الله ، أعطى أبا النجم جارية من سبي الهند ، وله فيها ارجوزة اولها :

علقت خودا من بنات الزط

وقال الخوارزمي : هم جنس من السند ، يقال لهم جتان ، وفي معجم استنجاس ، أن « جت » اسم لجنس من الهنود حقير ، فهل الجيتان هؤلاء أصل للمعروفين بهذا الاسم في فرنسا ، وفي اسبانيا ، وقد ابدأت الجيم خاء ؟ ربما ،

وفي نفس السنة أتت رسل من قبل قتاخان ويغرخان (1) إلى الأمير محمود، وعرضوا خدمتهم عليه وعبروا عن التماسهم، بأننا نريد أن نربط المصاهرة بيننا. فأمر الأمير محمود بأن ينزلوا منزلا كريما، ثم أجابهم على رسالتهم، بأننا مسلمون وأنتم كفار، ولا يحل لنا أن نزوج بناتنا وأخواتنا منكم، فإن أسلمتم، فإن هذا الأمر يتحقق، وأعاد الرسل على سبيل الكرامة وحسن الضيافة.

وفي شوال سنة سبع عشرة وأربعمائة جاءت رسالة القادر بالله مع العهد واللواء لخراسان، والهند ونيمروز (2) وخوارزم، وجعل ألقابا للأمير محمود وأولاده وإخوته، فكان للأمير محمود لقبه بكهف الدولة والإسلام، والأمير مسعود لقب بشهاب الدولة وجمال الملة، وللأمير محمد جلال الدولة وجمال الملة وللأمير يوسف عضد الدولة ومؤيد الملة. وكتب له رسالة، فقال في تلك الرسالة إن أي إنسان تريد أن يكون ولي عهدك فاختيارك متفق عليه منا. وفيما يخص تلك الغزوات التي قام بها الأمير محمود فقد شكره القادر كثيرا عليها، وحمده كثيرا، وكان وصول هذا العهد واللواء والألقاب إلى بلخ. وكان للأمير محمود رحمه الله قد تمكن من قبله غضب عظيم تجاه جتان ملتان وبهاطية ساحل سيحون، على ما فعلوا في طريق سومنات من أعمال تجانب الأدب، وأراد أن يجازيهم على ذلك، فكبسهم، ثم لما كانت سنة (127 ب) ثمان عشرة وأربع مائة جمع مرتب الجيش الثاني عشر (3) وتوجه إلى ملتان. فلما وصل إلى ملتان، أمر أن

---

1) في الاصل «قياخان، ربغرخان» ومعناهما، صاحب قتا وصاحب يغر، وكان اسم سفير قتا «قلتنكا» وسفير يغر «قاشي» كما نقل عن كتاب طبائع الحيوان، لطاهر مروزي، اذن فهل قتا ويغر، قطران او مكانان ؟ يحيل عبد الحي حبيبي، على مقال له بمجلة اريانا وعلق الناشر بقوله : A اقياخان ولغرخان :
but cf. Qann'l - Mas'udi, ff. 92. 96 b.

2) تقدم ما فيه عن ياقوت

3) كذا بالاصل «مرتبة دوازدهم لشكر جمع كرد» وهنا علق الناشر بقوله :
Gardizi does not count the expeditions to Multan and Kashmir amongst those undertaken against India
لم يذكر الكرديزي حملات ملتان وكشمير ضمن التي اعدت للهند

يعدوا سفنا جيدة عدد أربع مائة وألف (1) وأمر أن يركبوا في كل سفينة ثلاث قذائف حادة ، قوية حديدية ، واحدة في الأمام على مقدمة السفينة ، واثنتان على جانبي السفينة ، فكانت كل قذيفة في غاية القوة والحدة ، لدرجة أنه كان يقذف على كل صوب بتلك القذائف ، وكان إذا أصيب شيء بها ، ولو كان قويا ، تحطمه وتمزقه وتحيله هباء منثورا وقد أمر بهذه الأربعمائة والألف سفينة ، أن تجري في نهر سيحون ، وأن يكون في كل سفينة عشرون رجلا بسهامهم وأقواسهم وقواريرهم ونفطهم فكانوا يصوبون نحو الأهداف .

فلما سمع الجتان بخبر مجيء الأمير محمود أخذوا أمتعتهم وحملوها إلى الجزر البعيدة المنال ، وجاءوا متجردين بالأسلحة وأربعة آلاف سفينة أجروها ، وبعضهم يقول ثمانية آلاف . وقد غصت كل سفينة برجال قد اقتعدوا بأسلحتهم التامة وعدتهم وتهيأوا للحرب . فلما التقى الفئتان ، كان رماة جيش الإسلام يرمون النبال، والنفاطون يلقون بالنيران. وعندما اقترب أسطول المحموديين من أسطول الجتان صدم مجموعة فيه ، فكسر أسطول الجتان كسرة هائلة فغرقت سفن منه وتحارب الجميع في ذلك اليوم هكذا إلى أن كسر فيه أسطول الجتان وغرق بعضه وانهزم .

وكانوا قد جعلوا على ساحل سيحون الفرسان والمشاة والفيلة ، ليكون كل من يخرج من النهر ، يتلقاه أولئك الفرسان والمشاة ويقتلوه ، وهكذا على ذلك الجانب من ساحل سيحون كانوا يخفون إلى أمتعتهم (128 آ) فيتمكنون منها ويغيرون على تلك الأمتعة ، وبذلك استرقوا كثيرا ، وعادوا من هذه الجهات بظفر ونصر إلى غزنين .

---

1) بالاصل «جهار وصدكشتي» اي اربع ومائة سفينة وفي الايرانية «جهار وهزار صد» «أي اربع والف مائة» فيكون تزحلق وحذف في العدد ، كما نرى .

فلما كانت سنة ثمان (عشرة) (1) وأربع مائة وصل أهل نسا وباورد وفراوه إلى الحضرة ، مشتكين من عبث التركمان وامتداد أيديهم في تلك الديار باستمرار ، فأمر الأمير محمود بالكتب إلى أمير طوس أبي الحرث أرسلان الجاذب رحمه الله ، وأعطاه مثالا بأن يسحق أولئك التركمان . ويكف أيديهم عن الرعايا ، فأنجز أمير طوس الأمر فيهم وداهمهم ، فاحتشد التركمان وتقدموا نحوه فحاربوه وقتلوا كثيرا من الرجال وجرحوا عديدا منهم ، وحاربهم أمير طوس ، بفرقة ، فلم ينل منهم شيئا ، ولم يرتفع ذلك التظلم والشكاية عن حضرة محمود رحمه الله بأية حال . ثم إنه أمر بالكتب إلى أمير طوس ولامه ونسبه إلى العجز ، فكتب أمير طوس الجواب ، أن التركمان قد أصبحوا أقوياء أشداء ، ولا يمكن أن يدرأ فسادهم إلا براية وركاب الخاصة، (2) فإذا كان سيدنا لا يأتي بنفسه ، لتلافي فسادهم ، فإن هؤلاء سيصبحون أقوى ، ويكون التدارك أشد إتعابا .

فلما قرأ الأمير محمود هذه الرسالة ، ضاق صدره ، ولم يقر له قرار ، فحشد الجيش ، وتحرك به من غزنين سنة تسع عشرة وأربع مائة ، فتوجه إلى بست ومن هناك ذهب إلى طوس ، فأتى أمير طوس لاستقباله . فلما مثل بين يديه سأله الأمير محمود أن يشرح له حال التركمان فصورها له على الحقيقة (128 ب) فأمر الأمير محمود رحمه الله أن يشكل فوج من الجيش بقيادة بعضهم لينضم إلى أمير طوس (وهكذا توجهوا) لمحاربة التركمان. فلما وصلوا قرب رباط فراوه لقي بعضهم بعضا فضرى التركمان ووالوا الحرب (3) . واستولت الحمية على الجيش فظفروا بهم ووضعوا السيف فيهم وقتلوا أربعة آلاف من فرسان التركمان المعروفين وأسروا كثيرا ، وانهزم

---

(1) سقطت من النسخ الثلاث ، وسياق الحوادث يقتضيها

(2) هي ركائب السلطان ، والقائم عليها يدعى «ركابدار خاص»

3) بالاصل « وتركمان دلير كشته بودند جنك بيوستند » بالكافين والباء الفارسية جميعا .

الباقي ، وساروا نحو بلخان (1) ودهستان (2) وقل عيشهم في تلك الولاية .

فلما فرغ قلب محمود رحمه الله من أمر التركمان قصد الري ، وتوجه نحو جرجان ، وكان سيره إلى جرجان بطريق نهر دينار زاري (3) . ومن هناك انحدر نحو الري .

وهكذا حكى لي معتمد (4) أن الأمير محمود رحمه الله وجه إيكوتكين (5) الحاجب مع ألفي فارس من نيسابور إلى الري ، ولم يعطه أي مثال . فلما انتهى إيكوتكين إلى منزلتين كتب إليه رسالة ، أن استقرا إلى أن يصل إليك الغازي الحاجب مع ألفي فارس ، وكذلك لم يعط مثالا الغازي ، فلما وصلا معا إلى خمسة منازل ، كتب رسالة إليهما أن استقرا إلى أن يصل إليكما علي الحاجب ، ولم يعط لعلي الحاجب أمثلة ووجه معه أربعة آلاف فارس . فلما وصل علي الحاجب هناك ، عبأ الجيش ، فجعل الميمنة مع إيكوتكين ، والميسرة للغازي الحاجب ، ولنفسه القلب ، وتوجهوا على تلك التعبية إلى باب الري .

فلما انتهى الخبر إلى أمير الري شاهنساه مجد الدولة أبو طالب (ورقة 129 آ) رستم بن فخر الدولة ، ظن أن الأمير محمود قد جاء بنفسه ، ثم أن أبا طالب خرج مع مائة فارس من الحشم والخاصة والأقرباء له ، وبقي مع جماعة من المشاة الملازمين للركائب ، (6) والآخذين بالأعنة(7)

---

1) مدينة بظاهر ابيورد ، وهناك كورة واقعة بين ايران وتركستان معروفة اليوم بهذا الاسم ، كما في تعليق على الايرانية .

2) المراد بها دهستان جرجان كانت شمال ايران وقريبا من خوارزم .

3) في حدود جرجان نهر يدعى دينارزاري ، وفي كلتا النسختين « دره دينار داري » واثبت بهذا في فهرس الناشر ، ولكننا اعتمدنا ما في الايرانية والتعليق عليها .

4) حافظنا على هذه الكلمة الموجودة في اصل العبارة هكذا «وجنين كفت مرا معتمدي» اي ثقة معتمد عليه .

5) بالكاف الفارسية ، كما سبق في غيره فهو ايكو + تكين المعروفة في غيره من الالقاب

6) بالاصل « ركابدار » وهو الموكل بالركائب والقائم عليها .

(7) بالاصل «سبركش» بالباء والكاف الفارسيتين .

والقادة (1) ونحوهم . فلما رآه الحاجب علي بعث رجالا إليه وقال ينبغي أن ننزل حتى نؤدي الرسالة التي لنا . وفي ذلك الوقت وصل مجد الدولة ، فضربوا الخيام والسقائف السامقة ونزلوا هناك ، وأمر علي الحاجب أن يتمكنوا من أبواب المدينة ولم يمكنوا أحدا من الخروج . وهكذا لم يسمحوا ، بأن يخرج من المدينة أحد أو يدخل إلى المدينة ، حتى يبقى خبر مجد الدولة مستورا .

وقد وقفه على الحاجب في تلك الخيمة ، واستولى على جميع الاسلحة التي جاءوا بها معه وبقي أبو طالب في تلك الخيمة موقوفا أربعة أيام . وكتب الحاجب علي إلى يمين الدولة رسالة وأخبره بصورة الحال ، فجاء الجواب . فأركب أبا طالب صحبة ستين رجلا آخرين على جمل وأرسله إلى الأمير محمود . فأمر الأمير محمود بأن يأتوا به إلى غزنين ، وظل هناك فكان آخر العهد به .

ثم أتى الأمير محمود يمين الدولة واستولى على المدينة ، بدون اية مشقة او تكلف فاصاب فيها خزائن البويهيين التي كانت موضوعة من سنين عديدة فاستولى عليها جميعا ، ووجد أموالا لم ير لها عددا أو نهاية .

وجاء الخبر الى الأمير محمود رحمه الله ، بأنه في مدينة الري ونواحيها رجال على مذهب الباطنية وان بها قرامطة كثيرين ، فأمر بأن يحضروا القوم الذين كانوا متهمين بذلك (ورقة 129 ب) المذهب فرجموهم بالحجارة . وقتلوا كثيرا من أهل ذلك المذهب ، وقيدوا بعضهم ووجهوا بهم إلى خراسان حيث ماتوا في القلاع والسجون ولم يمض مدة من الزمان ، حتى كان قد نظم جميع أعمال تلك المملكة ، ونصب العمال . واسلم تلك الولاية من الري وأصفهان إلى الأمير مسعودرحمه

---

1) بالاصل « زوبين دار » بالزاء الفارسية ، المنقوطة ثلاثا .

الله ، وعاد هو إلى غزنين . وكان فتح الري في جمادى الأولى سنة عشرين وأربعمائة .

وظهرت على الأمير رحمه الله علة الدق (1) وكانت قد أصابته منذ مدة من الزمان ، فقويت تلك العلة ، وصار الأمير محمود كل يوم يزداد ضعفاً من تلك العلة ، وكان له قوة احتمال بالتكلف والحيلة لمرضه وآلامه. وكان يظهر للناس أن ليس به ألم يعانيه أو مرض . وأتى إلى خراسان على تلك الحال وذهب إلى بلخ وبقي هناك الشتاء ، فلما جاء وقت الربيع ، اشتد عليه الألم جداً فتوجه إلى غزنين ، وظل بغزنين بضعة أيام ، واستعمل كل حيلة ، فلم يجد علاجاً لنفسه ، وصار في منتهى الضعف ، وأقبل الأجل ، ولم ينم بأية حال في الفراش إلا في نحو كلة خفيفة كان يجلس عليها . وفي تلك الحال أسلم روحه (لبارئها) رحمة الله عليه ونور مضجعه.

وكانت وفاة الأمير محمود رحمه الله يوم الخميس ثالث وعشرين ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وبموته صار العالم يتجه إلى الخراب ، وعز الأخساء ، وذل العظماء (ورقة 130 آ) .

"ولاية الأمير جلال الدولة وجمال الملة" "أبو أحمد محمد ابن يمين الدولة" "رحمة الله عليهما"

لما لبى الأمير محمود رحمه الله داعي ربه كان الأمير مسعود رحمه الله بأصفهان والأمير محمد رحمه الله بجوزجان فضبط علي بن أيل أرسلان الحاجب (2) الذي كان

---

(1) في ابن الاثير «كان مرضه سوء مزاج ، واسهالا ، وبقي كذلك نحو سنتين ، وكان قوى النفس ، لم يضع جنبه في مرضه ، فلم يزل كذلك ، حتى توفي قاعدا » رحمه الله وجزاه عن الاسلام خير جزاء .

2) هو الذي تقدم ذكره ، «علي بن ايل ارسلان التريب» في تيرات ونور .

من خلاص الامير محمود رحمه الله أمور السياسة ضبطا حسنا وأقر أحوال المملكة ولم يقع أن تطاول أي إنسان على إنسان آخر وهكذا كانت مدينة غزنين ، مثلا (للعدل والوئام) الذئب والنعجة يردان معا لشرب الماء . فوجه رجلا أتى بالامير محمد رحمه الله ، فجلس على (كرسي) الامارة محل أبيه . فجعل أول أعماله رفع المظالم واستمع المتظلمين وانتصف لكل واحد من الآخر .

ثم أمر بالجرايد (1) ودفاتر النواحي أن ينظر فيها . فنظر في خراج كل مكان تعرض للخراب بسبب ذلك الخراج الذي أضر بملاكه ، وتألف الرعايا ، وأمر أن تفتح الخزينة ، وأن يخلع ويوصل جميع الحشم والجيش من وضيع وشريف ومجهول ومعروف . وجعل رئاسة الجيش العليا لعمه أبي ، يعقوب يوسف بن ناصر الدين رحمه الله ، وأنعم عليه إنعاما حسنا ووصله بمال عظيم . وأقام في الوزارة السيد أبا سهل أحمد بان الحسن الحمدوي فدبر الأمور بتدبيره ومهد أعمال الولاية وحسن معيشة الناس وعدل الأسعار وأرضى الجيش والتجار جميعا . فلما انتهى أمر الغنى والترف إلى المدن ، صار التجار ينسلون من الأماكن النائية إلى غزنين ، فيجلبون إليها من كل متاع وبضائع متخلفة (ورقة 130 ب) وهكذا نزلت الأثمان ورخصت ، وعم أفعاله الحسنة كل أصناف الرعية والجيش (ولكن) كأن للحشم والرعية ميل إلى الأمير شهاب الدولة أبي سعيد مسعود ابن يمين الدولة رحمة الله عليهما فأرادوه (ملكا) .

ولما مضت خمسون يوما على وفاة الأمير محمود رحمه الله ، دبر الأمير أياز مع الغلمان الأمر وأخذ منهم البيعة للأمير مسعود (2) رحمه الله ، فأجاب الجميع للبيعة وتحالفوا عليها . فوجه أياز رجلا إلى أبي الحسن

---

1) وردتهكذا بالاصل ، فابقينا عليها ، والمراد بها الرسوم والوثائق الرسمية .
2) انظر الكامل لابن الاثير ، في تفصيل ذلك .

علي بن عبد الله ، الذي كان يدعى علي دايه ، فأجاب علي داية وتوجه إلى الجيش . وفي اليوم التالي خرج الغلمان من القصر وتوجهوا إلى رباط الخيول ، فامتطوا الأفراس وقد حلوا رباطها ، وتسلحوا بالأسلحة التامة وخرجوا وجها لوجه من باب البلاط . وهكذا ذهبوا في مكابرة (1) ، وتوجهوا نحو بست .

فلما وصل الخبر إلى الأمير محمد رحمه الله ، وجه في عقبهم الجيش ، وكان من جملة الحشم "سوندهراي" الذي كان القائد الأعلى للهنود فسار بجماعة من الفرسان في إثرهم ، فأدركهم واشتبك معهم . وقد حارب الغلمان فقتلوا كثيرا من الهنود ، وقتل أيضا "سوندهراي" كما قتل كثير من غلمان السراي وأتوا برؤوسهم إلى الأمير محمد .

وخف أبو النجم أياز بن إيماق (2) وعلي دايه معا وأتيا بأولئك الجماعة من الغلمان ، حتى مثلوا للأمير مسعود في نيسابور جميعا رحمه الله . فلما رأوا الأمير سجدوا (3) جميعا وقدموا له الطاعة ، وسلموا عليه بالملك (ورقة 131 آ) . فاستقبلهم وأجمل في خطابهم واعتذر والتمس الرشاد ، ووعد وعودا حسنة .

أما الأمير محمد فانحدر من غزنين واستسلم للطرب والنشاط وصار مشغولا بالشراب حتى قال له مقربوه ، إن هذا الذي أنت منهمك في عمله خطأ كله ، وإن عامة

---

1) اثرنا الابقاء على هذه الكلمة ، كما وردت في الاصل والمراد بها المجاهرة بالمعارضة والنبذ على السواء وقد علق عليها في الايرانية هكذا معارضه وجنك وغلبه » بالكاف الفارسية ، بمعنى الحرب .

2) ايماق كانت قبائل تسكن في غور واطراف هراة ، صارت تنقسم الى اربعة أقسام ، ولكن هنا اسم لاب اياز ويقال لها اويماق ، يقول فرخي :
امير جنكجو اياز أويماق دل وبازوى خسرو روز بيكار (بالباء الفارسية)

3) بالاصل «نماز بردند» ونماز هي الصلاة ، وعلق عليها في الايرانية ان المراد «احترام وتعظيم» ولم نرد بالسجود معناه الاسلامي ، بل المراد به ما يعرف عندنا باسم «التبندق» .

الناس ينالونك بلسانهم ، وبهذا الذي أنت تعمله ، وهم ينتقدونك وخصمك آت من العراق (1) يقصدك وأنت غافل مقبل على الشراب والتمتع بالملذات (معتن بنفسك) (2) فإن كنت لن تحول عن ذلك فإن هذا الملك سيتحول عنك .

فلما مضت أربعة أشهر على ملكه ، قصد الأمير محمد رحمه الله أن يسير للحرب وأمر أن يحملوا سرادقه إلى نواحي بست فيخيموا (هناك) وأنعم على الجيش وخرج في جيش معد وعتاد من غزنين . فلما وصل إلى تكيناباد (3) اجتمع جميع القواد ورؤساء الجيش وسلموه رسالة بأن لنا جميعا رأيا تجاه الخصم الذي له بجميع الدنيا شيعة وأتباع ولنا اليقين أنك لا تستطيع المقاومة أمامه ، فالصواب (4) هو أنك تقيم حيث أنت حتى نذهب إليه ونطلب منه عذرا لنا وننهي إليه قولك ، حتى نطيب قلبه علينا ويعود عنك راضيا ، ويدعوك إليه ، ونصير نحن وأنت في أمان منه .

فلما رأى الأمير محمد رحمه الله ، أن جميع الجيش انقلبوا ، أدرك أنه لا يستطيع جبرا لهذا ، وليس هناك علاج غير الاستجابة ، فأجابهم في الحين إلى ما طلبوا فأتوا به إلى قلعة رخج (5) وخلعوه ، ثم أن الأمير يوسف وعلي الحاجب (ورقة 131 ب) وأولئك الكبراء ورؤساء الخزائن ، ودور الصناعة تحركوا ، وساروا بالجيش متوجهين إلى الأمير مسعود ، وذهبوا على جانب هراة .

---

1) المراد ، كما تقدم عراق العجم ، الذي يشمل همذان والدينور وجرباذقان واصبهان والرى وقزوين وما بين ذلك وهو الجبل ، كما في «المشترك وضعا والمفترق صقعا» لياقوت ، وانظر ابن الاثير في هذه القصة .

2) بالاصل : خودكامى اورده»

3) بالكاف الفارسية كانت واقعة على خرائب مدينة كهنه قندهار .

4) في النسختين «ثواب» وهو تصحيف .

5) غير ظاهر ، في الاصل والاصلاح عن الايرانية .

ولاية الأمير ناصر دين الله حافظ عباد الله وظهير خليفة الله أبو سعيد مسعود ابن يمين الدولة أمير المومنين (1)

لما وصل أياز بن إيماق وعلي دايه إلى نيسابور قوى قلب الأمير مسعود رحمه الله فأعطى العطاء وجلس المظالم واستمع إلى كلام الرعية وأنصف بعضهم من بعض . فلما مضت بضعة أيام جيء بعهد ولواء أمير المومنين القادر بالله وأتى بهذا العهد واللواء أبو سهل "مرسل" بن منصور بن أفلح الكرديزي ، فتوجه الأمير مسعود بالثناء على "مرسل" وفسح له في الرغاب وبقي بضعة أيام في نيسابور ومن هناك أتى إلى هراة .

فلما قضى بهراة بضعة أيام جاء علي الحاجب متقدما إلى الأمير مسعود ، فأخذ بيده واسترشده (2) وكان قد أتى قبله أخو علي منكتراك (3) وكان الأمير مسعود قد أسند الحجابة إلى منكتراك ، ونظر إليه بعين الاحترام .

وحينما عاد علي الحاجب من مثوله أمام الأمير ، وجهوا به إلى حجرة ، فقبض منكيتراك على قبضة السيف ، فصاح علي الحاجب عليه بصيحة وقال : إنه السيد وابن سيده ، كل ما يأمر به نفعله ، وبعد ذلك اليوم لم ير إنسان ذينك الاخوين كليهما (4) .

فلما وصل الحشم والخزائن إلى الأمير مسعود توجه من هراة إلى بلخ ، وأقام هناك الشتاء ، وضبط أعمال المملكة ضبطا جيدا ، وكان ابتداء مملكته (ورقة 132 آ)

---

1) لم نجد هذا اللقب لابيه الا هنا ،اذ كان خاصا بالخليفة .
2) بالاصل « واورا أز راه ببرسيد » بالباء الفارسية الثانية ، ساله عن الطريق
3) في الايرانية «منكيتراك» وفي الاصل «منكيراك ومنكرات»
4) في تاريخ البيهقي «وكان اخر العهد بهما»

في شوال سنة إحدى وعشرين وأربع مائة . وكان أول أعماله تدبير أمر الوزير ، من يكون لائقا بالوزارة ؟ فلم يكن إنسان أكفأ وأكثر أدبا وأغزر علما من السيد أبي القاسم أحمد بن الحسين الميمندي رحمه الله وكان السيد أحمد قد وضع بقلعة جنكي في الهند معزولا (1) . فوجه الأمير مسعود رجلا فأخرجه من تلك القلعة وسلم إليه الوزارة وخلع عليه خلعا حسنة وجعل له جميع تدابير الجيش.

وعزل الحسن بن محمد الميكالي وأمر بأن يصادروا أمواله ، فحصل مال منه ، ثم أمر بأن يصلب في مدينة بلخ ، وكان سبب ذلك أنه حينما طلب الأمير حسنك من الأمير محمود إذنا له بالحج فذهب إلى الحج ، عاد من الحج على طريق الشام بسبب أن سلوك البادية كان مخوفا محوقا بالمهالك ، فسار من الشام لمصر وتسلم من عزيز مصر خلعا . فاتهموه بأنه مال إلى عزيز مصر (2) وبهذه التهمة رجم . ثم إن الأمير مسعود أمر ، بأن ينكس على رأسه ويصلبوه ويقذفوه بالحجارات . ثم احتزوا رأسه ووجهوا به إلى بغداد حيث القادر .

وكان كل من يخالف الأمير مسعود رحمه الله ويتواطأ مع خصمه، يصطلمهم جميعا ، ويعاقب كل واحد منهم ويستأصل شأفته كما قبض على أحمد نيالتكين الخازن الذي كان خازنا لمحمود (ورقة 132 ب) وصادره وأمر بأن ينتزع منه مال عظيم ، فلما أعطى ذلك المال وجه به إلى الهند، وسلمه قيادة الهند العليا فأرسله حيث الياروق (3) الحاجب هناك ، فكان ذلك الغضب والمصادرة والتنكيل والاستخفاف الذي حل بأحمد نيالتكين ، قد حز في نفس أحمد . فلما وصل إلى الهند ، أخرج رأسه من ربقة الطاعة وأعلن العصيان .

---

1) أيام محمود (انظر ابن الاثير)
2) يبدو انه كان ، الظاهر لاعزاز دين الله ، ابو هاشم ابن الحاكم بأمر الله ، ابي علي المنصور ، كانت خلافته ما بين 411 – 427 .
3) في تاريخ البيهقي ، مكررا ، اريارق حاجب سالار هندوستان Barthold

فأمر الأمير ناصر دين الله ، أن يأتوا من الهند بأبي طالب "رستم" مجد الدولة . واستدعاه إليه وأثنى عليه وأمر أن يتخذوا له بغزنين مكانا معه ، وأعطاه مثالا بأن يأتي في كل وقت إلى الحضرة للخدمة فيكون معه في غزنين على مدى الحياة .

وفي هذا الوقت جاء حسين بن معدان (1) الذء كان أمير مكران ، واشتكى من أخيه أبو العسكر ، وقال إنه قد استبد بالملك واغتصب حقي ولم يعطني إنصافي ، فأفضى الأمير ناصر دين الله بمثال إلى تاش فراش ووجهه معه حتى انتهى إلى مكران وانتصف له من أخيه وأقام الحسين بالولاية .

ثم إن الأمير مسعود رحمه الله قصد غزنين من بلخ ، فلما سمع أهالي غزنين بهذا الخبر سروا كثيرا وانهمكوا في الطرب والأفراح وزينوا الأسواق وخرج المطربون وبقوا بضعة أيام هناك ، وواصلوا الليل بالنهار في الطرب منتظرين مجيء ناصر دين الله رحمه الله ، وكل الأعيان والرؤساء (133 آ) ومقدمو المدينة قد توجهوا لاستقباله فقدموا له الطاعة وأبدوا الابتهاج .

فلما وصل إلى غزنين نثر أهالي غزنين الدراهم كما نثروا الدنانير . وفي اليوم التالي من إقامته وزعوا الصدقات وأتوا بالنثرات رسما رسما (2) . وكذلك الأمير مسعود رحمه الله تلطف للجميع وأثنى عليهم ، ولهج جميع سكان غزنين عن بكرة أبيهم بالثناء عليه والدعاء له ، طالبين من الله عز وجل أن يبقى دولته ، وتقدموا إليه بالطاعة ثم عادوا (من عنده) .

---

1) في تاريخ البيهقي «عيسى بن معدان» وان ذهابه كان 422 وكذلك في ابن الاثير ذكر « عيسى ، كما ذكر في ابن حوقل ، مع اختلاف في جزئيات القصة وذكره Barthold

2) كذا بالاصل «ونثار ها همي اوردند رسم رسم

فلما أصبح فؤاد الأمير فارغا من حديث (1) غزنين دعاه نشاط آمل واصفهان والرى ، (2) فقصد إلى هناك . فلما وصل إلى هراة ، أتى من سرخس وبارود صريخ الداعين يشتكون من التركمان ، فعين الأمير مسعود رحمه الله قائدا أعلى لجماعة من الجيوش ووجه معه أبا سعد عبدوس ابن عبد العزيز وكيلا ومديرا لشؤون ذلك الجيش ، وكان هذا سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة .

فلما انتهى الجيش إلى التركمان اشتبكوا في فراوه (معهم) في المعارك فقتل كثير من الرجال وقد أحتفظ التركمان بالذرية والعيال ، ووجهوا بهم إلى بلخان . ووقف الفرسان متجردين (للقتال) وكل يوم يأتي فوج بعد فوج فيحاربون ، فلما مضت بضعة أيام عادت هذه الجيوش .

وفي سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة جاء السيد أحمد بن الحسن رحمه الله أجله فلبى النداء . (3) ودبر الأمير الشهيد (ورقة 133 ب) مع رجال تدبيره أمر (من يتولى) الوزارة ، فقدموا له أسماء عدة من الرجال ؛ فحصل الاتفاق على السيد أبي نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد الذي كان رجلا طيبا خيرا وداهية ، وافر العقل والذكاء مصيبا في الرأي والتدبير . وقد كان في بعض الأوقات يقوم بالوزارة في خوارزم ، وقد عمر الديار في تلك المملكة ، بتدبير مشرق ورأي مصيب .

ثم إن الأمير الشهيد رحمه الله كتب إليه يستدعيه من خوارزم وسلم إليه تدبير الأعمال وخلع عليه ما يجب ، فتوجه إلى غزنين ، وعاد إلى مستقر عزه . وفي سنة أربع وعشرين وأربع مائة قصد الهند حيث كانت هناك قلعة على نهر كشمير تدعى "سرستي" . فسار إليه كل من

1) كثيرا ما يرد بمعنى الحوز والاقليم والضاحية والناحية .

2) كذا وردت العبارة « أورا نشاط امل واصفهان ورى خواست » أي نشط لذلك واراده بقوة وعزم .

3) محرم سنة 424 ، كما في تاريخ البيهقي والبيهقي .

كان بتلك القلعة وقد حاصرها ، وحارب رجالها كثيرا وأخيرا فتحها . وغنم الجيش من تلك القلعة غنائم كثيرة وأصابوا أموالا وسبيا . فلما أقبل الربيع توجه نحو غزنين .

وفي سنة خمس وعشرين وأربعمائة (1) قصد آمل وسارى (2) وحشد الجيش إلى تلك الجهات وذهب إليها بجيش قوي معد. وكان خبره قد وصل إلى تلك الديار ، فتهيأ جميع قوها وجمعوا الجيوش من مدني وجبلي وجيلي (3) وديلم ، واعترضوا الطريق ، وكمنت أفواجهم في كل غيطة وواد .

فلما انتهى جيش غزنين إليهم ، خرجوا إليه من كل صوب فتحاربوا . وكان الأمير الشهيد رحمه الله قد اقتعد فيلا . وقد تقدم نحوه "شهراكيم" بن سوريك أمير استرباد (ورقة 134 آ) مدججا بالسلاح ، وجاء فيل. فصدمه شهراكيم بسرعة ، وطعن الفيل إزاءه ، فوقع الفيل .

فلما نظر الأمير الشهيد من على ظهر الفيل ، ورأى ذلك رمى رمحا فأصاب "شهراكيم" وألقاه ، وجاء الحشم فأسروه. وكان رجاله قد عادوا (على أعقابهم) وحاربوا في سارى (4) فهزموا أخيرا واستولى الأمير الشهيد على المدينة، وبدون خشية كان الجيش بعضه يغير على المدينة.

وتقدم رجال يشتكون ويقولون ، نحن رجال تجار وعلى صلاح ، وقد وقع علينا من جيشك عدوان ، فأمر حتى كفت الجيوش عن الغارة وتركت النهب . ودهموا السرادق

1) في تاريخ البيهقي : جمادى الاولى سنة 426
2) سارى ، كما في معجم البلدان ، هي سارية ، احدى كور طبرستان الثمان ، بينها وبين امل ثمانية عشر فرسخا ، وبينها وبين البحر ثلاثة فراسخ
3) الجبل ، يعم البلاد المعروفة بعراق العجم ، كما في معجم البلدان ، ويقال لها الجبال. وجيلان ، اسم لبلاد كثيرة ، كما من وراء بلاد طبرستان ، وليس بها الا القرى والنسبة اليها جيلي ، كما ورد في الاصل «از شهرى وكوهي وكيلي» بالكاف الفارسية . من مدني وجبلي وجيلي ، والديلم جيل سموا بارضهم .
4) ا ، بسيارى ، وهو تصحيف

الأميري (1) على باب آمل . ثم أرسل الرسل أبو كاليجار (2) أمير طبرستان ، وتوسط أناس ، حتى عقدوا الصلح (بينهما) على هذه الجملة ، أنه يؤدي عاجلا ثلاثمائة ألف دينار ويؤدي الخراج عن كل سنة بمناصب في جميع طبرستان باسم الأمير مسعود رحمه الله ويعطي الرهائن . ثم إنه تحمل ضمان هذا المال ، ووجه به إلى الأمير الشهيد . ثم وجه خاصته وأبناء أخيه شهرون بن سرخاب مع الرهائن .

فلما صارت آمل وسارى وطبرستان للأمير الشهيد رحمه الله ، توجه من هناك إلى غزنين ، فلما وصل إلى نيسابور (ورقة 134 ب) تقدم إليه المتظلمون واشتكوا من التركمان ، فجلس الأمير الشهيد رحمه الله مع الوزراء والندماء والقواد للمناظرة في أمر التركمان والتدبر فيه ، وقال لهم ، إن وقاحة هؤلاء عظيمة ، وهم يداهمون كل إنسان من الري . فقال الحاجب بكتغدى ، إن فساد هذا كثير من القائد ، فلو وجهت أحدا لهذا العمل ، فإنه يتمكن مما يجب لعلاج هذا (الأمر) وينجز هذا الشغل .

فقال الأمير الشهيد لبكتغدى يجدر بك هذا ، ويسير معك الحسين بن علي بن ميكائيل ثم وجههما وأرسل معهما جيشا عظيما من الهنود والكرد والعرب والترك ووجه معهما من كل عتاد مع الفيلان الحربية الجيدة . فشخصوا من نيسابور وأتوا إلى طوس ومن هناك ساروا إلى نسا ، فلما انتهوا إلى المكان الذي يدعى سبنداقان (3) أتت الرسل من التركمان وجاءوا برسالتهم إلى بكتغدى ، بأننا عبيد طائعون فإن صفحتم عنا وكنتم تبدون رعينا (4) فإننا نكف أيدينا عن هذه

(1) «سراى برده» بالباء الفارسية
(2) بالاصل «كالنجار» بالنون ، والتصحيح من الايرانية ، وعلق عليه بانه «ابو كاليجار نوشروان بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير ، الملك الثامن لآل زيار طبرستان »
(3) لم يرد لها ذكر في كتب الجغرافية القديمة ، ولكن في نفس الناحية ، كانت تقع «سوسقان ، أو سوسنقان » على اربعة اميال غربي مرو ، (من تعاليق الايرانية)
(4) بالاصل «وجراخور ما بديد كنيد» والمراد تمنحون مراعي لنا ، كما سيرد فيما بعد ، والجيم والباء في النص فارسيتان

الأعمال ، ولن يكون لإنسان منا إضرار مرة أخرى . فصاح بكتغدى في أولئك الرسل ونالهم بكثير من غليظ القول ، وقال لهم ، إن بيننا وبينكم السيف . فإن كانت لكم طاعة ونفذتم الأوامر ، فأرسلوا رجلا إلى الأمير مسعود وطلبوا هذا العذر منه ، وآتونا بكتاب منه (ورقة 135 آ) لنرجع عنكم ، وإلا فنحن لن نرتد بأية حال .

ثم أعاد بكتغدى الرسول ، وعبأ الجيش فجعل الميمنة لفتكين صاحب الخزنية ، والميسرة لبير (1) الحاجب ، ووقف هو في القلب ، ووجه جامع العربي على طلائع الجيش مع خمس مائة فارس ، وكانت هذه خيل جامع العربي . فلما وصل جامع إلى أروى (2) ظفر بطلائع التركمان وقتل كثيرا منهم وانهزم التركمان وصار إثرهم جيش بكتغدى حتى وصلوا إلى ذريتهم ، فأغاروا على جميع متاعهم وغنموا مالا كثيرا وبهائم وأخرجوا البضائع وعادوا بها إلى مقام الجيش ،لأن المقام هناك كان مقاما ضيقا .

وفي نفس الوقت كان جيش بكتغدى كثير منه غائبا منهمكا في الصدام ، وبعض منه آخر كان مشغولا بالغنيمة فلما انتهى الخبر إلى داؤد التركماني خرج داؤد بجيش حشده من مضايق الجبل (3) وتوجه توا إلى الجيش فاشتبك معه ، وقد اصطفت الصفوف وتحاربوا يومين بلياليهما ، فكان الغلب لهؤلاء التركمان. حينئذ قال بكتغدى لحسين بن علي بن ميكائيل بن علي إنه لا محل للصمود فقال حسين الرئيس ، بأية حال إني لن أصير إلى الأمير بالهزيمة ، فإما أن أظفر وإما أن أقتل . فاستدبر بكتغدى وذهب وثبت حسين وحارب إلى أن فر عنه

بالباء الفارسية ، ولا بد ان يكون «اخورسلار» حيث كان الجيش هنا

2) كلمة غامضة «مارزني» ؟ او مارزني فاستظهر الناشر ان تكون «اروى» التي اثبتناها ، ولما رجعنا الى ياقوت الذي احال عليه الناشر ، وجدناه يذكرها بانها

3) «تنكيهاى كوه» والكاف الاولى فارسية .

قرية من قرى مرو .

جميع جيشه ، وبقي فريدا ، فانهال عليه الأتراك ، وقبضوا على رقبة فيله ، وأنزلوه من على الفيل ، وأرادوا أن يقتلوه . ولكن داود علم بالخبر ، فوجه إليهم رجلا بألا يقتلوه ، وبأن يحضروه إليه (ورقة 135 ب) فقيدوا يديه ورجليه ، وحبسوه في خيمة ، وجعلوا بضعة أنفار من التركمان حراسا عليه ، فظل إلى هذه الغاية بينهم .

وعاد بكتغدى ومثل أمام الأمير الشهيد ، فاغتم الأمير وضاق صدره ، وحيث إن الرهائن والأسرى الديلم كانوا معه فإنه لم يستطع المقام وتوجه إلى غزنين ، وأحضر الأسرى ووجه بهم إلى القلاع والمدن في رمضان سنة ست وعشرين وأربعمائة .

وكان كل يوم تصل من الهند الأخبار بأن أحمد (نيالتكين) قد طالت يده في ولاية الهند ، وغل أيدي العمال ، وخان في الأموال ، فوجه الأمير الشهيد بانهه بن محمد (1) بن مللي الذي كان قائدا أعلى للهند في جيش عظيم ، فلما تراءى الجمعان اشتبكوا وتحاربوا وقتل رجال كثير من الجيشين وقتل بانهه بالمعركة وانهزم جيشه كله ، واشتد ساعد أحمد نيالتكين .

ولما سمع الأمير الشهيد بهذا الخبر ، وجه "تلك" بن جهلن الذي كان قائدا أعلى للهنود إليه ، فسار "تلك)" في جيش حشده من الهنود ، وحارب أحمد نيالتكين وكان الاشتباك بينهما بعض الأحيان وفي تلك الحروب كان الظفر "للتلك" دائما . فانهزم أحمد نيال تكين ، وصار جيشه شذر مذر ، وأسر "تلك" كل من كانوا في جيش أحمد نيال تكين ، والتجار الذين كانوا من أتباعه ورجاله . ذكان يقطع يدا ويفقأ عينا لهم وينكل بهم .

كذا في النسختين ، ولم يرد ذكر في البيهقي لهذا الاسم ، بل ذكر فقط ارسال «تلك» الهندي وابن الحجامي « بسر حجامي » بالباء الفارسية وزودنا بمعلومات جيدة عن احوال الملك ، كما في تعليق على الايرانية ، ورجعنا فيه ، فجودناه قد ذكر في الجزء المترجم بضع عشرة مرة، بالتاريخ المذكور، ولا ذكر فيه لبانهه ولا مللي، بالمرة.

حتى نال رجالا كثيرين بهذا التصنيع في العقوبة (136أ) وفر أحمد نيال تكين وتوجه إلى المنصورة والسند وأراد أن يعبر نهر السند فاتفق أن أدكه سيل فاكتسحه وغرق فمات . فلما قذفه النهر وألقى به على الشاطيء وجده رجل من جيشه ومعانديه ، فعرفه واحتز رأسه وأتى به إلى "تلك" فبعث به "تلك" إلى بلخ ، فأمر الأمير مسعود رحمه الله أن يصنعوا ميلا ويضعوا الرأس في ذلك الميل .

وفي نفس الوقت يعني سنة سبع وعشرين وأربعمائة كان قد تم بناء المقصورة الجديدة في غزنين ، مع تخت ذهبي ، صنع لأجل هذه المقصورة مرصعا بالجواهر . فأمر الأمير الشهيد رحمه الله ، أن يضعوا ذلك التخت الذهبي في المقصورة . وكانوا قد صنعوا تاجا ذهبيا بوزن سبعين منا من الذهب والجواهر وعلقوه أعلى التخت بسلسلة ذهبية . فجلس الأمير مسعود رحمه الله على ذلك التخت ، وذلك التاج معلق على الرأس ، فأعطى العطايا للرعية والحشم . وفي نفس السنة أعطى لابنه الأمير مودود (1) الطبل والعلم . ووجهه إلى بلخ .

وفي ذي القعدة سنة سبع وعشرين وأربعمائة حشد الجيش إلى الهند ، وكانت هناك قلعة محكمة منيعة تسمى هانسي(2) وكان بها ناس كثير ، فقصد الأمير الشهيد تلك القلعة . فلما كان قريبا من مكانها أمر بأن يجتمع الجيش فيستولي على تلك القلعة ويواصل الحرب ، فحارب أهل القلعة من على أسوارها (الشاهقة) . حيث اعتقد أصحابها (3) ، أنه لن يكون بأية حال لآدمي قدرة على تلك القلعة ، للحصانة التي كانت عليها . فلما حاربوا ستة أيام ، رموا إحدى شرفات (ورقة 136 ب) القلعة ،

(1) هذه الكلمة ساقطة من النص ، وقد أتى بها الناشر من تاريخ فرشته ، وقد استعان المعلق على الايرانية بتاريخ البيهقي ، فساق هذه « (بخداوند زاده امير مودود) » بينما الناشر سا (همدرين سال بسر خود امير مودود را) وهو ما ترجمناه .

(2) هي الآن بنفس الاسم في الشمال الغربي لدلهي

(3) قد تصرفنا قليلا في هذه الجمل القليلة التي تكرر فيما ذكر القلعة بضع عشرة مرة » فاستبدلنا الظاهر بالضمير ، غالباً ، حتى لا تستثقل في أسلوبنا العربي

فانكشفت القلعة وسقطت في يدهم فأغار جيش الإسلام على القلعة وغنم أموالا طائلة وسبيا كثيرا . ثم توجه من هناك إلى قلعة "سوني بت" (1) وكانت مقرا لديبال هريانه (2) فلما علم ديبال هريانه بذلك فر وتوجه نحو الصحراء والبرارى وترك تلك القلعة مع مال ومتاع . فلما وصل جيش الاسلام هناك ، أمر الأمير الشهيد رحمه الله أن يغيروا على تلك القلعة وأن يحرقوا بيوت الأصنام ، وأن يحملوا كل ما يجدون من ذهب وفضة وغلة ومتاع جميعا غنيمة .

ثم جاءه الجواسيس حاملين الأخبار عن ديبال هريانه ، وأنه بالبيشة الفلانية ، فذهب الأمير الشهيد هناك ، حتى انتهى إلى جيشه . فلما علم ديبال بالخبر فر في الحين وترك الجيش ، فوقع جيش الاسلام على ذلك الجيش من الكفار وقتلوا كثيرا من الرجال وأسروا كثيرا ، واخذوا كثيرا من الرقيق بلا عد . ثم عادوا من هناك ، وتوجهوا إلى ديره رام (3) فلما علم رام بالخبر وجه إنسانا طالبا من الأمير الشهيد العذر ، وقال : أنا رجل شيخ وليست لي طاقة أن أتقدم إليكم بالخدمة . ووجه مالا كثيرا على يد رجل من خاصته . فقبل الأمير الشهيد عذره ، وتقبل نثاره وعاد من هناك ، متوجها إلى غزنين ثم إنه أعطى الأمير مجدود (4) بن مسعود رحمهما الله ولاية لاهور ، وسلمه الطبل والعلم ، ووجهه مع الحشم والحاشية إلى لاهور (ورقة 137 آ) وجاء هو إلى غزنين . وكان فتح هانسي في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة (5) .

فلما استقر بغزنين ، كان باستمرار ياتي الصريخ من خراسان ، يشكون من التركمان ، وكان المنهون وأصحاب

---

1) معروف الآن بنفس الاسم على بعد 23 ميلا شمالي دلهي
2) لم نعثر على هذا الاسم في غير هذا الكتاب
3) تقدم ذكرها ، وقد علق عليها في الايرانية هنا بأنها على حدود مائة ميل شرقي دهلي
4) كما في البيهقي ، أما النسختان ففيهما «مير ابو الملحد» وهو تصحيف ظاهر
5) في البيهقي ذى القعدة 427

البريد يكتبون دائما ، يعلمون بأن عيث التركمان قد خرج عن الحد . فتوجه آخر سنة ثمان وعشرين وأربعمائة من غزنين إلى بلخ بقصد إسعاف أسباب خراسان بالاصلاح ، وتدارك فساد التركمان ، فلما وصل إلى بلخ كان التركمان الذين كانوا في تلك الحوالي (1) قد غادروا مواطنهم ، وصارت ولاية بلخ خالية من التركمان .

ثم جاءوا بالخبر إلى الأمير الشهيد ، رحمة الله عليه ، بأن الثورات قامت فيما وراء النهر من قبل "بورتكين" (2) وجيوشه الذين تصل منهم الأضرار إلى الرعية ، فتوجه الأمير الشهيد لتدارك ذلك ، لأن الخان الأعظم " قدرخان" كان قد مات ، وتمكن النفور من الرعايا من "بورتكين" ، ففكر في أنه ربما تكون الفرصة في هذا ، فيصير ما وراء النهر إليه .

حينئذ أمر أن يقيموا جسراً على جيحون ، فعبر الجيش على الجسر وتوجه صوب ما وراء النهر ، وكان ما وراء النهر قد صار خاليا من جميع الرؤساء والقواد ، فانسحبوا ولم يتقدم إليه أي رجل . فلما قضى بضعة أيام فيما وراء النهر ، جاءت رسالة السيد أحمد بن محمد بن عبد الصمد الوزير إلى الأمير الشهيد رحمه الله من بلخ بأن داود التركماني قصد بلخا بجميع جيشه ، وليس معنا كثير من الجيش والحشم والآلة والعدة ، بحيث نستطيع مقاومتهم (ورقة 137ب) فإذا لم تعد ، فإن الاضطراب سيقع .

فعاد في الحين الاميرمسعود رحمه الله من ما وراء النهر وأتى إلى صحراء كتر (3) وعبأ الجيش وأعده لمحاربة التركمان . فلما علم بذلك داؤد التركمان وأن الأمير قد عبر النهر ، سحب الجيش في الحين وتوجه إلى مرو . فلما سمع الأمير الشهيد خبره توجه إلى بلخ ومن بلخ ذهب إلى كوزكانان فتقدم جماعة من أهالي تلك الناحية

---

1) وردت الكلمة هكذا في الاصل ، فتركناها كذلك ، وحليناها بالالف واللام
2) بالباء الفارسية ، وهو ابن ايلك ، كما في البيهقي الذي ذكر فيه زهاء عشرين مرة .
3) بالاصل « كنر » وتقدم مافيه .

إلى الأمير الشهيد ، وتظلموا من علي القهندزي (1) وكان علي القنهدزي هذا ، رجلا مفسدا ، قد امتدت يده في هذه النواحي جدا .

حينئذ أمر الأمير الشهيد رحمه الله ، بأن يرسلوا رجلا ، فيدعوا عليا هذا إلى الحضرة ، فلما انتهى إليه الرجل ، لم يستجب إليه وكانت هناك قلعة في تلك النواحي ، قد أعتصم بها ، وجعل عياله ومتاعه في تلك القلعة ، وتحصن بها ، فأمر الأمير الشهيد بأن يستولوا على تلك القلعة ، ويخربوها ويسحبوا على القهندزي ، فلما أتوا به إلى الأمير الشهيد ماثلا، أمر في الحين بتصليبه ، وكان هذا سنة تسع وعشرين وأربعمائة (2) .

ولما سمع التركمان بخبر حركة الأمير الشهيد ، نحو مرو ، ارتاعوا ووجهوا إليه في الدين ، وقالوا ، نحن عبيد مطيعون للأوامر والآن إن كان الأمير يصفح عنا ، ويبيح رعينا ، فسنعبر ببهائمنا وعيالنا الرعاية ، ونكرس أنفسنا ورجالنا لخدمة الركاب العالي ، ورأى الأمير أعلى ، فأمر الأمير رجلا حتى أتى بالوثيقة التي (ورقة 138 آ) تجب وعقدوها مع "يبغو" وأعطوا المواثيق بأنه لن يعود إلى إخراج الرأس من الطاعة ، وأن يلتزم الأوامر ، ويمنع قومه وقبيله ، من هذا الفساد ، وأن الرعي الذي عينه لهم الأمير الشهيد ، رحمه الله ، يزاولونه طبقا لذلك الاختيار ، فعقدوا العهد على هذه الجملة ، وأعطوا المواثيق والأيمان ، وصادق أولئك الرؤساء والقواد التركمان كلهم على مقتضى ذلك العهد ، وتضمنوه على هذه الجملة .

فتوجه الأمير الشهيد من هناك إلى هراة . ثم إن التركمان في الطريق داهم جماعة منهم عتاد جيش الشهيد ، واستولوا على كثير من اللطائم وقتلوا جمعا وجرحوا

---

1) نسبة الى قهندز التي ذكرت سابقا ، وقد ذكر على قهندزي ، هذا في تاريخ البيهقي ، مرارا ، وخصوصا في حوادث 430

2) ذكرها البيهقي في حوادث 430 ، كما اشرنا اليه .

آخرين ، فأمر الأمير الشهيد رحمه الله ، أن يذهب الجيش في أثرهم ويضعوا السيف في التركمان ، فقتلوا كثيرا منهم وأسروا قوما كثيرين . وأتوا بالأسرى وبرؤوس القتلى إلى الأمير الشهيد . فأمر بأن تحمل تلك الرؤوس على الحمير وتوجه إلى "يبغو" ويكتب إليه بأن كل من ينقض العهد فهذا يكون جزاؤه فلما رأى "يبغو" ذلك اعتذر ولام أولئك الذين أساؤوا الأدب ، وأجاب بأنه "لم يكن لنا خبر بهذا ، وكل ما نريده هو ما فعله الأمير نفسه" . وقد بقي الأمير الشهيد رحمه الله بضعة أيام مقيما بهراة . ومن هناك توجه إلى نيسابور . فلما مر بطوس كان فوج من التركمان وجيشهم يتقدم إليه ويحاربونه ، فقتل كثير من التركمان . ومن هناك ذهب إلى "نسا" و "باورد" . فلم يكن في تلك النواحي (ورقة 138 ب) أي تركماني . ثم جاءوا بالخبر إلى الأمير الشهيد بأن قوم باورد أسلموا حصنهم إلى التركمان وتطابقوا معهم . فقصد باورد في الحين ولم يمر وقت حتى أتوا بأهل ذلك الحصن (1) إلى الأمير فأمر بكثير منهم أن يقتلوا ، وأصبح فؤاده فارغا من ذلك . ثم توجه إلى نيسابور وقضى الشتاء بنيسابور سنة ثلاثين وأربعمائة .

فلما أقبل الربيع توجه من نيسابور إلى باورد ، حيث كان قد تخبر بأن "طغرل" التركماني هناك . فلما جاء الخبر إلى طغرل بمجيء الأمير الشهيد ذهب إلى نزن باورد (2) ولم يتقدم نحو الأمير مسعود ، فلما علم بذلك الأمير الشهيد توجه إلى سرخس من طريق ميهنه (3) ولم يكن قوم سرخس قد أدوا الخراج وتحصنوا بالمدينة ، فأمر الأمير بأن يخرجوهم من حصنهم فجعلوا ذلك

---

1) في الاصل اتوا بذلك الحصن « ان حصاررا ... اوردند » فكتب الناشر ازاءه «كذا» واضطررت لاقحام هذا المضاف «أهل» ، ومن حسن الحظ اني وجدت «الايرانية» قد الحقت بحصار ، الذي هو الحصن « يان » فأصبح بذلك منسوبا فيه جماعته «الحصنيين» فهم اذن أهل الحصن

2) كذا بالنسخ الثلاث ولانعلم عن «نزن» هذه شيئا

3) كانت قرية من خراسان .

الحصن خرابا ، وقتل بعضا من رجال الحصن وقطع بعضا آخر . ثم توجه من هناك إلى لستانة (1) وأقام هناك بضعة أيام ومن هناك توجه إلى دندانقان (2) . ولما وصل إلى دندانقان نزل بها الجيش ، فلما كان الصبح استولى التركمان على جميع الصحراء والجبال وسدوا الطرق على جيش غزنين . فلما رأى الأمير الشهيد رحمه الله ذلك أمر بأن يتجردوا للحرب ، وعبأ الجيش ، وصفف الصفوف . وعاد التركمان إلى الحرب ووطنوا أنفسهم على أن يحاربوا بكردوس (3) فصاروا جميعا كردوسا كردوسا وتحاربوا (ورقة 139 آ) وكسروا جيش غزنين (4) وفر جماعة من جيش غزنين . وتوجهوا إلى العدو . ووقف الأمير الشهيد رحمه الله بذاته في الحرب ، وألقى ببعض الرجال وبعضهم طعنه بالرمح وآخر بالسيف ، وبعضا بالدبوس ، فكان ذلك اليوم مفزعا ، بحيث أن إي ملك لم يفعل ذلك بذاته . ووجه رجلا إلى رؤساء جيشه فاستنزلهم إلى خوض المعركة فلم يحاربوا وولوا الأدبار وانهزموا . وبقي هو هكذا يمارس الحرب بنفسه حتى لم يبق بجانبه رجل غيره . فلما رأى أن الأمر صار إلى التبار ، انسحب فلم يكن لأي تركماني جرأة أن يأتي على إثره ، لأنهم كانوا قد رأوا مهارته . وكانت واقعة دندانقان يوم الجمعة ثامن رمضان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة .

ثم توجه الأمير الشهيد رحمه الله من هناك إلى مرو الرود ، حتى التحق به بعض الجيش . ومن مرو الرود توجه إلى غزنين ، فسلك الطريق غور وجاء إلى غزنين . وكان أول عمل بغزنين قام به أنه أمر بأولئك الرؤساء من قواد الجيش الذين عصوا الأمر في المصاف ، وكانوا في الحرب جبناء الاحتمال (5) مثل القائد الرئيس علي دايه والحاجب

---

1) كذا في النسخ الثلاث ولا نعرفها .
2) مدينة كانت بين سرخس ومرو .
3) الكلمة معربة عن اليونانية ، ومعناها فرقة من الجيش لها ميمنة وميسرة وساقة وقلب ومقدمة وقائد وراية وشعار خاص .
4) هذه الجملة موجودة في الايرانيــة فقـط .
5) وردت الكلمة في النص فأبقينا عليها - وفي ا، صحف الاحتمال باجمال

العظيم سباشي (1) وبكتغدى الحاجب الآخر ، أن يقيد هؤلاء القواد الثلاثة جميعا وأن تصطلم أموالهم ويوجه بهم إلى القلاع في الهند ، فمات في يوم واحد كل الأفراد الثلاثة .

ثم تدبر الأمير الشهيد كيف يكون تدارك الحال فوقع اتفاق على هذا : أن يذهب إلى الهند ومن هناك يحشد جيشا قويا ويأتي به ، فيتدارك هذه الحال . ثم أعطى إمارة بلخ إلى الأمير مودود رحمه الله ، ووجه السيد أحمد بن محمد إبن عبد الصمد (ورقة 139 ب) الوزير معه إلى بلخ ، وأعطى حجابته إلى أرتكين (2) الحاجب ، وأرسل معه أربعة آلاف فارس ، فتوجه إلى بلخ .

فلما وصل إلى هبيان (3) أقام بها ووجه الأمير مجدود رحمه الله إلى ملتان في ألفي فارس ، وأرسل الأمير إيزديار إلى كوه بايه غزنين (4) حيث كان هناك مثيرون وعصاة . وقال له : ارع تلك الولاية حتى لا يقع خلل ، ثم أمر بجميع الخزائن والكنوز التي كان الأمير محمود رحمه الله قد وضعها هناك في القلاع والجهات أن يؤتى بها جميعا إلى غزنين ، مثل قلعة ديدي رو (5) ومنديش (6) و چاي لامان (7)

1) تقدم في الصفحة (69) ان سباشي تكين قد كسر في معركة مع التركمان وانه كان امير انجيش لايلك خان .

2) بالكاف الفارسية تردد ذكره كثيرا في تاريخ البيهقي بأنه حاجب القصر «حاجب سرائى» انظر الترجمة العربية لاستاذنا يحي الخشاب وصادق نشأت

3) في تاريخ البيهقي بالباء الفارسية وفي نسختنا «بهسان» وهي مصحفة وفي شمال كابل ببرو ان محل باسم هبيان وتكتب هوبيان كما في تعليق على الايرانية . وذكر فيه كلاما اخر .

4) بالباء الفارسية ، ومعناها اللغوي سفح الجبل اما الجغرافي فهي في شرق اقليم أصفهان كما في قاموس س. حييم الفارسي الانجليزي

5) لم نعثر على التعريف بها .

6) كانت احدى قلاع غور القديمة المحكمة

7) احدى قلاع الغزنويين الحصينة وكانت محبسا للشاعر العظيم مسعود سعد سلمان وهي الآن بهذا الاسم «في» في اجرستان شمال غرب غزنة يفصلها عن قرى باغ 18 ميلا (عن تعليق على الايرانية)

ومرنج (1) وبامد كوت (2) ، فحملوا على الجمال كل ما كان من مال وجواهر وذهب وفضة وملابس وفروش وأوان . وحشد الجيش وتوجه إلى الهند بتلك الخزائن والحرم والعيال وكذلك وجه رجلا في طريقه إلى أخيه الأمير محمد رحمه الله ليأتوا به من قلعة برغند (3) إلى المعسكر ، فلما انتهى إلى رباط ماريكلة (4) كانوا يحضرون إليه الخزينة فسعى نحو الخزينة بضعة أنفار من الغلمان الوقحاء والعسكريين الذين لا يخشون "(عاقبة)" ، فرأوا عالما من الجمال والبغال ، محملة كلها بالجواهر والذهب والفضة ، فامتدت يدهم إلى ذلك وأخذوا مقدارا منه ، فاضطرب الجيش وانقضوا دفعة واحدة على تلك الخزائن كلها فانتهبوها . فلما حصل هذا العمل المشين ، أدركوا أن هذا لا يمكن أن يقدم عليه إلا بعد أن يقام أمير آخر .

حينئذ وقع الاتفاق على الأمير محمد . فأتى قوم من المجرمين واستطالوا ، وسلموا على الأمير محمد بالملك ، فلما رأى الأمير الشهيد هذا ، ولم يكن هناك محل (ورقة 140 آ) للسياسة التى تأتي بعمل ، أو حرب ، انحدر إلى رباط ماريكله وبقي تلك الليلة بالرباط . فلما كان الغد خرج واجتهد كثيرا ، وكان القضاء قد حم . فلم يستطع أن يفعل شيئا ورجع وتحصن بالرباط . فتجمع الجيش وأستولى على الرباط ، وأتى جمع من الناس مع الفيلة الكثيرة إلى الرباط فأخرجوا الأمير مسعود رحمه الله ووضعوه في القيد ، وأتوا به من هنالك إلى قلعة كيرى (5) . فبقي بها إلى أن كان

---

1) كذلك من قلاع الغزنويين المحكمة قضى بها الشاعر المذكور ثلاثا وثلاثين سنة سجنا يقول :

درمرنج كنون سه سال بود   كه ببندم درين جودوزخ جاى

2) في الاصل سامد كوت بدون نقط وهي غير معروفة .

3) ربما اصلها ره غندي أي القلعة المدورة والتل العالي وذكرت في طبقات ناصري برغند ايضا حيث كان اولاد مسعود محبوسين (تعليق على الايرانية)

4) بالكاف الفارسية ، على 35 ميلا من ما وراء نهر السند شرا! بين تكسيلا و راولبندي

5) بالكاف الفارسية تكتب الآن كهرى ، بالهاء ، يقول البيروني انها في حدور «سوات»، الى اخر التعليق فيها بالنسخة الايرانية .

تاريخ الحادى عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وأربع مائة .

وأخيرا كانت تلك الجماعة الذين سعوا في خلعه ، قد عملوا حيلة ووجهوا إنسانا إلى رئيس "كيرى" بقتله، وأوصلوا رسالة على لسان الأمير محمد ، ولم يكن للأمير محمد خبر بذلك ، فقتله رئيس كيرى ، واحتمل رأسه ، ووجه به إلى الأمير محمد رحمه الله ، فبكى الأمير محمد كثيرا ولام أولئك القوم .

ولاية الأمير شهاب الدين والدولة وقطب الملة أبو الفتح مودود بن ناصر دين الله مسعود بن محمود رحمة الله عليهما

لما وصل خبر واقعة ماريكله ووفاة الأمير الشهيد رحمه الله إلى الأمير مودود خف إلى هبيان وقصد أن يذهب إلى هناك فيتدارك تلك الحال ويطالب بثار أبيه . ثم إن أبا نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد رحمه الله صرفه عن ذلك التدبير ، وقال له ، الصواب هو أن تذهب أولا إلى غزنين ، وأن تضبطها . فلما تصير غزنين في يدنا يصير ذلك الجيش إلى يدنا سريعا . فأتي من هبيان بجيشه إلى غزنين وتقدم جميع أهالي غزنين ، إليه فعزوه وقعد هو في المأتم . فلما فرغ (ورقة 140 ب) جاء جميع أهل غزنين وعرضوا أنفسهم عليه فأثنى عليهم رحمه الله . وانهمك في العمل طيلة الشتاء ودبر الأمور . فلما أقبل الربيع جيش الجيوش وتوجه لمحاربة عمه . فلما وصل إلى دينور كان جيش الأمير محمد قد وصل هنالك . فاصطفت الصفوف ، والتحم الجيشان فاستمروا في القتال فتحاربوا ذلك اليوم جميعه إلى أن أقبل الليل ، فانفصل بعضهم عن بعض .

فلما عاد الأمير مودود إلى محله ، دعا الوزير وقواد الجيش الأعيان إليه ، وتدبر معهم الأمر ثم وجه في السر رجلا إلى

الأمير الأجل السيد أبي منصور عبد الرشيد بن يمين الدولة أدام الله ملكه ، فسلمه رسائل منه ، بأني أعلم أنك لن تستطيع مباشرة أن تأتي وتكون معي ، فإذا كنت في محلك وأنت لا تحارب حتى أشتبك مع خصمي وأنتصف منه ، فإنه تكون لك منة عظمى علي . فإذا أنا ظفرت بمقصودي ، فإنه يكون لك كل الأعمال والأوامر . إذ ذاك أفعل ما تأمر به .

وعلى هذه الجملة عقدت العهود معضدة بأيمان ، مغلظة ، وكتبت المواثيق بحيث إن تلك الوثيقة لا تحتمل الرخصة والتأويل . وقد قال له إن لك مع والدي الأمير الشهيد رحمه الله عهدا ، أنك لن تعامل أولاده معاملة قبيحة .

فلما وصلت الرسالة إلى الأمير الأجل أدام الله دولته ، ورأى الوثائق محكمة ، مال قلبه إلى الأمير مودود ، وأعطى وعدا بأني لا أحارب ولا أستل سيفا والزم محلي ، إلى أن ينتهي هذا الأمر ، فلما كان الغد اصطفت الصفوف بالميمنة والميسرة والقلب والجناحين (ورقة 141 آ) وتحارب المبارزون حتى الزوال والأمير الأجل عبد الرشيد ، أدام الله دولته ، معتزل في سرادقه ، فلم يحارب البتة . فلما رأى الأمير مودود رحمه الله ذلك ، حمل بنفسه وضرب على ميمنة الجيش ، فصرع كثيرا من رجال الميمنة ، وضرب الميمنة على الميسرة والميسرة على القلب ، فهزم بحملة واحدة ذلك الجيش بتلك القوة .

وقد اقتفى أرتكين (1) الحاجب مع غلمان السرايا أقفيتهم ،فصار يقتلهم ويداهمهم ويأسرهم حتى قتل كثير من الناس وأسر آخرون ، وأسروا الأمير محمد كما أسروا ابنه أحمد وسليمان بن يوسف وقوما من أبناء الكبراء في الدولة ، فأمر الأمير مودود بقتل جميعهم ورموا بعضهم بالسهام ، وبعضهم ربطوهم بأذناب الخيول الجامحة (2)

---

(1) في نسختنا بالزاى ، وهو تصحيف .

(2) هنا يقف القسم الموجود من التاريخ ، وتاتي بعد ذلك أبواب تذكر في الفهرس المعد لها .

ترجمة المقدمة الانجليزية التالية

إن كتاب زين الأخبار أحد المؤلفات التاريخية في القرن الخامس الهجري ؛ وقد انتهى إلينا جد قليل منها وهو تاريخ عام لايران ، منذ عهد البيشداديين ، ويتصل خاصة بسلاطين وحكام خراسان ، إلى عهد زين الملة عبد الرشيد الغزنوي (440 ـ 444) غير أنه للأسف قد ضاع أعظم قسم من هذا المؤلف القيم (1) .

والمعروف عن كتاب زين الأخبار ، مخطوطتان ، فقط ، موجودتان ، إحداهما في مكتبة "كلية الملك" ، بكمبرج (رقم 213) والثانية في "المكتبة البودلية" ، بأوكسفورد (240 أوسلي) .

ومخطوطة كلية الملك أقدم هاتين ، وتاريخ انتساخها مثبت هكذا في نهايتها "ومن سنة 93 هجرية نبوية" غير أن نقط سنة قد وضع قريبا من 93 . مما جعل الأستاذ برثولد يخطيء بذلك في قراءتها 930 (2) .

وفي رأيي أن رقم 93 وقع حيث 1093 ، لأن الناسخ للقرن الحادي عشر ، حينما كان يؤرخ ، غالبا ما يغفل الرقم الدال على الألف .

زيادة على هذا ، فإنه في الصفحة الأولى ، قد كتب الناسخ "رباعيتين له (3) ، واحدة تنسب للشاعر "حكيم

---

(1) سواء في ذلك النسخ الثلاث وان كان مخرج النسخة الايرانية ، قد حاول ملء بعض الفراغ منها بالرجوع الى مصادر اخرى عديدة ، نص عليها في ذلك ، فكانت هذه اتم نسبيا

(2) بارثولد ، تركستان ، سلسة جب التذكارية . اما اوسلي Ousely 240 فهو رقم المخطوطة البودلية الموضح في الصفحة ومن كاتالوج Sachau, Ethe

(3) كما يلي : لكاتبه

برهرجه زاسباب جهان دل بنهي حاصل غم ورنج ومحنتست وتبهي
تركش ده وفارغ بنشين ورندهي مزكز زغم ووسوسه او نرهي

لكاتبه

ملكي كه كهش ديو وكهي جم دارد كس دل زغمش بهرجه درهم دارد
عاقل بايد كه سينه منعم دارد دنياست مد وملك فراهم دارد (كذا) ن

وحكيم ركنا عرف ايضا بركنا مسيح وهو عالم شاعر طبيب خطاط مشهور كمعلم لمرزا محمد على صعب اعظم شاعر فارس في القرن السابع عشر

ركنا" الذي توفي حوالي 1066 للهجرة ، وهذا يظهر لنا أن الناسخ عاش في زمن حكيم ركنا أو بعد ذلك الزمان ، أي بعد سنة 930 هجرية بمدة طويلة .

ثم إن هناك في الصفحة الأولى إشارة تدل على أن اشتراء المخطوطة ، كان في يوم الخميس الرابع عشر من ربيع الثاني للعام السابع والعشرين من حكم محمد شاه ، الأمبراطور المغولي للهند (يعني ذلك 1158 هجرية موافق مايه 1745 ميلادية) .

وهذه المخطوطة في حالة جيدة من الصون ، غير أنه من الصفحة 189 إلى 202 تسرب إليها كثير من آفة الرطوبة ، وقد رمز إلى هذه المخطوطة بحرف "أ" أو A عند التعاليق على النص .

أما المخطوطة البودلية ، فإنها قد انتسخت في ذي الحجة 1196 (نونبر 1782 م) وربما (انتسخت) "لجوناثون سكوت" مترجم "بهاردانش" فاسمه مكتوب على الصفحة الأولى ، وممكن جدا أن تكون هذه المخطوطة منتسخة عن مخطوطة "كلية الملك" حيث إنه حتى أخطاؤها اتبعت تماما (1) وأن الاختلافات في نصوص المخطوطتين تافهة جدا ، ولا يلتفت إليها غالبا .

وعلى كل حال ، فالنسخة البودلية ، تدل على أنها كانت قد انتسخت من مخطوطة كلية الملك ، قبل أن تتعرض لآفة الرطوبة وقد رمز للمخطوطة البودلية بحرف "ب" أو B عند التعاليق على النص .

ويبدو أن "زين الأخبار" لم ينل شهرة عظيمة ، لحد أني أستطيع أن أؤكد أنه لم يذكر في أي كتاب ، إلى أن كان أوائل القرن الحادي عشر الهجري ، حيث استفاد منه

---

1) يقول الناشر معلقا على هذا ما معناه : ان وكيل مكتبة « كلية الملك » المستر بنتين ، قال بتاريخ 1913/3/5 ، انه « بعد المقارنة مع مخطوطة « كلية الملك » في مارس لسنة 1913 ، قرر « روس » (كلكوتا) والبروفيسور « براون » (كمبرج) انه لا مجال للشك في كون هذه المخطوطة اصلا ، وان البودلية نسخة منها » وكذلك قرر » بارثولد

مؤلفا "طبقات أكبرى" (1) "تاريخ فرشته" عند ذكرهما لدولة الغزنويين .

أما في العصر الحديث ، فإن "السير هنري ميرس ، اليوت" نبه على أهمية "زين الأخبار" لأول مرة في 1867 ، ولكنه لم يكن يدرك أنه موجود . وفي سنة 1868 لفت الأنظار "مستر بلمر" إلى مخطوطة "كلية الملك" وذلك في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية ، (صفحات 105 ـ 31) وفي سنة 1889 كان الدكتور "إيثي" قد قدم وصفا ضافيا للمخطوطة البودلية ضمن فهرس المخطوطات الفارسية لتلك المكتبة (ص 9 ـ 11) وقد استعمل "ماجور هنري جورج رافرتي" هذا المؤلف ، عند تصنيفه التعاليق على ترجمته "طبقات ناصرى" (2) ولكنه قدم بعض العرض للتآليف المزعوم أنه "زين الأخبار" (3) وهو لا يعضد بالمخطوطتين الموجودتين فعلا .

وعلى كل حال ، فهذا لا يدل ضمنا ،على أن "ماجور رافرتي" كان له بأية حال ، مخطوط (آخر) لزين الأخبار ،

---

1) طبقات اكبرى ربما يكون اعظم ما الف بالفارسية في تاريخ الهند ، ويعرف ايضا باسم « طبقات اكبر شاهى » او « تاريخ نظامي » الفه حوال 1002 هـ. موافق 1593 ـ 1594 نظام الدين احمد الهروي من بطانة اكبر الذي نسب اليه الطبقات كما نسب البيهقي تاريخه لمسعود الغزنوي فكان « تاريخ مسعودي » اما تاريخ فرشته فهو كتاب مهم ايضا في التاريخ الهندي انجز تنقيحه الثاني حوالي 1018 هـ. موافق 1609 ـ 10 م. ويعرف ايضا باسم « كلشان ابراهيمي» وكلشان ، بالكاف الفارسية ، معناه في اللغة حديقة الورد ، وهو منسوب ايضا لابراهيم على الطريقة التي ذكرنا ، كما يعرف باسم « تاريخ نورص نامة » ومؤلفه محمد قاسم هندوشاه الاسترابادي المشهور بفرشته ، توفي غالبا بعد عام 1033 هـ. موافق 1623 ـ 24 م

2) تاليف منهاج السراج الجوزجاني ولد حوالي عام 590 والتحق بخدمة سلطان الهند « ناصر الدين نباحه » ثم التحق بخدمة شمس الدين التتمش الذي اهدى الى ابنه « ناصر الدين محمود شاه » كتابة هذا الذي فرغ من تاليفه عام 659 وهو في عشرين فصلا تبدا بالاولياء والانبياء وتنتهي بغارة المغول . عن تاريخ الادب في ايران لبراون ترجمة استاذنا ابراهيم امين رحمه الله

3) ترجمة « ريفرتي » الصفحات 900 ـ 6 وتاريخ الهند القديم لصاحبه « سميث »
the Early History of India V. A Smith, p. 384,note.

مختلف أو أحسن (من المخطوطتين) كما أنه كان مضطربا جدا في إحالاته على المراجع .

ومن أوراقه التي تخلفت بعد وفاهه ، والتي وضعتها أرملته ، في مكتبة الادارة الهندية (1) لا يبدو أنه امتلك أبدا مخطوطة "الزين الأخبار" .

وفي سنة 1898، كان البروفيسور "ولهلم بارثولد" قد نشر أجزاء مبعثرة ، من زين الأخبار " نقلا عن المخطوطة البودلية ، وذلك في الجزء الأول من كتابه "تركستان" (ص 1 ـ 18) وقد إستفاد منه في كتابته لمقال له على الصفاريين في تكريم (2) البروفيسور نولديكا (في الثاني من مارس 1906 الجزء 1 ص 171 ـ 191) وفي مقالاته العديدة بالموسوعة الاسلامية .

وفي تحضيري لهذه النشرة ، فإني قد اعتمدت على مخطوطة "كلية الملك" وهي تبتديء على نحو أبتر وبدون أية مقدمة ، مع تضمن لذكر "طهمورث" من الأسرة البيشدادية .

وهناك عدة فجوات (في المخطوطة) ويبدو أن بعض الصفحات قد جلبت في الأصل الذي قد انتسخت منه هذه المخطوطة فالابواب مالو احد الى السادس ربما تتعلق بتاريخ الأنبياء وملوك فارس القديمة ، والباب الثاني عشر والثالث عشر ، وبعض أجزاء من الباب العاشر والسابع والعشرين

(1) توجد بلندن وهي غير « الدار الهندية » بها

(2) ترجمنا كلمة Festschrift الالمانية بالتكريم والمراد تكريم خاص بان تقدم الى صاحبه مجموعة من البحوث والمقالات القيمة على سبيل الولاء والاعظام والشرف وهذا يعرف باسم Homage في الانجليزية او Homenaje في الاسبانية والكلمة الالمانية مركبة من Fest العيد و schrift الكتابة

مفقودة (1) بينما الباب السابع والعشرون ياتي بين التاسع والعاشر ، والباب الثاني عشر يتوقف بذكر القائم بأمر الله ، الخليفة العباسي .

ثم يتبعه بذكر موجز لحكام خراسان من عهد "أفريدون" إلى الفتح العربي ، وتنقطع المخطوطة مرة أخرى فجأة ، عند ذكر السلطان مودود(1) ابن السلطان مسعود الغزنوي ، يتبعه ذكر بقراط وجالينوس وآخرين من فلاسفة اليونان ، بحيث إنه يمكن أن يكون مقتطفا من الباب 27 . سوى هذه الخلال ، فإن المخطوطة جد مشوهة وغامضة .

أما مؤلف زين الأخبار ، فلا يعرف شيء عنه ، عدا ما هو مذكور في المؤلف نفسه ، فإن اسمه كان أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود الكرديزي .

لقد كان معاصرا ، وأغلب الظن أنه كان من معاريف أو تلاميذ العالم الشهير أبي الريحان محمد بن أحمد

---

(1) هذه التافاصيل فيها بعض الاختلاف في النسخة الايرانية ، سنتعرض لها في ترجمتنا لباقي الكتاب ، ان شاء الله . على ان تناقضا وقع في كلامه حيث ذكر فقدان الباب الثاني عشر ، ثم انه يتوقف بالقائم بامر الله وقد كاتبت في هذا أستاذي العالم الحاج «مارتن لنجس» Martin Lings بالمتحف الابريطاني فـ جابني حفظه الله بما ياتي :

In the Catalogue's description . . . . this chapiter is not mentioned as having been assigned a number. If it had a number it shoud probably be 9, since Chapter 9 (here placed between Chapter 8 and 27) contains a short history of the first 4 Caliphs, followed by a genealogical plan of the Banu 'Abbas.

هذا الفصل غير مذكور ، في وصف « الكاتلوج » ... وهو معلم برقم . فان كان له رقم ، فانه ينبغي ان يكون 9 حيث ان 9 (وهو هنا موضوع بين الفصلي 8 و27) يحتوي على تاريخ مختصر للحلفاء الاربعة الاول ، متلوين بجدول لانساب بني العباس . كما افادني استاذي افادات اخرى ذكرت جلها في التعاليق على هذه المقدمة . فشكرا له ولزميله المستر « فليب ويلي » الذي حولت عليه اسئلتي فتفضل بالاجابة عنها ، اما النسخة الايرانية فالقائم مذكورها في الباب الثامن

(2) ذكر في كاتلوج « ايثي » للمخطوطات الفارسية ، بالمكتبة البودلية ص 10 ، خطأ أنه السلطان عبد الرشيد ، كما قال الناشر

Ethe Catal. of Pers Mas. in bodl. Library, p. 10
incorrectly says Sultan 'Abdddu'r Rashid.

البيروني ، الذي روى عنه معلومات شفوية ، حول الهند ، في الصفحة 175 من المخطوط ب. (1) .

وبما أن التأليف مهدى إلى عبد الرشيد ، فإنه يظن أن الكرديزي كان في الغالب من الملحقين بالبلاط الغزنوي.

ولم يذكر الكرديزي في القسم التاريخي من مؤلفه مصدر النصوص (التي اعتمد عليها) ولكن الاستاذ "برثولد" قد استطاع أن يكتشف أن أحد مصادره كان "تاريخ ولاة خراسان" لأبي الحسن علي بن أحمد السلامي (2) فإنه يقول ، إن نص الكرديزي في بعض الأحيان قريب جدا من ابن الأثير ، وفي بعض الفقرات يأتي بترجمة حرفية له تقريبا ، بحيث إنه يمكن ، طبعا ، أن يفسر بمجرد كون المؤلفين استعملا معا في الواقع ، نفس المصدر ، ولا شك أن هذا المصدر كان مؤلف السلامي

واعتماد الكرديزي على السلامي مثبت بسياق روايات الكرديزي فيما يتصل بعمرو بن الليث (انظر ص 16) (3). فانها كتبت مرددة لفظ الفصل المقتبس من السلامي ،

---

1) اما في النسخة الايرانية ، ففي الصفحة 252 ، حيث يقول : « جنين كويد فراز اورنده اين كتاب ، ابو سعيد عبد الحي بن الضحاك ، كه جنين شنيدم ازخواجه ابو الريحان محمد بن احمد البيروني ، رحمه الله ،، »

2) يعد هذا الكتاب مفقودا ولا يعرف عنه الا المنقول منه في كتب اخرى كالكامل والوفيات وجهار مقاله لعروضي فيه : وسلامى اندر تاريخ خويش همي ارد : كه كار احمد بن عبد الله بدرجة رسيد ، كه بنيسابوريك شب سيصد هزار دينار وبانصد سراسب وهزارتا جامه ببخشيد ، وامروز در تاريخ از ملوك قاهرة يكي اوست »

هكذا ذكر عن الخجستاني الوارد في ابن خلكان ، عند ترجمته ليعقوب الصفار

اما السلامي ، فهو كما ذكره استاذنا عبد الوهاب عزام رحمه الله ، واستاذنا الخشاب حفظه الله ، في الحواشي على جهار مقاله ، ابو عبد الله السلامي البيهقي النيسابوري المتوفى سنة 300 – 912 – 13 ... كاتب مؤلف موفق التجويد له كتاب التاريخ في اخبار ولاة خراسان وكتاب نتف الظرف ، وكتاب المصباح ، وكتاب الثار ، وغيرها ومن تلاميذته ابو بكر الخوارزمي

3) وانظر ص 16 وما بعدها من ترجمتنا ، وما علقنا عليها

وقد اقحدم في ابن خلكان (ترجمة دي سلان ج 4 الصفحات 322 ، 326) (1) .

وربما كان المصدر الآخر "تاريخ النيسابوري" للحكيم أبي عبد الله محمد بن عبد الله البيعي النيسابوري حيث يذكر عدة فقر تتصل بحكام خراسان (2) .

أما في ذكره للسلطان محمود وفتوحاته ، فإن الكرديزي معتمد أساسا ، على معلوماته الشخصية (ص 61) (4) وحكايات معاريفه الخاصة الذين خدموا عند السلطان (ص 90) (3) .

وفي القسم الأخير من مؤلفه الذي لم تشمله المطبعة الحالية ، فإن الكرديزي قد اعتاد أن يذكر مصادره ، فهو يستشهد بمؤلفات أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (الصفحتين 143 ب ، 175ب) (4) وبكتاب المسالك الممالك ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني (الصفحات197أ، 197 ب ، 199 ب) وكتاب "توضيح الدنيا" أو "زيح الدنيا" لأبي عمرو عبد الله ابن المقفع (الصفحتين 177 ب ، 197) وفي الصفحة 198 يذكر قصة الحاوي الهندي عن أحمد بن ولك الكرديزي .

(وبالجملة) فإن "زين الأخبار" عرض تاريخي لحقائق مجردة ، وإن الفقدان البالغ فيه للانتقاد لمدهش ، خصوصا عند مقابلته مع معاصره "تاريخ مسعودي" لأبي الفضل البيهقي ، فهو على كل حال تأليف هام يتضمن تاريخ

---

(1) انظر ابن خلكان في ترجمة يعقوب بن الليث والنقول عن السلامي فيها ، وقد احال الناشر على المرجع هكذا Turkestan. (G. M. S.), p. 21.

(2) نفس المرجع ص 16 وكتابه يعد مفقودا كذلك واسمه « علماء نيسابور » أشاد به حاجي خليفة توفى 405

(3)وصفحة 68 من ترجمتنا

(4) وفي الايرانية صفحة 210 ، حيث يقول : « ومن انجه يافتم ، بخاصة ازكتب خواجه ابو الريحان ، رحمه الله بياوردم ، وانظر في الصفحتين : 279 ، عن المسالك والممالك ، وتوضيح الدنيا ، وكتاب ابن خرداذبه ، و 287 عن حكاية ابن ولك ، حيث يقول « وجنين حكايت كرد مرا احمد بن ولك كرديزي ... »

القرنين الثالث والرابع ، وخصوصا القسم الاول للقرن الخامس الهجري ، وأغلب المواد المذكورة فيه مستمدة من مؤلفات لم تنته إلينا ، أو من المعلومات الشخصية للمؤلف ، وإنه التاريخ الوحيد الموجود (بين أيدينا) وهو يؤدي روايات معاصرة للشطر الأخير من حكم السلطان محمود ، ولكن مع الأسف كان منبعثا عن منهجه من الاختصار (ص 61 ـ 62) (8) لأن الكرديزي يتجنب بارتياب أن يعطي تفاصيل الحوادث ، لأهم أعمال السلطان وهو عدى كل حال مختصر جدا في إعطاء التواريخ لأغلب الحوادث التي ذكرها جميعا ، وباستثناء قليل من الفقرات المختصرة عن البتكين وسبكتكين في خدمة السامانيين فإنه قد أهمل تماما (ذكر) سلف السلطان محمود .

ولم يكن ممكنا أن يصحح النص بالمقابلة ، لأن المخطوطة البودلية ، منتسخة من مخطوطة "كلية الملك" (وإن كنت) قد أصلحت قليلا من الأخطاء المنتسخة بدون أية إشارة إليها ، لئلا أثقل الكتاب بالحواشي المربكة وغير الضرورية ، ولكن عند الشواهد المبهمة أو الهامة ، فإني ذكرت القراءتين للمخطوطتين متوازيتين ، مع تصحيحي ، وأحيانا قراءات لمؤلفات أخرى تتصل بنفس الحقبة .

أما الإضافات إلى النص لتأدية المعنى الناقص أو العبارة المضطربة ، فقد وضعتها بين المعقفات ، ولزيادة الفائدة منها ، فإني قد ذكرت المراجع التاريخيةوإن كانت ليست كثيرة بسبب عوز الفراغ كما كان المرغوب فيه .

وفي الختام ، فإني أشكر أمناء تراث ادودكرانفل براون التذكارى the E. G. Browne Memoria Fund على مساعدتهم السخية ، التي طوقوني بها ، (فاستطعت) إرسال هذه النسخة إلى المطبعة .

---

(1) والصفحة 67 وما بعدها من ترجمتنا

آملا أن يكون مستطاعا في المستقبل القريب ، طبع القسم الباقي من "زين الأخبار" الذي يتناول موضوعات لها قيمتها العظمى للدارسين المشرقيين .

كما أني أغتنم هذه الفرصة ، فأتوجه بالشكر إلى البروفيسور رينولد ألين نيكسون على اقتراحاته التي أخذت بها في عملي هذا ، وعلى نصائحه وإشاراته التي عتقد أني لا أفي بشكرها .

برلين رابع عشر غشت 1928 محمد ناظم

ترجمة المعرب في رمضان عام 1392

محمد بن تاويت ،وافق نونبر سنة 1972

The **Zainu'l-Akhbar** is a chronicle of dry facts. The complete absence in it of criticism is astonishing specially in contrast with the contemporary تاريخ مسعودي of ابو الفضل بيهقي . It is however an important work for the history of the 3 rd and the 4 th centuries and especially for the early part of the 5 th century A. H. Most of the material preserved in it, is derived from works which have not come down to us, or from the personal knowledge of the author. It is the only extant history which gives a contemporary account of the later half of the reign of Sultan Mahmud, but unfortunately, owing to his ideas of brevity [pp. 61-62] , Gardizi scrupulously avoids giving details of even the most important exploits of the Sultan. He is however very careful in giving dates to almost all the events he has recorded. With the exception of a few brief references to Alptigin and Subuktigin under the Samanids he has altogether omitted the predecessors of Sultan Mahmud .

It has not been possible to correct the texte by collation because the Bodleian manuscript is a copy of the King's college manuscript. I have corrected minor errors of the copyist without making any reference to them, so as not to encumber the book with unnecessary and confusing footnotes ; but in doubtful or important instances I have given the readings of the manuscripts along with my emendations, and occasionally the readings of other works dealing with the same period. Additions to the text to give meanings to incomplete or confused sentences have been enclosed in square brackets. To increase its usefulness, I have given historical references, though owing to lack of space, they are not as many as could be desired.

In conclusion I thank the Trustees of the E. G. Browne Memorial Fund for their generous help which enabled me to send this edition to the press. I hope it will be possible in the near future to publish the remaining portion of the **Zainu'l-Akhbar** which deals with topics of great interest to Oriental scholars. I also take this opportunity of thanking Professor Reynold A. Nichoslson, at whose suggestion I undertook this work, and whose advice and guidance have throughout been of inestimable value to me.

Berlin, 14 th Agust, 1928. M. Nazim

to its conquest by the Aarbs. The manuscript again breaks off abruptly in the account of Sultan Maudud, [1] son of Sultan Mas'ud of Ghazna, and then follows and account of بقراط and جالينوس and other Greek philosophers which is probably a fragment of the 27 th chapter. Apart from these important defects, the manuscript is frequently confused and unintelligible.

Nothing is known about the author of the **Zain'l-Akhbar** except what mentioned in the work itself , His name was ابو سعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود كرديزي He was a contemporary, and most probably an acquaintance or a pupil of the famous scholar ابو ريحان محمد احمد البيروني , from whom he has cited a verbal communication about India on f. 175 b. As the work is dedicated to Sultan 'Abdu'r-Rashid, it may be surmised that Gardizi was probably attached to the court of Ghazna. . .

Gardizi does not mention his authorities for the historical portion of his work, but Professor Barthold has been able to find out that one of his sources was ابو الحسين علي بن احمد السلامي of تاريخ ولاة خراسان He says that Gardizi's text is sometimes very close to **Ibnu'l-Athir**, and in certain passages presents an almost literal translation of it, which can of course be explained only by the fact that both authors made use of one and the same source. This source was undoubtedly Sallami's work. Gardizi's dependence on Sallami is confirmed by the fact that Gardizi's narratives of 'Amr b. Laith [see p. 16] and repeated word for word in the extracts from Sallami inser**ted in Ibn Khallikan** [De Slane's transl. IV, 322, 326] [1]. Another probable source was حكيم ابو عبد الله محمد بن عبد الله البيعي النيشابوري of تاريخ النيشابوري which contained numerous references to the rulers of Khurasan [2]. In his account of Sultan Mahmud and his successors, Gardizi mainly depends on personal knowledge [p.61], and the reports of acquaintances who had served under the Sultan [pp. 77,90].

In the last portion of his work which is not included in the present edition, Gardizi has usually stated his sources. He quotes from the **works of** ابو ريحان محمد بن احمد البيروني (ff. 143 b, 175 b] · ابو عبد الله محمد بن احمد الجيهاني of كتاب المسالك والممالك [ff. 197 a, 197 b, 199 b] ; ابو عمرو عبد الله بن المقفع of ...ـخ الدنيا or كتاب ترضيح الدنيا [ff. 177 b, 197 **a**] ; and on f. 198 b, relates the story of a snake-charmer of India from احمد بن ونك كرديزي

by damp. The Bodleian manuscript is called Ms. B in the notes to the text.

The Zainu'l-Akhbar does not appear to have been a well-known work. So far as I have been able to ascertain, it is not mentioned by any writer till the beginning of the 11 th century A. H. when the authors of the طبقات اکبری and تاریخ فرشته utilized it in their account of the Ghaznawid sovereigns. In modern times Sir H. M. Elliot pointed out the importance of the Zainu'lAkhbar as early as 1867, but he was not aware of its existence. In 1868, Mr. Palmer called attention to the King's College manuscript in the J. R. A. S. [pp. 105 31] , and in 1889, Dr. Ethé gave a long description of the Bodleian manuscript in his Catalogue of the Persian Manuscripts in that library, pp. 9-11. Major H.G. Raverty used this work in the compilation of notes on his translation of the طبقات ناصری , but he has made some statements on the alleged authority of the **Zainu'l-Akhbar** [2] which are not supported by the extant manuscripts. This however does not imply that Major Raverty had a different and possibly a better manuscript of the **Zainu'l-Akhbar** as he was very loose in his references to authorities. From his posthumous papers which his widow has deposited in the Library of the India Office, it does not appear that he ever possessed a manuscript of the **Zainu'l-Akhbar.** In 1898, Professor W. Barthold published scattered portions of the **Zainu'l-Akhbar** from the Bodleian manuscript, in the first volume of his « Turkestan » [pp. 1 - 18] ; and used it in the compilation of his article on the Saffarids, in Professor Nœldeke's Festschrift, [2nd March, 1906], vol. I, pp. 171 - 191, and his numerous articles in the Encyclopaedia of Islam.

In the preparation of this edition, I have followed the King's College manuscript.It begins abruptly without any introduction, with an account of طهمورث of the بیشدادین dynasty. There are numerous lacunas, and it appears that some pages had been transposed in the original from which this manuscript was copied. The chapters 1 - 6, which probably related to the history of the Prophets and the Kings of Ancient Persia, chapters 12 th, 13 th, and some portions of chapters 10 th and 27 th are wanting ; while chapter 27 th comes between chapters 9 th and 10 th, and chapter 12 th breaks off in the account of the Abbasid Caliph القائم بامر الله . and then follows a brief account of the rulers of Khurasan from the time of افریدون

Préface

The **Zainu'l-Akhbar** is one of the very few historical works **of** the 5 th century A. H. that have come down to us. It is a general history of Persia from the بيشداديان dynasty, and deals particularly with the governors and rulers of Khurasan up to the time of Sultan Zainu'l-Millah 'Abdu'r-Rachid, of Ghazna [440-444 A. H.] ; but unfortunately a large portion of this valuable work has been lost.

Only two manuscripts of the **Zainu'l-Akhbar** are known **to** exist, one in the library of King's College, Cambridge [No. 213] , and the other in the Bodleian library Oxford [Ouseley . 240]. Of **these** two, the King's College manuscript is the oldest. The date of its transcription is given thus in the colophon : ومن سنة 93 هجرية نبوية but the dot of the word سنة is placed so near 93 that Professor Barthold has misread it as 930 [1] In my opinion the number 93 stands for 1093 , because the scribes of the 11 th century A. H. when giving the date, usually omitted the figures denoting the thousand. Moreover , on the first page, the copyist himself has written two quatrains of his own composition, [2] and one of the poet حكيم ركنا who died [circa] 1066 A. H , which shows that the copyist lived in or after the time of حكيم ركنا that is, long after the year 930 A. H. On the first page there is a note recording the purchase of the manuscript on Thursday, 14 th **Rabi'**-II, in the 27 th year of the reign of Muhammad Shah, the mogul emperor of India, [i. e. 1158 A. H. May 1745 A. D.] . The manuscript is in good state of preservation, but ff. 187 a - 202 a have been much damaged by damp. This manuscript is called Ms. A in the notes to the text.

The Bodleian manuscript was transcribed in **Dhu'l-Hajja,** 1196 [Nov. 1782 A. D.] probably for Jonathon Scott, the translator of the **Bahar-i-Danish** whose name is written on the first page. It is highly probable that this manuscript was copied from the king's College manuscript, as even its errors have been closely followed. [1] The variations in the texts of the two manuscripts are very insignificant and almost negligible. The Bodleian copy however appears to have been made before the King's College manuscript was damaged

السحـــر وما حـــوله

(مـالـه ومـا عـلـيـه)

تمهيد :

حول الابعاد المحددة لهذه الدراسة

بقلم الدكتور رشدي فكار

حينما نستمع إلى تعبير سحر تتوارد المعاني لدينا وتتداخل بين الغامض والخفي ، وبين الجذاب والمستحوذ على الألباب ، وعلى ضوء هذا التوارد وهذا التداخل يتسع الإطار ويفيض ليشمل الكلمة ، والبيان والشكل ، والجوهر ، والطبيعة والانسان : كلمة ساحرة بيان ساحر "إن من البيان لسحرا" ، مظهر ساحر ، جوهر ساحر ، إنسان ساحر ، طبيعة ساحرة... وعلى هذا المنوال نقيس في منح النعوت ، وتنويع الصفات الجذابة في مظهرها ، والخفية في مضمرها بالنسبة للفهم الفوري والانطباع السريع ، غير أننا إذا تجاوزنا هذا الإطار الساحر للسحر لنخضعه كظاهرة للبحث العلمي ، ومن ثم للشرح والتحليل ، والتفسير والتخريج ، نجد أن السحر قد اهتم به أكثر من ميدان علمي ، سواء بالنسبة للعلوم الطبيعية والبحته ، أو بالنسبة للعلوم الانسانية على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن حين النظرة العفوية الفورية - فلقد تصدت هذه العلوم له في محاولة التنقية والعزل ، ورفع جوانب الالتباس التي عاصرت معرفة الانسان وتطورها في مراحلها القديمة، والوسيطة ، وحتى في مشارف العصر الحديث ، وبعض مناحيه

ففي حقل العلوم الطبيعية والبحته ، كان الاهتمام بدراسة ظاهرة السحر في محاولة للتنقية والعزل والتمييز بين السحر ، وعلوم الطبيعة والكيمياء ، وبينه وما حوله كالتنجيم وعلوم الفلك والطب... وفي حقل العلوم الانسانية كان الاهتمام بدراسة ظاهرة السحر خصوصا

على ضوء العلاقة بينها وبين الدين كنقطة ارتكاز تصدت لها الدراسات الانتربولوجية وما حولها ، والسيكولوجيا بدورها اهتمت بهذه الظاهرة وآثارها النفسية ، كما اهتم بها التاريخ بدراسة تطورها ، وانبرت لها السوسيولوجيا بالدراسة وذلك في محاولة شارحة وتقريبية لأبعادها الشمولية في الواقع الاجتماعي وتحديد السببية والعوامل المهيئة ، وتفهمها كظاهر تؤثر من خلال رواسب البيئة الاساسية وتتأثر بها ، وقد تمت نتيجة الاهتمام المتعدد الجوانب وبفضله ، دراسات علمية عريضة غزيرة واسعة تناولت شتى ضروب السحر وما حوله (1) وإن كانت المكتبة العربية الحديثة ، رغم أهمية هذه الظاهرة وما كتب عنها في الأوساط العلمية الأجنبية ، ما زالت فقيرة ، أو محدودة الامكانيات على الأقل بالنسبة لما تمتلكه من دراسات أصيلة بلغتها ، فهي تعيش في أغلب الأحيان على تداول ما كتب من أقاصيص السحر وعوائده ، وأوصافه وعجائبه (2).

ولعل هذا من الاسباب التي دفعتنا أن نقدم هذه الدراسة المتواضعة عن السحر وما حوله ، ماله وما عليه ، لا لسد هذا القصور ، وإنما لإعطاء عرض تمهيدي مركز قد يدفع إلى دراسات أخرى أوسع وأكمل في المستقبل .

---

(1) فنظرة سريعة على هوامش هذا البحث في الصفحات التالية ، تعطي لنا فكرة عن مدى سعة الانتاج الذي ظهر حول السحر ، وعن مدى غزارته ، وان كنا مع هذا لم نذكر الا بعض الدراسات التي رجعنا اليها في صياغة هذا العرض المركز المحدود ، والمحدد الجوانب اذ انه لو توخينا حصر المراجع الخاصة بالسحر لكان مجرد سرد عناوينها يحتاج الى العديد من الصفحات ...

(2) نجدها في كتب على حدة من الكتب « ذات الاوراق الصفراء » او تغطي فصولا بما أورده الكتاب والرواة والرحالة والمؤرخون ، ورؤيتهم للسحر وضروبه ووصفاته كمثال نطالع ايضا حتى عند ابن خلدون في مقدمته وعند غيره في الفترات السابقة أو التالية له . وما احوجنا حاليا لدراسات علمية حديثة حول هذه الظاهرة التي تعشعش في جسد أغلب المجتمعات العربية وتنخر فيه ، وتعيقه ، فباستثناء بحوث قليلة نادرة أو مقالات في صفحات تعد على الاصابع كمجرد مثال مقال الدكتور سيد بدوي عن السحر وعلاقته بالدين المنشور في مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ج 4 (راجع أيضا ، بخصوص هذه المقالة هامش 27 وما تلاه من دراستنا هذه) ، لا نجد مؤلفات او دراسات اصيلة تستحق الاشارة في هذا المضمار .

دراستنا هذه تنير الطريق إذن ، لا أكثر ولا أقل ، خصوصا وقد دعمناها ، من خلال هوامشها بمراجع ومصادر مختارة لمن أراد التفصيل والبحث بتوسع حول هذا الموضوع في المستقبل ، وسنبدأها بلمحة توضح المعالم الأولية ، بتحديد إطار الظاهرة تاريخيا دون الدخول في تفصيلات تتجاوز طبيعة التركيز لهذه الدراسة ، ثم نتعرض بعد ذلك لظاهرة السحر على مستوى مداولها ، وهل يمكننا أن نعين مفهوما نعرف من خلاله السحر وماذا نعني به ؟ وهذا يدفعنا إلى مواجهة الظاهرة بما حولها وما يسير في فلكها من ظاهرات شبيهة كالشعوذة ، والشيطنة ، والتنويم ... الخ لنحدد الأبعاد ، ولنصل بموكب الشرح والتحليل ، والتفسير ، والتخريج ، إلى نقطة هامة طالما شغلت بال الباحثين في هذا الموضوع ، خصوصا من الانتربولوجيين ، ونعني بها علاقة السحر بالدين ، غير أننا سنكتفي بطرحها في شكل مركز مجمل تمشيا مع إطار هذا البحث ، دون الخوض في خصائص المجتمعات البدائية والحقل الانتربولوجي ، مكتفين بالاشارة إلى الاتجاهات الرئيسية للتعرف عليها والتعريف بها بايجاز ، مع توضيح موقف الاسلام كدين من السحر ، فهي قضية تعنينا أساسا ، وسننهي عرضنا المركز هذا ، بخلاصة نتصدى فيها لقدرة السحر إن كانت له قدرة ، ونكيف فاعليته ، إن كانت له فاعلية على مستوى الساحر والمسحور.

المبحث الاول

لمحة مبدئية تاريخية عن السحر

من المسلم به ، أن الغوامض والأسرار والغيبيات ، والخفايا ، كانت تسيطر بصفة عامة على معرفة الانسان في فتراته الأولى ، وامتصت المجتمعات القديمة من بين ما امتصت سيطرة هذه المعطيات التي كانت في بدايتها على مستوى الطوطمية ، والوثنية ، والتجسد ، والتقمص الإحيائي... الخ ولقد نشأ السحر في مظاهره الأولى عبر هذا الإطار ، إطار الخفي والغامض ، والسري والغيبي ، وبالتالي لم تكن المعرفة على مستوى السببية والا تعقل الطبيعي للأمور ، وحتى السحر بدوره مر من مستوى الغموض الكامل إلى الخفي نسبيا ، بمعنى من

مستوى سحر لا تعرف عناصره ، ويعطى صاحبه قدرة خارقة في مستوى القدرة الالهية حسب اعتقادهم آنذاك إلى مستوى السحر الخفي الذي له تطبيق ، وتعرف عناصره نسبيا وبالتالي يلقن ويعلم ويتوارث بين السحرة عن طريق التدريب عليه والمزاولة ، بناء على تأهيل يزكي بقدرة نفسية وطبيعية مميزة ، وعليه فمنذ أقدم عصور الانسان ، ومن خلال أقدم حضاراته الكبرى كمثال الحضارة الفرعونية ، والسحر يجد أرضه الخصبة ، ولقد حاول بعض المؤرخين أن يعطي تواريخ محددة ما أمكن ، فمنهم من ذهب به إلى ما قبل طوفان نوح ، ومنهم من ارتفع به إلى تسعة آلاف عام قبل الميلاد ، إلا أن التحديد خصوصا بين سحب الأساطير وضباب الرواة ، ينظر إليه بتحفظ وحيطة إن لم يدعم بالوثائق والوقائع الأثرية الملموسة .

على مستوى بين محدد ، إذ كانت له قواعد وانسقة سحرية بمعنى يشتمل على طقوس وشعائر معينة ، أعطتنا دراسة الآثار الفرعونية صورة واضحة عنها كمثال كتاب الموتى ، وأسرار الأهرام ، وأسطورة " أوزيريس - إيزيس " Osiris - Isis ... الخ ،

ولقد لعب السحر دورا هاما لدى الفراعنة بما في ذلك الناحية الطبية ، حيث الجسم يقسم إلى جزئيات كل جزئية تخضع لقدرة سحرية معينة ، وكان السحر نوعين : سحر رسمي lioit وهو سحر الكهنة ، ووصلت قدرته وفاعليته - على حد اعتقادهم آنذاك - إلى الاحياء والإماتة ، والسحر السري Illicite وهو يلجأ إلى الطلاسم والسموم ، وقد حورب في عهد " رمسيس الثالث " ، وكانت توقع أقسى العقوبات على السحرة السريين الذين كانوا يزاولون نشاطهم السحري غير المشروع (1) .

فالفراعنة - مهما كان التحديد وتموجه عرفوا السحر قطعا والبابليون والآشوريون والكلدانيون ، عرفوا السحر ،

(1) لمزيد من التفصيل عن السحر عند الفراعنة راجع :

BONNE (Cambell). *Studies in Magical amulets, Chieflas greeco Egyptian.*, Uni. Michi. Press, 1950, Budge. E. -.A. Wallis *Egytpian Magic*, London. 1901, et LEXA (François), *La Magie dans l'Egypte antique*, Paris Genthnér, 1925, 3 val. etc.

عرفه البابليون خصوصا خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد مع حمورابي ؛ وعرفه الكلدانيون القدماء . والآشوريون ازدهر بصفة خاصة عندهم خلال القرن الثامن والسابع قبل الميلاد ، ويذكر بالنسبة للبابليين أن الآلهة عندهم كان لهم اسمان ، اسم ظاهر ، واسم خفي باطني له قدرة طلسمية سحرية ، ولقد تفشت في أرض بابيلون ظاهرة " الأرواح الجائلة الباطنية " وكانت هناك طقوس خاصة لحصرها والتغلب عليها ، كما عرفوا بعض الظاهرات التي تسير في فلك السحر كالتنجيم والشيطنة وقد كان للشياطين تصانيف منهم من يعمل بالليل فقط ، ومنهم من كانوا يسجدون له ، واشتهر نوع الطاغوت من الشياطين الصارفة عن الخير ، ويلاحظ بصفة عامة في مجتمعات البابليين والآشوريين والكلدانيين أن باطنية السحر هي التي كانت سائدة وعند اليهود في المجتمعات الحامشية الأخرى المعاصرة لهذه المجتمعات القديمة وصل السحر إلى قمته ، عرفته مملكة سليمان ، كما تفشى في عهد موسى (وإن كنا نهمشد المجتمع الفرعوني ونلحقه به) ومهما كانت المعطيات الوثائق الأثرية ، أو الكتب السماوية ، فمن المسلم به على أي حال أن الظاهرة وجدت أساسا وتفشت ، بل وسيطرت في بعض هذه المجتمعات (1) .

والإغريق والرومان وعبر العصر الوسيط الأوربي كان للسحر عندهم مكانة لا يستهان بها ودور برز لنا على مستوى "مديس وسيرس Medees et circe في (الأودسة) ، إلا أنه كثيرا ما كان يحدث خلط والتباس بين السحر وما حوله ، خصوصا العرافة ، بين الساحر والعراف ، ورغم التنقية الفكرية التي قامت بها الفلسفة الاغريقية لمواجهة التغميض ، ومحاولة التفهم للقوة الغير المرئية المؤثرة في الانسان وتحقيق

(1) لمزيد من الاحاطة حول هذا الموضوع ، راجع على سبيل المثال لا الحصر :
CONTENAU (G.), *La Magie chez les Assyriens et les Babyloniens*, Paris, Payot, 1947, SEYED IDRIES SHAH .
Oriental Magie, et trad Franc., par Mazi *La Magie Orientale*, Paris Payot, 1957 *et* CHOCHOD (Louis), *Histoire de la Magie et de ses dogmes*, Paris, Payot, 1949 etc.

رغباته، وتحكيم المنطق، إلا أن الأساطير والخفايا ومسيرة التغميض عاشوا جنبا إلى جنب مع الصفاء الفكري السقراطي والافلاطوني، والأرسطي، والرؤية الأصيلة آنذاك.

وسيطر السحر عند الرومان في بعض عصور روما، خصوصا على عهد الامبراطور "جوليوس سيزار أو جستوس Augustus " واتجه السحار إلى روما من كل صوب. أما "نيرون Néron " فقد حارب السحر رغم أنه كثيرا ما كان يلجأ إلى السحرة خفية لمساعدته من آن لآخر. كذلك عرفت بيزنطة أشكالا متعددة من السحر، أما "أساطير فيستا Vesta " وخفاياها السحرية، فقد تفشت في روما كما تفشت من قبل لدى الاغريق وكذا أساطير وخفايا " اليوزيس Eleusis ".
واستمر موكب السحر عبر العصور الوسيطة في أوربا خصوصا الظواهر الخاصة "باسرار الحياة وطاقتها " Elixir de la vie وسحر الآبار وتسميمها. وجاءت النهضة العلمية في أوربا فحدث نسبيا وتدريجيا من هذه الظاهرات، خصوصا مع نضوج عملية العزل ومحاولة التمييز على مستوى علمي بين التنجيم وبين علم الفلك، وبين الطب، وبين علوم الطبيعة والكيمياء وبين السحر...

ولم تبق إلا بعض المظاهر العالقة بعملية تحضير الأرواح خصوصا في أنجلترا من خلال بعض المحاولين تبريرها. حتى من بين المثقفين، وهكذا فقد السحر صدارته في أغلب المجتمعات الأوربية، وضاعت عليه أهميته، بفضل تقدم العلم وتحرر المعرفة من الرواسب (1).

(1) ولمن أراد التوسع يراجع على سبيل المثال في هذا الموضوع :
BONNE (Cambell, *Studies in Magical amulets Chiefly Graeco-Egyptien*, Leni, Michigan press, 1950, EITREM (S.),*La Magie comme motif, Litteraire chez les Grecs et les Romains*, Extraits de synbole OSLOENSES, 21p. 39-83, MASSONNEAU (ELianc), *Le Crime de Magie et le droit Romain*, Paris ,1933 (Thèse), BENIGNI (Umbarto) *Una Formula Magica Bizantina*, Siena, 1897. DELLACAPANNA (Gian Piero) *Magia, astrologia inquisizione e medicina nediocvale*, Piza, 1969. BILA (Constantin), *La croyance à la Magic au XVIII Siècle en France dans les contes*, Paris, 1925, FILLIOZAT (Jean), *Magic et nédiecine, Paris, P. U. F. 1943, MARIEL (Pièrre) L'Europe Païenne du XX siècle, Magie noire en Angletaire, Tzigannes gitans et romanicheles, l'Allenogne païenne*, Paris, la palatine, 1964, et STORMS (G.) ,*Anglo-Saxon Magic*, The Hague, N. Jhoff 1948.

وفي الهند والصين والشرق الأقصى عاشت ظاهرة السحر وتعايشت مع هذه المجتمعات بدورها ، وجدير بالذكر أنه في فترة من الفترات كانت هناك علاقة قوية بين "البوذية" و "الغيبية Occultisme " وارتباط ذلك بنظرية الاحلال وتناسخ الأرواح ، وبالتالي كان يصعب في هذه الفترة عزل الدين عن السحر عندهم ، على مستوى التطبيق أو المعتقدات والشعائر ولدى البراهمة في الثالوثية الالهية الهندوسية كان من أدوار أحدهم "Civa"وصفاته السحر يهدم به ليبني ، ولقد تجاوزت أسماؤه الآلاف ويلاحظ في الصين القديمة تبلور السحر على مستوى الصراع بين الطاقة الكوسمية ، وغيرها من الطاقات ، ولقد كان للرقص والغناء دور هام في وسائل السحر ، كما تفشت ظاهرة العرافين والمشعوذين ، حتى أنه في المرحلة السابقة لمفكر الصين الكبير " كنفوشيوس " كان للمشعوذين مكان رسمي في الدولة ، ولقد لعب "الرقم Chiffre" دورا أيضا في السحر الصيني ، وعمت كذلك ظاهرة الأرواح الخبيثة وكانوا يلجأون في أبعادها إلى وضع أشجار أو زراعة شيء معين في المكان الموجودة فيه ، وما أكثر منحنيات السحر وضروبه في هذه المجتمعات الشرقية (1) ، وحتى تكمل جولتنا التاريخية التمهيدية هذه ، نشير إلى مجتمعنا العربي ، فهو بدوره ، قد عرف هذه الظاهرة .

المجتمع العربي ، منذ القدم وعصور الجاهلية ، وهو يتعايش مع هذه الظاهرة وما حولها كالتنجيم والعرافة... وورث من المجتمعات المجاورة ، كما ورثوا هم من غيرهم ، ضروبا كثيرة من ضروب السحر ووسائله وتعرض الكثير من الرحالة والمؤرخين ، والكتاب ، لهذه الظاهرة بالوصف والتصنيف والتبويب ، حتى ابن خلدون نفسه في مقدمته . وما زالت أقطار كثيرة من العالم العربي تعيش هذه الظاهرة ، خصوصا في مناطقها المتخلفة الفقيرة ، وتجد من

(1) لمزيد من التفصيل راجع :

CHOCHOD (Louis), *Occulltisme et Magie en extrème-Orient, Inde, Indochine, Chine*, Paris, Payot, 1945 et SHAH (Eeyed Idries)
Oriental Magic, et trad. Franç. par Mazé, *La Magie Orientale*, Paris, Payot, 1957.

يمارس السحر ويستمع إليه، ويلجأ إلى وسائله لمواجهة مشاكل الحياة اليومية (1). أما الاسلام كدين فقد كان له موقف واضح سوف نعود إلى التعريف به في نهاية هذه الدراسة (2) والآن، وبعد هذه اللمحة المبدئية التاريخية عن السحر، سنحاول أن نتصدى لهذه الظاهرة على مستوى المدلول والمنطوق.

المبحث الثاني

السحر ومدلوله، وماذا نعني به؟

في البداية، هل يمكننا إعطاء مدلول للسحر منه ننطلق في العرض والتحليل؟ كتعريف اصطلاح عليه قاموسيا في تحديد مدلول السحر " هو فن يزعم الاتيان بخوارق لقوانين الطبيعة المتعارف عليها، وذلك بفضل ألغاز ووصف ووسائل كثيرا ما تكون غريبة"، وحينما نعمق النظر في هذا التعريف نجد أنه يشمل ضمنيا رؤية السحر على مستوى عالم "الطبيعة" وهو "عالم مادي Monde matériel" و "عالم ما فوق الطبيعة "وهو "عالم الأرواح Monde des esprits" فالسحر يتصدى لعالم ما فوق الطبيعة عالم الخوارق والألغاز والأسرار، والخفايا، والغيبيات، بصفة عامة. غير أن هذا التعريف الاصطلاحي يمكن القول بقصوره من خلال رؤية أكثر عمقا، إذ أنه لم يحدد لنا متى ينتهي عالم الطبيعة ويبدأ عالم ما فوق الطبيعة والخوارق، فما يمكن اعتبار الاتيان به خارقا للطبيعة وممثلا لما فوقها في عصر قد يصبح، بل أصبح بالفعل طبيعيا في عصور تالية بفضل تقدم العلم والمعرفة. وعليه لم يبق لنا إلا أن نتجاوز هذا التعريف الاصطلاحي التقريبي إلى تحديد المدلول والمنطوق على مستوى التعميق والتخصيص من خلال من تصدوا لهذه

(1) لمزيد من المراجعة حول السحر في مناطق العالم العربي كمثال نذكر:
DOUTTE (Ednond), *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, Alger 1909.,
LEFEBURE (Eugène), *Le miroir d'encre dans la magie arabe* Alger. *Rev, Africaine*, 1905 (257), P. P. 205-227. et MAZEL (Jean), *Enigmes du Maroc* , Paris, Robert Laffort, *Les enigmes de l'unixers*, 1971.

(2) انظر الصفحات التالية من هذه الدراسة المبحث الخاص بالاسلام ومواقفه من السحر

الظاهرة واختصوا في دراستها دون دخول في تفصيلات قد تعوم إطار هذا البحث المحدود والمحدد في أبعاده ، يمكننا أن نركز أهم الاجتهادات الواردة حول هذا الموضوع في اتجاهين رئيسيين : اتجاه نظر إلى السحر نظرة تقنية رافضة أساسا ، واتجاه نظر اليه نظرة تقريرية تعتمد على الملاحظة ، واستقراء الأبعاد ، أولا وقبل كل شيء ، دون أن ترتفع به إلى مراحل الإعجاز والخوارق ، أما الاتجاه الأول ، فلا يرى في السحر إلا مجموعة من الوسائل والوصف يستعملها من يلجؤون منذ القدم إلى حيل الشيطنة وحيل أخرى كضرب الودع حينما تعجز الوسائل العادية أن تصل بهم إلى هدفهم ، والشيطنة ، توهم على حد قولهم يملي على المسحور ، بأن هناك وحدات زكية ماكرة (خدم ووكلاء ، وشياطين) يسخرها الساحر ، وهي موجودة خارج نطاقه الطبيعي وتعمل لحسابه (1) ، غير أن تحديد المدلول لدى هذا الاتجاه التقنيني يمكن التحفظ عليه ؛ أيضا ، كما تحفظ من قبل على المدلول الاصطلاحي الذي أعطى السحر وذلك أنه أشكل لدى هذا الاتجاه والقائلين به ، والتبس عليهم بين السحر وما حوله والشيطنة بصفة خاصة ، فخلطوا بينهم كما سنرى بالنسبة لتحديد المداليل لما حول السحر في البحث التالي من هذه الدراسة.

وكذا تقسيم السحر إلى "سحر أسود Magie noire goétie" على أنه الأساسي والأصيل من ضروب السحر يأتي بأفعال غير طبيعية بفضل الوسطاء من الأرواح الجائلة الغير المرئية ، والشريرة في أغلب الأحيان و "سحر أبيض Magie blanche, théorgie " أو سحر طبيعي يأتي بأمور غريبة في مظهرها ولكن في واقعها تخضع لسببية طبيعية تعتمد على مهارة

---

(1) ويلاحظ انه قد تحمس لهذا الاتجاه كثير من الذين ربطوا بين السحر بهذا المفهوم وبين المعطيات المستوطنة للتخلف في المناطق الفقيرة في المجتمعات النامية التي أزهقها الاستعمار بثقله وأعطى فرصة لتفشي الخرافات والاباطيل فيها . راجع على سبيل المثال (اذ ما اكثر الدراسات حول هذا الموضوع) دراسة :
JUNOD (Herri A.) *La Jeteuse de sorts, drame de la vie des indigènes sud-Agricains*, Lausanne, 1923.

الساحر ، وقدرة تدريبه وترويضه المستمر ، هو أيضا يمكن التحفظ عليه كتقسيم سطحي يميز فقط من حيث اعتبار الهدف . فالسحر سحر واحد يستعمل في أهداف غرضها التسلية (أبيض) أو غرضها سيئ وشرير (أسود)
أما جوهر الأفعال الغير الطبيعية والطبيعية فقد بينا في الصفحة السابقة علة التحفظ عليه ، باعتبار أنه ما يمكن وصفه بأنه فعل غير طبيعي في عصر قد يصبح طبيعيا في عصور تالية له .

أما الاتجاه الثاني ، فيميل إلى تحديد ظاهر السحر على مستوى تقريري مع تحفظه عليها كقدرة إعجازية خارقة ، وإنما هي نوع من الترويض التدريبي والتعليمي يعتمد على ممارسة تصل بالساحر إلى درجة من القدرة (قدرة طبيعية دائما) ونفسية مميزة ، يتكشف بفضلها على رؤية اعتيادية في جوهرها ، ولكن لم يتعود عليها المسحور في مظهرها ، بعد تعرية إرادته فتبدو له خارقة ، وإعجازية ، هي رؤية لم يستأنسها المسحور لا لغموضها وخفيتها وسريتها ، وغيبيتها ، أساسا ، وإنما لأنه عاجز عن المواجهة بعد تعرية إرادته عن طريق مهارة الساحر وتدربه . والساحر يتدرج في اكتسابه الترويضي، من مرحلة الاستيعاب إلى مرحلة السيطرة ، إلى مرحلة الاستعمال والاستئناس لهذه القدرة التي هي في جوهرها طبيعية ومكتسبة (1) . وحتى تتضح الرؤية لنا على ضوء هذين الاتجاهين سنحاول أن نعطي ما أمكن حدودا مانعة جامعة بالنسبة للسحر وما يسير حوله وفي فلكه من ظواهر مثيلة أو شبيهة . كالشعوذة ، والشيطنة ، واللامنظور ، (بمعنى الخفي من معطيات بعض الظاهرات) والعرافة والتنويم ... الخ.

---

(1) كذلك يرى «جوزيف غراسيه» « J. Grasser » الذي كان اختصاصيا في الامراض العصبية والنفسية بمدينة ليون ان السحر نوع من فصول ما قبل العلم في القدرة البشرية وايضا ، ولمزيد من التفاصيل راجع :

BOURGEAT (J. - G.) , *Magie* ,Paris, 1895, J. B., *Manuel de Magie Pratique*, Paris, Niclaus, 1941. et CHOCHOD (Louis), *Histoire de la Magie et de ses dogmes*, Paris. Payot 1949.

المبحث الثالث

ما حول السحر من ظاهرات شبيهة به

ونبدأ بالشعوذة sorcellerie (1) ، وهي في مظهرها وجوهرها لا تشكل إلا نوعا من المزاولة المنحطة لدعاة السحر وأدعيائه لدى الشعوب المختلفة ، ودعاة هؤلاء ليس لهم معرفة أو تدريب ماهر وترويض ، وإنما يتمتعون بانحلال خلقي وجنسي رخيص ويمتطون السحر كوسيلة مقنعة ، لمزاولة انحرافهم واحتيالهم ، فبينما السحر يرتبط بالترويض والتدريب ، والمهارة إلى حد ما ويعيش حول إطار المعرفة نجد الشعوذة وما حولها ضمنيا ، كضرب الودع مثلا ، لا يتجاوز إطارها إطار التخمين العشوائي ، متبنيا تقاليد ترتكز على الخرافات بشتى أنواعها والأساطير ، والتهريج في أغلب الأحيان ، مستغلا لعقلية البسطاء أو الباحثين بشكل أعمى لأي تعليل لمجرى حياتهم وما يعانونه . هذه التقاليد المرتكزة على الخرافات والأباطيل تتوارد من خلال تلقين وتكرار عفوي ، لانطباعات تعميمية لأحداث ممكن أن توجد لدى أي شخص ، وتغذى بتعاويذ وحيل ليس فيها ما هو جدي أو مميز . هذا بالنسبة للشعوذة وما يسبر في ركبها (2).

أما بالنسبة "للشيطنة " satanisme ou Dlabolisme وما حولها كالعفاريت والأشباح والجن ، والمسخرين من الوكلاء والخدم لدعاة الشيطنة فما هي إلا ضرب من ضروب الرؤية الخلفية لمساوىء النفس الدونية ، وانطباعاتها التحتية ، ترمز أساسا إلى الجانب الشرير عند المخلوقات ، إلا أنه قد تواجهنا هنا ، رؤية الأديان وتفسيرها ، يمكننا أن نقول دون خوض وتفصيل أن الشيطنة وما حولها ، من

(1) وهي أي Sorcellerie مشتقة من : Sors التي من معانيها معنى : أي Tablette نسبة للعوائد التي كانت تكتب عليها رموز المشعودين وتعاويذهم لحجتهم .

(2) الى جانب المراجع الواردة في الهامش السابق ايضا :

GARNDHA NANDI, *La Magie noire et ses mystères. les anulettes, les sortilèges... et* BONNE (G.), *Studies in Magical amulets chiefly greco-Egyptian.* Univ. Michigan Press 1950

خلال هذا التصور والتصوير الذي أوردناه تلتقي مع تصور الأديان ، خصوصا الاسلام ، وهو الذي يعنينا كمثال حيث حددت على مستوى غير الملموس أو الملموس من خلفية النفوس وسوئها ، وربما نظرة عميقة في "القرآن الكريم " تعطي لنا مزيدا من الرؤية الأصيلة البناءة ، في هذا الموضوع إذا ما فسرناه على مستوى الجوهر ومعاني الهدف والغاية ، وكمجرد نموذج نسوقه " ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ... " والسورة الكريمة " قل أعوذ برب الناس ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس " . وقوله " يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون " (1) فنرى تصور الجنة على مستوى وسوسة في الصدور وسوء النفس ، ونرى الشيطانية الكافرة التي تعلم الناس السحر شيطانية النفس التي توقع ، وتورث العداوة والبغضاء ، ولا شك أن من توسوسه نفسه ، وكذا لاعب الميسر يشعر ضمنيا في أعماقه بهذه القيادة الشيطانية التي تسوقه وتدفعه إلى خلفية نفسية دونية : وحتى الذين يلتزمون بشكلية النص ، وحرفية الرؤية ، من أن هذه قد تكون، وحدات ماكرة شريرة غير مرئية تجوب خارج نطاقها الطبيعي ، فهم أيضا يسلمون ضمنيا، أنه ليس للانسان قدرة على تسخيرها ، كما يزعم الدجالون ، ودعاة الشيطنة ، وإنما العكس هو الصحيح ، فهذه الوحدات هي التي تغوي وتعلم وتسخر النفوس المريضة ، وهنا نعود إلى القول بأنها تعيش في نطاق النفوس والبشرية والصدور أو مشكله : لخلفيتها كما أشرنا ، وهكذا نجد حتى التفسير الشكلي الحرفي في النهاية ، يقترب بمجازه من التفسير الذي يرتبط بالجوهر المقصود ، والمعنى

(١) هذه الايات : الاولى من سورة البقرة اية ١٥١ ثم « سورة الناس » والاخيرة من « من سورة المائدة » الاية ٩٠ ـ ٩١ .

الهادف ؛ كغاية من العرض القرآني ، وهو تبيان سوء النفس وشرورها وإيقاعها ووسوستها ، إن هي حادت ، ولم تلتزم بالطريق السوي (1) .

أما "اللامنظور أو الخفي occultisme " من أسرار الطبيعة والنفس مما لا زال مجهول الأسباب كليا أو نسبيا ؛ فمن المسلم به أن المعرفة لم تصل إلى غائيتها علميا " sa Finalité " بل المعرفة تتطور ، وحتى الأديان قد سلمت بذلك ، ففي القرآن الكريم تطالعنا هذه الآية الصريحة" وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " . وبالتالي ما زالت هناك ظواهر خفية التعليل يعمل العلم جاهدا وتحاول المعرفة المتطورة ، بإصرار تكشف سببيتها ، وتعليلها ، من الافتراض إلى التجريب ، والتطبيق الملموس . الانسانية في البداية كما هو معروف مرت من مرحلة جهل الأسباب والتعليلات للظواهر المعقدة ، ولو نسبيا ، منتجئة إلى التبرير التلقائي في نهج البسطاء ، والقول بالغيبي والسري والمضمر والخفي والباطني... لكل شيء تعجز معرفة سببيته ويحتاج إلى مجهود وترويض فكري ، وتجاوزتها بعد ذلك إلى مرحلة أخرى محاولة التكشف والتصفية والنقاء الفكري في الرؤية وتحديد السببية خصوصا في بعض المجتمعات القديمة التي تصعدت بحضارتها نحو موكب النقاء ، والارتقاء الفكري ، وصفاء الرؤية كما هو الحال في الحضارة الاغريقية القديمة كمثال ، واستمر موكب المعرفة في التطور ، وهكذا رأينا كثيرا من المعطيات التي كانت في حكم الألغاز في عصور ما ، تصبح أمورا محددة الأسباب واضحة التعليل ، في عصور تالية ، وموكب العلم وقدرته تتصعد بإصرار واتزان ، على مستوى الاستنباط ،

---

(1) أما علاقة الاسلام بالسحر بصفة عامة ، فسوف نتعرض له في المبحث الاخير من هذه الدراسة ، ولمن يريد التفصيل عن الشيطنة وما حولها يراجع :

BOIS (Jules) , *Le satanisme et la Magie avec une étude* : de J.-K. HUYSMANS, Paris. 1896 et LANCELIN (Charles), *Histoire mythique de shatin* I, de la légende au dogme, origines de l'idée démonaque, ses transformations à travers les âges, d'après les textes et la tradition , son état actuel son avenir, II, le ternaire magique de statan, envoûtement, incubat, vampirisme, Paris 1903 en 2 vol.

والاستقراء والتجريب وتكشف القواعد والقوانين المسيرة للظاهرات ، ولكن رغم هذه المسيرة العلمية الأصيلة ما زال هناك الخفي واللامنظور من أسرار الطبيعة والنفس يشكل ما تبقى من إطار علمية اللامنظور والخفي " Scientia Occltali " وما أوسعه من إطار هو بمثابة الحافز الذي يدفع الانسان إلى مزيد من الخلق ، والمواجهة ، ويبث فيه روح الاختراع والاكتشاف للمجهول، والتقدم على مستوى السببية والتعليل ، ولقد اتخذت هذه المسيرة لها كشعار الاستيعاب للمنهجي ، والإحاطة الأصيلة ، من الأعم إلى الأخص من الأبسط إلى الأعقد مشرحة للظاهرات ومتدرجة في فهمها حتى الأعماق ، هذا وقد استعمل البعض في إطار تكسب المهنة واكتساب معارفها ، تعبير "عارف بسر المهنة" لمن وصلوا في الاستيعاب والإحاطة بمهنتهم درجة يصعب على غيرهم الوصول إليها ، ولم يكتفوا بمجرد المزاولة بل الوصول إلى الأعماق ، وبالتالي التكشف على ما يعتبره العاجز عن الوصول أسرارا والغازا . وفي هذا المضمار عزا البعض

ما جاء في تركيب بعض الوصفات أو " الوصف Formules " على أنه من أسرار المهنة في التركيب ، والتعرف على الخفي والمبطن ، من المعرفة ، سواء في شكل وصورية التركيب ، أو في جوهره ولم ينعزل اللامنظور والخفي من معطيات النفس الانسانية عن بقية معطيات الظواهر الأخرى ، في تكشف أسرارها ومضمرها ولو نسبيا . منذ القدم مع "أوصاف " الفيداز Vedas " ووصفها ، والإنسان يحاول الوصول إلى تكشف الخفي والمبطن في أغوار النفس وبطونها ، عواطفها ومشاعرها ولو باللجوء إلى التخمين أو التغميض إذ نجد في الفيداز " وصفا وتركيبا ، Formule " للتأثير في العواطف وسيرها ، تقول الوصفة لمن أراد أن يؤثر على عاطفة ، فتستجيب له مشاعر الحب عليه بأخذ أثر من الانسان المرجو استعطافه ومحبته أو إخضاعه عاطفيا (لتكن قطرات من دمه ، أو سائلا من لعابه ، أو قطعة من ظفره أو أي أثر آخر ولو قطعة من ملابسه الملصقة بجسده) على أن يؤخذ نفس الأثر من الطرف الآخر ، الأثران يطويان

بعد ذلك في شريط أحمر وعلى الشريط يكتب اسما المراد تعاطفهما ، على أن يكتب ذلك بدم أحدهما . ثم يطوى الشريط بدوره شريطة أن يتلامس الاسمان حين الطي ، ثم يحمل الشخص المستعطف أو المحب هذا الشريط الطلسمي ، تحت إبطه بعد أن يضعه في داخل جسد عصفور ميت نشف أو جفف ، وبعد أيام يلقي بكل ذلك في النار ، وبينما تتم عملية احتراق يجري المحب أو المستعطف مسرعا إلى الشخص المستعطف النافر فسوف يجده متجاوبا معه ، وخاضعا له في النهاية (1) ... إن كانت هذه الوصفة ترتبط في مظهرها "بسر المهنة" في التركيب والصياغة ، إلا أنها في جوهرها عارية عن كل تعليل فعلي وسببية ملموسة ، خصوصا على مستوى معرفة عصرنا وقدراته العلمية ، وأصالته في الاحاطة والاستقراء ، فهل سر المهنة هنا ، أو أو الفاعلية المقترحة زعما ، جاءت نتيجة للهالة التي أحاطت آنذاك بمراحل تنفيذها وما يسايرها من انفعالات متبادلة متصلة : دم . شريط . عصفور . نار . رموز . إشارات . إيماءات . علاقات جري . مواقف...الخ ؟ أم جاءت كمترتب على دور الوصاف وإيماءاته التنفيذية وما يستقر في النفوس المتوهمة من قدرة ، هي في الواقع تخيلية لا أكثر ولا أقل ، ولكن مع هذا مؤثرة بفضل توهم تغميضي للاقتناع بهما (2) . كذلك ، وفي إطار اللامنظور والخفي من قدرات التحكم في الظاهرات وسيرها ، أثير موضوع العلاقة بين "اللامنظور والخفي " وبين " العرافة la Divination ومدى التمايز بينهما،

(1) لمزيد من التفصيل عن هذه الوصفة والوصفات الاخرى الواردة في الفيداز وغيرها راجع :

CHOCHOD (Louis), *Histoire de la Magie et de ses dogmes*, Paris, 1949
VILLENEUVE (A.) *Amour et nagie*, Paris Durville et *Les Envoutements de haine d'amour* du néne auteur...etc.

(2) بمعنى قدرة تغميضية ، او الزعم بقدرة غامضة لبعض الوصفات والتركيبات
" Une sorte de Pouvoir Mystiqne des formules "
وقد توسع في عرض ذلك كل من :

CHOCHOD (Louis), *Occultisme et Magie*, Paris, Payot, 1945 et DANZEL (Th. W). *Magie et sciences Secretes*, Paris, Payot 1947.

بمعنى العرافة ، إما أن تعتمد على استعداد طبيعي وفراسة نظرية ، وتأتي نتيجة لهما (ولقد حمل لنا التراث العربي الكثير عن الفارسة وما حولها من التعرف الفطري على أبعاد بعض الظاهرات) أو تعتمد على الاكتساب والمهارة التدريبية وترويض القدرات لا فطريتها ورؤيتها التلقائية . ويلاحظ أن الاسلام قد وقف من قدرة العراف أيا كان مصدرها ، موقف الداحض لها (1) ولا تكمل جولتنا في ما حول السحر من ظاهرات شبيهة تدخل في محيط عرضنا لهذه المواجهة التحديدية للسحر من خلال ما يمكن أن يلتبس بمدلوله ومنطوقه دون التعرض لظاهرة جديرة بالاشارة ، ونعني بها ظاهرة (التنويم" . "التنويم" Hypnotime الاصطناعي تميزا له عن "النوم الطبيعي" (2) ، هذا التنويم عرفه الانسان منذ القدم ، مارسه كهنة مصر الفرعونية في علاج بعض الأمراض ، كما مارسه كهنة الاغريق ، وكانوا يؤثرون بفضله على أتباعهم في معابد : أبولون ، وسرس ، وأندور . ولقد أطلق على هذه المعابد "معابد النوم" ، وعرفه الهنود الأقدمون أيضا ، ولقد انتشر عابرا التاريخ الوسيط وعصر النهضة ، ولكنه كان مغلقا في كثير من الأحيان بالأساطير مطعما بالكهانة ، بل وفي بعض الحالات بالدجل . ويعود الفضل من بين من يعود إليهم الفضل في تنقية إطاره ومحاولة الاتجاه به إلى العلمية إلى العالم النمساوي "مسمير Mesmer " في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم تطورت هذه الاجتهادات

---

(1) كما جاء في الحديث المعروف «من أتى عرافا يصدقه فقد كذب بما أنزل على محمد»

(2) وليس ايضا « التنويم المغناطسي » كما التبس لدا البعض في البداية . اذ « المغناطيسية Magnetisme » درن تعرض لتفصيلات تدخل في اختصاصات علمية أخرى ، وتتجاوز بالتالي اطار عرضنا هذا ـ هي اما مغناطيسية الارض، بمعنى حقل الجاذبية Terrmagnetisme مغناطسية الجاذبية الخاصة والكوباليت وقوة جاذبيتهما Ferrmagnetisme أو مغناطيسية الاكسجين ، والبلاتين ، والسديوم وقوة أقل جاذبية Parrmagnetisme ، أو مغناطيسية اجاذبية الخاصة بالاجساد ولها قوة معاكسة للسالفة Diamagnetisme... الخ . ويعود الفضل الى التخلي عن نعت التنويم بالمغناطيسية الملتبس ، الى الجراح البريطاني « جيمس بريد » الذي اشرنا اليه اعلاه في عرضنا .

وهذه المحاولات في الميدان الطبي والعصبي، والنفسي على يد أمثال: الجراح البريطاني "جيمس بريد" الذي أكد منذ بداية النصف الأخير من القرن الماضي أن التنويم يمكن الاعتماد عليه طبيا والانتفاع به في المعالجة. وقد دعم هذا الاعتماد موكب تنقيته من الخرافات، وحتى على التخلي عن نعته بالمغناطيسية والتباسه بها. ومن جانبه الطبيب الفرنسي "ليبولت" أقر بصحة وفاعلية التنويم أمام المؤتمر العالمي للتنويم المنعقد في باريس سنة 1900، واجتهد أيضا في هذا الاطار البناء كل من "شاركوت" و"برنهايم" ،والقانون الانجليزي من ناحيته، أعطى له تعريفا على أنه نوع من الاغفاء من خلال نوم اصطناعي يحدث لدى شخص على استعداد للايحاء والتوجيه المتزايد، "والجمعية الطبية البريطانية" بدورها، بعد اجتهادات متكررة اعترفت منذ سنة 1952بإمكانية استخدامه دون مضاعفات كبديل للتخدير في العمليات البسيطة وفي جراحة الاسنان وتحاشي آلام الولادة. كما اعترفت أيضا بقيمته العلاجية في الاضطرابات النفسية، وإزالة أعراضها... وعليه، وعلى ضوء ما تقدم، يمكننا أن نستخلص أن التنويم هو نوم اصطناعي يحدث بواسطة الايحاء والسأم، وذلك نتيجة لتكرار منبه معين، والتركيز عليه، وإعادة محددة مستمرة، لا بواسطة مواد مخدرة، أو مغناطيسية، وهو بالتالي نوم جزئي يشبه النوم الطبيعي في مظاهره، وإن كان، كما ذكرنا، يتميز عنه في نسبه ومصدره، وأهم حالات التنويم ومراحله: الحالة الاستهوائية، حالة التشنج والصمول، حالة السرمنة والمكاشفة، حالة الذهول واللاشعور (1).

ولقد استعمل في التحليل النفسي للكشف أثناءه عن الاضطرابات النفسية والدوافع الغائرة ومصدر عقدها، ومن المستعملين نذكر على سبيل المثال لا الحصر

(1) Suggestif Stat, Cataleptic Stat, Somnambulic Stat, Lethargic Stat.

" هادفيلد" ، أثناء الحرب العالمية الأولى ، وكذا " ماكسويل " و " هلمونت" وبرنمان ، و "فيشر" وغيرهم الكثير . إلا أنه يلاحظ أن "سيجموند فرويد" لم يتحمس له كثيرا في التحليل النفسي كما هو معروف (1) .

بقي علينا الآن أن نحدد نقطة جديرة بالعرض في إطار التصدي للسحر وما حوله ماله وما عليه ، ونعني بذلك علاقة السحر بالدين والتباسه به ، وبمعطياته منذ القدم ، وهو موضوع المبحث التالي باختصار .

المبحث الرابع

مدى علاقة السحر بالدين

سنتعرض لمدى علاقة السحر بالدين في حيز محدود ، وفي شكل مركز ، دون خوض في تفصيلات قد نجد مكانا لها في إطار دراسة انتربولوجية متكاملة عن ظاهر السحر في المجتمعات البدائية . إذ من المسلم به أن موضوع السحر قد أشبع بحثا في أبعاده المتعددة من الناحية الانتربولوجية . تعرض له من بين من تعرضوا له من الانتربولوجيين على سبيل المثال " فريزر" ، ومن الديركايميين من "ديركايم" نفسه إلى "مارسيل موسى" و " هوبرت" و "ليفربول" و "هوفلان" ، وعالجه أيضا "أليه" كما درسه "كودرنجتون "في إطار "المانا" ، وكذا "ليمان" و "مالينوسكي" ، والقائمة طويلة لو توخينا الحصر... والذي يعنينا كما أشرنا سلفا أن نستخلص من مواجهة هذه الاجتهادات العلمية خطوطا رئيسية ، وتخريجا مركزا ، نرى من خلاله مدى علاقة السحر بالدين .

"فريزر" الذي يرى في السحر

(1) لمن يريد التفصيل عن هذا الموضوع ، او يستزيد من دراسات فرويد يراجع :
FREUD (S.), *Ueber Psycho-analyse*, 1910, und,
Vorlesungenzur Einführungin die Psycho-analyse.
وكذا ما ترجم له بالعربية مثل :مقدمة في التحليل النفسي (ترجمة د . اسحق رمزي) والموجز في التحليل النفسي (ترجمة د . سامي محمود علي ، وعبد السلام القفاسي) القاهرة . دار المعارف 1970 .:. الخ

تطبيقاً وهمياً يعتمد على ترابط المعاني عن طريق المشابهة والتناسق والاتصال ، ويعتمد لدى السحرة البدائيين على توخي تتابع الأحداث الطبيعية بالضرورة ، دون تدخل عوامل روحية أو مادية ، ولا يتحكم فيه الانفعال ولا العاطفة ، وإن مزاولته رغم بساطتها تعتمد على تفوق لدى الساحر ، يميل إلى القول (نعني فريزر) بأن السحر سابق للدين ، وقوى العلاقة به ، بل ذهب إلى حد القول أيضا أن الدين خرج من السحر (كما خرج منه العلم والفن) بمعنى أخطاء الساحر ؛ وعدم تجاوب الطبيعة معه دائما ، مهد للتسليم بوجود قوة أخرى متجاوزة وعالية تغطي هذا القصور ، ومن ثم كانت الأديان التي هي ، إذن ، مرحلة تالية للسحر انطبعت بالتعقد في الطقوس والمزاولة واتجهت لابراز أصالتها إلى التنافر مظهريا مع السحر ، وفسر "فريزر" على ضوء ذلك العداء المستحكم بين الكاهن والساحر (1) .

بينما يرى "أليه" العكس ، مع التجاوز في التفصيلات ، فعنده السحر لاحق الدين لا سابق له . نشأ عنه (أي عن الدين) بعد أن أفسد بعض عناصره (2) ، أما الشيركايمية ، فبعد انطباعات ديركايم نفسه من خلال الأشكال المبدئية للحياة الدينية وربطها بالأنسقة الطوطمية، وميله لرؤية السحر كرد فعل للطابع الجماعي الذي كان يسيطر على نشأة الظاهرات الاجتماعية في المجتمعات البدائية (3) اتجهت الديركايمية مع "ليفربول" إلى القول بصعوبة العزل بين الدين والسحر ، حيث

(1) راجع من بين مؤلفات « فريزر » الكثيرة :

FRAZER (J. G.), *The Magic Origins of Royalty*, 1905 et trad. en Franç. *Les Origines Magique de la Royauté*, Paris, 1910 and, *Myths of the Origin of Fire*, 1930

(2) لمن يريد التفصيل عن رأي « اليه » يراجع :

ALLIER (R.), *Magie et religion*, Paris, 1935.

(3) من بين الدراسات الواسعة لديركايم راجع على سبيل المثل في هذا الموضوع :

DURKHEIM (E.), *Les formes élémentaires de la vie religieuse*, 1912 et réd. plus. fois. éd. Recent 1960.

إنهما ينتميان إلى جوهر واحد غطى "فترة ما قبل الدينية" في معطيات العقلية البدائية الانفعالية وعلى عكس "فريزر" يعطي "ليفريول" للانفعالية بما فيها من عاطفة، وانتشاء، قدرة أساسية في السحر وتفاعل الساحر من خلال طقوس معقدة وليست بسيطة (كما رآها فريزر) بما فيها من مراحل ذهولية، وانجذابية وغموض مكاني، واختيار زماني. ويتحفظ أيضا على "فريزر" في تكييفه للبدائي من خلال معطيات، ومقولات خاصة بالعقلية المتحضرة كاستخلاص السببية والربط والمشابهة والتناسق والاتصال بين المعاني، واستبعاده للانفعالية التي تشكل القدرة الأساسية لعقلية البدائي (1). ومن الديركايميين أو من اجتهد تحت شعارها، من اهتم مثل "هوفلان" أساسا بتحديد علاقات السحر من خلال التشريع وأثره (2).

ومنهم من وسع اهتمامه "كمارسيل موسى وهوبرت" متعاونين بدراسة السحر في كل أبعاده في المجتمعات البدائية من خلال نظرية عامة، في محاولة لتحديد أصوله، ووصف شعائره وطقوسه، متجها به إلى التمييز بينه وبين الدين في البداية ومع شيء من التردد. "فموسى وهوبرت" يريان أن الظاهرات الدينية لها قداسة والتزام جماعي مشترك، بينما السحر على العكس من ذلك. غير أنهما في النهاية اتجها إلى ربط السحر والدين بأصل واحد وهو "ألمانا" فألمانا لها جانب مقدس يمثل أصل الدين، وجانب غير مقدس يمثل أصل السحر.

ومهما كانت اجتهاداتهما فهما ملتزمان في النهاية بتخريج ديركايمي مقنع للسحر من خلال الوجدان

---

(1) من يريد التوسع بالنسبة لنظريات « ليفي برول » يراجع من بين مؤلفاته في هذا الموضوع :

LEVY-BRUHL (L.), *Le surnaturel et la nature dans la mentalité primitive*, 1931, *La Mythologie primitive*, 1935, et *L'Experience mystique et les symboles chez les primitifs*. 1938

(2) يراجع « لهوفلان » دراساته :

HUVELIN (P.) *Les tablettes Magiques et le droit romain*, 1900 et *Magie et Droit Individuel* in. A. S. X, 1907.

الجمعي والفعل الجماعي (1) . ولعل "كودرنجتون" بدراسته لشعوب ميلانيزيا البدائية، يعتبر في صدارة من ربطوا السحر بظاهرة " المانا " ومحاولة تحديدها عند هذه الشعوب على أنها قوة خفية كامنة في الأشياء وبالتالي ليست قوة "علوية" كما هو الحال في الدين ، ولكن لا تكمن في شيء بذاته ، بل هي "قوة سحرية Magical Power " خارقة للطبيعة يمكن لمن يكتشف سرها من السحرة أن يسيرها في كل شيء ويوجهها كيفما يشاء ، وعليه فكل السحرة لا بد لهم من معرفة سر " المانا " بطريقة أو بأخرى (2) . وجاءت دراسات "ليمان" لتميز بين ثلاثة أنواع من "المانا السحرية" مع دراسة لمعانيها المختلفة عند الميلانيزيين ولكل نوع من هذه الأنواع ثلاثة تأثيرات خفية . منها نوع اختصاص تأثيراته الخفية في الانسان فردا وجماعة تصيبه ، أو تمنحه قوة ، والنوع الثاني اختصاص تأثيراته الخفية من خلال الحيوانات والطيور والأشياء الجامدة ، ولا يستطيع الانسان أن يتحكم في هذا النوع ليستخدمه في الشعائر السحرية إلا بعد مشقة . أما النوع الثالث فاختصاصه عالم الإله والأرواح يسخر في إطاره (3) وأيدت ملاحظات "مالينوسكي" أيضا ، من خلال دراساته عن جزر التروبرياند" ما للسحر من دور هام لدى البدائيين وتنوع الاستفادة به : في الزراعة ، في الحب ، في

(1) للتفصيل راجع :

MAUSS (M.), *Les Origines des pouvoirs Magiques dans les sociétés austreliennes*, 1904, et *Esquissend'une théorie générale de la Magie* (coll. H. Hubert), in *A. S.*, VII 1904.

(2) راجع دراسته عن الملانيزيين لمزيد من التوسع :

Condrington, *The Melanesians.*

وفكرة عنها عند بدوي ، في مقالته السحر وعلاقته بالدين ، مجلة كلية الاداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد الرابع ...

(3) لمن يريد التفصيل يراجع دراسة عن المانا : LEHMANN, *Le Mana*

وتلخيص لها عند بدوي ، المقالة السابقة .

كذلك تعرض للموضوع لينهارت في : LEENHARDT, (M), *Do kamo*, 1947

ولقد قدمه الى العربية طاهر واعزيز في اطروحته بكلية الاداب بالرباط سنة 1971 (تحت الطبع) .

صناعة السفن ، في حماية الأطفال من المرض ، والصحة ، والموت ، كذلك رؤساء القبائل يستفيدون منه بدورهم التغلب على أعدائهم عن طريق السحرة الذين لا يمكن تشبيههم بالكهنة في مزاولة شعائرهم وعقائدهم (1) .

وعليه يبدو من الاتجاهات الرئيسية للدراسات الانتربولوجية والتي قدمنا نماذج منها على سبيل المثال لا الحصر ، إنه رغم العلاقة ـ الموجودة بين الدين والسحر في مظاهر المجتمعات الأولى البدائية سواء على مستوى أصول الظاهرتين أو ردود فعلهما ، غير أن هذه العلاقة لا ترتفع إلى درجة التشابه وعدم التمييز بينهما ، أو إذابة أحدهما في الآخر كسابق أو لاحق . ويمكننا أن نميز الدين من السحر بوضوح من خلال مسطحين محددين في التحليل :

1 ـ نميز بينهما في موقفهما من الطبيعة .

2 ـ نميز بينهما في جوهر المعتقدات والشعائر وهدفها لدى كل منهما .

الدين أمام الطبيعة في موقفه يوسط الأله بينما السحر يحذف هذه الوساطة . الدين جوهر معتقداته وشعائره تدور حول علاقة الخالق بالمخلوق ، وتكيف كل أبعادها من خلال ذلك دنيوية وأخروية ، وبالتالي لا يمكن تصور دين بدون إله بينما السحر العكس . ولقد اتخذت الأديان نتيجة لهذا التمايز الجوهري ، مواقف محددة من السحر ، وليس بسبب تنافر مظهري كما زعم "فريزر" ، وإنما لتباعد مؤسس في الجوهر والوسيلة والهدف . ولعل الاسلام كدين ، موقفه من السحر يعطي نموذجا يعنينا عمليا ; كمجتمعات تدين بالاسلام نبرزه في إطار مدى علاقة السحر بالدين .

---

(1) راجع مزيد من الاحاطة بدراسة مالينوسكي في هذا الموضوع :

MALINOWSKI (B.), *Argonauts of the western pacific*, 1922

كذلك يلاحظ أن « برجسون » فصل أيضا السحر عن الدين في دراسته :

BERGSON (H.), *Les deux sources de la morale et de la religion.*

راجع بدوي ، المقالة السابقة ، كلية الاداب ، جامعة الاسكندرية مجلد 4 .

المبحث الخامس

موقف الاسلام من السحر

ولكي نحدد موقف الاسلام كدين، لا المسلمين كبشر، من السحر وما حوله، وبإيجاز،

علينا أن نعتمد أساسا على المصدر الرئيسي للاسلام ونعني به القرآن. القرآن يكذب السحر ولا يصدقه، ويسفه السحرة ويناقضهم، ويعطي لهذه الظاهرة، ظاهرة السحر تحديدا سببيا لجوهرها، معريا لها عن كل مزاعمها، وذلك بما يتمشى والرؤية الموضوعية لمواجهة السحر.

القرآن لم يعط السحر على مستوى جوهره، قدرة اعجازية خارقة، وإنما هو مجرد "تعلم مكتسب وصناعة "تقول الآية: "إنه لكبيركم الذي علمكم السحر" (1)، وفي آية أخرى: "وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم" (2). كما نجد آية تصف السحر بكل وضوح إنه صناعة كيدية غير مفلحة "إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى (3) وفي مجال تفنيد فاعليته المزعومة يطالعنا القرآن بتفسير سببي موضوعي، يشرح من خلاله طبيعة السحر، وكيف يحدث عمليا تقول الآية "قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى "إلى قوله" قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى. قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى" (4) لم يسلم القرآن بقدرة السحر وخوارقه، وإنما عزا الزعم بهذه القدرة إلى مجرد التخيل. لم يقل القرآن "فإذا حبالهم وعصيهم تسعى وتتحرك". فهي لم تسع ولم تتحرك مطلقا فهي عصي وحبال كما هي، جامدة وسعيها

---

(1) من اية كريمة في سورة طه رقم 71.

(2) سورة يونس، الاية رقم 79.

(3) سورة طه، الاية رقم 79.

(4) من سورة طه الايات رقم 63 و 65، والاية الاخيرة وهي التي تعنينا في الاستشهاد رقمها 66.

وحركتها مجرد تخيل لا أكثر ولا أقل . وهكذا أعطى لنا القرآن تفسيرا سببيا موضوعيا لظاهرة السحر . كذلك نفى القرآن عن السحر أي إيجابية اجتماعية، فهو عمل فاسد يبطل ولا يعتمد عليه ، تقول الآية القرآنية : "... قال موسى ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين" (1) وغني عن التعريف موقف محمد (ص) رسول الاسلام، من السحر وتفنيده له ، بل حتى لما حوله من ظاهرات شبيهة كالعرافة مثلا ، كما جاء في الحديث المشهور والذي أشرنا إليه سابقا ، في هذا العرض ، من قوله "من أتى عرافا يصدقه ، فقد كذب بما أنزل على محمد ، وهكذا حينما ندقق النظر في جوهر رؤية القرآن ، ولا نقرأه قراءة سطحية روتينية ، لا تبرز لنا قدرة المعاني وأصالتها ، نجد أن القرآن يلتقي مع معطيات الاتجاهات العلمية المفسرة للسحر ، على أنه ظاهرة كبقية الظاهرات تدرس ، وتشرح وتحدد سببيتها ، كما يبدو لنا من الخلاصة التي سنعطيها الآن لعرضنا هذا

الخلاصة: يمكننا أن نقول ، السحر ظاهرة معاشة ، تعتمد أساسا في تبرير معطياتها على "تعرية المسحور من الارادة Exterpri-sation de la volonte " وذلك بفضل وسائل وطقوس ، ووصف معينة مهمتها المساعدة في خلق إطار التعرية وظروف التعويم للارادة ، بعد شل قدراتها التركيزية الطبيعية . والاتجاه بها إلى رؤية مهتزة تتبلور في محيط من التخيل وآفاقه ، بعد فقدان الشعور الضابط للارادة لدورة ، فيعطي له إجازة ، وتعطل طاقته العازلة الشعورية ، فتسير الأمور المرئية والملموسة والمحسوسة ، والمسموعة في غيبة الادراك الواعي وبرخصة منه ، في إطار إدراك متخيل ، تتحكم فيه الظروف التي خلقها الساحر وأصدائها ، فتصبح واقعا ، وعليه فدراسة السحر كظاهرة ، لا بد وأن يتعرض لها من مختلف الزوايا والجوانب على ضوء بيئتها

(1) من اية في سورة يونس رقم 81 .

ألاجتماعية والنفسية ، وتعدد عواملها المشكلة لسببيتها ، والمهيئة لها والمساعدة والمساهمة على انتشارها من خلال نظرة شمولية تهتم بجوهر الظاهرة ، بقدر اهتمامها بمتناقضات الواقع الاجتماعي الذي تعيش فيه . بقي سؤال بسيط قد يسأله سائل وهو وبعد هذا كله ، ومع كل هذا هل للساحر والسحر قدرة حقة ، وفاعلية ملموسة ؟ نقول للاجابة على هذا السؤال ، يفتش عن هذه القدرة المتخيلة ، وهذه الفاعلية المفترضة المتوهمة ، ويبحث عنها لا على مستوى الساحر بقدر ما يبحث عنها ويفتش ، عند الذي عريت إرادته وسلبت ، واهتزت معطيات إدراكه ، فغابت قدرة تعقله في ضباب التخيل وسحبه ، فجعل منها ، متوهما ، حقائق له ، ونعني به ، وبكل بساطة : المسحور .

دكتور رشدي فكار

اصول المغاربة
القسم العربي

بقلم : التقي العلوي

العنصر العربي في عهد الفتوحات :

العرب - مثل غيرهم من الأمم والأجناس - قد تشكل كيانهم الأول من البقايا المختلطة للتجمعات البشرية القديمة المنحلة . وقد عرفوا بهذ الاسم الذي يميزهم عن غيرهم من الأجناس منذ أحقاب طويلة موغلة في القدم . وقد كانت مواطنهم بشبه جزيرة كبرى تقع في الجنوب الغربي من آسيا ، سميت بالجزيرة العربية أو بالعربية فقط . معظم أراضيها صحارى محرقة وتوجد بها جبال جرداء قاحلة قليلة المياه والنبات . في هذه البيئة الغربية تكون المهد الأول للقومية العربية ، وفيها تبلورت شخصية العرب وتشكلت جنسيتهم ، ومن بين جبالها انبثقت العقيدة الاسلامية وفي قلبها فرضت لهجة قريش نفسها على سائر اللهجات العربية الأخرى ، وصارت اللسان الرسمي لكل من دخل أو يدخل في الإطار الواسع للعروبة ، وعلى أكتاف أبنائها قامت الدولة الأولى للعرب التي وحدت السكان ودفعت بهم إلى الانسياح في الأرض خارج الجزيرة ، وإلى بسط النفوذ العربي على عدة أقطار قريبة أو بعيدة من المنبت الأول ، وتحت ظل هذا النفوذ توحدت بقايا الأجناس القديمة بالشام والعراق وأمم القبط والبربر بالشمال الافريقي فاختار هذا التجمع العظيم لغة القرآن والدين أداة لثقافته ولسانا لتعارفه هدفا لوحدته .

وحينما أراد العرب أن يقوموا بتنجيز مهمة الفتح في أرض البربر إبان الحكم الأموي لم يجدوا أرض المغرب أمامهم مفروشة بالورود والأزهار ، تغري الفاتحين بالاستيطان والاستقرار ، بل وجدوا شعوبا خشنة وعنيدة تأنف من الضيم وتتعشق الحرية بأوسع معانيها ، وهي ليست تقل عنهم خشونة وضراوة ، تبدي من ضروب المقاومة وأنواع المقارعة والاستبسال أكثر مماكان عالقا بالأذهان ، وأورع مما كان متوقعا في الحسبان . ولهذا كانت عملية الخضوع والاستسلام طويلة الأمد ، حيث قد امتدت في هاته الربوع امتدادا لم يعرف في غيرها . فحروب الفتح التي أنجزها العرب في العراق والجزيرة وفارس والشام ومصر ، لم تكلفهم أكثر من عشر سنين ، بينما بقيت العملية نفسها تتعثر زهاء سبعين سنة تواصلت فيها سلاسل الانتصارات والانهزامات وضروب اللف والدوران فيما بين الطرفين .

ويبدو أن الأمر الذي كان يهم العرب من هذا الفتح ، إنما هو نشر العقيدة الاسلامية وتبعية البلاد للحكم المركزي بدمشق الشام . أما توطين الجنس العربي بالمغرب فتلك مسألة أخرى لم تثر اهتمام حكومة العرب إطلاقا . لذاك كان الكثير من الجيوش العربية يؤدون مهمتهم العسكرية ، وبعد ذلك يعودون أدراجهم إلى مشرقهم ، وإذا قدر لاحدهم البقاء في هذه الديار ، فسرعان ما تذوب شخصيته وتضيع قوميته في هاته البيئة الجديدة ، وحالة كهذه لا يمكن للباحث أن يعثر فيها على جالية عربية بارزة بالمغرب ، ترجع بأصولها القديمة إلى هاته الأدوار الأولى من تاريخ العرب ، بهاته البلاد ومع هذا كله فإننا سنأخذ الخيط من أوله ونسير مع سلسلة الفتوحات لنرى ما ستسفر عنه من معطيات في هذا الموضوع .

فقد جاء في كتب التاريخ أن عقبة بن نافع الفهري ، لما وطئت قدماه أرض المغرب الأقصى حوالي 62 ، أو 63 هـ 681 أو 682 م في حملته الكبرى طاف فيها حول المغرب

طوافا مسرعا وتنقل في أرجاء البلاد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، أو بعبارة أوضح ، امتد طريق الحملة من تاهرت إلى نواحي طنجة ، ومنها إلى وادي درعة عبر وليلي وتادلا ، وبعد جولة خاطفة حول صحراء تافلالت اتجه خط الحملة نحو الغروب وراء الأطلس الأعلا وعبر الأطلس الصغير ، حتى أشرف على المحيط بحوض سوس ، ومن ثم اخترق جبال المصامدة وسهولها وإذ ذاك ابتدأ طريق العودة والرجوع مارا بحوض ملوية ومضيق تازة (1) .

ومع أن هاته الجولة كانت خاطفة ومسرعة فإن النتائج التي حققتها كانت طيبة جدا من جملتها اعتناق الكثير من برابر المصامدة للدين الإسلامي وآية ذلك أن الفاتح الأكبر أسس عدة مساجد في الأرجاء المختلفة للبلاد بدرعة وسوس ونفيس (2) وهناك من ينسب للفاتح مساجد أخرى كمسجد أغمات والأخماس بنواحي طنجة ، ولما أقلع بجيوشه في طريق العودة إلى المشرق ، ترك وراءه في هذه الديار بعض أصحابه لكي يعلموا البربر شعائر الدين الإسلامي ، ويلقنوهم القرآن الكريم من ضمنهم شاكر (3) الذي ينسب إليه الرباط الواقع الآن ببلاد أحمر فيما مراكش وآسفي وكان هذا العمل بمثابة النواة الأولى لتوطين العرب بالمغرب الأقصى .

وبعد مرور عشرين سنة ونيف على حملة عقبة بن نافع وصل إلى هاتة البلاد موسى بن نصير الذي لم يصل قبله وال من ولات بني أمية إلى المغرب ، ما عدا عقبة بن نافع ، وبعد ما تم له إخضاع البلاد أصدر أوامره لجيوشه في أن يجندوا أنفسهم لتلقين القرآن الكريم للبربر . وتفقيههم في أمور دينهم . وحينما أراد الرجوع إلى بلاد

(1) تاريخ المغرب العربي للدكتور سعد زغلول ص 160

(2) البكري ص 169 .

(3) ابن عذاري ج 1 ص 37

إفريقية خلف وراءه بأرض المغرب الأقصى سبعة عشر رجلا لنفس المهمة . ومن النتائج التي ترتبت على ذلك إسلام برابرة المغرب الأقصى وفي هذا العهد حولوا معابدهم القديمة إلى مساجد إسلامية يتجه فيها المومنون شطر المسجد الحرام . ووضعت المنابر في الكبرى منها لتأديدة صلاة الجمعة كما أنه في هذا العهد نفسه أنشئ مسجد أغمات هيلانة (1) حسب رواية ابن عدارى.

وعند نهاية المائة الأولى للهجرة كان الخليفة آنذاك بدمشق هو عمر بن عبد العزيز . وقد أسند هذا ولاية إفريقيا والمغرب لإسماعيل بن عبد الله حفيد أبي المهاجر ، وقد وصفه الرواة بأنه كان خير وال وخير أمير وقد اهتم كثيرا بإسلام من بقي من البربر على ديانته القديمة حتى تم له ذاك وعلمهم أن يميزوا بين الحلال والحرام وكان يساعده في مهمته الدينية عشرة من فقهاء التابعين انقدبهم الخليفة عمر لذلك إلا أن أعمالهم فيما يظهر كانت مقصورة على القيروان وما قارنها حيث أن أغلبهم توفي بها . ولم يذكر المؤرخون لأحدهم نشاطا بالمغرب الأقصى .

والحق أن دولة بني أمية التي إليها يرجع الفضل في فتح المغرب والأندلس من البداية إلى النهاية ، لم تكن تهتم بالهجرة العربية إلى هاته الديار كما أنه لم يكن لها أدنى تشجيع لتوطينهم بهذا الجناح الغربي الذي ربط بالأمبراطورية العربية بفضل مجهوداتهم الجبارة. فقد مر على تبعية البلاد لدولتهم ما ينيف على الستين سنة ، ومع ذلك لا يستطيع المتتبع لرواية التاريخ أن يسجل أكثر من بضع عشرات من أبناء العرب الذين استطاعوا الاستيطان بهاته الديار طول هاته الحقبة الزمانية ، أغلبيتهم فيما يظن كانوا يقومون بمهمة تثقيفية أو تفقيهية في شئون الدين الإسلامي .

---

1) ابن عذاري ج ا ص 37

وقد يحلوا لكثير من الباحثين أن يلمزوا هاته الدولة بتهمة النعصب للعرف العربي . الأمر الذي يجعلها دولة عنصرية . وهذا شيء لا تؤيده أعمالهم البتة بل يوجد فيها ما يفتو هذا الادعاء . فقد كان باستطاعتهم حينما فتحوا المغرب أن يجعلوا منه وطنا جديدا لتركيز أبناء جلدتهم أو يتخذوا منه على الأقل منفى بعيدا لمن يناوئهم من أبناء العرب كما يفعل غيرهم ولكن شيئا من ذلك لم يقع . والمتتبع لتراجم الولات ورؤساء القيادة الذين وصلوا إلى المغرب لعهدهم يجد أن المعيار الحقيقي الوحيد الذي كانوا يأخذون به هو الكفاءة والمقدورة لا غيرها . فقد أسندوا هاته المهمة إلى العرب والموالي على السواء لا فرق في ذلك بين أبناء الجنس العربي وبين غيرهم ، فقد كان إلى جانب عقبة ابن نافع الفهري أبو المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد يلم يقعد بهذا الأخير عرفه عن الرقي إلى مرتبة القرشي. وهكذا الحال في إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبي المهاجر ، وقد كان إلى جانب حسان بن النعمان الغساني موسى بن نصير الذي يظهر أن الأصح في نسبه أنه من السبايا الذين وجدهم خالد بن الوليد في عين التمر أو هو من موالي بني أمية . أما نسبه العربي إنما هو نسب سياسي وضعه لنفسه أووضعه المتزلفون له ولأبنائه من بعده . وأمثلة ذلك كثيرة في كل زمان ومكان . ومن ولاتهم كذلك محمد بن يزيد القرشي مولاهم . وعبد الله ابن الحبحاب مولى بني سلول . وهذا يؤكد لك أن رميهم بتهمة العنصرية إنما هي نزغة مغرضة . فإذا كان لا بد من البحث في مثالبهم فليكن ذلك في غير هذا الجانب .

اسباب انفصال المغرب عن المشرق بعد الفتح

أما مسئولية العنصرية والاستبداد الذي خيم على المغرب في عهد بني أمية فيجب أن يلقى على عاتق الولاة والعمال أنفسهم سواء في ذلك العرب والموالي لأن اكثرية هؤلاء العمال الذين جاءوا الى المغرب لهذا العهد،

لم يكونوا في مستوى المسئولية من حيث النزاهة والإستقامة ونكران الذات وخدمة الصالح العام . أليس موسى ابن نصير هو الذي اكلت الغيرة كبده حينما رأى مولاه طارق بن زياد البربري ينقض على مملكة القوط فيما وراء البحر انقضاض العقاب الاشهب على فريسته الخائرة القوى ؟ فبدلا من أن ينوه بهاته الخطوة الجبارة ويشجعه على المضي في عمله انتفخت أوداجه واستبد به الغضب فأوقف تقدمه بعنف وبعد ذلك اساء معاملته إساءة منكرة !! وموسى نفسه .عفا الله عنا وعنه .هو الذي اسرف اسرافا كبيرا في كثرة السبي من أبناء البربر وبناتهم !! والقصة التي أوردها المؤرخ إبراهيم الرقيق في شأن فتح مدينة سقومة إذا طرحنا ما فيها من مبالغة مصطنعة لإعلاء شأن موسى ، فإنها تدل دلالة صارخة على هذا الاسراف في السبى ، فقد كتب إلى الوليد يقول له أنه صار لك من سبي سقومة مائة الف رأس !! الأمر الذي أدهش الخليفة وكتب إليه ويحك إني أظنها من بعض كذباتك . فإن كنت صادقا فهذا محشر الأمة . ولكثرة ما اجتمع له ولولده مروان من السبي كان يوزع في الحفلات والمناسبات العبيد والجواري الحسان من أبناء وبنات البربر والروم كأنهن البدور الطوالع عليهن الحلي والحلل كما توزع الحلوى والمبردات في عصرنا هذا . ولأمر ما قال الليث بن سعد أنه لم يسمع قط بمثل سبي موسى بن نصير في الاسلام (1) .

وهناك وال آخر يقال له يزيد بن أبي مسلم كان ظلوما غشوما بالغ الغاية في الطغيان والجبروت ، وكان مثالا سيئا في الفتو والفساد ، وناهيك برجل أنجبته مدرسة الحجاج بن يوسف فعندما حل بالمغرب عزم على ضرب الجزية على البربر بعد دخولهم في الإسلام طبق ما فعله أستاذه مع أهل سواد العراق من أهل الذمة ، الذين أسلموا حيث فرض عليهم الجزية كما كانوا في حالة كفرهم . وقد بلغت الرعونة إلى أنه صمم على أن يسجل اسم حرسه البربري ومهنتهم بطريقة الوشم فوق ظهور

---

(1) ابن عذاري ج ا ص 38 - 39

أيديهم لكي يظهر للناس هيبته وهيبة خدمه ! ولكن أبناء البتر المحيطين به اعتبروا هذا الفعل إهانة لشرفهم واستخفافا بشأنهم فقتلوه غدرا وأسندوا الولاية إلى غيره من العرب وكتبوا بذلك إلى الخليفة فلم يسعه إلا الموافقة على الأمر الواقع (1) .

ولم تكن ولاية عبيد الله بن الحبحاب وأولاده ومساعديه بأقل استهتارا واستخفافا بشئون المغاربة ، ممن تقدمهم من الولاة . فقد أمعن كل منهم في الإسراف بظلم المغاربة والاستهانة بكرامتهم والاستحواذ على بناتهم والعبث والفساد في خرفان ماشيتهم حتى لكأنهم كانوا يتصورون أن بلاد المغرب بما فيها من إنسان وحيوان ما هي إلا حظيرة من حظائر آل الحبحاب يتصرفون فيها حسبما تمليه عليهم رغباتهم . فالسكان فيء للمسلمين يجب أن يخمسوا ومن هم المسلمون ؟ هم هؤلاء الولاة وعمالهم وخدمهم ! أما غنم المغاربة وماشيتهم ، فقد كانت الصرفة منها تباد بالذبح والقتل للعثور على نوع من الجلود في سخلانها . ومع ذلك كان لا يوجد منها إلا الواحد وما قرب منه (2) .

نفد صبر البربر ، ووقعوا في منعرج الطريق أمام هذا الظلم الأسود، الذي كانوا يعانونه من عمال الجور والطغيان ، الذين لا يرجون لله وقارا ولا يخافون منه عقابا . ولم يبق هناك من أمل في رجوعهم عن غيهم ، الذي يتمثل في استنزاف خيرات البلاد ومقدراتها ، والامعان في استعباد الأحرار وإذلالهم ، والضحك على أذقان خلفاء دمشق بتقديم بعض التحف النادرة التي تثير ابتهاجهم، وتصرف أنظارهم عما يجري داخل البلاد . وهذا ما جعل البربر يعقدون العزم على تكسير الأغلال ، وتحطيم القيود ، وقطع العلاقات التي تربطهم بالمشرق وفي هذا الوقت بالذات نشطت حركة المعارضة في تسميم الجو .

---

(1) نفس المصدر السابق ج 1 ص 46

(2) ابن خلدون العبر ج 1 ص 119

واندس رجالها بأرض المغرب يوسعون الهوة بين البربر والخلافة . وإلى الآن لا زال البربر على يقين من النوايا الطيبة التي يضمرها لهم خلفاء دمشق . ولم يريدوا أن يحملوهم جناية العمال حتى يستطلعوا رأيهم فيما لحق المغاربة من عسف وطغيان ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيي عن بينة ولهذه الغاية تألف وفد من زعماء البربر ، قوامه بضعة وعشرون رجلا ، وعلى رأسهم ميسرة المضغري المعروف بالخفير أو الفقير (1) . فتوجهوا نحو العاصمة دمشق الشام ، رغبة منهم في الاتصال بهشام بن عبد الملك وإطلاعه على خطورة الحالة. ولكن الحجاب الكثيف الذي كان يحيط به ، حال بينهم وبينه ، والمضنون أن هذا الحجاب كان مؤلفا من شيعة العمال والولاة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون . لذلك فرت الفرصة على البربر ، ومنعهم من الاتصال بالخليفة . وحينما أطال مقام رجال الوفد بدمشق ، ونفد زادهم ، ولم يعد هناك من أمل في الاتصال بهشام بن عبد الملك ، سجلوا أسماء هم وشكايتهم عند الأبرش كبير الوزراء . وتتلخص هذه الشكوى في الميز العنصري الذي يبدوا واضحا في التجنيد العسكري . فالبربر عليهم الغرم وهم محرمون من الغنم ، وفي إرغامهم على تسليم كرائمهم الجميلات ، لكي يصرن إماء وحظايا لدى أمراء ووجهاء المشرق ، وفي الضرر الفادح الذي يلحقه العمال بقطعان ماشيتهم .

كان رجوع الوفد البربري إلى المغرب على هاته الحالة المصحوبة بخيبة الأمل ، والفشل في إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، سببا في تفجير ثورة عنيفة لا تبقى ولا تذر ، ترتب عليها انفصام الروابط السياسية بين المشرق والمغرب . انفصاما أبديا . فقد طلق برابرة المغرب الأقصى كل اتصال بخلفاء المشرق ، طلاقا لارجعة فيه منذ سنة 122 هـ 739 م . ولم يعد يربط المغرب بالمشرق ، إلا الروابط

---

1) ابن عبد الحكم فتوح افريقية والاندلس ص 95

الروحية التي ستزداد متانة ، لأنها روابط ظاهرة لا تلوثها رعونة السياسيين . وكان الموطن الأول الذي اندلعت منه هاته الثورة ، هو إقليم طنجة الذي يعرف في ذلك العهد بإقليم السوس الأدنى . وكان الإقليم غاصا بالقبائل التي ترى رأي الخوارج الصفرية مثل مضغرة ومكناسة وغمارة وبرغواطة ، وغيرهم من القبائل التي ارتبطت بهذا المذهب المنحرف . وتولى كبر الثورة وزعامتها ، ميسرة المضغري الحفير أو الفقير ، ولقبه خصومه بالحفير أو السقاء . وقد اختار الوقت المناسب للقيام بالثورة ، عند ما كانت جيوش ابن الحبحاب خارج المغرب ، متجهة لغزو صقلية ، فحشر جموعه واستولى على طنجة ونصب نفسه إماما الخوارج ، وأشعلها نارا ضد الظلم والطغيان . ولم يقتصر الأمر على معاداة الدولة فحسب ، بل مال كل قوم على من يليهم من الجنس العربي ، فقتلوا وطردوا وشردوا ، كما يقول ابن عبد الحكم ، الأمر الذي أوقع الفزع في نفوس العرب ، وحال بينهم وبين البقاء بالمغرب ، وكانت الجيوش نفسها حينما تدور عليها الدائرة ، لا ترضى بالأمر الواقع ، فتلتجيء إلى الاستسلام وتطلب الأمان لنفسها . بل كانت تفر مذعورة إلى بلاد الأندلس ، أو ترجع إلى مشرقها (1) . ومن ذلك الحين تواصلت حلقات المعارك المتتابعة ، وقد امتدت عشرات السنين. فمن معركة الأشراف إلى معركة وادي سبو ، ثم معركة الأصنام تليها معركة القرن ، وغير ذلك من المعارك الكبرى . وقد نشأ عن ذلك تعدد الزعماء البارزين أيضا ، فمن ميسرة المضغري إلى خالد بن حميد الزناتي ، ثم عبد الواحد الهواري ، وغيرهم ممن يطول تتبعهم . وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن هاته العقيدة المنحرفة التي اتخذ البربر منها وسيلة للتحرر من سيطرة الخلفاء ، بالمشرق ، قد استحكمت من نفوسهم وسيطرت على مشاعرهم من طرابلس إلى المحيط .

---

(1) ابن خلدون في العبر ج 6 ص 111

وقد بذل الأمويون وآل عقبة ثم العباسيون جهودا مضنية لاستيصالها ، واقتلاع جذورها . ومع ذلك فقد بقيت صامدة تتحدى عوامل الفناء .

وبسبب هاته الوضعية الشاذة ، والظروف المرعبة التي تطفح بالمخاويف في جميع أرجاء البلاد لذلك العهد ، لا يمكن للانسان أن يتعجب من كون العرب لم تكن لهم الشجاعة الكافية ، على الاستيطان بالمغرب الأقصى منذ زمان مبكر ، ولم يجعلوا لأقدامهم موطئا ، ولا بنائهم وحفدتهم مستقرا ومقاما ، إلا بعد ازمنة طويلة ، جاءت بعد أزمنة الفتح ،وعصر الثورة الخارجية على عكس ما كانت عليه الحال في بلاد الأندلس وراء بلاد الغرب . فقد انفتح لهم فيها باب المعجزة على مصراعية منذ اللحظة الاولى ، وصارت بنعتها أرض ميعاد لهم ، وقصدها عرب الشام وغيره زرافات ووحدانا ، في حين أنهم كانوا يمرون بالمغرب مر الكرام قبل ما يصلون إليها . ولم يكن يدور بخلدهم أن يلقوا به عصاتسيارهم ، أو يقفوا به وقفة استراحة خوفا على انفسهم ، لأنه لا قرار على زئر من الاسد كما قال الأول . ولا يخفى أنه من جملة العوامل التي تشجع الناس على الإستيطان بالاقطار الجديدة ، وترغبهم في المقام بها ،الاستقرار السياسي الثابت . وهذا شيئ تفوقت فيه الأندلس على المغرب طيلة القرون الاولى للإسلام . كماان المغرب في ذلك العهد لم يكن يتوفر على عواصم كبيرة، ومدن جذابة تستهوي أفئدة العرب ، وتنسيهم ما خلفوا وراءهم بالبصرة والكوفة وبغداد ودمشق وغيرها .في حين أن بلاد الأندلس وفرت لهم جميع متطلباتهم في هذا الميدان .أضف إلى ذلك ان المغرب لم يكن يتوفر على حكومة عربية قوية من ابناء جنس العرب ، الذين يرغبون في الإستقرار به ، لكي ترعى حقوقهم وتحفظ مصالحهم وغني عن البيان أن بعض الحكومات العربية او شبه العربية كانت قد تأسست بشمال المغرب في الأزمنة اللاحقة ، التي جاءت بعد الفتح وثورات الخوارج . مثل دولة الأدارسة بفاس، ودولة بني صالح الحميريين بنكور . وذلك بغض النظر عن الخلاف الواقع في صالح مؤسس دولتهم ، هل هو عربي

حـمـيـري مـن عـرب الـفـتـح ؟ أو هـو بـربـري نـفـزي ، ادعـى الـحـمـيـرية كـسـائـر قـبـيـلـة نـفـزة ، لـأغـراض سـيـاسـيـة (1) ؟ او لـكـن كـل واحـدة مـن هـاتـيـن الـحـكـومـتـيـن ، كـانـت حـوكـمـة عـربـيـة في مـظـهـرهـا بـربـريـة فـي مـخـبـرهـا ، ذلـك أن اغـلـبـيـة الـجـيـوش والـقـادات والـأركـان والـأصـهـار والـأخـتـان الـذيـن يـسـنـدون الـدولـة ، كـانـوا كـلـهـم مـن (أخـوالـنـا) الـبـرابـر . أمـا بـلاد الـأنـدلـس فـكـانـت الحـال فـيـهـا غـير الحـال . صحـيـح أن العـنـصر الـبـربـري كـان بـارزا كـذلـك فـي الـأنـدلـس ، ولـكـنـه عـنـصـر غـريـب لا يـقـوى قـوة الـعـنـاصـر الـعـربـيـة الـمـلـتـفـة حـول بـنـي مـروان ، الـذيـن **لا** يـخـالـف أحـد فـي عـروبـتـهـم . ودلـيـل ذلـك أن الـبـربـر لـم يـتـمـكـنـوا مـن تـحـريـك دوالـب الـفـتـنـة فـي الـأنـدلـس ، إلا بـعـد خـراب الـبـصرة كـمـا يـقـولـون حـيـنـمـا فـتـح لـهـم ابن أبي عـامـر أبـواب الـرقـي والـنـجـاح .

الخطط الجديدة لتركيز العرب بالمغرب

بـعـد أن رأيـنـا حـالـة الـعـرب بـالـمـغـرب فـي أزمـنـة الـفـتـح ، وقـد استـعـرضـنـا بـعـد ذلـك الـمـعـوقـات الـتـي كـانـت سـبـبـا رئـيـسـيـا فـي عـدم تـوطـيـنـهـم بـه . نـريـد الـآن أن نـتـعـرف عـلـى الـطـرق الـجـديـدة الـتـي سـاروا عـلـيـهـا لـتـثـبـيـت أقـدامـهـم بـهـاتـه الـديـار . ذلـك أنـهـم فـكـروا فـي وضـع مـخـطـط جـديـد لـفـرض وجـودهـم فـي حـواضـر الـمـغـرب وبـواديـه ، أو بـمـعـنـى آخـر دفـعـتـهـم الـصـدفـة وسـاقـهـم الـقـدر ، إلـى تـبـنـي أسـالـيـب سـلـيـمـة ، بـعـيـدة عـن أسـلـوب الـغـزو والـعـنـف وفـرض الـقـوى . الـشـيء الـذي لا يـتـلاءم مـع الـإقـامـة الـأبـديـة ، الـتـي يـنـشـدونـهـا فـي هـذا الـوطـن الـجـديـد . ذلـك أن الـطـرق الـسـلـيـمـة ، هـي الـتـي تـوفـر لـهـم ولـأبـنـائـهـم الـهـدوء والاطـمـئـنـان ، ولـغـرسـهـم الـصـغـيـر الـمـنـاخ الـصـحـي ، الـذي يـهـيء الـفـرص لامـتـداد الـبـراعـم ، وتـفـتـق الأزهـار وغـزارة الـثـمـار . وقـد اتـفـق أن دخـلـت أمـواجـهـم إلـى قـلـب الـمـغـرب فـي ثـلاث دفـعـات مـخـتـلـفـة كـمـا وكـيـفـا وزمـانـا ومـكـانـا .

---

(1) اليعقـوبي كتاب البلـدان ص 357

أولاها هي تلك الدفعة التي جاءت تنشد اللجوء السياسي ، إذا جاز لنا أن نستعير مصطلحات العصر الحالي لتطبيقها على ما وقع في العصور الماضية . ويتمثل ذلك في وجود الأندلسيين والقيروانيين عربا ومستعربين، الذين وردوا على البلاط الإدريسي . وتمتاز هذه الدفعة عن غيرها ، بأن عربها فارقوا البداوة منذ زمان بعيد ، وعاشوا عيشة الحضارة في بلاد الشام أولا ، ثم في القيروان والأندلس ثانيا . ولذلك سيكون أثرهم عميقا في هذا الميدان رغم قلتهم .

وثانيتها تلك التجربة التي قام بتنجيزها برابرة الموحدين أنفسهم ، حينما اقتلعوا بعض الفسائل من شجرة بني هلال ، الذين كانت مجالاتهم بالجنوب التونسي ، وزرعوها في حوض المحيط الأطلانطكي في منطقة ظلت خاوية على عروشها ، ومقفرة في جميع أرجائها مدة من الزمان . وكانت قد عرفت فراغا مخيفا منذ الحملات الأبادية (1) التي شنها المرابطون على قبائل برغواطة ، الذين كانت لهم صولات وجولات في أرجائها .

وثالثتها موجة بدوية كسابقتها تعرف بموجة بني معقل الذين ظهرت طلائعهم الأولى بالمغرب الشرقي والنجود الشرقية . وواحة تافلالت . ثم اتبعوا سبيلهم نحو المحيط ، فيما وراء الأطلس عبر الواحات الموجودة على حواشي الصحراء . وبعد ذلك بدأ تسربهم إلى المغرب الداخلي بطريقة الانتجاع ، ورعي الماشية ، حينما ضعفت الدولة المرينية التي كانت تسهر على حراسة المنافذ . وانخرطت جموع كثيرة منهم في دولة السعديين والعلويين . وسنتعرض بشيء من التفصيل لكل واحدة من هاته الأمواج . ونوضح مواقع أبنائها وأحفادها في عصرنا هذا .

(1) الحسن الوزان ج 1 ص 159

عرب القيروان والاندلس بالمغرب

في أوائل السبعينات من القرن الثاني للهجرة ، حل إدريس بن عبد الله بمدينة وليلي من جبل زرهون ، لاجئا سياسيا عند قبيلة أوربة البرنوسية التي قابلته بالتجميل والاحترام ، ووفرت له العون والمساعدة . وكان هذا الحدث نفسه أهم ركيزة ثابتة للعروبة في قلب المغرب الأقصى . وصار إدريس نفسه أكبر أب روحي لأصحاب النوايا الطيبة ، والأفكار السليمة ، من شعوب البربر . وأفضل حمامة سلام للمصالحة والوئام بين الجنسين البربري والعربي ، اللذان يريدان أن يتعايشا تعايشا سليما إلى الأبد ، في هدوء واطمئنان . ولا غرابة في ذلك فالرجل ينحدر من عائلة هي من ضئضيء العرب . وفي الذروة والسنام من مجتمعاتهم . ولولا وجود هاته العائلة لكان الجنس العربي عن بكرة أبيه نسيا منسيا . ومن ثم كان نفوذه الروحي في نفوس البربر عميق الأثر . فقد تحول عندهم من ثائر فاشل ، وهارب يتستر تحت زي الخدم ، خوفا من عيون الرقباء التي تتعقب خطواته إلى بطل عملاق وفاتح عظيم . كما تحولوا هم أيضا من خوارج صفرية مناهضين للحكم الوراثي ، إلى شيعة سامعين مطيعين يريدون الحق الإلهي الذي ينشده العلويون ، واتحدت الأهداف والغايات فيما بينه. وبينهم ، وصار أبا روحيا وجدا رمزيا للكثير من أسر البربر وشعوبهم . ويتجلى ذلك في إلحاحهم في ربط نسبهم بهذا المثل الأعلا في اعتقادهم . ومع أن المدة التي قضاها بين ظهرانهم كانت قصيرة جدا ، فإن أثرها كان بالغ الأهمية . وبمجرد ما انتهى أجله ، ووريت في تربة المغرب رفاته ، هوت أفئدتهم واعصوصبت كلماتهم حول الجنين الذي تركه وديعة في بطن أختهم وبنت جلدتهم .

وطبيعي أن يكون هذا الجنين حينما يبلغ سن الرشد . وابان تحمله للمسئولية ميالا إلى الجنس العربي . ذلك أن البيئة التي نشأ فيها قد تحدثت إليه بأنه غريب عن الجنس البربري ، وكل ما يربطه بهم إنما هو الخئولة

فقط . أما قوميته التي انحدر منها وأصله الذي يرجع إليه فهو العروبة . إذا فهو عربي ابن عربي ينتمي بعروقه الى شجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وهذا ما يفسر لنا هذا التعاطف الودي الغريب ، الذي وقع فيما بينه وبين العرب والمستعربين الطارئين على البلاد ، والذين عصفت بهم النكبات في أوطانهم الأولى مثل ما عصفت بآبائه وجدوده في منابتهم البعيدة . وقذفت به وبهم في هذا المعترك المتلاطم الأمواج فتألفت القلوب واتحدت الغايات فيما بين الجانبين . وقد كانوا هم بدورهم على استعداد تام لوضع تجاربهم وثقافتهم ومعارفهم وطاقتهم رهن إشارته . فوجد فيهم ـ زيادة على الألفة والقرابة ـ المادة الخام لسد الفراغ المخيف ، الذي وجد نفسه محاطا به من كل جهة . وكون منهم الأطر الصالحة إن صح التعبير ـ للنظام الوليد الذي باركه والده . وهو عازم على إعلاء شأنه وتمكين جوانبه . وفي هذا الاطار الواسع وضعت النقطة الأولى لخط التعريب والإستعراب بالمغرب الأقصى .

وتتحدث الرواية التاريخية عن عناصر عربية وفدت إلى المغرب ، واردة على إدريس بن إدريس في هاته الظروف آتية من الأندلس والقيروان وعيب هاته الرواية ، أنها لم تصل إلينا من مصادر قديمة ، وإنما وصلتنا من مصادر متأخرة جدا عن زمان الأحداث التي تضمنتها . وهي مضطربة كذلك بالنسبة لتفاصلها . لذلك كثيرا ما ينشر الغموض ظلالا كثيفة على بعض جوانبها . ومع ذلك فالعناصر المتوفرة على صحة مضمونها كثيرة جدا ، منها استمرار وجود الركيزة الصحيحة للعرب والعروبة بالمغرب ، كما قلنا سابقا ، ومنها وضعية المغرب الجغرافية ، التي تشكل معبرا سهلا ، أو قنطرة ثابتة بين قطرين كبيرين ، توجد فيهما عناصر العروبة صلبة أو لا ، ومنها توفر الإضطرابات السياسية بها ، والثورات الفاشلة التي من شأنها أن تدفع بالمتهورين والمغامرين ، والعناصر المثيرة للقلق إلى اللجوء إلى بلاد المغرب . وذكرت الرواية أسماء القبائل التي تنتمي

إلــيـهــا هــاتــه الــعـنــاصــر وأســمــاء الــرجــال الــذيــن وردوا عــلــى إدريـــس وســاهــمــوا فــي حــكــومــتــه .

أمــا الــوزيــر فــهــو مــن الــأزد ، إلا أن الــإسـم الــحـقـيـقـي لـهـذا الـرجـل لــم يــصــل إلــيــنــا بــكــيــفــيــة واضــحــة لا يــعــتــريــهــا الــشــك . وذلــك لاخــتــلاف الــرواة فــيــه ، فــابــن خــلــدون يــســمــيــه مــصــعــب ابــن عــيــســى الــأزدي الــمــســمــى "الــمــلــقــب" بــالــمــلــجــوم مــن ضــربــة فــي بــعــض حــروبــهــم وســمــتــه عــلــى الــخــرطــوم ، وكــأنــهــا خــطــام(1). ويــســمــيــه القــرطــاس (2) والــكــزنــائي (3) وابــن القــاضي (4) بــعــمــيــر بــن مــصــعــب الــأزدي ، وتــتــفــق روايــة هــذا الــجــانــب عــلــى نــســبــة عــيــن عــيــر الــمــوجــودة بــضــواحــي فــاس إلــى هــذا الــوزيــر . ولــم تــقــتــصــر الــروايــة عــلــى الــتــنــويــه بــه وحــده . بــل نــوهــت كــذلــك بــوالــده مــصــعــب . إذ تــقــول : كــانــت لــه مــآثــر عــظــيــمــة بــإفــريــقــيــا والــأنــدلــس ، الــأمــر الــذي يــجــعــلــنــا نــظــن أن ولادة عــمــيــر لــم تــكــن بــالــمــشــرق ، كــمــا يــرى صــاحــب "مــشــاهــيــر أهــل فــاس فــي الــقــديــم" حــيــث قــال إن قــدومــه مــن الــمــشــرق كــان مــع مــوســى بــن نــصــيــر ، وهــو أمــيــر عــلــى قــومــه الــأزد وأمــيــر الــمــغــرب إذ ذاك إدريـــس بــن إدريــس . وبــديــهــي أن هــذا الــكــلام غــيــر صــحــيــح أصــلا . ذلــك أن قــدم مــوســى إلــى الــمــغــرب كــان ســنــة 86 هـ ، ولــم تــكــن تــولــيــة إدريــس إلا بــعــد قــرن مــن الــزمــان أي فــي ســنــة 187 هـ أو 188 .

وأمــا الــكــاتــب فــاســمــه عــنــد ابــن خــلــدون هــكــذا أبــو الــحــســن عــبــد الــلــه بــن مــالــك الــمــالــكــي (5) الــأنــصــاري . وهــكــذا فــي الــجــدوة (6) واحــدى روايــة الــقــرطــاس (7) . أمــا الــروايــة الــأخــرى فــهــو عــبــد الــلــه ابــن مــالــك الــخــزرجــي الــأنــصــاري (8) . وأمــا عــنــد الــكــزنــائي فــي زهــرة الــأس ، فــهــو عــنــده أبــو الــحــســيــن "بــالــتــصــغــيــر" عــبــد الــلــه بــن مــالــك الــمــالــكــي الــأنــصــاري الــمــخــزومــي (9) . فــالــمــالــكــي نــســبــة إلــى بــنــي مــالــك بــطــن مــن

---

(1) الصبر ج 4 ص 13 – (2) ص 14 – (3) زهرة الآس ص 13 – (4) جذوة الاقتباس ص 12 – (5) ابن خلدون العبر ج 4 ص 13 – (6) الجدوة ص 10 – (7) ابن ابي زرع ص 12 – (8) ص 15 – (9) زهرة الآس ص 14

الخزرج . والأنصاري نسبة إلى الأنصار . وهو لقب لأهل المدينة في مقابلة المهاجرين . ونسبة المخزومي التي انفرد بها الكزنائي ، هي تحريف دون شك لكملة الخزرجي. لأنه لا وجود لبني مخزم عند الأنصار وإنما هم بطن من لؤي بن غالب من قريش ، منهم خالد بن الوليد وأبو حبل وغيرهما .

وأما القاضي فيسميه صاحب القرطاس (1) بعامر بن محمد بن سعيد القيسي ، من قيس عيلان ، ويقول فيه كان رجلا صالحا ورعا ، سمع من مالك وسفيان الثوري ، وروى عنهما كثيرا ، ثم خرج إلى الأندلس برسم الجهاد وجاز إلى العدوة وافدا على إدريس ، فيمن وفد عليه من العرب. أما صاحب الجذوة الذي ينقل كلام القرطاس بنصه عادة ، فإنه يسميه محمد بن سعيد ويظهر أنه غفل نقل عامر فقط ، وإذا صحت روايته عن مالك فهو ليس من الرجال المشهورين ، لذلك أغفله عياض في ترتيب المدارك .

وأما أسماء الأصول القبلية التي ترجع إليها العناصر العربية الواردة على إدريس ، فيظهر من قائمة الأسماء التي وصلت إلينا أن أغلبيتها كانت من اليمانيين القحطانيين الذين تأقلموا في بلاد الشام وغيرها ، قبل الوصول إلى شمال إفريقية والأندلس . من ضمنها عناصر تنتمي إلى الأزد ، وهم حي مهم من كهلان من القحطانية . وأخرى تنتمي الى الخزرج ، وهم إحدى بطون مزيقيا من الأزد كذلك ، وثالثة تنتمي إلى بني يحصب ، وهم بطن من زيد الجمهور ، يرجعون إلى حمير من القحطانية أيضا . ورابعة تنتمي إلى بني الصدف ، وهم حي من حضرموت من القحطانية أيضا . وهناك عناصر أخرى تنتمي إلى قبيلة رسمها بعضهم بمدحج (2) بالحاء وهي قبيلة من كهلان من القحطانية . ورسمها البعض الآخر بمدلج (3) باللام ، وهم بطن من كنانة من العدنانيين . وذكرت الرواية أيضا عناصر من قيس عيلان المضرية من العدنانيين كذلك . ويظهر أنه كانت هناك

---

(1) ابن ابي زرع ص 12 ، 13

(2) الاستقصا ج 1 ص 148 ـ (3) زهرة الاس ص 13 والقرطاس ص 13 ـ

عناصر أخرى لم تذكرها الرواية ، لا ندري متى كان دخولها إلى المغرب مثل خولان إحدى بطون كهلان . فقد ذكر البكري قرية كبيرة لعرب خولان على مرحلة من طنجة في اتجاه فاس (1) . كما توجد قرب فاس حمة كانت تحمل في القديم اسم حمة خولان ، وهي المعروفة الآن بحمة سيدي حرازم .

ويختلف المؤرخون في تقدير عدد هؤلاء العرب الوافدين على إدريس بن إدريس ، فرواية عبد الملك الوراق الذي كان حيا في سنة 555 حسبما في زهرة الآس تقول : بصدد الوافدين من القيروان أنهم كانوا ثلاثمائة عائلة . وبصدد الوافدين من الأندلس ، أنهم كانوا جما غفيرا يقدرهم البعض بأربعمائة عائلة (2) . أما المؤرخون من الأندلس ، الذين جاءوا بعد عبد الملك الوراق ، فتقديراتهم دون ذلك . فصاحب القرطاس (3) المتوفى في غضون الثلث الأول من القرن الثامن ، والكزنائي (4) المتوفى قبل نهاية القرن الثامن ، يقرر أن الجميع بنحو الخمسمائة فارس . ويكاد ابن خلدون المتوفى سنة 808 ه يتفق معهما حيث قال: ونزع إليه كثير من قبائل العرب والأندلس، حتى اجتمع إليه منهم زهاء الخمسمائة (5) . وهذا النص جدير بالملاحظة ، لأنه يفرق بين العرب والأندلس . ويترك العدد وهو الخمسمائة فيهما دون تمييز . ويعود صاحب القرطاس ليعطينا تقديرا آخر في صفحة أخرى (6) . وذلك حينما كان بصدد توزيع القبائل على احياء فاس بعد ما تم بناؤها حينما قال : ونزلت كل قبيلة في الحارة الخاصة لها . فكان تقديره لأهل القيروان الذين نزلوا بعدوة القرويين بثلاثمائة بيت أما تقديره للأندلسيين أهل ربض قرطبة ، فهو غير واضح حيث يقول : وكانوا ثمانية بيت" ولعل تصحيح العبارة ، وكانوا مائتي بيت لأن هذا العدد هو الذي يلفت الأنظار ، وينسجم مع

(1) البكري ص 109 (2) الاستقصا ج 1 ص 151 ـ (3) القرطاس ص 13 ـ
(4) زهرة الاس ص 13 (5) ابن خلدون العبر ج 4 ص 13 (6) القرطاس ص 27

توزيع الخمسمائة بين القيروانيين والأندلسيين .هذا إذا كان التقدير يهدف الى جميع من ورد من الأندلس ، بغض النظر عن التفرقة بين الربطيين وغيرهم .

وبعد كل ما تقدم يمكن الجمع بين رواية الوراق، ورواية من جاء بعده من المؤرخين ، فالرواية الاولى التي تقدر الجميع بنحو التسعمائة ، تعني بذالك جميع الأشخاص ذكورا وإناثا وصغارا وكبارا . اما الرواية الثانية التي تقدرهم بنحو الخمسمائة . فهي تعني بذلك القادرين على حمل السلاح فقط . بقي ان نشير إلى تحديد الوقت، الذي وردت فيه هاته الوفود الى المغرب حسب الإمكان . فكتاب القرطاس وكذلك الجذوة ، التي تنقل كلامه بالحرف يجعلان تاريخ وصول هاته الوفود التي جاءت من افريقيا والأندلس بسنة 189هـ 804م . ولكن الباحث الذي لا يقتنع بما جاء جافا في النصوص ، إذ لم يكن مصحوبا بما يدعم صحته ويشد ازره ، له الحق في ان يتساءل : كيف تم الإتفاق على مجئ هاته الوفود جميعها إلى المغرب، من قطرين متباعدين فيما بينهما . وكان ذلك في سنة واحدة ؟ هل كانوا كلهم على موعد واحد لتنفيذ مخططهم ام هل اتفق ان وقعت في كل واحد من القطرين ثورة أو ثورات فاشلة في نفس السنة ، تستدعي الفاشلين للنجاة بأنفسهم ، والفرار من وجه خصومهم ، والإلتجاء الى المغرب الذي كان في تلك الوقت واحة سلام بالنسبة إليهم ؟ هاته بعض الأسئلة التي ستبقى بدون جواب . نظرا لأن حوادث التاريخ المغربي التي ترجع إلى هذا العصر الذي نتحدث عنه ، لا يمكن أن تقوم تقويما صحيحا يساير المنطق فهي بمثابة ثوب خلق متداع للتلاشي كلما حاولت رتق خروقه تمزق من جديد . فإذا فرضنا صحة هذا التاريخ 189 بالنسبة للوفود التي جاءت من إفريقية ، فهو غير مسلم بالنسبة للوفود التي جاءت من الأندلس بعد حادثة الربض على الأقل . ذلك أن تاريخها متأخر عن التاريخ المذكور بنحو أربعة عشر عاما . ومتأخر كذلك حتى عن تأسيس عدوة الأندلسيين بفاس "192" بنحو عشر سنين مع أن الذين اعتنوا بتاريخ مدينة

فـاس يـقـولـون أن هـذه العـدوة اسـتـوحـت اسـمـهـا مـن اسـم هـؤلاء الـأنـدلـسـيـيـن الـربـضـيـيـن ، الـذيـن نـزلـوا بـهـا وقـت الـتـاسـيـس ، حـقـيـقـة أن تـاريـخ الـوقـعـة هـو الـآخـر غـيـر مـتـفـق عـلـيـه . فـابـن الـأثـيـر الـذي هـو بـعـيـد عـن زمـان الوقـعـة ومـكـانـهـا ، يـجـعـل تـاريـخـهـا فـي سـنـة 198 هـ 813 م . ولـكـن جـهـود الـأنـدلـسـيـيـن والـمـغـاربـة ، كـابـن الـآبـار ، والـرازي ، وابـن حـيـان وابـن عـذاري يـجـعـلـون تـاريـخـهـا فـي سـنـة 202 هـ 817 م . وهـنـاك أمـور كـثـيـرة تـوكـد أرجـحـيـة روايـاتـهـم عـلـى غـيـرهـا مـنـهـا أكـثـريـتـهـم . وقـدم مـعـظـمـهـم . وقـربـهـم مـن مـيـدان الـحـادثـة .

وبـديـهي أن نـقـول أنـه لـيـس مـن الـمـعـقـول أن يـكـون جـمـيـع الـذيـن نـزحـوا إلى الـمـغـرب فـي مـثـل هـذه الـظـروف وفـي غـيـرهـا إفـريـقـيـيـن كـانـوا أم أنـدلـسـيـيـن ـ كـلـهـم مـن صـمـيـم الـجـنـس الـعـربـي الـخـالـص . فـقـد كـان هـنـاك أقـوام كـثـيـرون يـضـربـون بـعـروقـهـم إلـى جـنـسـيـات أخـرى مـخـتـلـفـة فـي الـفـرس والـبـربـر والـقـبـط والـقـوط والـزنـوج وغـيـرهـم . كـانـت تـربـطـهـم بـالـعـرب صـلـة قـريـبـة أو بـعـيـدة . وعـنـد مـا تـسـلـلـوا إلـى الـمـغـرب ، اعـتـبـرهـم الـعـرف مـن الـعـرب الـأنـدلـسـيـيـن أو الـإفـريـقـيـيـن ، واعـتـبـروا أنـفـسـهـم كـذلـك . فـقـد روى صـاحـب الـقـرطـاس وتـبـنـى كـلامـه صـاحـب الجـذوة أن جـمـاعـة من الفرس فـي بـلاد الـعـراق وفـدوا عـلـى إدريـس وقـت تـأسـيـس مـديـنـة فـاس ، فـأنـزلـهـم بـنـاحـيـة عـيـن عـلـون مـن عـدوة الـقـرويـيـن ، مـنـهـم بـنـو مـلـونـة إحـدى بـيـوتـات فـاس الـمـنـقـرضـة (1) كـمـا لا يـمـكـن أن نـعـتـبـر أصـحـاب الـثـورة الـفـاشـلـة بـربـض قـرطـبـة الـواردیـن عـلـى إدريـس ، كـلـهـم مـن صـمـيـم الـعـرب . فـقـد كـان فـيـهـم الـعـربـي والـبـربـري والـزنـجـي والـقـوطـي وغـيـرهـم مـن الـأخـلاط الـتـي تـجـمـعـهـا الـمـدن وضـواحـيـهـا عـادة فـي كـل زمـان وكـل مـكـان ، وعـبـارة الـمـؤرخـيـن الـتـي تـقـول أن أكـثـريـتـهـم مـن الـمـولـديـن "تـشـعـر بـذلـك . نـاهـيـك أنـه كـان عـلـى رأس قـائـمـة الـأشـخـاص الـذيـن أثـاروا هـاتـه الحـادثـة ، شـيـخ قرطـبـة وراويـة الإمـام مـالك يحيى بـن يحيى ، وهـو بـربـري مـصـمـودي أصـادي نـسـبـا . لـيـثـي ولاء . وبـالـنـظـر

(1) القـرطـاس ص 20

لعامتهم فقد جاء في كتاب المسالك لأبي عبيد البكري أن مدرارا" ويسميه ابن خلدون عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب" الذي تنسب إليه دولة بني مدرار بسجلماسة كان من جملتهم . وهو عبد أسود كان حدادا من ربضية الأندلس ، خرج عند وقعة الربض ، ونزل منزلا قرب سجلماسة وموضعها إذ ذاك براح (1) .

ونرى أن أكثرية الربضيين الذين اختاروا النزوح إلى المغرب دون غيره ، لم يكن ذلك منهم بمحض الصدفة أو لقرب الشقة ، وإنما كان ذلك فيما يظهر لكونهم كانوا يضربون بعروقهم القديمة إلى الأصول البربرية ، فحينما نزلت بهم القارعة وهدمت بيوتهم من فوق رءوسهم ، وجرف ترابها من تحت أرجلهم ، وأكلت النيران امتعتهم وهم ينظرون ، نبهتهم هاتد الصدمة العنيفة إلى الجنين إلى عريقهم ، ودعاهم داعى الشوق للعودة إلى موطن الآباء والأجداد . فالتجئوا إلى بلاد المغرب ، واستوطن البعض منهم مدينة فاس ، وتعرف الكثير منهم في بادية المغرب بزرهون ، والأطلس المتوسط ، والكبير وتافلالت (2) . ولم ينساقوا مع الجم العفير من إخوانهم الذين كانت وجهتهم نحو المشرق . فالتجئوا إلى الأسكندرية أولا وانتهى بهم المطاف بجزيرة أقريطش . كما أنهم لم يقرروا البقاء مع من بقي بمدن الأندلس وقراها ، ما عدا قرطبة التي ظلت محرمة عليهم عدة أجيال .

توقف الهجرة الجماعية وتفاعل اللغتين

وابتداء من أوائل القرن الثالث الهجري لغاية أواخر السادس ، تدخل الهجرة الجماعية في كسوف تام . وذلك بغض النظر عن بعض الأفراد الذين كانوا يقصدون المدن

---

(1) وصف افريقيا ص 149

(2) الكبري ص 149 ، 155

الـنـاشـئـة فـي هـدوء تـام ، ودون مـا جـلـبـة ومـن غـيـر أن يـشـعـربـهـم الـتـاريـخ . ولـكـن بـراعـم الـتـعـريـب الـتـي زرعـت فـي حـوض سـبـو ، بـدأت تـنـمـو نـمـوا بـطـيـئـا ، ولـكـنـه ثـابـث ومـطـرد . فـقـد عـرفـت مـديـنـة فـاس فـي هـذه الـحـقـبـة ، فـتـرات مـن الازدهـار الـعـمـرانـي . وبـدأت القـوافـل الـتـجـاريـة من داخـل المـغـرب وخـارجـه ، تـحـط رحـالـهـا بـالـمـديـنـة الـنـاشـئـة . مـثـل مـا حـدث لـعـهـد يـحـيـى بـن مـحـمـد ابـن إدريـس ، ودونـاس بـن حمـامـة الـمـغـراوي وغـيـرهـمـا حـيـنـمـا ضـاق هـذا الـمـجـتـمـع الـصـغـيـر بـسـكـانـه ، فـأنـشـئـت الـبـيـوت الـسـكـنـيـة بـضـواحـي الـمـديـنـة ، وشـيـدت الـحـمـامـات والـفـنـادق ، مـمـا يـدل عـلـى الـرفـاهـيـة وكـثـرة الـوارديـن عـلـى الـبـلاد . وتـوج ذلـك كـلـه بـتـخـطـيـط الـنـواة الـأولـى لـجـامـع الـقـرويـيـن ، عـلـى يـد امـرأة مـحـسـنـة لـم نـعـرف عـلـى وجـه الـتـدقـيـق أرومـتـهـا . ولا الـمـحـتـد الـذي أنـجـب فـرعـهـا . فـأبـو الـتـاريـخ عـبـد الـرحـمـان بـن خـلـدون ، لـم يـجـزم بـشـيء مـن فـهـريـتـهـا او هـواريـتـهـا . وقـد تـعـرض لـذلـك حـيـنـمـا كـان بـصـدد الـتـكـلـم عـلى عـمـارة فـاس لـعـهـد يـحـيـى الـمـذكـور فـقـال : واتـفـق ان نـزلـتـهـا امـرأة مـن أهـل الـقـيـروان تـسـمـى كـذا ، أم الـبـنـيـن بـنـت مـحـمـد الـفـهـري . وقـال ابـن ابـي زرع اسـمـهـا فـاطـمـة ، وانـهـا مـن هـوارة (1) ويـظـهـر انـه نـقـل ذلـك مـن أحـد كـتـب ابـن ابـي زرع الـتـي ضـاعـت فـي جـمـلـة مـا ضـاع مـن كـتـب الـتـاريـخ . ويـلاحـظ أن ابـا عـبـيـد الـبـكـري، الـذي الـف كـتـابـه فـي أواخـر الـقـرن الـخـامـس لـم يـشـر الـى جـامـع الـقـرويين ايـة إشـارة مـمـا يـدل بـوضـوح عـلى أنـهـا لازالـت لـم تـخـرج عـن نـطـاق بـيـوت الـعـبـادة ، الـمـنـتـشـرة فـي الـعـالـم الـإسـلامـي ، لـذالـك الـعـهـد . ولـم تـتـبـوأ مـكـانـتـهـا الـمـرمـوقـة فـي الـثـقـافـة الـديـنـيـة . وتـصـر مـشـعـلا وضـاء يـنـيـر الـطـريـق لـلـعـروبـة إلا بـعـد انـطـفـاء شـعـلـتـي الـقـيـروان فـي مـنـتـصـف هـذا الـقـرن ، عـلى يـد قـطـعـان بـنـي هـلال . وشـقـيـقـتـهـا قـرطـبـة حـيـنـمـا اخـتـل امـرهـا بـضـعـف المـروانـيـين ، ومـوت ابـن ابـي عـامـر . وبـالـتـالـي حـيـنـمـا يـجـلـلـهـا الـسـواد بـالـإحـتـلال المـسـيـحـي سـنـة 633هـ 1235م . بـعـدما كـانـت كـل مـنـهـمـا دار عـلـم ومـعـقـلا حـصـيـنـا

(1) العبـر ج 4 ص 13

للثقافة العربية . وحينما خنقت أنفاسهما ، رحل من هاته وتلك رجال العلم والفضل الى فاس ، التي اجتمع فيها علم العاصمتين المتقدمتين (1)

ولايبعد ان توجد في هذا العصر خمائر اخرى للتعريب. قد بدأت تتشكل ان لم تكن قد تشكلت بالفعل ، في بعض التجمعات السكنية . بالمراكز الكبرى الواقعة شمال سبو ، سواء منها التي نشأت او التي ستنشأ في هذا العصر . مثل تكور والبصرة وسبتة . وفي المراكز الجنوبية مثل أغمات ، وبنشها مراكش وسجلماسة . فقد زار ابوالقاسم بن حوقل النصيبي هذا المركز الذييوجد فيما وراء الأطلس ، على حواشي الصحراء الكبرى سنة اربعين وثلاثمائة ، لعهد محمد الشاكر لله أحد امرائها المشهورين . ووجد بها جالية كبيرة من العراقيين ، يديرون تجارتهم الرابحة ، منهم تجار بصريون وكوفيون وبغداديون (2) ومن دون شك ان الجالية العربية او المستعربة التي كانت تلتجئ الى المغرب ، في اول هاته العصوروفي آخرها طلبا لمهنة التجارة التي تدر الأرزاق ، كان اعضاؤها يترددون على المراكز الكبرى داخل المغرب لترويج تجارتهم ، .

وحوالي منتصف القرن السادس كانت بعض القبائل البربرية التي تجاور فاس ومضيق تازة ، بدأت تتحدث بالعربية رغم بربريتها، حسبما اخبرنا بذلك الإدريسي في نزهة المشتاق . مثل بني يوسف التي سيتحول اسمها الى آيت يوسي بعد قرون حينما تصل اليها قبائل الجنوب . وفاندلاوة التي اندمجت في بني يارغة وبهلولة وزواغة انقرضت . ومجاصة المندمجة في غياثة . وسلالجون (3) المندمجة في آيت يوسي . وان كان هذا لايعني أن مدينة فاس نفسها ، قد تم استعرابها بصفة نهائية . وانما المقصود ان الإستعراب كان منتشرا فيها

(1) المعجب ص 219 ـ 220 ـ (2) صورة الارض ص 83 فقرة 35 ـ (3) نزهة المشتاق ص 53

وفـي الـقـبـائـل الـمـجـاورة لـهـا . ذلـك ان جـيـوبـا كـثـيـرة لـلـتـحـدث بـالـلـسـان الـبـربـري لاتـزال مـوجـودة داخـل الـمـديـنـة الـمـخـضـرمـة الـلـسـان ان لم نـقـل انـهـا كـانـت مـزدوجـة اللسـان فـي هـذا الـعـصـر فـقـد قـرأنـا فـي الـقـرطـاس (1) وفـي زهـرة الـآس (2) انـه حـيـنـما دخـل الـمـوحـدون الى هـاتـه الـمـديـنـة فـي يـوم الـخـمـيـس 15 ربـيـع الـأول سـنـة 540هـ عـزلـوا خـطـيـب الـقـرويـيـن الـذي يـخـطـب بـهـا فـي الـشـهـور الـأخـيـرة لـحـكم الـمـرابـطـيـن . وقـدمـوا مـكـانـه ابـا الـحـسـن عـلي بـن عـطـيـة . لـأجـل حـفـظـه الـلـسـان الـبـربـري لأنـهـم كـانـوا لا يقـدمـون للخـطـابـة والإمـامـة الامن يـحـفـظ الـتـوحـيـد بـاللـسـان الـبـربـري . وهـو الكـتـاب الـذي الـفـه لهـم ابـن تـومـرت فـي جـمـلـة مـاالـف وهـو يـتـضـمن الـعـقـائـد الـديـنـيـة وهـم مـلـزمـون بـان يـقـرأوا مـنـه كـل يـوم جـزءا إثـر صـلاة الـصـبـح . وكـان الـمـوحـدون يهدفـون بـنـزعـتـهـم هـاتـه الـى غـايـتـيـن : ان تـكـون الامـامـة مـتـمـشـيـة مـع الـإعـتـقـاد حـسـب مـذهـبـهـم . وان تـكـون فـي الامـام أهـلـيـة الـفـهـم والـتـفـهـيـم ، الـتـي يـجـب أن تـكـون عـنـد كـل إمـام وخـطـيـب . ذلـك ان أغـلـبـيـة سـكـان الـمـغرب لازالـوا يـتـحـدثـون بـاللـسـان الـجـربـري الـذي يـسـمـيـه كـتـاب ذلـك الـعـصـر بـالـلـسـان الـغـربـي . فـالـتـعـصـب عـنـدهـم إذا هـو الـعـقـيـدة لا الـلـسـان ولا لـلـجـنـس . لـأ ن ابـن عـطـيـة لـم يـكـن بـربـريـا فـيـمـا يـظـهـر ، وانـمـا كـان يـتـقـن اللـسـان الـبـربـري . وربـما كـان أخـا لابـي جـعـفـر بـن عـطـيـة الـقـضـاعـي الـمـراكـشـي، كـمـا يـقـول الـفـريـد بـيـل . امـا خـلـفـه الـذي جـاء بـعـده ، وهـو يـسـكـر بـن موسـى الـكـراوي نـسـبـة مـديـنـة كـراوة" مـرفـا صـغـيـرا عـلى مـصـب مـلـويـة" فـهـو بـربري الـلـسـان شـديـد الـعـجـمـة .

واذا كـانـت هـذه هـي حـالـة الـمـغـرب فـي عـصـر الـمـوحـديـن الـذي عـرف بـنـهـضـتـه الـثـقـافـيـة وتـسـامـحـه مـع بـنـي هـلال ، الـمـوجـوديـن فـي الـمـغرب الـأدنـى بـان يـنـخـرطـوا فـي جـنـد يـتـمـم الأمـر الـذي يـدفـع عـجـلـة الـتـعـريـب الـى الامـام . فـالـعـصـر الـذي تـقـدمـه كـان الـعـكـس مـن ذلـك . فـلـم يـرد فـي كـتـب

(1) القرطاس ص 42 ـ (2) زهرة الآس ص 42 ، 43

التاريخ ما يفيد بان المرابطين سمحوا لعرب افريقية بالدخول الى المغرب . كما انهم لم يستفيدوا من طاقتهم وقوتهم ، بالسماح لهم بالإنخراط في جنديتهم ،كما استفادوا من الأجناس السوداء واجناس القز التركيين . بل الذي وقع ان جيوشهم رابطت في مناطق وادي شلف ، وجزائر بني مزغنة سدا منيعا، اما م زحفة الاعراب المخربين الذين اعطوا دروسا قاسية لصنهاجة افريقية . زيادة على السمعة السيئة التي تسير بسرعة امام زحفهم . وقد تجاوزت حدود المغرب الى بلاد الأندلس . فقد روى ابن الأثير في كامله ان مشايخ اشبيلية ، لما راوا تكالب العدو على بلادهم ، فكروا في استدعاء عرب افريقية الى أرض الأندلس. وبعد الإستشارة فيما بينهم ، عدلوا عن هذا المشروع الى استدعاء المرابطين ، خوفا من تماثلهم وتخريبهم المنقطع النظير(1)

هذا وقد استنتج الدكتور حسن أحمد محمود في كتابه "قيام دولة المرابطين" (2) من فقرة غامضة جاءت في قلائد القيان للفتح بن خاقان ، ان طائفة من طوائف الهلاليين قد اشتركت في معركة الجهاد مع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جنبا لجنب وهي" : وفيهم من أجناده زنجها وعربانها " ولكن هذا التخريج غير صحيح بالمرة ، فهؤلاء العربان لاتعرف جنسيتهم ، هل هم من عرب افريقية او من عرب الأندلس او لم يكونوا من هذه ولا تلك ، وانما هم من جزيرة الوقواق . سيما وان الفقرة انما جاءت في شكل أمنية ، ورجاء كاتبها فقط ، في ان ينقذ أمير المسلمين المدن الأندلسية ، التي سقطت في قبضة المسيحيين بجنوده المظفرة . ونص الفقرة : وأرجوا ان يتلافى جميعها من نظر أمير المسلمين أيده الله ما يعيدها فيملأها خيلا ورجالا . ينفر بهم خفافا وثقالا . عليهم من قواده شيبها وشبانها. وفيهم من اجنادد

---

(1) الاستقصاء ج 1 ص 36 ـ 37 (2) قيام دولة المرابطين ص 381

زنجها وعربانها فلفظة عربانها عند الفتح لا تحمل معنى حقيقيا ، وانما جاء بها لتعمير الفراغ بشئ يطابق الفقرة الأولى . وهي شيبها وشبانها . او لنتوب مناب لفظة بربرها التي هي مخللة بوزن التحفة . اذا الوقع ان جيوش بن تاشفين كان أغلبها من البربر لا من غيرهم على ان لفظة عربان هنا ليست نصا في بني هلال ، شأنها في ذلك شأن الكلمة التي وردت عند صاحب القرطاس (1) في وصف جيوش علي بن يوسف، في أحد تحركاته الى بلاد الاندلس. حيث قال : فجاز معه خلق كثير من المرابطين والمتطوعة والعرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر.

(1) القرطاس 103

الهياكل والنظم الاقتصادية

د/ابراهيم دسوقي اباظة

يتألف كل نظام أيا كان لونه من مجموعة من العناصر المتمايزة يطلق عليها هياكل أو بناءات (1) . والنظام كخلق نظري (2) كالنظام الشيوعي والنظام الرأسمالي أو كتطبيق عملي (3) (كالنظم المعمول بها فعلا في الدول المختلفة والتي تختلف في قربها أو بعدها عن النظام في صورته النظرية) ، يحتوي على عدد من الهياكل المتباينة . فهناك الهيكل الاقتصادي والهيكل السياسي والهيكل الاجتماعي والهيكل الذهني ...الخ وهذه الهياكل تحدد في مجموعها خصائص النظام وتميزه بالتالي عن غيره من النظم ، ومن ناحية أخرى يلاحظ أن الهياكل المكونة للنظام في حالة حركة دائبة وأنها تتفاوت فيما بينها من حيث سرعة الحركة مما يؤدي بالضرورة إلى قيام تنافر بينها وهذا التنافر إذا ما استمر فلا بد وأن يخلق وضعا جديدا يسمى (بالتوتر الهيكلي) (4) فإذا ما استفحل هذا التوتر أدى لا محالة إلى أزمة هيكلية . (5)

وتحركات الهياكل على هذه الصورة وما تؤدي إليه من توتر وأزمات تنعكس على النظام ذاته وتؤثر فيه . فإما أن يرتفع التنافر الهيكلي وينتهي التوتر بإجراء يأتي من داخل النظام ودون أن يمس بجوهره وذلك عن طريق التلاؤم الآلي (6) وإما أن يتغير النظام ذاته فتتقوض (7) أركانه ويتحطم ليفسح المجال - بصورة تتفاوت في عنفها - لنظام جديد ، وبالنسبة لهذا الوضع الأخير يجدر بنا

التميز بين حالتين :
الحالة الأولى : وهي حالة ما إذا أمكن للهياكل المتخلفة في حركتها اللحاق بالهياكل المتقدمة والتلاؤم معها وهنا يتحول النظام إلى نظام آخر بصورة تدريجية ودون أن يحدث انقطاع في سير التطور .

الحالة الثانية : وهي حالة ما إذا لم تتمكن الهياكل المتخلفة من اللحاق بالهياكل المتقدمة بسبب استفحال التنافر واتساع الهوة التي تفصل بينهما فهنا لا بد وأن يحدث انفجار فجائي النظام يقوضه من أساسه ولذلك نعتبر أمام حالة انقطاع في سير التطور (8) . نخلص مما تقدم أن دراستنا للهياكل والنظم سوف تتناول موضوعين رئيسيين ، نفرد لكل منهما مبحثا مستقلا الأول نخصصه لبحث الهياكل من حيث التعريف بها وبيان خصائصها والثاني نكرسه لبحث النظم وكيفية تغيرها .

المبحث الاول :

الهياكل :

يتناول بحثنا الهياكل موضوعين : الأول يتعلق بتعريفها ، والثاني يتناول خصائصها .

المطلب الاول :

تعريف الهيكل :

أثار التعريف بالهيكل جدلا عنيفا بين الخبراء (9) وذلك مردود إلى بعض الغموض الذي لا زال يحيط بمفهومه . وأمام هذه الصعوبات نجد من العسير الأخذ بتعريف جامع مانع للهيكل إذ لا بد من تعريف واسع مرن يسمح بطرح التساؤلات والبحث عن الاجابات بالنسبة لكل حالة على حدة دون التقيد سلفا بالتعريفات الجامدة (10) .

وبناء على ذلك يمكن حصر المفاهيم التي تناولت الهيكل في أنواع ثلاثة : المفهوم الذي يسوي بين الهيكل وبين المعطيات، والمفهوم الذي يأخذ بنظرة جامدة Statique . الهيكل وأخيرا المفهوم الذي يأخذ بنظرة متحركة Dynamique الهيكل .

(أ) المفهوم التقليدي للهيكل

ويتلخص في أن الهيكل لا يعدو أن يكون معطية من المعطيات (11) التي يجب على الاقتصادي أن يسلم بوجودها وأن يأخذ بها كما هي وفي ذلك يقول الاقتصادي رينيه كورتين René Courtin بأن الهياكل "عناصر ليس للاقتصادي أي هيمنة عليها ، عناصر جامدة يجب على الاقتصادي أن يأخذ بها كأساس لتحاليله (12)

ووفقا لهذا التعريف تعتبر مجموع الظروف المادية للنشاط الاقتصادي ومجموع الظروف التقنية لهذا النشاط والنظام القانوني والتنظيم الاجتماعي والقواعد الأخلاقية كلها معطيات أو هياكل بالمعنى السابق ويؤخذ على هذا التعريف ما يلي :

أولا : أنه لا يدمج الهيكل في النظريات التي تبحث في العمل أو التشغيل (13) إذ تدلل الحقائق على أن الهيكل متحرك وأنه إذا ما اعتبر معطية في لحظة معينة فإنه يمكن أن ينقلب إلى متغير في لحظة أخرى أو زمن آخر .

ثانيا : أن الأخذ به يؤدى إلى بعد عن المنطق إذ يحرم الاخصائي في فرع معين من العلوم الانسانية كالاجتماع و التاريخ والاقتصاد... الخ. من أن يبحث في المشاكل المتعلقة بالعلوم الأخرى والمتصلة باختصاصه بمقولة أنها مجرد معطيات لا تقبل منه جدلا أو مناقشة .

(ب) المفهوم الجامد للهيكل

كان أول من وضع مفهوما محددا للهيكل هو الاقتصادي الكبير فرانسوا بيرو F. Perroux وهذا المفهوم وإن كان قد صيغ في قالب جامد Statique إلا أنه لا يمنع من صياغة تحديد متحرك Dynamique للهيكل بل من شأنه أن يكمل مثل هذا التحديد . فالهيكل طبقا لتحديده هو عبارة عن "النسب والعلاقات التي يتسم بها مجموع اقتصادي معين في الزمان والمكان "(14). ويلاحظ على هذا التعريف ما يلي :

أولا : أن المقصود بالنسب هو الأهمية النسبية لكل جزء من الأجزاء المكونة

الوحدة الاقتصادية ، مثال ذلك نسبة الانتاج الزراعي إلى الانتاج الكلي أو نسبة الأجور إلى الدخل القومي...الخ.

ثانيا : أن المقصود بالعلاقات نوعان من الروابط : الأولى : هي تلك التي تقوم بين العناصر المكونة للوحدة الاقتصادية .

والثانية : هي تلك التي تقوم بين هذه الوحدة والوحدات الاقتصادية الأخرى ، مثال ذلك العلاقة بين أثمان المنتجات الزراعية وأثمان المنتجات الصناعية أو العلاقة بين الكمية النقدية المتداولة وحجم النفقات العامة ... الخ .

ثالثا : أن المقصود "بمجموع اقتصادي معين في الزمان والمكان" هو أننا لسنا بصدد خلق نظري مطلق أو نظام نظري بحت ، ولكننا أمام مجموع واقعي متحقق من الناحية التاريخية (15) ويلاحظ على المفهوم الجامد للهيكل ما يلي :

1 ـ أن هذا المفهوم ينصرف فقط إلى الهياكل الاقتصادية ولا ينسحب بالتالي إلى الهياكل الخارجة عن دائرة الاقتصاد كالهيكل الاجتماعي والهيكل السياسي و الهيكل القانوني...الخ . ولذلك تعتبر فائدته محدودة بالنسبة للباحث الاقتصادي ، حيث لا يقتصر بحثه عادة على الجوانب الاقتصادية البحتة بل يشمل أيضا الجوانب الأخرى من اجتماعية وسياسية وقانونية...الخ . ذلك أن العلوم الانسانية مرتبطة فيما بينها ولا بد من أن يستحوذ الاقتصادي على أداة طيعة تمكنه من البحث في فروع العلوم الانسانية الأخرى الىجانب علم الاقتصاد .

2 ـ أن هذا المفهوم يصعب الأخذ به في العمل لأنه يشتمل على تحديد مسبق لمحتوى الهيكل كما يشتمل على تعيين دقيق لمعايير تخصيصه ومن شأن هذه التحديدات والتعيينات تجميد مفهوم الهيكل والحيلولة دون مراجعته على ما يجري فعلا في العمل.

(ج) المفهوم المتحرك للهيكل

قدم عدد من خبراء الاقتصاد عدة تعريفات متحركة

للهيكل (16) ولعل أوضح هذه التعريفات ما ساقه البروفسير أندريه مارشال عندما حدد الهيكل بأنه "عناصر لمجموع اقتصادي تبدو خلال فترة زمنية معينة وكأنها ثابتة نسبيا بالقياس للعناصر الأخرى" (17) .

ويلاحظ على هذا التعريف أنه أدخل فكرة جديدة على مفهوم الهيكل وهي أنه لا يمكن تحديد الهيكل إلا في إطار الفترة التي يجرى خلالها التحليل إذ أن ما يعتبر من العوامل الجامدة الراكدة في الزمن القصير قد لا يعتبر كذلك في الزمن الطويل ، فإذا كانت الفترة التي يجري التحليل في إطارها طويلة نسبيا فمن الممكن أن تنقلب المعطيات الهيكلية إلى متغيرات تؤثر في حركة الهيكل ذاته وحركة الهياكل الأخرى .

ويمكن تحديد الفوائد العلمية لهذا التعريف فيما يلي :

1 ـ أن تعريفا من هذا النوع من شأنه أن يفرق بين الهياكل والمعطيات . فهذه المعطيات كما بينا في السابق تعتبر من طبيعة (خارجة) Exogene بمعنى أن على الاقتصادي أن يسلم بها ويعتبرها كأساس لتحليله دون أن يجادل في أمرها أما العنصر الهيكلي فقد يعتبر (معطية) بالنسبة لتحليل يجري في الزمن القصير ولكنه قد ينقلب إلى (متغير) (18) بالنسبة لتحليل يجري في الزمن الطويل .

2 ـ أن هذا التعريف المتحرك للهيكل قد أدخل (فكرة النسبية) (19) على علم الاقتصاد ، فالقوانين والقواعد تعتبر سارية أو معمولا بها بين حدى تغير هيكل معين أي خلال مرحلة تحول الهيكل .

3 ـ يعتبر مفهوم الهيكل على هذه الصورة مفيدا من الوجهة العملية بمعنى أنه يمكن الباحث من الأخذ بتعريفات مؤقتة تستجيب لدواعي المشكلة المطروحة فإما أن تستكمل على ضوء البحث ، وإما أن تراجع بصورة كاملة على ضوء تقدم في النماذج وازدياد المعارف والمعلومات المتعلقة بالنظم والهياكل .

4 ـ أن المفهوم المتحرك الهيكل يمكن من تحديد النظام الاقتصادي وإيضاح ميكانيكية تطور النظم المختلفة. ذلك أن النظام يتكون كما يذهب البروفسير مارشال من "مركب متألف من الهياكل" وهو وإن كان يحتوي على مجموعة هياكل، إلا أنه يتميز عنها. وسنعرض لهذه الفكرة بالتفصيل في المبحث الثاني من هذا البحث.

المطلب الثاني
خصائص الهيكل

يمكن على ضوء التعريفات والتحديدات السابقة لمفهوم الهيكل أن نقوم من جانبنا بتعيين خصائصه العامة وذلك في محاولة لتقريب الفكرة من ذهن الباحث فالهيكل يمتاز بالخصائص العامة التالية : (20)

(أ) عدم التماثل بين الاجزاء والعناصر المكونة له.

(ب) اتصال الأجزاء والعناصر المكونة له بعضها ببعض وتأثير كل منها على الآخر.

(جـ) تحرك الأجزاء والعناصر المكونة له بدرجة تختلف باختلاف طبيعته. ونورد كلمة في كل من هذه الخصائص.

(أ) عدم التماثل بين الاجزاء والعناصر المكونة للهيكل :

لا يتكون الهيكل كما قد يتبادر إلى الذهن من أجزاء وعناصر متماثلة ومتجانسة ولكنه يتكون من عناصر غير متماثلة وغير متجانسة على الرغم من وجودها داخل إطار هيكلي واحد فإذا ما تناولنا مثلا الهيكل الاقتصادي للأسرة نجده يتركب من مجموعة من العناصر المختلفة المتباينة مثل : كمية العمل التي يبذلها أفراد الأسرة، حجم دخلها مقدار استهلاكها، إدخارها الخ... وكل هذه العناصر لا تتصف بالتماثل أو التجانس من حيث الشكل ولا من حيث الجوهر (21).

(ب) اتصال الاجزاء والعناصر المكونة للهيكل بعضها ببعض وتأثير كل منها على الآخر

تمتاز الأجزاء والعناصر المكونة للهيكل بالروابط والعلاقات التي تقوم بينها

ولما كانت كل هذه الأجزاء والعناصر في حركة دائبة فإنه يترتب على اتصال بعضها ببعض تأثير متبادل من كل منها على الآخر ، وهذا التأثير الذي تتفاوت درجته تبعا للظروف يؤدي إلى تغير وتبدل في الأجزاء والعناصر المكونة للهيكل وبالتالي تغير وتبدل في النسب والعلاقات القائمة بين هذه الأجزاء والعناصر وكل هذا التغير والتبدل ينعكس على الهيكل ذاته ويؤدي إلى تغيره .

(ج) تحرك الاجزاء والعناصر المكونة للهيكل بدرجة تختلف باختلاف طبيعته

تتحرك الأجزاء والعناصر المكونة للهيكل بدرجات متفاوتة . وقد لاحظ الخبراء أن لكل هيكل درجة مرونة معينة : غير أن درجة المرونة هذه تعتبر نسبية إذ تخضع لعوامل معينة منها عنصر الزمن وطبيعة الهيكل ونوع النظام الذي يحتويه الخ لذلك حاول نفر من الخبراء إجراء مثل هذا التصنيف(22)

وبناء على ذلك يمكن ترتيب الهياكل تبعا لدرجة مرونتها مبتدئين بأكثرها مرونة ومتجهين إلى أقلها مرونة على الوجه التالي (23) .

1 - الظواهر الاقتصادية المحددة مثل النقود ، الدخول ، الأثمان...الخ

2 - الأنشطة الاقتصادية مثل الانتاج ، الاستهلاك ، الادخار والمبادلات .

3 - الهيكل السياسي - القانوني والهيكل التقني . وهذه الهياكل تعتبر من الناحيتين المادية والمعنوية خاضعة للهيكل الاقتصادي بصورة مباشرة .

4 - الهيكل النفسي والهيكل الاجتماعي .

5 - الهيكل السكاني (الديموغرافي) .

6 - هيكل التوطن مثل توطن الصناعات والأنشطة الاقتصادية المختلفة .

7 - الطبيعة أي المناخ والتضاريس...الخ

وهناك تصنيف آخر يأخذ بطبيعة حركة الهياكل

المختلفة ويمكن في هذا الصدد التمييز بين نوعين من التغيير الهيكلي :

1 ـ تغيير تدريجي بطيء ، ومثال ذلك التحول الذي يطرأ على هيكل الانتاج الزراعي بسبب الانتشار التدريجي لأساليب الانتاج الراسمالي .

2 ـ تغير فجائي أو (انفجار) في الهيكل ذاته يؤدي إلى تحطمه وقيام هيكل جديد مكانه وذلك راجع كما يقول تنبرجن إلى الأزمات التاريخية .

المبحث الثاني :

تطور النظم :

حددنا في المبحث السابق العناصر المكونة للهيكل وعرضنا كيفية تغيرها وبينا أن النظم بمفهومها النظري والعملي إنما تتركب من مجموعة من الهياكل المختلفة ، وأن تآلف هذه الهياكل من عدمه يختلف من نظام إلى آخر . فالنظام بمعناه النظري Système يتكون من عدد من الهياكل المتآلفة المنسقة ، بينما يتكون بمعناه العملي Régime من عدد من الهياكل الغير متآلفة أو التي تتباعد فيما بينها في درجة تآلفها .

ويتجه بحثنا هنا إلى دراسة الكيفية التي تتغير بها النظم المختلفة أو بمعنى آخر ميكانيكية هذا التغير . ولذلك لا بد من البحث أولا في "العوامل الهيكلية" التي تؤدي إلى تغير النظم أي القوى المحركة لهذا التغير ثم التطرق بعد ذلك إلى عملية التغير ذاتها من حيث دورانها ونتيجتها النهائية، وسوف نتولى عرض هذين الموضوعين فيما يلي :

المطلب الاول :

الهياكل المحركة :

بينا أن الهياكل المختلفة ترتبط فيما بينها نتيجة تأثير كل منها في الأخرى وتأثرها بها . وهذا التأثير المتبادل يوحي بوجود نوع من التوافق بين الهياكل المختلفة (24) نوع من التوازن الهيكلي (25) غير أن هذا الاعتماد المتبادل في العلاقات الهيكلية ينعكس في الواقع حقيقة

هامة ، وهي أن هناك بعض الهياكل تباشر على غيرها آثارا معينة من حيث تحريكها وتوجيهها . بدرجة أكبر من تأثرها بهذه الهياكل ، بمعنى أنها تؤثر في الهياكل الأخرى أكثر مما تتأثر بها.

ومن هنا تبرز بعض الهياكل بصفتها المسيطرة أو المهيمنة على الهياكل الأخرى ، إذ تحكم تغيراتها بشكل أو بآخر التغيرات التي تطرأ على الهياكل الأخرى ، ولذلك يطلق عليها تعبير "القوى المحركة" أو "القوى المستقلة" (26) غير أننا نفضل أن نطلق عليها تعبير "الهياكل المحركة" (27) ويمكن تحديد الهياكل المحركة في ثلاثة رئيسية : الهياكل التقنية ، الهياكل السكانية ، أو "الديموغرافية" وأخيرا الهياكل الفكرية (28) .

وهذه الهياكل الثلاثة لعبت دورها الكبير كقوى محركة للتطور خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، غير أن تحركاتها قد تراوحت بين البطء والسرعة تبعا لعوامل الزمان والمكان المختلفة . كما أنها اتسمت دائما بالاعتماد المتبادل (29) القائم فيما بينها وهذه الصفة يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند دراستنا لكل منها بصورة منفصلة (30) .

(أ) الهياكل التقنية :

وهذه الهياكل ليست في الواقع مستقلة تمام الاستقلال ، إذ أنها ترتبط بحركة الابتكارات Les inventions التي تعتمد بدورها على القيم والغايات القائمة في المجتمع ونظام المؤسسات السائدة فيه وكذلك مدى التقدم الذي أحرزته العلوم الطبيعية بفروعها المختلفة .

وقد سجلت الشواهد التاريخية تقدما سريعا وعاما للهياكل التقنية إذ لوحظ أن الثورات الصناعية كانت تقع في تواريخ تتجه إلى التقارب : 1776 ، 1850 ، 1870 ، 1915 ، 1920 ، 1945 ، و 1960 .

وأصبحت الفترة بين ظهور الابتكارات وتطبيقها تتضاءل شيئاً فشيئاً . فقد مر قرن تقريبا بين الآلة

التي إخترعها بابين D. Papin وتلك التي إخترعها وات J. Watt (1775) وانقضى نصف قرن بين صياغة قوانين فاراداي Faraday وظهور المحرك الناري . كما مضى أقل من نصف قرن بين اكتشاف الراديوم المشع بواسطة بيكرل Becquerel وكوري Curie واستخدام الطاقة الذرية في الأغراض الحربية (31) .

ويؤكد البروفسير كوندراتيف Kondrattieff أن ظهور الابتكارات العلمية وتطبيقها في الحقل الاقتصادي لا يعود إلى فعل الحظ ولكن يعود إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تهيء لقيامها واستخدامها .

وقد ذهب الاقتصاديون اعتمادا على المعطيات الإحصائية وغيرها إلى التأكيد بأن الفترة ما بين عام 1850 وعام 1886 كانت تمتاز بالنشاط فيما يتعلق بظهور الابتكارات الحديثة وتطبيقها بينما اتسمت الفترة الواقعة ما بين عام 1886 و 1914 بالركود النسبي ، ولكن هذا الركود لم يدم طويلا فقد عاش العالم انطلاقا تقنيا جديدا منذ الحرب العالمية الأولى ظل مستمرا إلى يومنا هذا .

وإذا كان ابتكار الآلة لم يؤد إلى أية انعكاسات اجتماعية ملموسة حتى نهاية القرن الثامن عشر فإننا نلاحظ على النقيض التأثير العميق الذي خلفته الآلة في المجتمعات الأوربية خلال القرن التاسع عشر ، بل يمكن القول بأن هذه الآلة قد باشرت نوعا من الدكتاتورية على بعض الفئات الاجتماعية، وكانت مسؤولة إلى حد بعيد عن ظهور أعداد من " البرولتاريا" العمالية في الدول الصناعية الكبرى ، وقد كان لهذه النتائج الاجتماعية التي أبرزها ماركس وغيره من المفكرين العديد من الآثار السيئة مما دفع بالخبراء في القرن العشرين إلى البحث عن تخليص الآلة من شوائبها الاجتماعية السيئة وذلك بأن اتجهوا إلى ملاءمة الآلة على الإنسان بدلا من ملاءمة الإنسان على الآلة . وهكذا حل محل مذهب التيلوريزم Taylorisme (32) الذي كان سائدا في الدول الصناعية

قبل عام 1914 آراء ومذاهب جديدة فيما بين الحربين العالميتين فبرز علم النفس الصناعي (33) كمادة يتلقنها مهندسو التنظيم (34) وكذلك ظهر الإخصائيون في العلاقات العامة (35)...الخ ، ومن ناحية أخرى ظهرت المصانع الأوتوماتيكية (36) لدرجة أننا نلاحظ في الدول الصناعية الكبرى اتجاهاً إلى اختفاء العمل اليدوي الذي يمكن أن يشجع في المستقبل على تقارب كبير بين الطبقات .

ويسجل ظهور السبرنتيك La cybernetique ثورة علمية جديدة انعكست أصداؤها على الميدان الاقتصادي . والسبرنتيك علم حديث يتناول بالدراسة عمليات التحكم والتوجيه والحركة في الأحياء والآلات على حد سواء . وقد أمكن من خلاله إنتاج أجهزة تقوم ببعض العمليات الذهنية التي يؤديها عقل الانسان ، وأصبح من المستطاع ـ من الناحية التقنية ـ استخدام هذه الأجهزة (الإلكترونية) في حل المعادلات الرياضية والمشكلات الكيميائية وغيرها بسرعة مذهلة تتجاوز آلاف المرات سرعة الانسان العادي . كما أمكن استخدامها في التحكم والتوجيه الآلي بقطاعي الصناعة والمواصلات بدرجة يعجز الانسان عن إدراكها .

وقد لوحظ أن الدول التي سار فيها التقدم الاجتماعي والتقدم التقني جنبا إلى جنب منذ فترة لا تزيد على قرن من الزمان قد تمكنت بفضل هياكلها الاجتماعية القوية المتوازنة من الافلات من النتائج الاجتماعية السيئة التي أدت إليها الرأسمالية في مرحلة معينة من نموها. ولعل أبرز مثال على ذلك هو ما تقدمه مجموعة الدول الاسكندنافية (37) .

هذا ، ولأن اختراق التقنية لدول العالم الثالث جاء سابقا على التهيئة الثقافية والاجتماعية في هذه الدول ، فقد نتج عن عن ذلك توترات هيكلية خطيرة أودت بها إلى الأزمات . من ذلك ما سببه التقدم التقني في ميدان العلوم الطبية من انخفاض في معدل الوفيات مع بقاء معدل المواليد على ما هو عليه .

إذ ترتب على ذلك انفجار سكاني عنيف عطل من التقدم التقني ذاته.

(ب) الهياكل السكانية :

تحتل هذه الهياكل بدورها مكانا هاما بين الهياكل المحركة للتغيير فقد تضاعف سكان العالم من الجنس الأبيض فقط سبع مرات خلال ثلاثة قرون (38) غير أن هذه الظاهرة لا يمكن اعتبارها مستقلة تماما عن العوامل الأخرى، فقد كانت الزيادة السكانية المذكورة نتيجة طبيعية للعوامل التي رفعت من عدد المواليد وخفضت من عدد الوفيات، تلك العوامل التي تعود إلى التقدم التقني الذي اجتاح العالم بعد انفجار الثورة الصناعية.

وحتى يمكن تقدير الارتباط بين التقدم التقني والنمو السكاني بهذه السرعة المذهلة، لابد أن ندخل في حسابنا بقية سكان العالم من الأجناس الأخرى.

غير أن صعوبة الحصول على الإحصاءات اللازمة قد دفعت ببعض الاخصائيين إلى إجراء تقديرات تقريبية لهذه الزيادة. فإذا ما افترضنا مع البروفسير أندريه مارشال معدل وفيات بنسبة 30% يقابله معدل مواليد بنسبة 40%، وذلك بالنسبة لدول أوربا قبيل الثورة الصناعية، ومصر والصين والمكسيك... الخ بين عام 1930 و 1940، فإننا نحصل على زيادة سكانية قدرها 1% في العام أي تضاعف عدد السكان خلال سبعين عاما.

وهذه التقديرات تسمح لنا بافتراض ان بقية سكان العالم من الأجناس غير الأوربية قد ازدادوا بمقدار ست عشرة مرة خلال 280 عاما، ولا شك أن في هذا التقدير كثيرا من المبالغة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأوبئة والأمراض الخطيرة التي اجتاحت بلدان العالم الثالث خلال القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر (39). فإذا ما اعتبرنا اليوم أن التقدم الطبي (وخاصة بظهور المواد المعقمة والقاتلة للميكروبات) قد ادى إلى هبوط معدلات الوفيات في العديد من الدول المتخلفة الى حوالي 15%. مع بقاء معدلات المواليد على ما هي عليه أي بنسبة 40

المكننا القول بأن النمو السنوي لسكان هذه الدول يتجه إلى تجاوز نسبة 1% في العام ليبلغ نسبة 3% أي تضاعف عدد السكان خلال 23 عاما وصيرورته ستة عشر مثلا خلال اثنين وتسعين عاما . ويشير الجدول التالي إلى الفترات التي يتضاعف خلالها عدد السكان في بعض الدول ، فيما بين عام 1830 ، وعام 1940 (40) .

الأرجنتين	25 عام
معدل الزيادة 2٫92% سنويا	
كندا	31 عام
الولايات المتحدة	33 عام
انجلترا	67 عام
المانيا	82 عام
بلجيكا	99 عام
إيطاليا	106 عام
فرنسا	358 عام
معدل الزيادة 2٫0% سنويا	

ويلاحظ أن فترة تضاعف عدد السكان قصيرة بالنسبة للأرجنتين (25 عام) بينما تتدرج في الزيادة بالنسبة لكندا (31 عام) والولايات المتحدة (33 عام) ...إلخ ، إلى أن نصل إلى أطول الفترات في فرنسا (358 عام) . ويقابل قصر الفترة التي يتضاعف خلالها السكان في الأرجنتين معدل زيادة سكاني مرتفع نسبيا (2،92% سنويا) بينما يقابل طول الفترة التي يتضاعف خلالها عدد السكان في فرنسا معدل زيادة سكاني منخفض نسبيا (0،2% سنويا) .

ويكتسي التزايد السكاني في دول العالم الثالث خطورة خاصة . ففي مصر مثلا بلغت الزيادة السكانية بين عام 1901 و 1921 3 مليون نسمة ارتفعت فيما بين عام 1921 و1941 إلى 3،700،000 نسمة ، ثم قفزت فيما بين عام 1941 و 1961 إلى 9 مليون نسمة ، ومن المتوقع أن تصل هذه الزيادة فيما بين عام 1961 و 1981 إلى 15 مليون نسمة .

وقد أدى هذا التزايد السكاني الرهيب إلى عرقلة التقدم الاقتصادي في الغالبية العظمى من دول العالم الثالث ، فإذا كان معدل النمو السكاني في دول آسيا وإفريقيا يبلغ حوالي 2،5% في العام ، فإن مجرد الحفاظ على مستوى المعيشة على ما هو عليه

يتطلب استثمارا قدره 10% من مجموع الدخل القومي ، فماذا يتبقى إذن من هذا الدخل ـ بعد خصمه الاستهلاك ـ لاستثماره في تجاوز هذا المستوى والانطلاق قدما في طريق **التقدم** ؟

وقد اقترح الخبراء اسلوبين لإعادة التوازن بين حجم السكان والموارد المتاحة بصورة تكفل اطراد التقدم .

الأسلوب الأول يستلزم مدة طويلة نسبيا ويقوم على فكرة أن حركة التصنيع في الدول ذات التزايد السكاني السريع تؤدي في النهاية إلى الارتفاع بمستوى المعيشة . وهذا الارتفاع من شأنه أن يولد ضغوطا مادية ونفسية تدفع إلى الهبوط بمعدل المواليد... ولكن شريطة أن تقترن التحولات الاقتصادية بتحولات اجتماعية جذرية كتحرير المرأة وإجبارية التعليم وتغيير المفاهيم الذهنية... الخ .

أما الأسلوب الثاني ، فيعتبر **أكثر** حزما وأقصر أمدا من الأسلوب الأول ، إذ يعتمد على التنظيم العلمي للنسل باستخدام الوسائل الطبية والقانونية للحد من الزيادة في المواليد . من ذلك مثلا الامتناع عن الحمل وتأخير سن الزواج ...الخ .

واستعمال أحد الأسلوبين السابقين أو كلاهما معا لمكافحة الانفجار السكاني يخضع للظروف الموضوعية لكل دولة وخاصة ما تعلق منها بالهياكل الاجتماعية والذهنية السائدة (41) .

(ج) الهياكل الفكرية :

ما من شك في أن حركة الهياكل الفكرية قد لعبت دورا هاما وخطيرا في التطور العام الذي أصاب المجتمعات المختلفة . فقد هيمنت على الحركة الفكرية التي سرت عبر التاريخ عدة شخصيات رائدة أو عبقريات فذة استطاعت بملكات خارقة أن تؤثر في الجماهير، وأن توجه مسارها . فقد سبقت تلك الشخصيات عصورها بمفاهيم وقيم ثورية وجدت طريقها إلى هذه النفوس في شكل أوهام معينة «Mythes» ، **أي أن** تقديمها وعرضها **كان** محاطا بالغموض ، ولكنه

مع ذلك اتسم بالجاذبية والقوة المتفجرة.

من ذلك مثلا نظرية "اليد الخفية" التي تحرك الاقتصاد عند التقليديين، ونظرية "الصراع الطبقي" عند كارل ماركس. فقد اضمحلت إيديولوجيات العصور الوسطى بما تحمله من احتقار للمادة ونبذ للثراء الأرضي وخلفتها إيديولوجيات عصر النهضة التي تتسم بالتطلع إلى متاع الحياة الدنيا، وتذوق الترف المادي والذهني والانكباب على دراسة علوم الطبيعة. وقد تميز هذا العصر من الناحية السياسية والاجتماعية بنوع من الارتداد إلى العصور القديمة عندما ساد مفهوم جديد يقوم على فصل الدولة عن الكنيسة، واعتبار المواطن لا تبعا لمرتبته الالهوتية، ولكن طبقا لكونه مواطنا في "دولة دنيوية (42)".

وكان لالتقاء الموجة الفكرية المتشائمة التي تزعمها المفكر أن الأنجليزيان ريكاردو Ricardo ومالتس Malthus مع الموجة الفكرية المتفائلة التي نبعت خلال القرن الثامن عشر عن الفلاسفة الفرنسيين أثرها في اقامة صرح المذهب الحر Liberalisme خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر (43). ولم تلبث ردود الفعل الفكرية أن تبلورت ضد النتائج الاجتماعية التي خلفتها النظم الفردية الحرة، غير أنها اتخذت مظهرين مختلفين:

الأول متفائل وقد تزعمه الاشتراكيون الفرنسيون المعروفون "بالخياليين" Utopistes وخاصة أنصار مذهب سانت سيمون Les Saints Simoniens والذي وجد مجالا في التطبيق فيما بعد. إذ طبقت آراؤهم المتعلقة بالتخطيط في منتصف القرن التاسع عشر فوجدت فكرة "المعامل الوطنية" عام 1848 تنفيذا في فرنسا، كما وجدت خطط الاستثمارات العامة التي وضعها فريسن Freycient (1878 ـ 1882) تطبيقها أيضا...الخ

الثاني متشائم، أعقب المد المتفائل من الاشتراكية "الخيالية" ويتمثل في

الاشتراكية "العلمية" التي تزعمها ماركس ، والتي تعتبر نتيجة للقاء بين الفكر التقليدي المتشائم (44) والفلسفة الهيجيلية (45) من جهة والفكر المادي الفرنسي الذي ساد القرن الثامن عشر من جهة أخرى.

ولم تستطع أوهام "الثورة المدمرة" و "صراع الطبقات" التي أطلقها ماركس أن تصيب هوى في ضمائر الفئات الحاكمة إلا في أعقاب الحرب العالمية الأولى وخاصة بعد الأزمة الكبرى التي اجتاحت العالم عام 1929 ـ 1930 . فقد سجلت الفترة فيما بين الحربين العالميتين مولد نظام اقتصادي جديد في روسيا (46) ، وأمكن لهذا النظام أن يستمر وأن يدعم من وجوده بينما كانت النظم الرأسمالية الغربية خلال تلك الفترة ذاتها تعاني من البطالة المتزايدة حتى خيل للبعض بأنها أصبحت مستقرة نهائيا في قلب النظام الرأسمالي ، وأنها لا بد وأن تستفحل لتؤدي بهذا النظام إلى الفناء.

لقد كان للأزمة الكبرى التي مر بها العالم عام 1929 ـ 1930 الأثر الأكبر في توكيد هذا الاعتقاد ، إذ أدركت النظم الرأسمالية خلال هذه الأزمة قدر ضعفها واهتزازها . وخرج الفكر الكينزي (47) في هذه اللحظات الحاسمة ليحاول علاج هذا الضعف وهذا الاهتزاز بأسلوب جديد فكان المؤلف الشهير "النظرية العامة في التشغيل والفائدة والنقود" بعد ست سنوات من قيام الأزمة (1936) . وكان منتظرا أن تنتهي الحرب العالمية الثانية بتحقق نبوءة ماركس في انهيار النظام الرأسمالي ، غير أن "الأزمة" المنتظرة أو "الكارثة" المنتظرة لم تقع رغم طول انتظار ، بل عاود النظام الرأسمالي نشاطه وتابع مساره نحو التقدم بخطى أوسع من ذي قبل فقد ارتفع حجم الإنتاج الصناعي في الولايات المتحدة ثلاث مرات بين عام 1938 وعام 1956 ، وإن كان قد أصابه بعض الهبوط خلال عام 1954 ، بينما سجلت ذات الفترة ارتفاعا في سرعة نمو الانتاج في دول أوربا الغربية من 3 ـ إلى 9 ـ في العام .

وهكذا ، صمد النظام الرأسمالي في العمل ـ وإن كان بعد تطوره ـ في مواجهة منافسه السوفياتي ، وانعكس التنافس بين النظامين الكبيرين على دول العالم الثالث ، فأصبح من العسير عليها الحفاظ على استقلالها وتراثها وأصالتها وسط هذا الخضم الكبير من تيارات السيطرة العقائدية والمادية التي ينزع كل منهما إلى ممارستها فوق ترابه (48) .

المطلب الثاني : ميكانيكية التغيير

يمكن تحديد الكيفية التي يحدث بها تغيير النظم المختلفة في العمليات المتوالية من " المفارقة" (49) و "التوتر" (50) الهيكلي التي يتبعها خلال فترة تطول أو تقصر عمليات "تآلف" أو "وفاق" هيكلي (51) لذلك كان لزاما علينا حتى نتفهم الكيفية التي يتم بها التغيير أن نتعرض أولاً للكيفية التي يولد بها التوتر الهيكلي ثم الآثار التي تترتب عليه بالنسبة للنظام في مجموعه

ونتبه إلى أن النظام الذي نعنيه بهذه الدراسة هو النظام بمعناه العملي أي القائم فعلا في العمل .

(أ) كيف يولد التوتر الهيكلي :

يولد التوتر الهيكلي بسبب أن الهياكل المختلفة تتفاوت فيما بينها من حيث درجة مرونتها ، أي مقدار استجابتها لعوامل التطور ، ويؤدي ذلك إلى تفاوت في سرعة حركتها . فالهياكل عندما تتطور تحت تأثير العوامل الهيكلية المحركة أو "الهياكل المحركة" (52) إنما تتطور بسرعات مختلفة لا بسرعات متماثلة وفقدان التماثل في سرعة الحركة هذا أو بمعنى آخر فقدان التوازن في سرعة الحركة بين الهياكل المختلفة يؤدي بالضرورة إلى خلق نوع من المفارقة او "الهوة" فيما بينها . وبإيجاز يولد نوع من التنافر بين الهياكل المختلفة التي يحتويها النظام وينمو مع نمو النظام

ذاته . وهكذا نصل إلى وضع متفجر يعتبر من قبيل التحدي الذي يجب ان يلقى ردود فعل من جانب فئات اجتماعية معينة داخل الجسد الاجتماعي وإلا أصبح المجتمع كله مهددا بالركود ، بل وبالانهيار الاقتصادي والاجتماعي الكامل .

وهكذا تتغير الهياكل(53) إما عن طريق التطور التدريجي (54) ، وإما عن طريق التبدل الفجائي (55) على ما سنعرضه فيما يلي:

(ب) مآل النظم :

بينا فيما سبق أن تحركات الهياكل المختلفة ترتد لتؤثر على النظام ذاته ، فإما أن يرتفع التنافر الهيكلي وينتهي "التوتر" بإجراء داخلي صادر عن النظام دون ما مساس بجوهره وذلك بواسطة التلاؤم الآلي . وإما أن يتبدل النظام كله فتتقوض دعائمه لتفسح مكانها لنظام جديد .

ونذكر هنا بأن تآلف الهياكل التي يتكون منها النظام لا تعني تجانسها أو تماثلها ، إذ توجد دائما درجة أو "قدر من التحمل" (56) يسمح للنظام بالبقاء على الرغم من التوتر الهيكلي الذي يتهدده ، وذلك إما بسبب صيرورة الهياكل في النهاية أقل تنافرا عن ذي قبل ، وإما بسبب أن العوامل المؤدية إلى التنافر قد ارتفعت مؤقتا نتيجة تدخل عوامل أخرى ، ففي حالات الصدام الطبقي قد تتدخل الدولة الفصل بين الطبقتين المتنازعتين ، ويؤدي ذلك إلى تأجيل نتائج هذا الصدام أو وقفه . كما لو تم تحقيق ائتلاف وطني أو جبهة وطنية تضم القوى المتصارعة للوقوف في مواجهة خطر خارجي أو استعمار داخلي . إلا أن هذا التدخل من جانب الدولة لا يمنع من وجود التوتر وإن ظل مستترا ، ولا يعفي من ضرورة علاجه مستقبلا بشكل أو بآخر (57) .

ويمكننا الآن تصور وضعين مختلفين (58) . وذلك تبعا لما إذا كان "التوتر" قد تعدى أو لم يتعد "درجة التحمل". فإذا ما خلف التوتر الهيكلي مفارقة وتنافرا بين الهياكل

التي يحتويها النظام وبقيت هذه المفارقة واستشرت بسرعة متزايدة ، فلا بد من أن تحول النظام في النهاية إلى مركب معقد من الهياكل المتناقضة المصطرعة بل وتهيئة للانفجار في أية لحظة . وهنا يلزم التفرقة بين حالتين ينتهي النظام إلى احداهما في العمل :

الأولى : إذا أمكن للهياكل المتخلفة في حركتها اللحاق بالهياكل المتقدمة والتلاؤم معها تدريجيا ، وفي هذه الحالة يحدث "تحول" للنظام أي يتحول تدريجيا إلى نظام آخر قريب في سماته وخصائصه من النظام القديم ، وفي هذه الحالة لا يقع انقطاع في سير التطور .

الثانية : إذا لم تتمكن الهياكل المتخلفة من اللحاق بالهياكل المتقدمة والتلاؤم معها ، وذلك عندما يكون "التوتر" الذي وصلت إليه الهياكل قد بلغ درجة كبيرة من الشدة ويكون بالتالي من المستحيل تحقيق التآلف أو الوفاق بين الهياكل المختلفة .

فهنا لا بد من حدوث "تبدل فجائي" (59) يتفاوت في عنفه تبعا للظروف الهيكلية التي يعيشها النظام .

ويمكن تقديم المثال التطبيقي لكل من هذين الوضعين في فرنسا عام 1789 ، فقد كان جمود الهياكل القانونية والسياسية "الهياكل الإطارية عموما" (60) عائقا دون تقدم الفكر الحر سواء في ميادين السياسة أو في ميادين الاقتصاد مما دعى بفنسينت دي جورناي (61) إلى أن يصرخ بعبارته المشهورة : "دعونا نعمل" ، وقد انتصر المذهب الحرفي في النهاية ، وأمكن تطبيق الكثير من المخترعات العلمية الجديدة في مجالات الصناعة وغيرها .

إلا أن الهياكل القانونية والاجتماعية كانت من الجمود والصلابة بحيث أصبح إجراء التوفيق أو التلاؤم فيما بينها أمرا مستحيلا . وقد أدى هذا الوضع إلى انفجار النظام كله باندلاع الثورة الفرنسية وسقوط النظام القديم بما ينطوي عليه من هياكل معوقة

التنمية وقيام نظام جديد على أساس هياكل جديدة (62)

وتجدر الإشارة إلى أن حالات التوتر الهيكلي غالبا ما تكون محدودة في خطورتها وعددها نتيجة عمليات متوالية من التلاؤم شبه الآلي . إذ أن العلاقات التي تقوم بين المتغيرات الهيكلية لا تحمل في طياتها تنافرا أو تعارضا "طبيعيا" (63) (أي يعود إلى طبيعة الهياكل ذاتها) وبالتالي لا يمكن حله ولكنها على النقيض تنطوي على تنافر أو تعارض "جدلي" (64) يمكن أن يولد القوى التي تؤدي إلى امتصاصه (65) .

وبمعنى آخر فإن عمليات التوافق أو التلاؤم بين الهياكل المختلفة لا تتم دفعة واحدة أو مرة واحدة ، ولكنها تتم غالبا على مراحل ودفعات وفي كل مرحلة أو دفعة قد تتلاءم بعض الهياكل بصورة فورية بينما تتعثر الأخرى في تلاؤمها ، وقد ينتكس هذا التلاؤم في مرحلة تالية ، ولكنه يعود إلى التحقق في مراحل أخرى...وهكذا فالتلاؤم الهيكلي يتم على حد تعبير الفيلسوف الكبير M. Merleau-Ponty عن طريق ميكانيكية "الخطأ المعوض" (66) أي سلسلة من الأوضاع الهيكلية "الخاطئة" ـ نتيجة لتنافر أو التعارض فيما بينها تعقبها سلسلة من عمليات التصويب التي تؤدي في النهاية إلى قيام التلاؤم بشكل أو بآخر ـ بين مجموع الهياكل التي يتكون منها النظام .

خاتمة :

هذه الدراسة الهيكليا التي فرغنا من تقديمها تعتبر أداة تحليل ممتازة لتطور الأنظمة وتبدلها أيا كان نوع النظام موضوع البحث فهي تفوق في قدراتها أسلوب التحليل التقليدي الذي ينتهجه التاريخيون والاقتصاديون التقليديون .

وما من شك في أن هاتين الفئتين من الباحثين تتجه بجهودها إلى تحديد خطوط القوة التي تؤدي إلى تغير المجتمعات المختلفة، غير أن مؤرخي الوقائع الاقتصادية غالبا ما يتجهون إلى التفسير البطيء في تغير المجتمعات بمجموعة مترابطة من الأسباب التي

تؤدي بهم إلى مواجهة المراحل المختلفة لهذا التغير من خلال خط واحد محدد.

أما الاقتصاديون فهم على نقيض المؤرخين يعنون قبل كل شيء بالترتيب العلمي أو العملي للسمات والخصائص المميزة لكل عصر من العصور التي اجتازها المجتمع موضوع البحث . وقد ساقهم هذا الأسلوب في بعض الحالات إلى السقوط في التعميمات وإجراء المعارضات المتطرفة وكانت النتيجة المنطقية لهذا الاتجاه أن ظلت كثيرا من الظواهر الهيكلية بعيدة عن أن يتناولها التحليل بالبحث من ذلك مثلا أن تطور الأنظمة بصورة بطيئة أو تبدلها بشكل فجائي غالبا ما يسبقه ظهور بعض عناصر النظام الجديد وهذه العناصر تتعايش وقتيا في كنف النظام القديم (67) ومن ناحية أخرى فإن وقوع التطور أو التبدل الفجائي وقيام النظام الجديد لا يترتب عليه اختفاء معالم النظام القديم برمته ، بل تظل بعض بقايا هذا النظام قائمة ومحتفظة بقوتها في كنف النظام الجديد ، وذلك لفترة قد تطول أو تقصر (68) .

وهكذا ، يتضح أن أسلوب البحث الهيكلي بما يمتاز به من مرونة وعمومية يسمح بالوقوف على تغير كل نظام أيا كان نوعه ، وذلك بتحليل القوى التي تؤثر في العمق وعدم الزعم بأن تغير النظام يعود فقط إلى خصائصه الذاتية ، وإنما يعود أيضا وقبل كل شيء إلى وضعيته الخاصة في ميدان يتركب من الهياكل المحركة في المدى الطويل وربما أيضا من تأثره بعوامل الجذب والاستمالة التي تمارسها عليه النظم الأخرى المنافسة (69) . يضاف إلى المزايا المتقدمة أن هذا الأسلوب في التحليل والبحث يترك حرية كبيرة للباحث في الاختيار وقدرة على تكوين الفروض المختلفة . إذ أنه لا ينطوي على أي حكم مسبق بالنسبة لطبيعة التغيير، وهل يتحرك في خط واحد متواصل ، أم بشكل دوري ، وهل هو من النوع المتفجر أم من النوع الذي يخلق

القوى التي تؤدي إلى امتصاصه ، كما أنه لا ينطوي على أي حكم مسبق بالنسبة لمآل هذا التغير أي نتيجته النهائية، وهل سيؤدي إلى تقدم وازدهار أم إلى ركود وتقهقر . فهو يفوق بكثير أسلوب التحليل الماركسي الذي يعتبر اليوم من قبيل التحليل التقليدي ، إذ يتضمن أحكاما مسبقة بالنسبة لشكل التطور ومداه ونتيجته النهائية . وفي هذا ما يفسد القيمة العلمية للبحث ، إذ يبعده عن مداره الموضوعي ويجعله نهبا للمضاربات المذهبية والأهواء العاطفية .

ومن هنا كان أسلوب التحليل الهيكلي أقرب إلى الموضوعية وأدنى إلى خدمة العلم من كل أسلوب سواه .

(1) ويعرف بالفرنسية باسم STRUCTURE

(2) ويسمى في هذه الحالة SYSTEME

(3) ويسمى في هذه الحالة REGIME

(4) ويعرف بالفرنسية باسم TENSION STRUCTURELLE

(5) وتعرف بالفرنسية باسم CRISE STRUCTURELLE

(6) ويعرف بالفرنسية باسم AUTO ADAPTATION

(7) ويعرف تقوض النظام بالفرنسية باسم ALTERATION DE SYSTEME

(8) راجع في شأن هذه الحالات وتطبيقاتها مؤلف البروفسير A. MARSCHAL المرجع السابق ذكره من ص 557 الى ص 586 وكذلك المراجع المتخصصة التالية :

J. HOUSSIAUX - DISTORSIONS DE STRUCTURES ET ADAPTATIONS STRUCTURELLES EN FRANCE DE 1789 à 1914.
Revue éco. sept. 1958.

M. MERLEAU PONTY - LES AVENTURES DE LA DIALECTIQUE, Paris 1955.

(9) فقد عين الاقتصادي الكبير تنبرجين أربعة تحديدات مختلفة لكلمة هيكل ، راجع في ذلك

J. TINBERGEN - DE QUELQUES PROBLEMES POSES LE CONCEPT DE STRUCTURE ECONOMIQUE.
Revue d'économie politique, 1952, P. 27.

(10) راجع في وجهة النظر هذه مؤلف البروفسير :

R. BARRE - ECONOMIE POLITIQUE, T. I. p. 193, 2ème édition.

(11) وتعرف بالفرنسية باسم DONNEES

(12) راجع في ذلك : RENE COURTIN :
COURS RONEOTYPE, 1957/1958, p. 20.

(13) وتسمى هذه النظريات THEORIES DE FONCTIONNEMENT

(14) راجع في شأن هذا التعريف

F. PERROUX - POUR UN APPROFONDISSEMENT DE LA NOTION DE LA STRUCTURE,
IN ; MELANGES WITMEUR, Paris 1939.

(15) ويلحق بتعريف البروفسير بيرو التعريف الذي وضعه البروفسير لهوم . راجع في هذا الشأن :

J. LHOMME - LA NOTION DE STRUCTURE SOCIALE.
IN revue de Sciences économiques, Liège, 1949.
MATERIAUX POUR UNE THEORIE DE LA STRUCTURE ECONOMIQUE.
Revue économique, nov. 1954.

(16) ومن أهم التعريفات تلك التي قال بها E. WAGEMANN, J. AKERMAN

راجع في هذا الشأن البروفسير A. MARSCHAL :

SYSTEMES et STRUCTURES ECONOMIQUES, P. U. F, Paris, 1959.

(17) راجع مؤلف البروفسير A. MARSCHAL السابق الاشارة اليه .

(18) ويطلق عليه بالفرنسية VARIABLE

(19) ويطلق عليه بالفرنسية RELATIVISME

(20) ويلاحظ أننا قصدنا بذكر الخصائص العامة عدم الخوض في التفاصيل الجزئية والمناقشات التي اقترنت بها تاركين كل ذلك للبحوث والدراسات الخاصة .

(21) راجع مؤلف البروفسير أندريه مارشال السابق الاشارة اليه .

(22) ونخص بالذكر M. CLEMENS راجع تقريره لمؤتمر الاقتصاديين الناطقين باللغة الفرنسية والمنشور تحت عنوان :

PROLEGOMENES D'UNE THEORIE DE LA STRUCTURE ECONOMIQUE. Revue d'Economie Politique, nov. déc. 1952.

(23) وهذا التصنيف قال به البروفسير كلمنس ، المرجع السابق ذكره .

(24) ويطلق على التوافق الهيكلي بالفرنسية اصطلاح :

COMPATIBILITE STRUCTURELLE

(25) ويطلق على التوازن الهيكلي بالفرنسية اصطلاح EQUILIBRE STRUCTUREL

(26) وتعبيرات « القوى المحركة » او « القوى المستقلة » ترادف بالفرنسية اصطلاحي FORCES AUTONOMES - FORCES MOTRICES على التوالي وقد قال بهما البروفسير جوهان اكرمان . راجع في هذا الشأن :

J. AKERMAN - «STRUCTURES ET CYCLES ECONOMIQUES» . II tome, Paris, 1955-1957.

(27) وهذا الاصطلاح الذي اطلقناه يمكن تسميته بالفرنسية :

STRUCTURES MOTRICES

(28) والواقع ان بعض الباحثين قد عددوا الكثير من الهياكل المتحركة فقد ذكر البروفسير J. AKERMAN ثمانية منها وهي : التقنية ، السكان ، حركة الفكر، التغيرات السياسية ، نمو الائتمان ، تزايد التكتلات الاجتماعية ، تطور العلاقات بين الزراعة والصناعة ، التغير في توزيع الدخول . غير أن البروفسير A.MARSCHAL قد حصر الهياكل المتحركة في الثلاثة الاولى فقط على اعتبار انها الهياكل المتحركة الاساسية وما عداها يمكن الحاقه بها او اعتباره تابعا لها . راجع في هذا الشأن A. MARCHAL المرجع السابق ذكره ص 414 وما بعدها .

(29) وهذه الصفة يطلق عليها بالفرنسية L'INTERDEPENDANCE أي ان كلا من هذه الهياكل يستند الى الاخرى بصورة متبادلة .

(30) أما بالنسبة لطريقة عمل الهياكل المحركة في الدول النامية ، فقد اعددنا لها دراسة خاصة . راجع في هذا الشأن رسالتنا :
«INTERRELATIONS ENTRE SECTEUR PUBLIC ET SECTEUR PRIVE DANS LES PAYS EN VOIE DE DEVELOPPEMENT», paris 1969.

(31) راجع في شأن هذه المخترعات وتطبيقاتها مؤلف البروفسير السابق الاشارة اليه . وكذلك مؤلف البروفسير J. AKERMAN السابق ذكره .

(32) وهو مذهب ينسب الى تيلور TAYLOR المهندس المنظم الامريكي الذي وضع تنظيما قاسيا للعمل على أسس علمية وعملية .

(33) ونعني به بالفرنسية LA PSYCHOTECHNIQUE INDUSTRIELLE

(34) ويطلق على هذه الفئة اصطلاح INGENIEURS D'ORGANISATION

(35) ويطلق عليها بالانجليزية PUBLIC RELATIONS

(36) ونعني بها بالفرنسية ATELIERS AUTOMATISES

(37) راجع في هذا الشأن مؤلف البروفسير J. AKERMAN المرجع السابق ذكره .

(38) راجع في شأن هذه الهياكل مؤلف البروفسير J. AKERMAN السابق الاشارة اليه :

(39) راجع في شأن هذه التقديرات مؤلف البروفسير A. MARSCHAL السابق الاشارة اليه

(40) وهذا الجدول مستخرج من مؤلف البروفسير LEON DUPRIEZ,
«LES MOUVEMENTS ECONOMIQUES GENERAUX», 2ème tome Louvain 1947.
وقد عرضه البروفسير A. MARSCHAL في مؤلفه السابق ذكره ص 424 :

(41) راجع في شأن هذه الاساليب وشروط استخدامها مؤلفات البروفسير :
ALFRED SAUVY. «THEORIE GENERALE DE LA POPULATION», 2 tome Paris, 1952 - 1954.
«DE MALTHUS A MAO-TSE-TOUNG», Paris 1958.

(42) نعني بهذا التعبير بالفرنسية ETAT LAICISE

(43) راجع ما سوف يلي بخصوص الآراء والمذاهب الاقتصادية .

(44) وهذا الفكر تزعمه التقليديون المتشائمون الانجلو سكسون ويعرفون بالفرنسية :
LES CLASSIQUES PESSIMISTES ANGLO-SAXONS.

(45) والفلسفة الهيجيلية نسبة الى الفيلسوف الالماني هيجل HEGEL الذي تتلمذ عليه كارل ماركس .

(46) وذلك في أعقاب الثورة البلشفية التي أطاحت بالنظام القيصري في اكتوبر عام 1917 .

(47) نسبة الى لورد كينز LORD KEYNES الاقتصادي الانجليزي المعروف .

(48) راجع في شأن هذا الصراع وانعكاساته على العالم الثالث مؤلف البروفسير :
F. PERROUX - «DE L'AVARICE DES NATIONS A UNE ECONOMIE DU GENRE HUMAIN», Dijon 1952.

(49) « المفارقة » يقابلها بالفرنسية اصطلاح DESAJUSTEMENT

(50) « التوتر » يقابله بالفرنسية اصطلاح TENTION

(51) التآلف او الوفاق يقابلهما بالفرنسية اصطلاح ADAPTATION

(52) راجع ما سبق أن بيناه بالنسبة لهذه الهياكل .

(53) ويعرف تحول الهياكل بالفرنسية تحت اصطلاح
TRANSFORMATION STRUCTURELLE

(54) ويصطلح على تسميته بالفرنسية EVOLUTION PROGRESSIVE

(55) ويعرف بالفرنسية تحت اصطلاح MUTATION BRUSQUE

(56) ويقابلها بالفرنسية اصطلاح MARGE DE TOLERANCE

(57) راجع في تطبيقات هذه الحالة مقال الاستاذ : ROLAND TAVITION
«LES PROCESSUS DE DISTORTIONS ET D'ADAPTATION STRUCTURELLES DANS L'ECONOMIE FRANÇAISE DEPUIS 1914».
Revue économique, septembre 1958.

(58) وتؤثر نوعية النظام على نوعية التحول الهيكلي الذي يتم في اطاره ويؤثر فيه .
راجع في هذا الشأن مؤلف الاستاذ : MARC PENOUIL
«TYPES DE CAPITALISME ET TRANSFORMATIONS
DES STRUCTURES».
Revue économique, sept. 1959.

(59) ويعرف بالفرنسية تحت اصطلاح MUTATION BRUSQUE

(60) واسمه * VINCENT DE GOURNAY

(61) راجع في هذا الشأن مؤلف البروفسير A.MARCHAL وكذلك مؤلف البروفسير J. HOUSSIAUX السابق الاشارة اليهما .

(62) ويعرف التنافر الذي يعود الى طبيعة الهياكل ذاتها تحت اصطلاح :
«OPPOSITION DE NATURE»

(63) ويعرف التنافر الجدلي تحت اصطلاح «OPPOSITION DIALECTIQUE»

(64) ويلاحظ ان التنافر الطبيعي يصعب حله ان لم يكن من المستحيل حله اما التنافر الجدلي فيمكن حله بشكل او بآخر .

(65) ويطلق عليه بالفرنسية اصطلاح «ERREURS COMPENSEES».
راجع في هذا الشأن M. MERLEAU - PONTY المرجع السابق ذكره .

(66) ويطلق على هذه الظاهرة ــ اي ظاهرة بروز عناصر هيكلية جديدة في كنف النظام القديم ــ اصطلاح PREVIVANCES DES STRUCTURES

(67) ويطلق على هذه الظاهرة ــ اي ظاهرة بقاء بعض العناصر الهيكلية القديمة في كنف النظام الجديد ــ اصطلاح SURVIVANCES DES STRUCTURES

(68) راجع في تطبيقات هذا التحليل رسالتنا في العلوم الاقتصادية
«INTERRELATIONS ENTRE SECTEUR PUBLIC ET SECTEUR PRIVE
DANS LES PAYS EN VOIE DE DEVELOPPEMENT».
السابق الاشارة اليها حيث استعملنا اسلوب التحليل الهيكلي لاول مرة بالنسبة لتفسير تطور الاقتصاد المصري من ص 133 الى ص 196 .

القانون العام والوحدة العربية

الدكتور محمد الرويفي

كانت سويسرا دولة اتحادية Confédération تنظمها معاهدة "وستيفاليا" المبرمة سنة 1648 التي أنهت الحرب ثلاثين سنة ، وفي مؤتمر "ڤيينا" لعام 1815 التي كانت الغاية منه إعادة التوازن الدولي إلى ما كان عليه بعد الثورة الفرنسية وحروب نابليون تحولت سويسرا إلى دولة فيدرالية رغم أنها تحتفظ باسم Confédération بمقتضى دستوري 1848 و 1874 والولايات المتحدة الأمريكية التي عاشت في شكل كنفدرالي من عام 1776 إلى عام 1787 أقرت دستورا فيدراليا عاما في فيلاديفيا .

هذا إطار لموجز القاعدة القانونية الذي هو موضوع هذا البحث ، والآن ، من هم هؤلاء العرب الذين أرسوا أسس هذه القاعدة الجديدة والذين يعيشون في منطقة تمتد من المحيط الهندي وخط الاستواء جنوبا والخليج العربي وإيران شرقا وجبال طوروس والشاطيء الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط شمالا والمحيط الأطلسي غربا وهي مساحة شاسعة تزيد عن أربعة مليون وربع مليون ميلا مربعا أي أنها توازي مساحة الولايات المتحدة الأمريكية بولاياتها الخمسين والمكسيك مجتمعة ، هؤلاء العرب الذي يقرر آخر إحصاء للأمم المتحده أن عددهم يقرب من مائة مليون نسمة .

هؤلاء العرب هم الذين ذهب المتوفرون على تاريخهم الجنسي إلى أنهم يكونون الجنس الأسمر في رأي " إبليش سميت" أ الجنس " الابيض المتوسط في رأي

سيرجي" وهم ثمرة الهجرات البشرية التي عبرت البحر الأبيض المتوسط على البرازخ التي كانت تصل في العصرين الحجري القديم والحديث شمال إفريقيا بجنوب أوروبا عن طريق جبل طارق وصقلية وقد تحولوا إلى ذلك الجنس المستكمل لقومه الخاص في خلال السبعة ألف عام الأخيرة من تاريخ العالم . أي الفترة التي تسمى عصر ما قبل الأسرات Prodynostie وهذا الانسان الذي عاش في هذه المنطقة التي تتكلم العربية منذ ذلك العهد البعيد كان يعيش فيها أيضا في الفترة اللاحقة لانقضاء العصر الجليدي عقب الطور الأخير من هذا العصر الذي يسميه "بنش" بطورورم الجليد وهو طور انحسر فيه الجليد نهائيا ويقدرون مدته بأنه كان منذ أقل من عشرة آلاف سنة ويذهب العلماء إلى أنه في هذه الفترة كانت الصحراء الكبرى وبلاد العرب فيما يظهر . تجودهما الأقطار في الشتاء ويكثر فيهما الكلأ ...

ومن الفروض الوقتية المفيدة القول بظهور الانسان الحديث في أثناء هذا الطور من البرد وفي وسط هذه المراعي الواقعة بين ساحل الصحراء الكبرى على المحيط الأطلسي وبين جبال فارس .

وكان المعتقد أن العصر الحجري القديم الأعلى الذي يعود إلى ما قبل الألف الخامسة قبل الميلاد يمثل أول دور ظهر فيه الانسان العاقل ولكي يتبين أخيرا أن من الجائز أن يكون ظهور هذا النوع من الانسان قد سبق ذلك فقد اتضح من الحفائر العميقة في شمال الدلتا وجود أوان خزفية وطوب مصنوع كما وجدت جمجمة في دمياط بمصر على عمق عشرين أو ثلاثين مترا وبناء على التقديرات المعقولة يكون أولئك البناؤون قد عاشوا هناك من ست عشرة ألف سنة ولما كانت الحفريات في شبه الجزيرة العربية لم تسفر حتى الآن عن أية آثار بشرية أقدم عهدا من هذا العصر الذي كشفت عنه الحفريات في وادي النيل فإن العلماء المتوفرين على دراسة تاريخ العرب قد

تساءلوا هل نشأ الجنس العربي في شمال إفريقيا ثم هاجر إلى شبه الجزيرة العربية وعلى وجه أدق إلى جنوب شبه الجزيرة العربية فأنشأ دويلات الجنوب وهي دويلات المعينيين والقحطانيين والسبايين والحميريين وهي الدويلات التي نقل عنها المسند الحميري .

أو أن عرب شبه الجزيرة العربية نزحوا إلى شمال إفريقيا فكانوا أجداد الجنس العربي الذي يعيش فيها الآن . ولقد أجابوا على هذا السؤال فقررت غالبيتهم أن أقدم وطن للعرب الذين أرسوا قواعد لغتهم السامية هي إفريقيا ، ويذهب بلجريف Pelgrave إلى أن أوجه الشبه الجنسية القوية بين العرب وبربر شمال إفريقيا وخاصة شكل الفك وركبة الساق إلى جانب تشابه اللغة وانسجام التجاوب الاجتماعي تقود إلى النظر بأن الساميين الصميميين ذى شبه الجزيرة العربية قد قدموا من أصل إفريقي لا أصل أسيوي ثم إن برنيتي Brintan احتضن هذه النظرية منذ عام 1890 أن يحدد بطريقة أكثر دقة المكان الذي نزح منه العرب الساميون في شمال إفريقيا وأسند إلى أن التقاليد الشعبية ودراسة اللغات المقارنة وعلم الآثار والحفريات كلها تشير إلى وديان الاطلس في المغرب على أنها منبع الهجرات البشرية العربية ، كما أن كين Qeane يرى أن موريتانيا هي الوطن الأصلي ومركز التعرف لا للحاميين والساميين فحسب بل لكل الجنس القوقازي وعلى ذلك يقطع بأن العرب من أصل إفريقي كما أنه يرى أن جنوب شبه الجزيرة العربية هو أول موطن للساميين العرب بعد هجرتهم من الارض الافريقية وهذه النظرية التي تذهب إلى أن الموطن الأصلي للعرب كان في إفريقيا لا تتعارض كما يرى رئيس سميث R. smith مع النظرية التي تذهب إلى أن شبه الجزيرة العربية كانت أول موطن أسيوي لهم وكانت النقطة التي تفرقوا فيها فإذا كانوا قد نشأوا أصلا في إفريقيا فإن النظرية التي تذهب إلى أن شبه الجزيرة العربية كانت مهدهم بعد هجرتهم من القارة المجاورة تدعم وتقوى إلى حد كبير .

وأخيرا فإن ناشانيل سميت N. schmidt يرى أن العرب الساميين ربما دخلوا أرض الجزيرة العربية عن طريق أرض بونت الحبشة والصومال وأنهم عاشوا في شبه الجزيرة العربية مدة طويلة تكفي لكي يتلقوا مميزاتهم الخاصة. وقد تفرع عن هذا البحث العلمي بحث قد لا يكون له وثيق الصلة المباشرة بهذا الموضوع ولكن من المفيد جدا الاشارة إليه إشارة موجزة وسريعة وهو إذا كانت الدراسات الخاصة المستندة إلى علم الأجناس تؤيد فكرة أن شمال إفريقيا هو الوطن الممهد للعرب الساميين فإن من الخير إذن أن نسأل ماذا يمكن أن تنبئنا الدراسات الانثروبولوجية أي المبنية إلى علم الانسان إذا وجهنا إليها السؤال الأكبر عن أصل الانسان أو على الأقل عن أصل الجنس الأبيض عن وطنه الأول وعن افتراقه عن الأجناس الأخرى.

لقد أجاب الأستاذ ريبلي Ripply على هذا السؤال بأن هناك أدلة مقنعة بأنه ليس هناك جنس أبيض بل إن هناك على الأقل ثلاثة أجناس بيض والذي يهمنا في هذا الموضوع أن أحد هذه الأجناس البيض هو الجنس الأبيض المتوسط الذي سبقت الاشارة إليه والذي يوجد بوضوح في كرسيكا وطردينا وشبه جزيرة لبريا والذي يتمثل بأكثر وضوح في العرب البربر أصل شمال إفريقيا هو جنس أبيض ويعقب بازنون على هذه الحقائق العلمية فيقرر بأن من الأصوب أن يتبع الرأي **الغالب** وأن يوضع **العرب** الساميون مع الأجناس البيض وقد أضاف بازتوه ما سبق أن أشرنا إليه من أن جنوب أوربا قبل نهاية العصر الجليدي كان متصلا بشمال إفريقيا عن طريق جبل طارق أو عن طريق إيطاليا ، صقلية وتونس أو عن طريقهما معا وأن الصحراء الافريقية على الأقل في جزء منها قد غمرتها المياه فانفصل شمال إفريقيا عن جنوبها وظل الانفصال مدة طويلة ولذلك افترقت حياة كل من جزئ القارة الافريقية عن حياة الآخر هذه الحالة انتهت ببدء العصر الثلجي الأخير وأرى من

الممكن أن الجنس الأبيض المتوسط في ذلك الزمان البعيد وتحت تلك الظروف قد تطور وبدأ بتشكيل مقوماته .

ولهذه القاعدة من قواعد القانون العام العربي جذور تمتد إلى فجر تاريخ هذا المشرق العربي فقد ذهب المتوفرون على علم الاجتماع السياسي وعلى تاريخ الحضارات الانسانية الأولى إلى القطع بأن هذا المشرق قد شهد في نهاية حكم امنخنب الثالث تحقق أول شكل من أشكال الوحدة بين شعوب المشرق العربي إذ تدعمت الصلات بين مصر وبابل وهما الدولتان اللتان ينتمي شعباهما إلى الجنس العربي أو إلى جنس البحر الأبيض المتوسط عند "سيرجي" أو الجنس الأسمر عند "بريستيد" ولعل أدق وصف هذا العهد الأول من عهود الوحدة أنه للمرة الأولى في تاريخ العالم تنبه الانسان إلى مزايا السلم العالمي وشعر بفائدة وضع سياسة عامة مشتركة لشعوب العالم وقد خلفت الوثائق الدبلوماسية ما يقطع بالصداقة التي توثقت في ذلك العصر بين الملوك والشعوب (صداقة تغذيها فكرة واحدة ولينبض بها قلب واحد) وتمثل إلى حد الكمال تقدم التطور الروحي نحو نوع من التعاون الدولي فأصبحت وحدة المشرق العربي في عام 1500 ق. م حقيقة تاريخية .

وقد دامت وحدة المشرق العربي الأولى نحو قرنين ونصف قرن (1500 ـ 1250) ق.م وقامت وحدة ثانية في الشرق العربي عندما أخذ العنصر العربي الاسيوي يضفي طابعه على وادي النيل إذ تولى الحكم في مصر أمير كنعاني وبنى البابليون مدينة على مقربة من منفيس أسسها بابل وساد نشاط المدن البحرية الفينيقية وانتقلت المنتجات الفينيقية في صور وصيدا وبيروت وجبل إلى كافة أنحاء المشرق العربي .

وكان ملوك "نينوي" الاشوريين العرب قد استعادوا الأرض التي تتحكم في طرق الهلال الخصيب

وظهر على مسرح تلك الفترة من تاريخ الشرق العربي وعلى الأخص في عهد سارجون الثاني (721 ـ 705 ق م) كما ثبت من النقوش التي اكتشفت أخيرا أسماء باقية إلى اليوم كقبيلة ثمود وقرر "فلبيبر" في صدد ذلك أن من المهم أننا حصلنا على تلك الاشارة إلى العرب وتلك الروح الاستقلالية التي لا تزال العرب يباهون بها وفي بعض تلك النقوش أشار "سارجون" الثاني إلى الهدايا التي تلقاها من ملك عربي (715 ق. م) وأشار خليفة إلى ملك عربي آخر . ثم حل محلهم الكلدانيون العرب واستعادت بابل مكانتها كعاصمة العالم العربي السامي وكان الليبيون قد اندمجوا في القومية المصرية بحكم وحدة الجنس والثقافة .

وتوحدت أقدار المشرق العربي السياسية في وحدة كبرى استمرت قرنا وربع قرن تقريبا (866 ـ 531 ق. م) ولم تنته هذه الوحدة إلا عند ما غزا الفرس المشرق العربي

أما الوحدة العربية الكبرى وهي الوحدة التي حققها العرب المسلمون بعد أن ضموا دويلات الجنوب العربي ودويلات الشمال تدمر ومنازرة والعساسنة بالحيرة والكنديون وبعد أن ساروا إلى حمص ودمشق وحلب والأردن وفلسطين ووصلوا إلى جبال طوروس في عام 636 م ثم ضموا العراق في عام 637 م وإلى برقة سنة 642 م وإلى تونس 647 وإلى الجزائر في سنة 670 وإلى المغرب 682م وقد دامت الوحدة العربية الكبرى نحو ثلاثة قرون كاملة (681 ـ 972) ويكاد المؤرخون الذين توافروا على دراسة تاريخ المشرق العربي يجمعون على أن اتخاذ القاهرة سنة 973 عاصمة للفاطميين الشيعة هو بدء الفرقة بين العرب عقب وحدتهم الثالثة أو وحدتهم الكبرى ؟

أما الوحدة العربية الرابعة فهي وحدة عربية جزئية تحققت بين عامي 1821 ، و 1841 م وقد قرر المؤرخون عند الاشارة إلى هذه الوحدة أن الغرض منها كان إنشاء دولة عربية متحدة .

كما قرروا أن تلك الوحدة قد استهدفت إعطاء الجنس العربي جنسيته الخاصة

وكيانه السياسي وهو جنس له لغته الخاصة وأدبه الخاص وتاريخه الخاص .

وغير خاف أن هذه الوحدة قد ضمت مصر والسودان وكل شبه الجزيرة العربية حتى الخليج العربي وسوريا بحدودها التي كانت قائمة حتى الحرب العالمية الأولى .

ولم تنته هذه الوحدة إلا بتدخل الدول الاوربية العظمى تدخلا مسلحا بعد أن وصلت حدود هذه الدولة العربية ، كما يقرر الأستاذ عزيز خانكي إلى ما يزيد على نصف مساحة أوربا وإنها "جمعت اليمني والحجازي والمصري والسوداني والعربي والسوري واللبناني والدورزي" .

ولعل أدق تلخيص لتبييت السياسة الاستعمارية النية على البطش بهذه الوحدة العربية هو ما ورد في الرسالة التي وجهها لورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية إلى سفيره في إيطاليا واصفا هدف هذه الوحدة بأنها إقامة دولة عربية تضم كل البلاد التي تتكلم العربية وقد لا يبدو هذا خطرا ولكنه يعني تجزئة تركيا وهو أمر لا يمكن أن تقبله لأنها تؤمن طريقنا إلى الهند حيث لا نضمن هذا الأمان من حاكم عربي .

وقد اجتمع مؤتمر لندن في يوليو سنة 1840 وأصدر قرارات من الدول الأوربية فتتت في عهد الوحدة العربية الرابعة .

ولعل من الخير أن نذكر أنه في غمار تلك الوحدة لمع في سماء الشرق العربي اسم كان له أثر باق في تطور الفكر العربي بعد أن اجتمعت قوى الاستعمار الاروبي على وقف الدفاع العربي نحو الوحدة وهو رفعت الطهطاوي وارتبط اسمه بالانطلاق الرائع للحركة الأدبية والعلمية في الفكر العربي الحديث .

وقد تطور وعي الوحدة العربية تطورا سريعا عقب الوحدة العربية الرابعة ولو أنها وحدة جزئية وبدأت هذه الحركة تلبس ثوبا من الوحدة الاسلامية وبعث مدرسة أحمد بن تيمية 1262 ـ 1328 في التضامن الاسلامي ، ولا شك أن المستشرقين الذين توفروا على دراسة فلسفة ابن

تيمية التي ضمنها كتابه "السياسة الشرعية" محقون في وصف آرائه السياسية بأنها القانون العام لأبن تيمية "فقد بحث هذا المفكر العربي الحنبلي الذي ولد في حران على مقربة من دمشق أسباب ضعف العرب في وقته .

وبنى عوامل الفرقة في بعض المذاهب الاسلامية المختلفة وفي غلو بعض دعاتها وفي أخطاء بعض المجتهدين والتمس في اللغة العربية أساسا لوحدة المجتمع الاسلامي وكان يرى الوحدة الاسلامية في التضامن العقائدي لكل دولة إسلامية . فكل دولة مع احتفاظها بسيادتها تحس بأنها عضو في جهاز دولي أكثر أي أن المجتمع الأمثل عند أبن تيمية هو إحساس الدول الاسلامية الفطري باتحاد كونفدير إلى بين الدول الاسلامية ولعل أظهر مثل لمدرسة ابن تيمية هو محمد بن عبد الوهاب (1703 ـ 1792) ومحمد بن سعود (1735 ـ 1766) وهما قطبا الوحدة الاسلامية الحديثة . ثم تطورت هذه الوحدة إلى وحدة إسلامية منظمة ، ثم تطورت 1859 وتفرع عنها الاشعاع الثاني للوحدة الاسلامية عندما بدأ جمال الدين الافغاني من (1839 ـ 1897) ومحمد عبده (1840 ـ 1905) يصدر ان صحيفة (العروة الوثقى) في باريس ويدعون إن المسلمين في الأراضي الخاضعة للنفوذ البريطاني إلى التحرر وكانت الوحدة الاسلامية عند الافغاني وحدة ثورية فقد عاد إلى شكل الدولة الجمهورية في البلاد. الاسلامية ولكنها كانت عند محمد عبده برنامجا إصلاحيا متسما بطابع الوحدة الاسلامية .

ولعل المفكر العربي الذي انعقد الاجماع على أنه طليعة العروبة السياسية هو عبد الرحمن الكواكبي (1848 ـ 1902) الذي تأثر كما يقرر الأستاذ أحمد أمين بالفيبري وقدو ليتر ورسو ومنتيكسو . ولقد وجه الكواكبي نداءه إلى العرب مسلمين وغير مسلمين افتداء مثل النمسا والمجر والولايات المتحدة الامريكية حيث يود التضامن القومي دون تفرقة بين الاديان وتمييز

بين المذاهب ، وضمن آراءه السياسية في الدعوة الى الوحدة كتابه "طبائع الاستبداد وأم القرى" وفي الكتاب الأخير تخيل مؤتمرا يستهدف يقظة الاسلام انعقد عام 1818 وضم مندوبين عن جميع الدول والأقطار واستصدر من هذا المؤتمر قرارات لتحقيق الوحدة الاسلامية واقترح أن يكون المقر الرسمي للجمعية الدائمة التي تعنى بإصلاح المسلمين في بور سعيد أو الكويت على أن ينقل فيما بعد إلى مكة .

وقد تطورت فكرة الوحدة الاسلامية بعد ذلك تطورا سريعا إلى التمهيد لارساء القاعدة الجديدة من قواعد القانون العام العربي ومر هذا التطور في مرحلتين خلال الربع الأول من القرن العشرين أولاهما مرحلة الخلاف على الوظيفة السياسية للخلافة الاسلامية وهل هذه الخلافة تمت بأصل قواعد الدين أو أنها ظاهرة سياسية طرأت على العرب بعد وفاة الرسول وظهر في ذلك الوقت كتاب "الاسلام وأصول الحكم "لعلي عبد الرازق عام 1925 . كما صدرت رسالة عبد الرازق التي أسماها "الخلافة وتطورها" وقد كتب مقدمة هذه الرسالة الأستاذ أدوار لا فير ناظر مدرسة الحقوق وعميد كلية الحقوق المصرية الأسبق بجامعة ليون فيما بعد ونوقشت كرسالة دكتورة في القانون العام بتلك الجامعة وقد استعرض المؤلف في هذه الرسالة مذهب الوحدة الشرقية .

وقد ظهر مذهب الوحدة الشرقية بإنشاء الرابطة الشرقية عام 1921 ثم بدأ متكاملا مستوفيا مقوماته في مؤتمر التضامن الأسيوي الافريقي الذي انعقد بباندوج عام 1955 ومؤتمر تضامن الشعوب الاسيوية الافريقية الذي انعقد سنة 1958 .

ولكن القاعدة الجديدة في نطاق القانون الفقهي قد استقرت في الاعوام الاخيرة استقرارا يبدو جليا في الدراسات والابحاث العديدة التي تصدر بمختلف اللغات عن الوحدة العربية والتي تكفي ان نشير الى المحاضرة التي ألقاها جورج لمارتون الاستاذ بجامعة هارفارد سنة 1950

بمكتبة الكونجرسي إذ قرر عن هذا الشرق العربي الذي يشهد مولد القاعدة القانونية الجديدة : "ان شعوب الشرق سبق لها ان قادت العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الانساني طوال ألفي سنة على الاقل قبل ايام اليونان ، ثم في العصور الوسطى مدة اربعة قرون تقريبا وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب او البعيد" .

المسرح عند العرب

(3)

عبد الكريم التواتي

في الفصلين قبل هذا تحدثنا عن المفهوم العام للتمثيل ، وانتهينا في الفصل الأول إلى القول بأن من المؤكد اعتبار هذا الفن قاسما مشتركا بين مختلف الأناسي . ووقفنا في الفصل الثاني على بعض مجالات وأبعاد المسرح اليوناني والمسرح لدى أبنائهم ـ فكريا ـ الرومان ولدى حفدتهم الأوروبيين . ونحاول في هذا الفصل أن نتعرف على ملامح المسرح العربي قديما وحديثا ، ونعرف ما إذا كان العرب قد عرفوا حقا المسرح في معناه التقني ، أو أنهم إنما عرفوا بعض صوره العامة ، وهل في الإمكان الوقوف على بعض المعالم والآثار التي قد تكون تكأة لمن يحاولون أن يثبتوا للعرب مسرحا ما .

وكان الفصل قبل هذا بالخصوص نظرة وجيزة جدا على بعض جوانب التاريخ المسرحي عند من ذكرنا من الإغريق والرومان وأوروبا . فما حظ العرب في هذا التراث ؟ وما مقدار مساهمتهم فيه قديما وحديثا ؟ ثم ما هو مدى استجابتهم لمعطيات هذا الفن وأبعاده ومجالاته ؟

يكاد الباحثون العرب ونقادهم في الفن المسرحي يجمعون على أن العرب في باديتهم ، وفي صحرائهم المترامية الاطراف ، وقبل اتصالهم بالعوالم الخارجية عن طريق الفتوحات الاسلامية ، لم يكن لهم أدنى إلمام بهذا الفن . ورغم ما اشتملت عليه آدابهم من مجالات إنسانية ، في الإطار الذي أتاحه لهم

جوهم الصحراوي الصاحي على الدوام ، وما تزخر به هذه الصحراء من هواجس الجن والشياطين ، وأرض عبقر ، وما كانت أخيلتهم وأوهامهم تصوره من أشكال وأحجام لهذه المخلوقات ، وما تفتقت عنه عقولهم التي من المؤكد أنها كانت تمتاز بالصفاء والدقة في إدراك المرئيات والمحسوسات كما تمتاز إحساساتهم بالرفاهة الخارقة ، أقول رغم كل ذلك فإن من المحقق لدى النقاد المسرحيين حتى من العرب أنفسهم أن العرب لم يعرفوا أي شيء اسمه الدراما أو المسرحية . ويؤكد هؤلاء النقاد هذه الحقيقة في الوقت الذي يثبتون فيه وجود أسطورة عربية ، وقيام عوالم زاخرة بشتى الأشباح والعفاريت ، ووجود كل العوامل التي قيل أنها مما ساعد على قيام دراما في اليونان ... الشيء الذي يجعلنا لا نجزم بأن الأساطير والخرافات الغيبية كانت السبب في نشأة المسرح اليوناني ، ويدعونا إلى الاعتقاد بأن هناك أشياء أخرى غير الأسطورة ساعدت على قيام تلك المسرحية التي كادت تحيط بالجانب الأكبر من الشؤون الإنسانية العقلية والدينية ... فإذن لا حتمية بين الأساطير الميثولوجية وحياة مسرحية ، والعرب ـ والواقع يشهد بذلك ظلوا بعداء عن هذه العوالم ، بل ولم يتعرفوا إليها حتى بعد انسياحهم الأخير عبر العالم ، إثر الدعوة الاسلامية ، تلك الانسياحة التي هيأت لهم ظروفا مواتية ، وجديدة لربط اتصالاتهم بالعوالم الخارجية .

بل وحتى عند ما احتكوا بعقليات وفلسفات الأمم اليونانية والفارسية والصينية والهندية ـ وهي كلها ذات جذور في عالم المسرح ـ لم يثبت أن عالجوا أمثال هذه الموضوعات فيما نقلوه عن تلك الأمم ، ولا فيما حاولوا خلقه وابتكاره ، بعد أن أطلعوا على كل ما حققته تلك الأمم تقريبا في مناحي الفكر والعقل ، وربما الأساطير ، فإن كتابا مثل كليلة ودمنة ـ وهو كتاب يعالج الأسطورات الحيوانية كان من بين الكتب التي عالجها العرب بالترجمة

والدرس والتحليل ، وهي لا تخلو من شذرات دراميــة ، ومع كل ذلك فقد أمسك العرب عن الاقتباس ، أو النقل ، أو الترجمة في ميدان المسرح .

... وحتى عند ما نأخذ في دراسة الآثار العربية ، في ميدان الفكر ، أي الشعر وبعض القصص وشذرات من أيامهم وحروبهم ووقائعهم قد لا نجد الشجاعة الكافية والجرأة اللازمة لادعاء أن أدب العرب وشعرهم ضم بين أبوابه شيئا يمت إلى المسرح بصلة .

وقصة عنترة مع عبلة التي أشار إليها الشاعر عنترة في معلقته ، ومعلقة طرفة حيث الاشارة إلى الحروب التي كانت بين مختلف القبائل العربية وقبيلته ، ومعلقة زهير ، وقصيدة أبي تمام في فتح عمورية ، وقصائد المتنبي في حروب سيف الدولة الحمداني ، ومقامات بديع الزمان الهمذاني ، ومقامات الحريري ، كل هذه الآثار الأدبية الخالدة لم تكن ذات نسب ما بدنيا المسرح والدراما ... فما هو السبب في هذا الموقف السلبي الذي وقفته العقلية العربية من هذه الميادين التي لا يمكن إنكار اتصالها الوثيق بالإنسان ؟ فهل كان الإسلام ـ وهو دين الوحدة والتوحيد ، وعدو الأصنام والوثنية ـ هو الذي حارب أوحال دون إقدام العرب على ترجمة الآثار اليونانية الخاصة بالمسرح ؟ قد يكون ، ولكن لم لم يتعرف العرب على تلك الآثار يوم كانوا عباد أصنام وأوثان، وكهان وسدنة أصنام ؟ فلم تكن تعوزهم يومئذ ـ كما قلنا ـ بعض العناصر الأساسية لقيام حياة مسرحية ، فقد كانت لهم منتديات وأسواق ، وكانت لهم أساطير وخرافات ؟

... ويرى الدكتور محمد مندور تعليلا لهذه الظاهرة ـ وهو يربط موقف العرب في هذه القضية بالذات ، قضية المسرح ، بموقف الفراعنة المصريين القدماء ـ بأن الأمر يرجع أولا وبالذات إلى اختلاف عقليتي الشعبين : اليوناني ، والمصري مع عقلية الشعب العربي ؛ يقول مندور ، فبينما يمتاز الفكر اليوناني بالولع بالانسان ، والإيمان

به ، واتخاذه محور الحياة ، بل ومحور آلهة الحياة ، إذا بفكر غيرهم من الامم والشعوب ، بما في ذلك الشعب المصرى القديم أى الفرعوني ، يضع الانسان في مرتبة دون مرتبة الآلهة ، اذ اعتبر مفكروا غير اليونان الآلهة قوى خارجة عن سلطان الادراك البشرى ، وخارج مجال تفكيره . واعتبروا أن الآلهة هي في الحقيقة والواقع المسيطرة على الحياة وعلى كل شيء فيها ، ومن ثمة وقفوا إزاء هذه القوة اللامنظورة ـ قوة الآله ـ موقف الحائر ، أو المستسلم الخائر .

ثم هناك المسارب التي سارت فيها العقليتان : أي اليونانية وغيرها ، وانتهجتها الفكرتان ، ففي الوقت الذي كان فيه الفكر اليوناني يتخذ من كل مظاهر الحياة وظواهر الكون مادة خصبة لإجراء أبحاثه ، والقيام بتجاربه واستنتاجاته ، وبالتالي فهو يخضع كل شيء لمحك التجربة ، متخذا النقد والتمحيص الوسيلة لفهم ما يحيط به ، إذا بالفكر العربي يكاد ينحصر في مجال الخطابة الرنانة ، والوصف الحسي المنبعث عن جو الصحراء الصافي الذي يغمر أجواء نفس العرب بأحاسيس الحياة الحرة المنطلقة ، وأحلام الإستقلال الذاتي الذي لايتقيد إلا بما يحقق استمراره ، ومضيه في التنقل من مكان إلى مكان ، بحثا عن مرعى ، أو تنقيبا عن كلإ وعشب ، فكان هذا الحداء ، وكان هذا الغناء البدوي ، وكانت الصحراء مما لم يساعد العربي على بناء حياة الإستقرار ، التي هي نواة المدنية والحضارة والتفكير .

... ثم إن الصحراء الشاسعة كانت تتيح للعربي الآفاق الواسعة للتبديل والتنقل في المقام ، فلم يكن مجاله المكاني ضيقا حتى يخلق من خياله أجواء أكثر اتساعا وأوسع مجالا .

ولم يكن هذا العربي بالتالي رجل خيال مركز محموم يحلق كسكان الجبال والغابات ، حيث يسبح الخيال إلى القمم ، أو ينطلق بين الدروب الكثيفة الأشجار ، فيتصور هناك أنواعا من الكائنات التي

لا يراها الحس ، أو يحلق بخياله المجنح ضروبا من الحيوانات الأسطورية والقصص الخارقة ...

ثم من غير شك أن خاصتي النغمة الخطابية ،والوصف الحسي ، اللتين يمتاز بهما الشعر العربي ، لا يمكن بوحدهما أن ينتجا شعرا دراميا يقوم على الحوار المختلف النغمات ، وعلى خلق الشخصيات المتباينة وتصوير المواقف والأحداث المشتبكة .

... ولكن إذا كان العرب لم يعرفوا دراما ولا مسرحا ؛ فإنهم ليسوا وحدهم في هذا الفقر الفني ، إذ أن غيرهم من أمم العالم التي كانت قبل اليونان ، أو عاصرت اليونان ، فيما يتحدث عنه الواقع - إذ التاريخ لم يثبت خلاف هذا الواقع - لم تعرف هي الأخرى مسرحا ولا دراما ،

... وحتى غير اليونان من دول أوروبا لم تستطع أن تنتج أدبا مسرحيا ، على غرار ما فعل اليونان . الشيء الذي يجعلنا لانقتنع بنظرية الدكتور مندور التي أشرنا إليها سابقا ، والتي تفترض الفروق في العقليات ، وتتخذ هذه الفروق أسبابا لتأخر العرب عن اليونان في مجال الفن المسرحي ، ذلك لأنه إذا كانت هناك حقا بعض الفروق ، أو الكثير منها بين العرب واليونان ، فليست هناك فروق في المناخ والتكوين الجيولوجي بين اليونان وباقي دول أوروبا ، أو دول البلقان بصفة أخص . وهذا ما يدعو إلى الإلحاح في مواصلة الدرس والبحث عن الأسباب اللامرئية التي جعلت الشعب اليوناني وحده يتفوق من بين سائر شعوب الدنيا في هذه الناحية ثم أفلا يمكن أن تكون معجزة الاهية ؟ .

ثم إذا كان لهذا السبب أو ذاك ، من العادات والتقاليد والمناخ . ما يبرر هذا الفقر المدقع الذي سجله العرب في آدابهم الإنسانية مما يجعلنا نجزم بانعدام المسرح عندهم ، فهل كان هذا هو نفس الوضع بالنسبة لمصر الفرعونية ، أي للآداب الفرعونية ؟ فلئن صح أن يقال أن عقلية العرب القاحلة من الأخيلة ، ومن الأساطير خلو الصحراء من الربيع والأزهار ، فليس

بصحيح أن يقال هذا عن جو مصر حيث يقول فرعونها ، وكما جاء في القرآن - أليس لي ملك مصر ؟ وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ "ولهذا فليس بصحيح أن يقال عن أرض مصر أنها تربة غير صالحة لإنتاج أمثال الآداب المسرحية كتلك التي عند اليونان .

... والنقاد المصريون المحدثون ، عندما جوبهوا بهذا السؤال ، حاول بعضهم إيجاد مبررات ، كما فعل بإزاء الموقف العربي ، بينما حاول البعض الآخر أن يتخذ من أسطورة "أزوريس" أو قصة الخير والشر ما يساند الإدعاء بأن مصر القديمة قد عرفت نوعا من الدراما ، وشكلا من أشكال المسرح وإليكم هذا النص :

"إلا أن ثمة بعض الشواهد المعاصرة لهذا الرقص والرقص كما سلف أن ذكرنا بداية ونواة المسرح اليوناني قد تقوم دليلا على وجود صورة واحدة من المسرحية الدينية ، لقد كان "أوزوريس" الاله المصري الرئيسي ، أو الملك الاله الأسطوري ، شخصية أساسية لمسرحية من مسرحيات "الالم" مشابهة تشابها ملحوظا لتلك المسرحيات التي لاتزال تمثل في القرن العشرين . وفي مستند يقدرون أنه يرجع إلى سنة 2000 ق م ، نجد خلاصة لطقس من الطقوس الدينية والمسرحية ، كما كانوا يؤدونه في تلك الأيام ، وكان الغرض الذي يهدفون إليه هو نفس الهدف الذي تمثل من أجله مسرحيات آلالام في أيامنا هذه في مدينة "أوبر أمركان Ober-Amergan" الألمانية ، وفي بلاد التيرول ، وفي مأساة آلام الحسين التي تمثل في إيران .

أما ذلك العرض الذي تمثل من أجله تلك الروايات ، أو التي من أجله لاتزال تمثل إلى اليوم ، فهو أن تظل حية في أذهان المؤمنين آلالام التي كان يقاسيها الاههم أو بطلهم المحبوب، وانتصاره على قوى الشر التي قامت بتعذيبه . أما الأساس التاريخي للتمثيلية المصرية فهو ماياتي لقد اغتيل "أوزيريس" ، بطريق الغدر والخيانة ، بعد أن ولي أمر البلاد بالحكمة والعدالة وقطع جسمه إربا ، ودفنت كل قطعة منها بعيدا جدا عن القطع الأخرى ، ولكن زوجته "إيزيس" وابنه

"حورس" انتقما له من القاتل، وجمعا جثمانه ودفناه في مكان واحد ليحج إليه الناس. ثم استردا عرش البلاد بعد ذلك و، وأنشآ الديانة "الأوزيرية" أي عبادة الناس "لأوزيريس" وقد أصبحت مسرحية الآلام هذه - وهي المسرحية الوحيدة التي تستعيد آلام أزوريس وتؤكد رجعته إلى الحياة - من الأحداث الموسمية التي تمثل سنويا (1) ذلك هو النص الذي يحاول به بعضهم إثبات وجود فكرة مسرحية وعمل مسرحي لدى المصريين القدماء، ولكن الواقع أن هذا النص ينقصه الشكل العام المتبع في المسرح، فليس بكاف أن تكون هناك حادثة تشير إلى ما تشير إليه بعض المسرحيات الدينية في أوروبا، وبالقرون الوسطى ليقال أنها مسرح، وإنما يجب أن تكون هناك بداية وعقدة وعرض ونهاية، وأن يصب كل ذلك في قالب مسرحي من القوالب المعروفة في مثل هذه المجالات وهذا ما قد يجعلنا نميل إلى الفكرة القائلة بأن المصريين أيضا لم يعرفوا مسرحا بالمعنى اليوناني القديم، أو بالمعنى المسرح الديني لما عرفت به الكنيسة أيام غلبت على أمرها، ورأت أن لا بقاء لتعاليمها ورسالتها بدون عرضها في قوالب مسرحية حتى يكون الاتباع منها أعلم، وتكون هي في نفوسهم أرسخ وأثبت.

الإسلام والمسرح

ثم من الإنصاف الاعتراف بأن جوهر الدين الإسلامي لا يمكن أن يتعارض والتمثيل كفن، بل إن دستوره القرآن مليء بالأمثال والصور الحية المتحركة التي قد تصلح أساسا لتراجيديات رائعة، كما تصلح أن تكون مضامين للدراما في مفهومها العام.

بل إن المأساة التي تصورها مسرحية "أجا ميمنون" في بعض مشاهدها، كذلك الذي يشخص خصومة الآلهة "ديانا" ، له، وعدم قبولها عثرته إلا إذا قدم ابنته قداسا وقربانا على مذبحها،

(1) تاريخ المسرح في ثلاثة الاف سنة لشلدون صفحة 33 - 34 .

وأن "أجاممنون" رضي في النهاية القيام بهذه التضحية ، وشرع عمليا في مباشرة الذبح لولا أن الآلهة جزعت لهذا المنظر ، وقدرت هذه التضحية ، فبادرت بافتداء جمال البنت وفك أسرها بكبش ، أقول : إن هذه المأساة في روحها الذي يرمز إلى الإيمان بالقضاء والقدر ، ويرمز إلى التضحية المثالية ، حين يقدم أب على ذبح ابنه تنفيذاً للرغبة الإلهية ، وفي شكلها من مباشرة الذبح ، وافتداء الذبيح بكبش هي شبيهة شبها عظيما بقصة محاولة النبي إبراهيم عليه السلام ذبح ابنه إسماعيل ، وهي القصة التي أشار إليها القرآن في سورة الصافات حين قال : " يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبتي افعل ما تومر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم "وإلى هذه القصة بالذات يشير محمد عليه السلام بقوله : " أنا ابن الذبيحين بيد أني من قريش" والذبيح الأول إسماعيل ، أما الذبيح الثاني فهو عبد الله أبوه .

والفهم الدقيق لنصوص التشريع الاسلامي لدى الرعيل الأول لهذا الدين كان قطعا وبدون شك الذي يدفع المتبصرين من المومنين ، لاتخاذ التمثيل وسيلة لبث الروح الدينية في الطبقات الشعبية المسلمة ، وعدم استنكافها من تشخيص كثير من الصور اليومية لاستخلاص العبرة وإظهار الموعظة ، بل والتنبيه ببعض مظاهر الحياة الاجتماعية ، ونقد بعض الأفكار الضحلة الزائفة ، الآنية والماضية إن كان لها تأثير على الاوضاع القائمة في الوقت الحاضر ، مما لا يتفق والدين ، أو يتجافى والأخلاق ، فالتاريخ يحدثنا أنه كان في زمن المهدي العباسي رجل صوفي ، وكان عالما عاقلا ، يتقن أساليب الوعظ والإرشاد ، ولا يترك أسلوبا ولا سبيلا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتهذيب الأخلاق ، وتربية النفوس ، إلا سلكه وباشره ، " كان يخرج كل يوم إثنين

ويوم خميس من كل أسبوع إلى ظاهر بغداد ، فتجتمع عليه الخلائق من رجال ونساء وصبيان ، فيصعد تلا وينادي بأعلى صوته :

ما فعل النبيئون والمرسلون ؟ أليسوا في أعلى عليين ؟ فيقولون : نعم فيقول : هاتوا أبا بكر الصديق. فيتقدم رجل من الصفوف ويجلس بين يديه فيقول له : جزاك الله خيرا يا أبا بكر. جزاك الله خيرا يا أبا بكر عن الرعية ، فقد عدلت وقمت بما فرضه الله ، وخلفت محمداص فأحسنت الخلافة ، ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع ، وفرغت منه أوثق عروة وأحسن ثقة ، ثم يعدد أعمال أبي بكر ، ثم يقول : اذهبوا به إلى أعلى عليين ، ثم ينادي : هاتوا عمر .

... (فيتقدم رجل آخر فيقول له الواعظ :

جزاك الله خيرا أبا حفص عن الإسلام ، فقد فتحت الفتوح ، ووسعت الفيء ، وسلكت سبيل الصالحين ، اذهبوا به إلى أعلى عليين بجوار أبي بكر .

ثم يقول :

هاتوا عثمان .

... (فيتقدم رجل ثالث من بين الحضور ويجلس بين يديه فيقول له :

خلطت في تلك السنين ، ولكن الله تعالى يقول : "خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم" "اذهبوا به إلى صاحبيه : ثم يقول :

هاتوا عليا .

فيتقدم رجل من بين الجلوس بين يديه ، فيخاطبه بمثل ما خاطب به عثمان قبله ويأمر بالحاقه بأصحابه

ثم يأمر باستدعاء خلفاء بني أمية ، الواحد بعد الآخر ، ويأمر بإرسالهم جميعا إلى النار ، ما عدا عمر بن عبد العزيز ،

ثم يحاسب خلفاء بني العباس ، فيأتي شخص يمثل أبا العباس السفاح ، فيقول له الواعظ :

بلغ أمرنا إلى بني هاشم ، ارفعوا حساب هؤلاء جملة ،

واقذفوا بهم جميعا إلى النار (1).

... على أننا نستطيع أن نستأنس في هذا الميدان أيضا بما رواه الجاحظ في كتابه البيان والتبيين لدى حديثه عن اقتران الألفاظ والحروف، ويستدل به على وجود نوع من التمثيل والمسرح، وهو ما وصفه هو نفسه بالمحاكاة، قال: "إننا نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم، لا يغادر من ذلك شيئا، وكذلك تكون. حكايات للخراساني والأهوازي والزنجي والسندي والحبشي وغير ذلك، نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم، فإذا ما حكى كلام الفأفاء فكأنما جمعت كل طرفه في كل فأفاء في الأرض في لسان واحد، كما أنك تجده يحكي الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينيه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحد يجمع ذلك كله فكأنه قد جمع جميع طرف حركات العميان في أعمى واحد... ولقد كان أبو دبُوبة الزنجي مولى آل زياد يقف بباب الكرخ، بحضرة المكاريز فينهق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير الانهق، وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك، ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دبوبة يحركه، وكأنه قد جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار؛ فجعلها في نهيق واحد؛ وكذلك في نباح الكلاب، ولذلك زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له العالم الصغير سليل العالم الكبير لأنه يصور بيده كل صورة، ويحكي بفمه كل حكاية (2)" وإذا أضفنا إلى هذا أن المسلمين في بداية وجودهم الفكري عالميا ودوليا، وعند ما جوبهوا بالحملة العدائية المضادة للعقائد الاسلامية من طرف رجالات الدراسة الأكاديمية التي كان يواصلها مظهرو الإسلام، والدخلاء الذين قد يكون غرضهم محاربة

(1) في الادب المسرحي لمحمد كامل حسين صفحات 193 ـ 194 ـ 195.

(2) البيان والتبيين للجاحظ الجزء الاول صفحة 92 .

الإسلام داخل صفوفهم ، عن طريق تشكيك أتباعه في صحة عقيدته ، وفي صفاء تعاليماته ، ووجد علماء الإسلام أنفسهم إزاء حملات اتخذت المنهجية العلمية أداة للنيل من عقائد الدين ، أن لامناص لهم من منازلة خصومهم بنفس السلاح الذي به يهاجمون ، فتبنوا النظريات الفلسفية الصائبة ، وتبنوا بالخصوص المنطق الإغريقي، واتخذوا طرقه الإيضاحية وسيلة لدحض حجج الخصوم ، حتى أصبح المنطق لا يذكر إلا مقرونا بالمسلمين ، وكأنه من صنع أيديهم ، ذلك أن المسلمين أحيوا هذا العلم بما أدخلوا عليه من تبويب وتنظيم نظرا وتبعا للحاجيات الإستدلالية منه ...

إذا علمنا هذا علمنا أن الإسلام لا ولن يكون متجافيا والدراسات الفلسفية إطلاقا وعموما ولن يتجافى والأخذ من الفنون الإنسانية بأوفر نصيب . وأنه لم يكن هناك ما يدعو المسلمين الأولين أو يدعونا نحن المعاصرين لمحاربة ترجمة أساطير اليونان وخرافاتهم الميثولوجية .

... وعدم إقدام العرب الأولين على هذا الفن قد يعود إلى أنهم لم ينظروا يومئذ إلى الترجمة من زاوية إثبات الوجود الفكري لهم ، وإنما نظروا إليها - أو في بداية إقبالهم عليها على الأقل من زاوية أنها إحدى الوسائل التي بها يتمكنون من إثبات صدق نظرياتهم وعقائدهم الدينية ، ومن دحض نظريات الخصوم ، ثم بها يتعرفون لما عند أولئك الخصوم من أسلحة دفاع وهجوم ، قد يعود نفعها على الإسلام .

ولهذا فنحن لانوافق على الفكرة القائلة : " بأن الدين الإسلامي قد يكون حال دون ترجمة المسرح الإغريقي القائم على الوثنية وآلهتها وأساطيرها إلى اللغة العربية" ، كما لا نسلم النظرية الذاهبة إلى القول بأن عبقرية العرب الفنية ، ونوع خيالهم لم يكونا مواتيين لهذا الفن المركب "أي التمثيل فإن مخيلة العرب كانت من التفتح والجموح والخيال بالدرجة التي لاتجد صعوبة في استيعاب أمثال هذا الفن . كيف وهم ذوو إحساس مرهف ، الشيء الذي جعلهم يتخذون

من خصوص الشعر والغناء والحداء أهم ميزاتهم الشخصية ، ونحن نعتقد بأن الشعر والموسيقى كما ذكرنا سابقا ـ صنو التمثيل والمسرح ، بل الجميع أصل وجنس على حد تعبير المناطقة .

على أن المجتمعات العربية في العصور الوسطى تعرفت إلى أنواع من الألعاب البهلوانية مما قد يندرج ضمن بعض المفاهيم المسرحية ، كتلك التي يتحدث عنها المقريزي المؤرخ المصري ، فقد قال في وصف ما كان يحدث في باب اللوق ، وخط ما بين القصرين ، وهما من الأحياء المصرية القاهرية قال :

"وفيها ـ أي في باب اللوق تجتمع أصحاب الحلق وأرباب الملاعب والحرف من الحواة والمشعبذين وغير ذلك ، فيحضر هنالك من الخلائق للفرجة ما لا يحصر كثرة " ثم يقول : "وكانت تعقد فيه ـ أي في خط ما بين القصرين ـ عدة حلق لقراءة السير والاخبار وإنشاد الأشعار ، والتفنن في أنواع اللعب واللهو ، من أرباب المساخر ، فيصير مجمعا لايقدر قدره ولا يمكن حكاية وصفه (1)".

ولعل الذين عاشوا قبل عشرين سنة خلت من هذا التاريخ ، شاهدوا نفس ما تحدث عنه المقريزي ، قائما عندنا هنا في المغرب وخاصة في أبواب : عجيسة ، وفتوح ، والساكمة ، بفاس ، بل وقد بدأنا في أواخر سني الستينات هذه نشاهد استئناف نشاط هذه الحلق ، وبشكل غريب ، فيه ما لا يستساغ أحيانا ، مما كان يحكى وجوده بباب الفناء بمراكش عاصمة الجنوب مما يؤكد ويشير إلى أن فكرة المحاكاة والتشخيص عميقة الجذور في النفس العربية وفي الفكر الإنساني عامة .

ويتحدث المقريزي أيضا عما أسماه "صبيان الخف" الذين كانوا في العهد الفاطمي ، فيقول عنهم : "كان بالعصر الفاطمي جماعة عرفوا بصبيان الخف ، لهم

1ـ2) المرجع السابق صفحات 196 ، 199 ، 200 .

إقطاعات وجرايات وكسوات ورسوم ، فإذا ركب الخليفة الفاطمي في العيدين مدوا حبلين مسطوحين ، من أعلى باب النصر إلى الأرض حبلا من يمين الباب وحبلا عن شماله ، فإذا عاد الخليفة من المصلى نزل على الحبلين طائفة من هؤلاء على أشكال خيل من خشب مدهون ، وفي أيديهم رايات ، وخلف كل واحد منهم رديف ، وتحت رجليه آخر معلق بيديه ورجليه ، ويعملون أعمالا تذهل العقول ، ويركب منهم جماعة في الموكب على خيول ، فيركضون وهم يتقلبون عليها ، ويخرج الواحد منهم من تحت إبط الفرس وهي تركض، ويعود يركب من الجانب الآخر ، ويعود وهو على حاله لا يتوقف ولا يسقط منه شيء إلى الأرض ، ومنهم من يقف على ظهر الحصان فيركض به وهو واقف ".

... وإذا علمنا أن الفاطميين في أصلهم الذي ينحدرون منه مغاربة .

وإذا علمنا أن ألعاب الفروسية هذه التي يصفها المقريزي ما تزال تشاهد حاليا في المغرب ، وبين فرسان الأطلس : الكبير والمتوسط والصغير ، علمنا أن المسرح لدى العرب ، وفي المغرب بالخصوص ، له جذور عميقة متأصلة ، ذات ألوان مختلفة ، ففكرة أن العقلية العربية لا تستطيع أن تقبل هذا الفن المركب ، هي إذن فكرة لا تستند على أي أساس من الواقع وإنما رأينا أنهم حاولوا وفي فترات مختلفة وبأساليب متنوعة ، أن يسهموا في هذا المجال ، ولكن من الانصاف الاعتراف أنهم لم يكونوا فرسانا مجلين . فما السبب في هذا التخلف إذن ؟

قد لا يكون من الغلو إذا ما افترضنا أن من بين الأسباب ، الموقف المحذر أو ربما المعادي من بعض الفقهاء الجامدين لسلوك هذا الدرب الذي لم يكن مطروقا من قبل ، فإذا كانت الكنيسة ـ كما رأينا فيما سبق ـ لم يتورع كهنتها وسدنتها ورجالها ، وعلى مر العصور ، من أخذ الحيطة والحذر من المسرح ، بل ومن مناوأته ومناوأة رجالاته ، مع اعترافهم

بفعاليته وجدواه في إثبات مبادىء الكنيسة ، فليس من المستبعد أن يقف فقهاء جامدون ، من فقهاء الإسلام مثل موقف رجال الكنيسة ، فالفريقان يجتمعان في محاولة الهيمنة على الناحية الروحية لحياة الناس ، وإن يكن الإسلام في لحمته وسداه يرفض هذه الهيمنة ولا يعترف بها ، وإنما يحاربها في عنف وقساوة ، إذ لا رهبانية في الإسلام ، وتكون محاربة هؤلاء الفقهاء لهذا الفن من باب اعتباره لهوا ولعبا ، واللهو واللعب في عرف الفقهاء الذين لم يسبروا أغوار الأشياء ، ولم يبحثوا وراء المظاهر والمرئيات محظوران على المسلم في تلك العهود، وفي عرف أولئك الفقهاء .

... ثم قد يكون لصلاح الأوضاع في الأحقاب الأولى للإسلام ، هذا الصلاح الذي لم يتح للتمثيل ما أتيح للملهاة الاتلانية ، مثلا ، من مجالات انتقاد المجتمع، ومحاولة تقييم معوجه ، وإصلاح فاسده ، أقول قد يكون هذا الصلاح سببا في أعراض العرب القدماء وخاصة في صدر الفتوحات الاسلامية ، وإبان الازدهار الفكري لدولة العباسيين ، عن التمثيل واعتباره عبثا ، إذ لا يقوم ، أو لا يمكن أن يقوم ، بأي دور إصلاحي ، لأنه لا داعي للقيام بمثل هذه الدعوة الاصلاحية، ما دامت قد تكفلت العقيدة الاسلامية ، وإيمان معتنقيها بأن في الإسلام ما يردع الناس ولا يسمح لهم ـ لا إكراها وقسرا وإنما طواعية ورضى ـ بارتكاب ما من شأنه أن يحمل المسؤولين اجتماعيا إلى القيام بالدعوة إلى الإصلاح عن طريق من الطرق ، ومن ثمة اعتبر الاشتغال بالتمثيل ضربا من العبث لا يليق بالمسلم في نظر أولئك الفقهاء .

أما النظرة الفنية المجردة ، أي الفن للفن ، فأظن أنها لم تكن بعد ـ وفي تلك الأحقاب ـ وجدت لها مكانا ، أو مؤيدين . ويضاف إلى هذا أن الفترة التي ازدهرت فيها الفتوحات الاسلامية تلك التي يسرت أكثر الاتصال القوي بالعالم الخارجي لأولئك الفاتحين ، ومكنت العرب من الاطلاع على أمثال هذه العوالم الانسانية الزاخرة بالمتع الفكرية ،

والأحاسيس المعنوية ، كان المسرح والتمثيل ـ في نفس مهده الأول ومنبته الأصلي : اليونان ، كما كان في وطنه الثاني : الرومان ـ يجتاز مرحلة ركود وفتور إن صح التعبير ، بسبب العداء السافر الذي كانت تتبناه الكنيسة لمثل هذه الفنون .

وأمر آخر وهو أن أولئك الذين وجد المسلمون الأولون أنفسهم أمام عداواتهم من السريان والفرس والرومان ، واضطروا لمقارعتهم الحجة بمثلها ، كانوا هم الآخرون ـ فيما يبدو ـ قد بعدوا عن الخوض في مثل هذه الأمور ، مما لم يتح للعرب ، لا التفرغ لغير مصاولة هؤلاء الذين ينازعونهم العقيدة الصحيحة ، ولا التفرغ للبحث عن فنون أمثال المسرح والتمثيل ، فكان الأمران الأخيران مما حال دون اتصال العرب بالأدب التمثيلي لدى اليونان ، أو جعل هذا الأدب يبدو ـ لاعين أولئك المفكرين العرب ـ في صور باهتة لاتدعو إلى الإغراء للبحث عن أجوائه ومعطياته وأبعاده ، وإنما ظهرت في صورة العدمية التي لاتدعو إلى اهتمام ، ولا تبعث على إقبال .

والزعم بأن إحجام العرب عن ترجمة الأدب التمثيلي عند اليونان ، لكون هذا يوشك أن يختص بالوثنية التي يحاربها الإسلام ويعتبرها العدو رقم واحد ، قولة تنقصها الحجة التاريخية ، لما قدمناه من أن العرب إنما ترجموا ما وصل إليهم ، وقد كان الأدب التمثيلي لعهد ازدهار الترجمة في حكم المعدوم .

ثم إنه لم يرد في الإسلام ومصادر تشريعه الأساسية : القرءان والحديث الصحيح ، أي نص لا صريح ولا ضمني يمنع المسلمين من مزاولة مثل هذا النشاط . على أن الكتب العربية التي ترجمت آثار اليونان ، وخاصة تلك التي لها علاقة بالآداب ، ككتاب الشعر لأرسطو لم يحجموا عن ترجمة ما ورد فيها من أحاديث عن الكوميديا والتراجيديا ، وإن يكن المفهوم الذي صاغوه لهذين اللفظين ، كان بعيداً عن مفهومهما الوضعي الحقيقي لدى مخترعيهما اليونان ، إذ تخيلوا ـ وهم

يترجمون ما حدد به أرسطو مفهوم الكلمتين من أن التراجيديا من فن جميل يمتاز بالنبل وتمجيد البطولة ، بينما تهدف الكوميديا إلى نقد المثالب والعيوب ـ تخيلوا أن التراجيديا تقابل المديح في الشعر العربي ، بينما تقابل الكوميديا الشعر الهجائي ، أو هذا على الأقل ، كانت ترجمة "متى بن يونس" لهاتين اللفظتين .

... وبعد فقد كان أول اتصال حقيقي للعرب بالمسرح في مفهومه الحديث ، كان ذلك الذي تم على يد (مارون النقاش) الذي عد لهذا السبب رائد المسرح العربي الحديث ، وذلك في منتصف القرن التاسع عشر .

وكانت سوريا الكبرى : فلسطين ، والأردن ، ولبنان ، وسوريا ، موطن هذا الخلق أو البعث ، وقد يعود سبب ذلك لوجودها يومئذ تحت الحكم التركي ، والأتراك أوروبيو القومية ، وذوو وشائج مع اليونان ، فقد يكون تسرب هذا الفن إلى سوريا ، متخذا تركيا ، ومصر مستقرا ومقاما ، حيث الفى التربة الخصبة ، والإستقبال الحسن ، بفضل ما كانت مصر اكتسبته من شبه استقلال داخلي عن السلطنة العثمانية ، الشيء الذي هيأ لها جوا سياسيا يتسم بغير قليل من الإستقرار ، ويتصف بالكثير من الحرية والتفتح ، نتيجة بداية اتصالها بأوروبا مباشرة ، حيث تعرف نسبيا على التيارات الأدبية التي هيأ لها الإستقرار الإجتماعي والحرية الفكرية مزيدا من الشيوع والإنتشار والإزدهار ، وبالطبع كان الفن المسرحي من بين فروع تلك الآداب التي وجدت طريقها إلى النفوس والعقول خاصة وهو في مظهره الخارجي أكثر اتصالا بالطبقات الشعبية، من غيره من الفنون والآداب أشكال من الفنون العربية الشبيهة بالتمثيل أو ذات الإتصال بآفاقه : نرى قبل المضي في سرد تاريخ هذه الحقبة أن نقف وقفة قصيرة لدراسة أشكال والوان من الفنون الشعبية التي كانت منتشرة في مختلف البلاد العربية ، وكانت تحمل في مظهرها طابع المسرح والتمثيل ، فقد كان هناك في مصر بالخصوص ما يعرف

بـ (خيال الظل وصندوق الدنيا والقره كوز) وكان في المغرب ما عرف بـ (البساط) فما هو شكل كل واحد من هذه الأنواع وما مجالها ؟ وما موضوعها ؟ وما طريقة عرضها ؟

خيال الظل

خيال الظل ، أو مسرح الظل كما يسميه الأنجليز ، أو الظل الصيني كما يسميه الفرنسيون l'Ombre chinoise فقد اختلف فيه من حيث أرومته ونشأته بين الصين أو الهند ، أو مصر الفرعونية ولم يتفق، حتى الساعة على من يكون قد أدخله البلاد المصرية على القول بأنه أجنبي عنها . والدكتور فؤاد حسين في كتابه "قصصنا الشعبي" تبعا للمستشرقين الا لمان ، يرى أن خيال الظل هذا ، قد تأثر في اتجاهاته وأشكاله بفن المقامة في الأدب العربي : مقامات الحريري والبديع الهمداني الخ ، وأن الذي استقاها من المقامات هو رجل يعرف باسم "شمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي" الذي يقال أنه ولد في قرية "أم الربعيين" بالموصل سنة 646 هـ ، وأنه غادر مسقط رأسه في اتجاه مصر سنة 660 هـ إثر هجومات التتار على العراق ، وأنه حط رحاله بمصر سنة 665 هـ ، حيث بدأ عمله هناك كطبيب عيون ، وإذا كان الرجل ذواقة فنون ، وذا فكر فني متفتح ، تساعده ثقافة لابأس بها ، ومعرفة بلغات مختلفة ، فقد استلفت انتباهه أول الأمر اهتمام المصريين بالنكتة، وإقبالهم على الترفيهات والمساخر ، فاستغل هذه الظاهرة ، وأخذ يخصص من وقته زمنا للمشاركة في هذه المساخر ، وبمرور الزمن اتخذ منها هوايته المفضلة ، وشارك فيها بوصفه رائدا وأستاذا معا ؛ واكتسب مقدرة فائقة في هذا الميدان، بوأته للصدارة... ولعل ما كان يتمتع به من استعداد فطري لهذا النوع من الفنون ، جعله يحقق فيه نجاحا ملحوظا ، جعله يُتّقى شرهُ ، ويُخشى لسانه وتخصص الرجل اخيرا في فن المساخر تأليفا وعرضا ، فوضع عديدا من "بابات" كانت تصور الحياة المصرية لتلك الحقبة تصويرا دقيقا ، اجتماعيا وسياسيا

واقتصاديا ، وبهذا فتح الطريق أمام من جاء بعده من المصريين يرتاد هذا المجال ، فقلده جلة من مشاهير هذا الفن ، كالشيخ سعود ، وعلى النخلة ، وداوود المناوي .

... ويرى الدكتور عبد الحميد يونس في نشأة هذا الفن ، زمانا ومكانا ، أنه "نبت في الشرق الأقصى واتخذ الزي الفارسي ، وواكب الحياة الاسلامية ، وأسهمت الطبقات الوسطى في إثرائه ، واستقر آخر الأمر في القاهرة ، فازدهر ، ثم انتشر ونفذ إلى ربوع العالم الغربي... ثم قال واليونان والرومان لم يعرفا خيال الظل في العالم القديم ، وأن هذا الفن لم يصبح له كيانه المستقل بمقوماته الخاصة ، في التاليف والأداء والتذوق إلا في العالم الإسلامي بصفة عامة ، وفي الديار المصرية بصفة خاصة ، ومن هنا كان المحور الرئيسي الذي يكشف عن تطور هذا الفن إنما ينحصر في دنيا العرب ... (1)"

ويذهب الدكتور محمد كامل حسين إلى أن الفاطميين الذين كانوا مغرمين بالفنون الجميلة على اختلاف أنواعها ، وكانوا يكرمون أربابها ، بما لم نسمع عنه في أي بلد من البلدان ، وفي أي عصر من العصور ، هم الذين مهدوا الطريق لأن يغزو هذا الفن المجتمع المصري ؛ فقد شملوه برعايتهم ، حين فتحوا له قصورهم ، التي منها تسرب إلى المجتمعات الأوروستقراطية ومن هذه إلى المجتمعات الشعبية ، وقد احتضن هذا الفن التعبيرات الشعبية ، وفن التحامق ، وفن البلاليق ، أي الموشحات والأزجال ، التي وصفها صفي الدين الحلي بقوله "إعرابها لحن وفصاحتها لكن وقوة لفظها وهن (2) ".

وأما موضوع خيال الظل ومجاله ، فقد كان المجتمع ومشاكله : الزواج ، الخاطبة ، الخطاب ، حياة أرباب المهن والحرف المختلفة : خطباء ،

(1) خيال الظل للدكتور عبد الحميد يونس صفحة 15 .

(2) في الادب المسرحي لمحمد كامل حسين صفحة : 202 ، 203

حواة ، ضاربي الرمل ، وفن التحامق إلخ .

... وأما عن طريقة التشخيص المتبعة في هذا الفن ، فنرى أن ننقل نص الدكتور محمد مندور عنها الذي يقول فيه : "وتسمى التمثيليات التي يعرضها صاحب خيال الظل باسم "البابات" ومفرده بابة ، وكان التمثيل يجري على ستار من القماش الأبيض الخفيف ، الذي تنعكس عليه من الخلف ظلال عرائس من الورق المقوى أو الجلد المضغوط ، وقد وضع خلف تلك العرائس مصباح يعكس ظلالها على الستار ، والعرائس مكونة من أعضاء تتحرك بواسطة مفاصل ، وقد علقت تلك العرائس واتصلت بها وبأجزائها المختلفة خيوط تتجمع في يد صاحب الخيال ، وبفضلها يحرك تلك العرائس حسبما يشاء ، ووفقا لمقتضيات الحوار الذي يلقيه صاحب الخيال القابع خلف الستار ، فيسمعه المشاهدون ، ويرون الصور المتحركة التي تصاحبه ، وأحيانا كان صاحب البابة يلقي بمفرده الحوار كله مع تلوين صوته ، وتغيير نغماته ، تبعا لتغير الشخصيات ، وأحيانا أخرى كان يستعين بمساعد له يلقي جانبا من الحوار ... (1)"

ولابراز التأثير العربي في فن المسرح ، أو على أنواع ما من المسرح في أوروبا ، نحب أن نسوق هذه العبارة التي يوردها الدكتور محمد كامل حسين في صورة التعجب والاستغراب ، من أن يكون الظرف الذي غمر فيه خيال الظل المجتمع العربي ، كان يظهر في أنجلترا ما عرف بجماعة "الممر" الذي هو تطور جماعة "الميم" القدماء ، كما أن خيال الظل تطور لأصحاب المساخر قال : "ومن عجيب الاتفاق أن يظهر جماعة الممر في أنجلترا في نفس الوقت تقريبا الذي ظهر فيه أدب خيال الظل في مصر ، وأن يقدم الممر في أنجلترا قطعا تمثيلية رمزية

(1) المسرح للدكتور مندور صفحة 20

شعبية ، تكاد تكون صورة طبق الأصل لتلك التمثيليات الرمزية الشعبية التي كان يقدمها أصحاب خيال الظل في مصر . مع الفارق الكبير في أن جماعة الممر كانوا يقدمون شخوصا آدميين بينما يقدم المخايلون شخوصا من الورق المقوى أو الجلد ... (1)"

ويصف المستشرق "مانزل" هذا الفن بأنه "يجمع بين فن التشخيص بالإشارات وبين الموسيقى والتصوير والشعر ، وشخوصه الشفافة من الأدم الملون ، تظهر على شاشة الكتان المضاءة من الخلف نخييلا... وهو عند الشرقي المتأمل شيء أقوم من مسرحنا الواقعي الذي يميل إلى الخشونة ".

وهذه الشهادة التي أوردتها دائرة المعارف الاسلامية ، تبين إلى أي مدى كان هذا النوع من الفن يستوعب مجموعة مختلفة من الفنون الشرقية كالأدب والموسيقى ، وبما في ذلك الفنون التشكيلية كالرسم والحركات .

... وأبرز شخصيات خيال الظل هي :

أولا : المخائل أو الخيالي وهو الشخص المختص بتحريك الشخوص ، وأطلق عليه ذلك لكونه لا يشخص بنفسه وإنما بالصورة والخيال .

ثانيا : الرئيس أو المعلم أو المقدم ، ويتولى مهمة المسير العام أو المدير الفني في العصر الحديث، ويتولى فيما يسمى بالاستهلال أو المقدمة تقديم العروض .

ثالثا : الخرازوق : ويؤدي وظيفتي تحريك الشخوص ، وتركيز الانتباه بصوتة النحاسي في الحفلات التي يغلب عليها الصخب .

رابعا : الرخم : ويشخص دور المهرج .

ويهتم هذا الفن بالخصوص ـ أو هذا مما يعد من أهم أركانه وعناصره ـ بدقة

---

1) في الادب المسرحي لمحمد كامل حسين صفحة 203 .

التصوير التي تبرز الشخصية والمناظر . وفي خيال الظل هذا يقول وجيه الدين ضياء بن عبد الكريم

رأيت خيال الظل أعظم عبرة
لمن كان في علم الحقائق راقي
شخوصا وأصواتا يخالف بعضها
بعيضا وأشكالا بغير وفاق
تجيء وتمضي بابة بعد بابة
وتفنى جميعا والمحرك باق

القره كوز :

وينطق به المصريون الاراجوز إبدالا للقاف همزة . ويقوم في عموم موضوعاته على الشكوى والتذمر من الدنيا وفواجعها وتقلباتها ، وعلى نقد أحوالها ، مما يجعله من وجهة التصنيف المسرحي في المسرح اليوناني أقرب إلى التراجيديا منه إلى الكوميديا .

ويشخص بواسطة دمى خشبية أو جبصية ، متحركة الأعضاء ، تحرك بواسطة خيوط تشد بأسفل المنضدة الموضوعة عليها تلك الدمى ، ويصاحب حركاتها حوار يلقيه صاحب القره كوز الذي ينغم صوته تبعا لمقتضيات الموقف .

ومجاله على العموم يتعمد التهريج الشعبي ، والضحك ، ولا ينشد ـ أصالة ـ دعوة إلى فكرة ، أو تحريك مشاعر ، مما يقربه من هذه الوجهة إلى الكوميديا اليونانية القديمة .

... وكلمة القره كوز في أصلها هي أيضا مناط اختلاف بين مؤرخي المسرح ونقاده ، والدكتور مندور يرى أنها تركيب مزجي مؤلف من كلمة "قره" التي تعني "أسود" ، ومن كلمة كوز" التي معناها العين أي "العين السوداء" إشارة إلى لون عيون عرف عنهم القيام بهذا اللون من الفنون التشكيلية ، وهم الغجر ، وقد كانوا وما يزالون سود العيون ، أو إشارة إلى موضوع . هذا الفن الذي يمثل جهامة الحياة واسودادها ، أو إشارة إلى نظرة من يباشره إلى الحياة إذ ينظر إليها على أنها سوداء قاتمة .

... ويذهب المستشرق الألماني "ليتمان" إلى أن الكلمة محرفة من لفظة "قرقوش" الوزير المصري لعهد الأيوبيين ، وكان قد اشتهر هذا الوزير بظلمه

وتعسفه حتى أصبح لذلك علما على الظلم . قال "ليتمان" : وأثر ادبار عصره أخذ الناس يتندرون بذلك الظلم ، ويتنقمون، بالسخرية من مظالمه . وعن هذه الطريقة أخذ هذا الفن ـ المتخصص في تشخيص السخرية بمظالم قورقوش الذي أصبح رمزا للفساد والتعفن الاجتماعيين ـ أخذ اسم قوقوش الذي حرفته كثرة الاستعمال إلى اسم قرجوز ، وبهذا اختلطت هذه الكلمة باللفظة التركية المركبة .

وهذا الفن بالمعنى الذي يخصصه له "ليتمان" يكون أكثر شبها بالكوميديا الاتلانية التي شهدناها تتخصص في الانتقاد الاجتماعي وخاصة في عصرها الحديث، القرن السادس عشر كما مر .

... والدكتور عبد الحميد يونس يرى أن القره كوز ليس إلا نوعا من خيال الظل "أو مسرح العرائس كما يعرف في العصر الحديث "غلبت عليه تسمية القره كوز عند الأتراك العثمانيين والأسر التركية التي استقرت في العالم العربي ... بل ويذهب إلى أبعد من هذا فيقول ـ مثبتا ذلك بما أورده من سند تاريخي نقلا عن المؤرخ ابن إياس في ذكر هذا الحادث عام 923 هـ ـ أن خيال الظل انتقل من مصر إلى تركيا ، ومنها إلى دول البلقان فأروبا كما انتقل من مصر شمالا إلى إيطاليا ، وغربا إلى شمال إفريقيا .

صندوق الدنيا :

وهذا النوع من الفنون هو بدوره لعبة تمثيلية مشهورة ، وإن تكن بالعمل السنمائي ألصق وبمجالاته أشبه . ونحب ـ فيما يخص شكلها وموضوعها العام أن ننقل كذلك نص الدكتور محمد مندور فيها فقد قال : "وأخيرا يأتي صندوق الدنيا الذي كان يحمله صاحبه على ظهره هو و "الدكة" التي يجلس عليها المشاهدون ، ويطوف به الشوارع والحارات والقرى ، وكلما لمح من قريب أو بعيد سربا من الأطفال أو أشباه أطفال وضع صندوقه على الحامل وأمامه الدكة ونادى الأطفال وأشباههم لكي يسرعوا إلى رؤية"

"السفرة عزيزة" وغيرها من عجائب الأرض ، ويخف إليه المشاهدون بعد أن يدفعوا ملاليمهم اي اموالهم ويجلسون على الدكة ويسدل على رؤوسهم الستارة حتى لا يختلس معهم أحد ممن لم يدفع الملاليم النظر إلى ما يعرض من أعاجيب الدنيا ، ومن خلال فتحات زجاجية يرى المشاهدون عدة صور ملونة تتعاقب أمام أبصارهم ، وصاحب الصندوق يفسر ما يرونه ويعلق عليه تعليقات مثيرة تستحث المتسكعين حول الصندوق... (1)"

(1) المسرح للدكتور مندور صفحات 24 ــ 25 .

القصة الوعظية

بقلم احمد اليابوري

يزدهر الأدب الوعظي ، بصفة عامة ، في الفترات الحرجة التي تشهد انهيار القيم التقليدية ، ويتخذ ذلك الأدب أشكالا عدة ، فيأتي على شكل خطب أو مقامات أو حكايات أو مقالات أو قصص... وقد يكون الوعظ ، في بعض الأحيان ، وسيلة لكشف المفاسد ، وتعبئة الرأي العام ضدها ، وبذلك يمتزج العنصر الأخلاقي بالعنصر السياسي .

وقد اتجه بعض الكتاب المغاربة نحو القصة الوعظية بدافع أخلاقي ديني في أغلب الأحيان . ويمكننا أن نمثل لها بـ "عجائب الأقدار أو عواقب الأصرار" لمصطفى الغرباوي التي ألفت سنة 1938 ، ومجموعة "أفراح ودموع" (1) . لمحمد الخضر الريسوني .

فقد صرح الكاتب الأول ، في التمهيد الذي وضعه لقصته بأن الغرض منها "إيقاظ هذا الشعب السابح في نوم عميق ، الساهم في غفلة مطبقة ، والأخذ بيد هذه الأمة المتشردة في مجاهل الفوضى المظلمة ، المنغمسة في مستنقع من الفساد الأخلاقي والانحطاط الاجتماعي" .

ومما لا شك فيه أن الكاتب كان متشبعا بروح إسلامية إصلاحية لذلك جعل تحت

(1) المطبعة الحسنية ، تطوان ، 1951 .

عنوان قصته هذه الآية القرآنية : "والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون" .

بطل هذه القصة شاب في العشرين من عمره ، حصل على الشهادة الثانوية في الشعبة التجارية ، وهو ينتمي لأسرة مرموقة في المجتمع له زوجة" فاتنة عفيفة ، كثيرة الحياء ، مهذبة الشمائل ، خفيفة الروح ، طيبة الحركات ، حلوة الحديث ، ربيت في بيت متوسط ، عرف أهله بالمحافظة الشديدة على المروءة الدينية والشرف العائلي" وقد ورث المهدي ، بطل القصة ، ثروة طائلة ، بعد موت أبيه ، ورزق ابنا جميلا ، فابتسمت له الدنيا ، وعاش ، فترة ، سعيدا في عش الزوجية ، غير أن سلوكه انحرف فجأة فأصبح يتيه في المواخر ، جريا وراء الملذات ، وقرر بعد ذلك ، تطليقزوجته خديجة التي كفلت أبنها ، وتزوجت من جديد ، أما المهدي فقد تردى في مهاوي الرذيلة إلى أن وجد نفسه أخيرا مريضا غريبا ، وكانت نهايته يأسا مرا فموتا مريحا . وشاءت الأقدار أن يصبح ابنه محمد ، بعد ثلاثين سنة "يتوقد فهما ويتدفق علما ، محترم الطلعة ، رفيع القدر ، عالما من جهابدة الاسلام ، زعيما من أبطال العروبة" .

وهكذا يتبين لنا أن هذه القصة تقوم على أربع ركائز : تحليل الأوضاع المجتمعية المتدهورة ، ربط مأساة البطل ، بصفة مباشرة ، بهذه الأوضاع ، تقديم عظات دينية وأخلاقية كأسس لإصلاح هذه الحالة .

ويلاحظ من الناحية الفنية أن الكاتب كثيرا ما يوقف التيار الحدثي ليستخلص عبرة أو يشرح فكرة ، مؤكدا بأسلوب تقريري خطابي ، مثلا أن "الزوجة الصالحة هبة الله ، الزوجة الصالحة خسارتها لا تعوض ، الزوجة الصالحة في الدنيا ، ولا سيما في العائلة المغربية المتدهورة ، قليل . الزوجة الصالحة حسنة الدنيا ، كما يقول بعض المفسرين

في قوله تعالى : "ربنا آتنا في الدنيا حسنة "ثم يرجع بعد هذا الاستطراد لاستئناف سرد الأحداث المتصلة بالعمل القصصي .

ومما يؤخذ على هذه القصة ايضا أن كل ما يتعلق بزواج خديجة الثاني ، ونشأة ابنها ، ليس مرتبطا ارتباطا صميميا بالموقف الرئيسي ، بل أن كل تلك العناصر الهامشية تجعل هذا الانتاج أقرب إلى ملخص رواية منه إلى قصة متماسكة البنيان .

* * *

أما النزعة الوعظية ، عند محمد الخضر الريسوني ، فيغذيها في آن واحد ، شعور ديني وإحساس رومانسي ، ينبثق منه تعاطف صادق مع المجتمع والطبيعة التي أعجب الكاتب بجداولها وعنادلها وخمائلها ، وحاول أن يجد علاجا بين أحضانها مؤكدا أن الإنسان يخرج إلى الدنيا "فيرى بعينيه جمالها وسحرها ، ثم يرى السعادة والشقاء يخيمان عليها فتتمثل له السعادة كقبس من نور (...) ويتمثل له الشقاء كظلام حالك بهيم ، وينمو شيئا فشيئا كما تنمو الشجرة ، حتى إذا ما ترعرعت وارتفعت أغصانها في الفضاء ، تصطدم بالزوابع والرياح ، كذلك الإنسان ، فما أن يخرج إلى معترك الحياة حتى يصطدم بالنوائب" (1) .

وأول ما يلفت النظر في مجموعة (أفراح ودموع) أن الدموع تغمر كل جوانبها : فالأبطال يبكون بمناسبة وبدون مناسبة ، وعندما يتعذر وجود دواعي الحزن فإنهم يبكون فرحا .

وهذه الظاهرة تضفي احيانا على بعض هذه القصص طابع الكآبة المتكلفة ، كما تفقد الأبطال مميزاتهم الخاصة وتجعلهم مجرد انعكاسات لوجدان الكاتب أحيانا أخرى .

وتواجهنا في هذه المجموعة العظة التي وضعها الكاتب

---

(1) افراح ودموع ،

في إطار مستطيل ، وسط صفحة بيضاء ، في بداية كل قصة ، ونلمس في هذه العظات توجيهها أخلاقيا وملخصا للأحداث القصصية في آن واحد .

وهكذا فإن تطور الحدث لا يخضع ، في كثير من الأحيان للعوامل الفنية أو النفسانية بقدر ما يخضع للمضمون التربوي : ففي قصة (الزوجة الرشيدة) ... يتضمن الإطار الوعظي هذه الحكمة "ليست السعادة فيما يملكه الإنسان من ثروة طائلة ودور تزخر بالخدم ، وإنما السعادة زوجة مثالية رشيدة ، تعمل لأجل هناء زوجها وسعادته" وتتطور أحداث القصة وفق هذا التوجيه : فالبطل كاتب بسيط يترقى إلى درجة خليفة ، فيجمع ثروة ضخمة ، وينغمس في الرذيلة ، فتتسلح زوجته بالصبر ، وتنصحه ، لكنه لا يزداد إلا تماديا في ضلاله ، إلى أن يطرد من وظيفته ، ويتعرض للفقر واليأس ، ويقرر الانتحار ويختلي في غرفته ، ويدير حبلا حول عنقه ... فتفاجئه زوجته وتحول دون ذلك ، ثم تفاجئه مرة ثانية وتقدم له ثروة واسعة كانت قد جمعتها أيام غناه ، فيشيد القصور وترفرف السعادة على العائلة من جديد .

ويتبين مما سبق أن هذه القصة تتكون من قسمين لا علاقة لأحدهما بالآخر : قسم ينتهي بمحاولة انتحار البطل ، وقد كان من الطبيعي أن تتوقف القصة عند ذلك الحد ، وقسم يقوم على مفاجئتين : كانت المفاجأة الأولى سببا في إنقاذ حياة الزوج ، والثانية سببا في غناه .

ولم يدرج الكاتب القسم الثاني إلا ليؤكد أن حسن تدبير المرأة أساس سعادة الأسرة ، فاختلت ، نتيجة لذلك ، القصة ، من الناحية الفنية لارتكازها بصفة تعسفية على المدلول الوعظي .

ونلمس في قصة (التلميذة الشقراء) (1) نفس المآخذ التي

---

(1) افراح ودموع ، ص : 27 .

أشرنا إليها، فيما سبق: فالكاتب يوضح في الإطار الوعظي أن "الإحسان والعطف عاملان يجلبان الخير لصاحبهما، فمتى كان الانسان محسنا محبا للخير، إلا ويحس، في أعماق نفسه، بالسعادة ولا تلبث أن تحنو عليه، فيسعد بهذا الحنو "وتتسلسل الأحداث في الاتجاه الذي ترسمه هذه العظة، فيلتقي إبراهيم بامرأة عجوز في القطار، مثقلة بالحقائب، فيحمل بعض بضائعها إلى منزلها، فتخرج فتاة شقراء لفتح الباب، فيعجب بها، ويمضي إلى حال سبيله، لكن الكاتب يأبى ألا يضيع المعروف فيتتبع البطل إلى أن يصير أستاذا يدرس بالفصل الذي توجد به الفتاة الشقراء، فيتعرف عليها من جديد، ويخطبها فتتوسط العجوز، وبذلك يجازى على مساعدته لها، بزوجة شقراء جميلة ...

إن القسم الثاني من هذه القصة، يقوم على المفاجآت غير الطبيعية وعلى ربط عناصر متباعدة في الزمان والمكان، فيفقد مثل هذا الانتاج، نتيجة لذلك تأثيره كوحدة فنية متكاملة.

ولا يتخلص الكاتب من هذه العيوب الفنية إلا عندما يتخلى عن العظة السطحية ويسبر غور المأساة، ويقدم لنا حقائق يزكيها التاريخ كحتمية التطور في (الحلاق العجوز) (1) أو يدعمها علم النفس كعملية التصعيد في (حلم لذيذ) (2). وبذلك ينتقل الانتاج من المستوى الوعظي إلى النطاق الحياتي الخصب.

يستنتج مما سبق أن القصة الوعظية، بجميع أنواعها لم تتحرر بصفة عامة من العناصر التقليدية، لأنها كانت في أغلب الأحيان أقرب إلى الحكاية أو الوصف الاستطرادي منها للقصة الفنية، ولهذا السبب كان تأثيرها الفني ضعيفا أو منعدما في الاجيال الصاعدة من كتاب القصة.

---

(1) افراح ودموع ص :

(2) افراح ودموع ، ص :

القصة التاريخية

عرف المغرب ، منذ العقد الثاني من القرن العشرين ، حركة سياسية كانت تستهدف بعث الكيان القومي وإرساءه على أسس متينة . وقد واجه في معركته موجة اضطهادية من طرف سلطات الحماية ، التي كانت ترغب في طمس الشخصية المغربية ، غير أن تيار الوعي الوطني تحدى جميع ألوان العنف : فكان هناك بعث للمواهب وتوجيه سياسي لطبقات الأمة وتحديد واضح للأهداف العليا . فنشطت الأفكار من عقالها وتبارت المواهب في الخلق الأدبي ، في مغرب أدرك أبعاده ووعى دوره في العالم المعاصر .

وكان من أبرز الأنواع الأدبية في هذه الفترة التي تمتد ما بين 1930 إلى 1946 ، القصة التاريخية التي تحدد دورها بصفة عامة في بعث الروح النضالية ، واسترجاع الثقة بالنفس ، وذلك عن طريق تقديم فترات الأمجاد القديمة والبطولات الرائعة التي عرفها العرب والمسلمون عبر تاريخهم الحافل بالأحداث .

ومن الكتاب الذين ساهموا في هذا المجال الأدبي علال الجامعي و (ابن المقفع) وعبد الله إبراهيم وعبد الرحمن الفاسي وآمنة اللوه وعبد الرحمن السائح وغيرهم من الكتاب المعاصرين .

ومن الممكن أن نقسم الانتاج القصصي التاريخي إلى قسمين رئيسيين : إنتاج تاريخي تحليلي وإنتاج تاريخي أخلاقي .

يتميز النوع الأول بعدم تكديس المعلومات التاريخية ، جاعلا الفرد مركز اهتمامه ، متخذا من التاريخ العام أو الخاص منطلقا لسبر أغوار النفس البشرية ، في أدق مواقفها وأخصب لحظات وجودها .

ويمثل هذا الاتجاه علال الجامعي بقصة (تأسيس)(1) وعبد الله إبراهيم بقصة (عذراء المرية) (2) . وابن

(1) مجلة المغرب ، س 5 ، 1937

(2) المغرب ، الملحق الثقافي ، 1938 ، ع : 14 .

المقفع بـ (مؤامرة على شاعر تدبرها امرأة) (1) ، وعبد الرحمن الفاسي بقصصه (غرام شيخ) (2) و (عذراء سبتة) (3) و (الكاهنة) (4) تتكون قصة علال الجامعي من أربعة أجزاء : جزء خاص بوصف الطبيعة التي ملكت على الكاتب فكره وجعلته يتساءل في اندهاش : "أفي هذه الدنيا من يسمع لمعبوده صوتا ملائكيا خالدا فلا يشعر بالملكوت والخلود ، وتغمره قشعريرة كلها زهو وكبرياء ، والطير تشدو ألحانها العذبة المشجية لكل كبد حري ، والسماء قطعة فنية سامية علاها غيم شفاف كبير قمع مصري يكسب الوجه جمالا".

وهناك جزء ثان خاص بوصف البطلة أم البنين وهي وسط هذه الطبيعة الزاهية كئيبة حزينة .

وفي الجزء الثالث يجري حوار بين فاطمة وأختها يطلع القارئ من خلاله على الحلم الذي هز كيان البطلة : فقد رأت في المنام شبانا ابتلعهم اليم فأسرعت إلى إنقاذهم بعد تردد واستيقظت مذعورة مضطربة .

أما الجزء الرابع فقد خصصه الكاتب للافصاح عن الفكرة التي أقضت مضجع البطلة : وهي بناء جامع القرويين الذي "كان وضع لبناته منتقاة مختارة بشرى لانتقاء علمائه بعد ، بشرى للحدث الجلل الذي تتمخض به الدنيا الجديدة ، وأخيرا كان المعهد الفذ الذي سطع نوره ، والتمع بريقه ، في ذلك الليل المدلهم ، فاهتز له العالم وأمه كل متطلب للسعادة الروحية الأبدية " .

ومما لا شك فيه أن الكاتب قد وفق في استكناه مشاعر البطلة باستغلاله للحلم المركز حول البحر وما يرمز إليه من ضياع لم يتيسر

(1) النبوغ ، س 1 ، ج 1 ، 1939 .
(2) المغرب ، 1938 ، ع 13 .
(3) الوداد ، 1942 ، ع 104 .
(4) المغرب ، 1943 ، ع 1409 .

الخلاص منه إلا بإرساء أسس ذلك المسجد العتيق الذي كان منارا للعلم والهداية في المغرب .

وتمتزج بالطريقة التحليلية ، في هذه القصة ، نزعة رومانسية تظهر في توقف الكاتب طويلا في وصف الطبيعة ، وفي الإشادة بقيمة الحب في الحياة ، كما تتجلى تلك النزعة في مزاج البطلة نفسها : فقد أغرمت بذلك الجمال الطبيعي حتى كادت تصبح قطعة منه ، وغلب عليها جموح الخيال وفورة العاطفة فلم تقم للواقع وزنا ، وانساقت وراء احلامها باحثة عن الحقيقة التي بدت لها في شكل مسجد.

وأكبر عيوب هذه القصة من الناحية الفنية طغيان عنصر الوصف واقحام فقرات توجيهية بين أجزائها .

وإذا كانت القصة الاولى تتميز بكون بطلتها وجدت اليقين بعد الحيرة في العقيدة الدينية التي هي من صميم الأخلاق فإن بطلة القصة الثانية انطلقت ضد ذلك اليقين المتمثل في تقديس المواضعات المجتمعية .

وقد بلغت أم البنين قمة النشوة الروحية بعملها الإيجابي بينما كانت نشوة البطلة الثانية في التيه والإنسياق وراء الحب الرومانسي .

اما قصص عبد الرحمن الفاسي التاريخية فإنها تجري تارة في الحجاز واخرى بالاندلس وثالثة بإفريقيا الشمالية : فاحداث (غرام شيخ) تدور في عهد الرسول حين سقطت (بريرة) القبطية في شرك الرق ، وشاءت الأقدار ان تقع في يد الشيخ مغيث ، وكان "عبدا اسودا دميمًا ، دلفت به السنون الى السبعين ، فتبدى شيخا فانيا واهيا، وخط الشيب رأسه وقذاله وتداعت مفاصله بعضها على بعض ، فانحنى ظهره مستريحا على رجل ثالثة قد اتخذها تكأة من سعف النخل ، يجر بها خطاه

من داره الى مسجد الرسول". بينما بدت (بريرة) في ثيابها "جميلة فاتنة، وكانت الى ذلك صديقة عائشة ام المؤمنين، وكانت على جانب كبير من ادب النفس وشرف العلم، تعتز بذلك وتفاخر به وتغالي في تقديره" آلمها ان زوجها سافل القدر، ضئيل المطامح، ليس همه في مال ولا مجد، لذلك بذلت كل جهد للتخلص منه ونجحت مساعيها وسعدت باسترجاع حريتها. اما هو فقد شقي اعظم شقاء لفراقها "فلم يبعد عنده منها غير ذكراها، تحز من قلبه وتهد من كيانه وما غمضت له عين بعدها، ولا هدأ له بال. فقابل صدا بصد، واعراضا باعراض عسى أن يسلوها أو ينساها. ولكن عبثا حاول الشيخ، فلقد أيقظ بعدها كامن حبه ولا عج هواه، فلن يستطيع صبرا عنها أو يحتمل صدا منها".

وهكذا تبدو هذه القصة وكأنها الوجه الثاني للحقيقة الإنسانية التي تعتبر (عذراء المرية) وجهها الأول: لقد كان الرجل متابيا يسحق العواطف تحت قدميه، وهاهي المرأة تلعب نفس الدور وترمي بالحب في مهب الرياح وكل ذلك يثبت أن القوة وحدها هي الجديرة بالتقدير في الحياة الإنسانية.

يتميز الأسلوب في بعض الفقرات بالخطابية، بينما يتسم في الأجزاء الاخرى بالوضوح والسلاسة.

وتواجه القارئ في قصة عبد الله ابراهيم فتاة أندلسية انتقلت الى الحاضرة بعد أن عاشت فترة طويلة في البادية. لم تغرها مظاهر الترف وبقيت مغرمة بحياة الريف: "إغراما يملأ عليها قلبها. وإنها لمشغوفة بهذا الجمال الطبيعي الذي يتجلى فيها، وإنها لكلفة بهذه الحدائق وهذه الجنات المنتشرة هنا وهناك في غير تناسق ولا نظام كلفا استأثر بإحساسها واستغرق شعورها كله". وتخطب الفتاة وتتوجه إلى المرية لاق تنتاء فائق الثياب والرياش استعدادا للزفاف: "وإنهم ليخترقون شوارع المرية شارعا شارعا، وإنهم ليغشون أسواقها سوقا سوقا، وإذا بالخطيبة ترفع عينيها إلى الأمام،

وإذا بالعينين تقعان على رجل ، وإذا هي تحس شيئا يلابسها ملابسة قوية (...) وإذا قلبها ينازعها النظر فتصوب عينها مرة ثانية وتشعر أنها ما خوذة بشئ لاطاقة لها بمغالبته".

ويتبين للبطلة بعد التتبع والبحث أن ذلك الرجل الذي أغرمت به هو قاضي المرية الذي حاولت زيارته مرة أولى فطردت بعنف وقسوة لكنها رجعت ثانية وتمكنت من الاتصال به وحكت له قصة حبها فطردت من حضرته من جديد .

وقد كان هذا السلوك مدعاة لحزن عائلتها التي مست في شرفها بينما لم تقم هي وزنا لذلك الشرف وانساقت وراء عاطفتها إلى أن أصيبت بالجنون . لقد تمكن عبد الله إبراهيم من التقاط لحظة عبر التاريخ الأندلسي ركز عليها اهتمامه وأبرز قيمتها الإنسانية من خلال طابعها الفردي . ورغم أن هذه القصة تطلعنا على بعض أنماط الحياة في المرية إلا أن قيمتها التاريخية تتضاءل أمام الحقيقة الخالدة التي استطاع الكاتب أن يترصدها جاعلا بذلك التاريخ في خدمة الأدب . وقد توصل الى هذه النتيجة بعدم إطالته في وصف مظاهر الحضارة الأندلسية وتجنبه كل ما يمس التاريخ المحض من قريب أو بعيد .

وتتحقق في هذه القصة الوحدة الفنية بشكل رائع وتبرز البطلة وقد اتضحت مساربه نفسها : فهي رومانسية في حبها للطبيعة وفي حياتها البوهيمية وفي أحلامها الفوضوية وفي هيامها .

وبهذه الطريقة انطلقت القصة من المحيط التاريخي إلى المجال الانساني الرحب المليء بالمتناقضات وأصبح الحدث التاريجي مجرد دليل على أن تلك الحقيقة خالدة خلود الانسان .

وقد اعتمد عبد الرحمن الفاسي على التاريخ العام في (عذراء سبتة) و (الكاهنة) : فجعل محور الأولى تلك الفترة الحاسمة في العلاقات بين حاكم سبتة (جوليان) و (رودريك) ملك إسبانيا .

وبسط أمام القارىء مشاهد عن الحياة السياسية في القطر الاسباني ، دون أن يقبع تحت ركام الأحداث التاريخية ، بل ألهبها بطاقاته الفنية وخلقها خلقا جديدا حينما أخرجها من وضعها المتجمد إلى وضع اكتسبت فيه حيوية وحركة . وهكذا فإن الكاتب، بدلا من أن ينبهر بالمظاهر الخارجية والوقائع العسكرية ، استبطن نفسيات أبطاله ، وأصبح القارىء يشاهد مأساة داخلية تتجلى في ذلك الصراع الذي كان يعاني منه (جوليان) حاكم سبتة وقد توزعته عاطفة الخنوع لملكه وعاطفة التمرد عليه : " فوضع ذراعيه مشتبكتين على صدره وطفق يسير جيئة وذهابا ، والعرق يتصبب باردا على جبينه . ثم اتكا على حاجز الشرقة مستروحا نواسم باردة ، أخذت تعبث بسبالته ، وسرعان ما نشأ في نفسه سؤال ارتجت له قامته المديدة : أأرانى غير مهدد بالأبعاد عن حكم هذه القلعة ، وهذا (رودريك) الغاصب يفتك بأصدقاء (ويتزا) وينكل بأنصار أبنائه المشردين" . ولم يتوقف تيار الهواجس في نفس جوليان عند هذا الحد بل تحول سؤالا كان فيه خلاصه : "أليس في قبضتي مفتاح مملكته ؟ "لكن حاكم سبتة المسكين لم يكد يتخلص من أحلام السلطة والنفوذ حتى وقع تحت كابوس جديد قلص كيانه وأحاله نقطة استفهام: ذلك أن ابنته (كافا) التي توجهت إلى قصر الملك (رودريك) قد دنس شرفها ورجعت إلى أبيها مغضبة ثائرة فعقدت " الصدمة المفاجئة لسانه عن كل باردة وقول ، فوجم مطرقا(...) فركد الهواء وحمي الجو وناءت السماء على الأرض بثقل لا تحتمله الكائنات ، فأفرغ (الكونت) كوبا من الماء . ألا بئس الشراب شراب كالمهل يشوي الوجوه . وود لو يتمرغ على الأرض . ومن يستطيع ؟ وهي تبدو كأنما يتنفس تحتها بركان" .

لقد أصبح الوجود كله امتدادا لشخصية البطل بل ان عناصر الطبيعة الملتهبة ليست في الواقع إلا انعكاسا لمشاعر

جوليان الذي ضعف في الأخير واستسلم وحاول الانتحار حينما تعلقت عينه بخنجر على الحائط فود "لو يلامسه فيبرد به ما يجده من الحر ، وخف إليه ، لقد تناوله ، ولكن أليس نصله أحلى ببرودة ؟ وعرته رجفة سريعة سقط معها الخنجر أرضا ، ووقف الكونت ، حاكم سبتة ، تحت جنح الظلام ، وأخذ يردد هذه الكلمات خاشعا متصدعا كمن أقبل على صلاة : رحمتك يا إله."

وفي هذه اللحظة بالذات ، كان الجيش الاسلامي بقيادة طارق بن زياد يحاصر جوليان الذي لم يتردد في التحالف مع الفاتحين ضد الطاغية رودريك .

لقد اكتسب جوليان في هذه القصة بعدا إنسانيا حينما أصبح يمثل بؤرة الصراع بين الشرف والطموح ، والاباء والذعر ، وانتقلت الأحداث فجأة من أطارها التاريخي إلى مستوى إنساني عام ، وصار حاكم سبتة رمزا لانتصار العاطفة الجامحة على العقل الرصين .

ومن أهم الوسائل الفنية التي لجأ إليها عبد الرحمن الفاسي في قصته ، المزج بين مظاهر الطبيعة وخوالج النفس الانسانية بحيث أصبح كل منهما مرآة للآخر ، كما أنه برع في تقديم المشهد في مختلف ألوانه وأشكاله وحركاته ، وذلك ما أكسب الوصف نصاعة ورقة وخصبا فتحول قطعا شعرية رفيعة تعكس بذبذبات أنغامها السحرية خلجات الأبطال كموقف (كافا) في قصر رودريك وكوصف حالة جوليان في قمة أزمته .

ومما يلاحظ أن الصور الوصفية لا تقحم إقحاما ولا تتراكم أوصافها جامدة ، بل إنها تنمي حركة العمل القصصي وتعمق مضمونه وتلون إطاره بترنحات العواطف وخلجات الخواطر وهمسات اللاشعور .

وفي (الكاهنة) يشير عبد الرحمن الفاسي في الهوامش إلى بعض المصادر التاريخية التي استقى منها مادة قصته ، مثل (البيان المعرب) لابن عذارى ،

(فتوح مصر) لابن عبد الحكم و (الاستقصا) للناصري بل إنه يدرج أقوالا للكاهنة كما روتها هذه المصادر ، وذلك ما يوهمنا أنه تحول مؤرخا ، لكن الدراسة المتأنية لهذه القصة تثبت عكس ذلك ، إذ أن الكاتب تمكن من استقصاء الأبعاد الانسانية عبر الحدث التاريخي : فالبطل هنا هو خالد بن يزيد القيسي الذي كان من مغاوير الجيش الفاتح لإفريقية بقيادة حسان بن النعمان ، وقد القى عليه رجال الكاهنة القبض ، وهاهم الآن أناخوه ارضا كما ينيخون البعير ، ولعلهم اقتادوا أسراهم الآخرين ليزجوا بهم في غير هذا المكان ، فهو لا يحس لهم حركة ولا يسمع لهم ركزا ولا نفسا ، ولقد رانت الهدأة على المكان وأظلمت الدنيا من خلف العصابة المربوطة على عينيه ، فكل ما يحيط به مظلم بارد " .

وقد كان البطل العربي في الفترة الأولى من أسره يعيش في ذكرى المعارك، ولم يكد يصدقبأنه قيد الاغلال والسلاسل ، وانتبه فجأة تحت تأثير ألم الجروح التي أحدثها الحبل في معصمه ، ثم استسلم بعد ذلك للكرى . وقد ترصد الكاتب بدقة التطورات التي حدثت في موقف البطل يزيد الذي أخذ يستطيب جمال الطبيعة عندما "سرت نواسم الفجر الباردة مداعبة طنب الأخبية الهاجعة في شعاب جبال أوراس (...) فانتبه الأسير وهو يتأرجح طربا لرنات ناي أخذت تتلاشى رويدا رويدا ، كلما ابتعدت قطعان الماشية عن الأحياء ؛ وكأنما ألهاه الطرب عما يستشعره من برد في مفاصله ، وأنساه ألم الحبل الذي لايزال ملتويا على يديه"

أخذ بطلنا يتناسى وضعه ويغفل عن دوره وبذلك تسرب الضعف إلى نفسه وتغلغل فيها عندما آخت الكاهنة بينه وبين أبنائها ، وأصبحت تعامله بحنان وأطلقت سراح الأسرى العرب وأرسلتهم إلى برقة إرضاء له . لكن حدثا مفاجئا غير مجرى تلك الحياة الرتيبة : فقد بعث حسان بن النعمان رسولا إلى خالد

بن يزيد يبلغه : " أن حسانا يقول لك : ما يمنعك من الكتاب إلينا بخبر الكاهنة "فانتابت البطل العربي الهواجس وبقي مترددا بين الإستجابة لداعي الدين والوطن وبين صيانة عهد الكاهنة ": لكن أليس العرب قومي ؟ أليس الإسلام ديني ؟ أليس من الخير للكاهنة ولقومها أن ينتشر بأرضهم ديننا الحنيف ؟ وهل هي اليد جميلة أسديها لهذا البلد الجميل ؟ نعم ، وأيم الله ! ثم تطيب حياة هؤلاء البربر إذا جمعت شتاتهم كلمة الدين (...) أتراني أدل أعداء الكاهنة على ما أسرت به إلي من أمورها وأودعتني أسرارها ؟ لقد ائتمتني ... ولكن ... "

وفي النهاية قرر البطل إبلاغ الأسرار العسكرية لحسان ابن النعمان ووقعت المعركة الحاسمة التي انتصر فيها الجيش الإسلامي.

إن عبد الرحمن الفاسي في هذه القصة ، شأنه في جميع القصص التاريخية لم يهتم با لمظاهر الخارجية الا لماما ، وقد حدد زاوية إلتقاط الحدث في شخصية خالد بن يزيد الذي تحول من بطل تاريخي يصنع الخوارق إلى إنسان عادي يعتريه ضعف ويأس وحيرة ، ويبقى رغم ذلك في مستوى الدور الذي أنيط به ، وبذلك يصبح الإنتصار العسكري موازيا لانتصار إرادة البطل.

* * *

أما الاتجاه التاريخي الأخلاقي فيمثله عبد الله ابراهيم بقصتي (الندمان الثلاثة) (1) و(شهيد) (2) . وهو يتميز عن الإتجاه السابق

(1) الثقافة المغربية ، س 1938 ، ع : 11 .

(2) نفس المرجع ، س 1938 ، ع : 12 .

بكونه يقدم تاريخا موجزا يشتمل على تحليل بسيط لنفسية بعض الشخصيات ، لكنه يتضمن أكثر من هذا وذاك توجيها أخلاقيا عاما كان له مغزاه في تلك الفترة من تاريخ المغرب .

تجري أحداث القصة الأولى في صدر الإسلام حين أخذت تتسع رقعة الدولة في أقصى الشرق والغرب . أبطالها ثلاثة ساهموا بحظ وافر في الفتوحات العربية ، وجمعت بينهم العقيدة الاسلامية والصداقة المتينة فقد كانوا : "يعيشون في الكوفة لا كما يعيش الناس في الكوفة ، وكانوا لا يكادون يفترقون وكأن الله مزج بين أرواحهم جميعا ، وكان الله مزج بين قلوبهم وإحساساتهم وخواطرهم جميعا ، فما تصدر آمالهم وهو أجسهم إلا عن نفس واحدة وإرادة واحدة وفكرة واحدة ."

وكانت تلهب حماستهم روح التضحية في سبيل نشر المبادىء الاسلامية ، فيبادرون للمشاركة في جميع المعارك ولذلك عندما "أذيع النفير العام في الشام ، كانوا من أول المتحمسين للجهاد ، ثم ذهبوا في الصفوف الأولى من الجيش لمحاربة العدو(...) وكلهم يقين وحب في الاستشهاد في سبيل الله" .

وإلى جانب هذه العقيدة المشتركة جمعت بين هؤلاء الأشخاص وحدة العادة ، إذ كانوا مولعين بمعاقرة الخمر ، وشاءت الأقدار أن يستشهد أحدهم بـ (راوند) حيث توجهوا لنصرة الدين ، فحزن عليه صديقاه واستوحشا الناس وآثرا العزلة .

ولم تمض إلا أيام قلائل حتى التحق به الصديق الثاني وبقي ثالثهم غريبا ،يبكي على قبريهما ، وأصيب في الأخير باضطراب عصبي ، واستمر على هذه الحالة إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة .

لقد حدد عبد الله إبراهيم أنواعا من الروابط جمعت بين هؤلاء الندمان : فمن صداقة إلى إيمان إلى كفاح . وبهذه الفضائل تمكنوا من بسط سلطان الاسلام على جزء كبير من المعمور ، إلا أن روح الصداقة في مظهرها

الأناني جردتهم من نضاليتهم فتقوقعوا حول نفسهم يجترون الآلام بعد أن داهمهم الموت ، وذلك هو العنصر السلبي الذي لا يمكن أن يقوم مجتمع على أساسه لأنه يشل حركة الأفراد ويوقف عجلة التطور .

ولا يتردد عبد الله إبراهيم في استنكار ذلك الموقف الانطوائي مؤكدا أن "العاقل لحري (...) أن يتعظ بهذا ، وإنه لحري أن يترك الجموح فيما لا يدرك من إرادة الله وحكمته" ، كما أنه يعلن أن فضيلة النضال هي التي تتيح للفرد وللجماعة مواجهة تيار الحياة وتوجيهه ، وذلك عندما يقول : "هوذاك ، ولا أعرف شيئا يفضل هذا الذي نحن فيه من جهاد في سبيل الله ونشر لكلمته في الأرض ."

وفي قصة (شهيد) يجد القاريء صورة للموقف البطولي الذي اتخذه النعمان بن مقرن المزني عندما أسند إليه عمر بن الخطاب قيادة الجيش الفاتح لبلاد فارس ، فقد "ذهب النعمان بن مقرن ونفسه مأخوذة بهذه الكلمات الرقيقة التي ودعه بها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حين سلمه قيادة الجيش ، وكان النعمان جذلا مسرورا بهذا الغزو . وكان مؤمنا يلتهب إيمانا ونجدة " .

وقد تصدى البطل للعدو وخاض المعارك وتلقى رشقات النبال ، وبقي صامدا إلى أن خارت قواه ، فسقط على الأرض ، ولم يلفظ أنفاسه إلا بعد أن تحقق النصر للمسلمين ، فمات في غمرة الطمأنينة والظفر .

أليست هذه دعوة للمغاربة كي يتقمصوا مواقف الأبطال المسلمين إذا أرادوا استعادة مجدهم التليد وحريتهم السليبة .

إن المضمون الأخلاقي يتجلى في هاتين القصتين بشكل واضح من خلال تلك الصور المشعة من تاريخ الإسلام ، وهاتيك المواقف البطولية التي ميزت سلوك المسلمين في صراعهم ضد خصومهم .

كما يبرز ذلك المضمون في التوجيهات المباشرة التي ختم بها الكاتب قصتيه : فقد أوضح في الثانية أنه : " بمثل هذا ينصر المسلمون ، وبمثله ترفع أقدارهم وتنشر كلمة الله في الأرض . فليدوموا عليه يبارك الله لهم الحياة".

* * *

لقد كان الإنتاج القصصي التاريخي وليد ظروف خاصة وقد عرف بعد تألق عابر فترات ركود ثم عزف الكتاب بعد الإستقلال ، عن الإشادة بالأمجاد إلى الحديث عن المشاكل التي نشأت عن الصراع بين الطبقات والايديولوجيات ، في المجتمع الجديد ، ولذلك خلا الجو للقصص ذات الطابع الواقعي .

الألفاظ الآرامية فى القرآن الكريم

بقلم : الدكتور الراجي التهامي الهاشمي

كنت حدثت قراء مجلة "البحث العلمي" منذ أربع سنوات مضت عن الألفاظ الآرامية في القرآن الكريم (1) ، ثم صدني عن متابعة نشر هذا البحث أشغال ، إلى أن أصدرت وزارة الإعلام في الكويت مجلتها المتخصصة "عالم الفكر" التي جاءت متضمنة مقالي المنشور هنا بالمغرب ، أورده شاهدا على ما يقول الدكتور عبد الحميد زايد (2) ، فحفزني هذا التشريف إلى إتمام الموضوع الذي بدأ المتخصصون يهتمون به .

ولكنني خلافا للباحثين الشرقيين ، أرى أن مسألة الوصول إلى اللفظة لا يتأتى لنا بمجرد اعتمادنا على الحفريات وعلى استنتاجات المستشرقين المنطلقة من علم الأصوات واللسنيات ، وإنما أيضا على هذا العلم العظيم الذي أسعد الحظ العرب والمسلمين فاحتفظت به أمهاتنا القديمة تاما سالما من كل ، زيف وأعني به علم القراءات القرآنية الذي ازدهرت ـ والحمد لله ـ هذه الأيام ازدهارا عظيما .

---

(1) انظر البحث العلمي العدد الثالث عشر ـ شوال رمضان 87 ـ 1388 من صفحة 50 الى 68

(2) مقال الدكتور عبد الحميد زايد ، صدر في مجلة « عالم الفكر » ، المجلد الثاني . العدد الرابع ، يناير ، فبراير مارس 1972 ، تحت عنوان « نظرات عابرة بين لغات الشرق الادنى القديم . يوجد هذا الاستشهاد ابتداء من صفحة 1111 الى صفحة 1114 قد نقله بشيء من التصرف .

وعلم القراءات لا يهتم فقط ، كما يظن بعض الناس بمخارج الحروف ، وكيفية وأنواع النطق بها ، ومتى يكون الوقف جائزا ومتى يكون قبيحا ، وكيف تفخم اللام وكيف ترقق الراء ، وما الاشمام ، وما الروم ؟ ولكن أيضا بالاختلاف الناتج عن تباين لهجات قبائل العرب (I) ، وبالاثر الذي خلفه مرور لفظة من لغة أجنبية إلى لغة الضاد (2) .

وبما أن القراءات التي وصلتنا ، والتي تحتفظ لنا بها آلاف الكتب ، وبدون استثناء متواترة ، أخذها الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذها عنهم ـ كما يقول أبو الفضل عياض ابن موسى اليحصبي الأندلسي (3) **في** كتابه "الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم" ـ أضعافهم من التابعين من لا ينعد بعددهم (4) ." فإن

(I) ــ 3 ــ بدات نشر استنتاجاتي في هذا الباب في مجلة دعوة الحق في مقالات متسلسلة ، اخرها في العدد العاشر من السنة الرابعة عشر ، ذو الحجة I39I ، ابتداء من صفحة 37 .

(2) ــ 4 ــ اوضحت هذا في الاطروحة الصغرى التي نوقشت في مدريد يوم 6 مارس I970 تحت عنوان

Les terminos no quraïsies en el Cor'àn.

(3) توفي سنة 544 هـ . انظر التعريف لابنه أبي عبد الله محمد بن عياض ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ، رقم 553 ك ــ وازهار الرياض ، سيما الجزء الرابع منه الذي لم يطبع بعد ، والموجودة نسخة منه في الخزانة الملكية تحت رقم 784 ــ وبغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس ، مدريد I882 ، الترجمة رقم I296 ، ومعجم في اصحاب الصدفي ، مدريد I885 ، الترجمة رقم 279 ــ وقلائد العقيان ، بولاق I283 هـ ، الترجمة رقم 222 ــ والصلة في تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وادبائهم ، مدريد I883 رقم الترجمة 972 ــ والنجم الثاقب فيما لاولياء الله من مفاخر المناقب ــ مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم I992 ك ، والمرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، طبعة القاهرة صفحة I0I ــ وجدوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس، طبعة حجرية بفاس سنة I309 هجرية ، صفحة 277 ــ والاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، الصفحات 9I ، I9I ، 297 ، 427 ، 428 و 43I والاجزاء غير المحققة منه بالخزانة العامة بالرباط رقم (D I707) اللوحات I80 ب و I83 ب . وسلوة الانفاس طبعة فاس I3I6 هـ . الجزء الاول صفحة I5I

(4) ــ هـ ــ الشفا الجزء الاول صفحة I95 السطر 8 من طبعة مطبعة المشهد الحسني التي اشرف على تحقيها عبد الرؤوف محمد سالم .

ما جاءت به ـ يعد في نظرنا ـ ويجب أن يعد في نظر سائر شباب هذه الأمة ، أمرا لا يقبل أدنى شك ، ما دام صادرا عن صادق أمين ، منقول بنزاهة من ثقاة عن ثقاة إلينا .

وليست القراءات على كل حال ، كما يخيل إلى بعض شبابنا المثقف أمرا اجتهاديا ، كما لاحظت ذلك يوم حضوري بمدرج كلية الآداب بالرباط مناقشة أطروحة الباحث الأستاذ الجابري ، الذي يظن أن بعض وجوه القراءات اجتهادية ، كونها أصحابها بمحض بحوثهم ، ولكنها في الحقيقة وجوه في القراءات أوحى الله بها لنبيه الذي قرأ بها أمام جمع من أصحابه .

لذا كله ، سترانى أعتمد في تحليلاتي على ما يعتمد عليه اللغويون ، مضيفا إليه كل ما يمكن أن يساعدنا به علم القراءات ، لكي نصل إلى أصل اللفظة .

هذا ولقد اتضح لنا الآن ، وبعد كتابة مقالي بأربع سنوات أنه يستحيل أن نقول أي اللغة أسبق ؟ العربية أم الآرامية؟ وأيهما أخذت عن الأخرى ، وإنما نعرف فقط بشيء من اليقين إذهما : "من أسرة واحدة ، انحدرت كلها من لغة واحدة كانت أما لهن." ... "والمهم هنا هو أن هذه اللغات الثلاث ، كن لغة واحدة ذات حين ثم عملت عوامل الزمن وتنوع الأحوال الاجتماعية والحضارية والجوار عملها في تطويرها حتى توزعت لهجات ، ثم أصبحت اللهجات لغات ، كما توزعت العربية في عصرنا هذا لهجات ولغات (1) .

ولنعد بعد هذا إلى ألفاظنا الآرامية الموجودة في القرآن الكريم .

40 دهق وشق dhaq " دفع دفعا شديدا " . (2)

(1) عبد الحق فاضل : مغامرات لغوية . صفحة 9 .

(2) الأدب رفائيل نخلة اليسوعي . غرائب اللغة العربية . صفحة 182 .

لم ترد هذه المفردة في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في قوله تعالى : "وكأسا دهاقا" (1)

بهذا تكون معنى الآية اعتمادا على معنى اللفظة في الآرامية كأسٌ مُلِيء كثيرا حتى بَدَأ يراق ما فيه .

وهذا يوافق ما ذهب إليه المفسرون القدامى .

فابن عباس مثلا يقول أنها "مملوءة متتابعة" وذهب مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد إلى أنها "الملأى المترعة"، ورأى سعيد بن جبير أنها "المتتابعة" (2) .

وذهب الزمخشري إلى أنها أن "الدهاق : المترعة ، وأدهق الحوض : ملأه حتى قال قطني (3) ."

كما يوافق ما ذهب إليه الشراح . لقد رأى مثلا أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني أن "دهاقا : مفعمة ، ويقال أدهقت الكأس فدهق ، ودهق لي من المال دهقة ، كقولك قبض قبضة" (4) .

41 ـ ربّ .

يظن الأب رفائيل نخلة أنها أتت من الآرامية ودا Rabo ، كبير ، أستاذ ، رئيس (5) ، وإذا كنت مثله أرى أنها آرامية ، فإنه يجب النطق بأصلها بتشديد الباء كما أشرح أسفله .

لقد كررت هذه اللفظة عشرات المرات في القرآن الكريم ،

(1) السورة 78 ، النبأ ، الآية 34 .

(2) تفسير القرءان الكريم للحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي . الجزء الرابع ، صفحة 465 ، ابتداء من السطر الثامن .

(3) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل . الجزء الرابع صفحة 552 ، السطر الثالث .

(4) المفردات في غريب القرءان صفحة 173 ، اخر العمود الاول .

(5) غرائب اللغة العربية ، صفحة 182 .

مسندة إلى جميع الضمائر ، ومن هنا فلا حاجة إلى تعيين أماكنها في القرآن المجيد .

وإن هذه اللفظة رغم كثرة استعمالها تحتاج إلى وقفة ولو قصيرة ، علّنا نسجل نهائيا ، بشكل دقيق ، أصلها لقراء اللغة العربية .

يعرف الناس كلهم معنى هذه اللفظة ، فالربُّ هو الإله ، وقد تدل في كثير من الأحيان على مالك الشيء . فيقال : "ربُّ هذه الدار ورب المال."

أما معناها الذي كان قديما يدل على "مالك عبد" ، فقد ترك قديما ، والمفروض أنه غير مستعمل الآن . ذكر ذلك السيوطي فقال : (1) : "وترك أيضا قول المملوك لمالكه : ربي وقد كانوا يخاطبون ملوكهم بالأرباب . قال الشاعر :

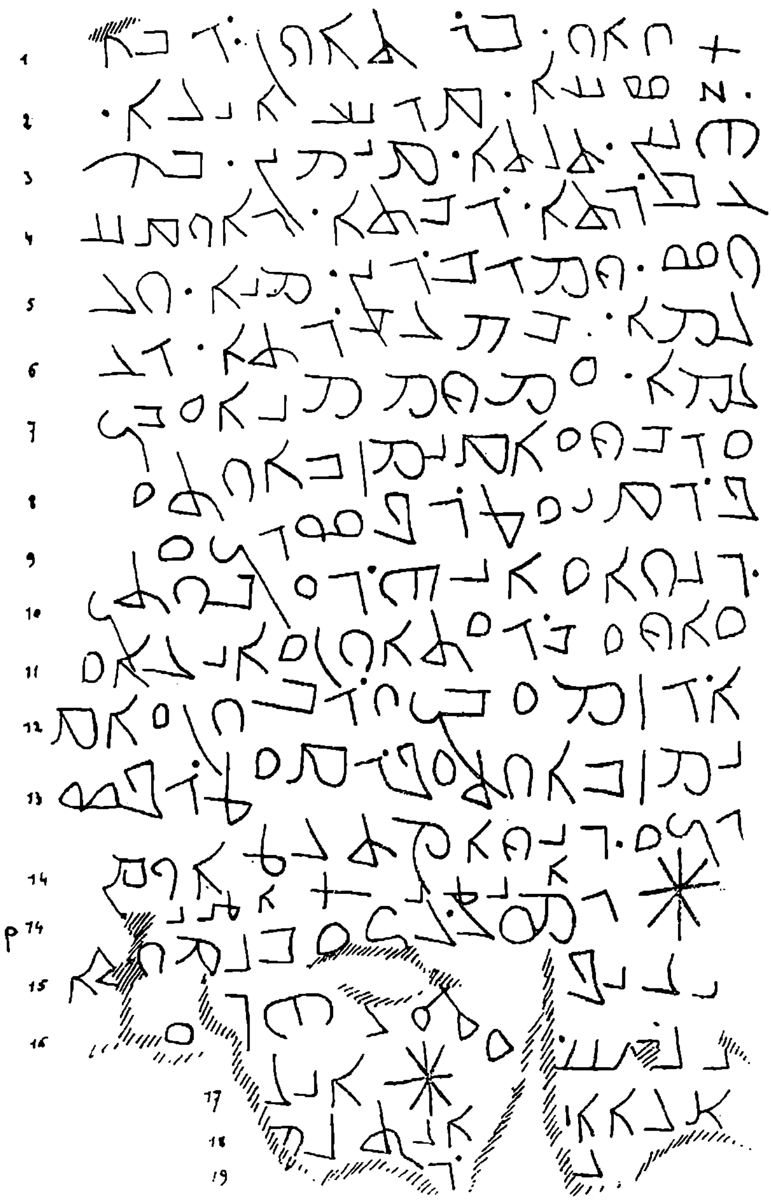
وأَسْلَمْنَ فِيها رَبَّ كِنْدَةَ وَابْنَهُ   وَرَبَّ مَعدٍّ بين خبث وعَرعَر

وإني لأعتقد اعتقادا لا يزحزحه أدنى شك ، في أن المفردة آرامية ، حجتي في ذلك صفيحة من فضة تحمل نصا آراميا قديما وردت فيه هذه المفردة "رَبّ" .

تتكون هذه الصفيحة من تسعة عشر سطرا ، تمجد المسيح عليه الصلاة والسلام ، المشار إليه فيها بحرف "واو" (ואו) المكتوب في الصفيحة بخط الآرامية المتوسط ([illegible]) (2) والذي يمكن أن ينقل إلى الخط العبري الحديث كما فعلت أو الى الخط الآراميِّ المستعمل الآن א ويبقى الشبه بين الخطوط الثلاثة كبيرا ما دمن من أصل واحد .

---

(1) المزهر في علوم اللغة وانواعها ، الجزء الاول صفحة 297 السطر السادس .
(2) انظر الرسم رقم 1 ، تر. صورة ذلك في الكلمة الاولى من سطر نظير الصفحة الذي نقله الى الارامية المتوسطة الباحث . A· Dupont Sommier انقله هنا بنصف حجمه .



الالفاظ الآرامية في القرآن الكريم — رسم رقم 1

توجد المفردة التي تهمنا الآن في آخر السطر الأول من الصفيحة التي يرجع الفضل في حل ألغازها وشرحها إلى المستشرق A. Dupont Sommer (1)

ونظرا لأهمية هذه الصفيحة بالنسبة لألفاظ الآرامية الموجودة في القرآن الكريم فإنه يحسن أن أنقل للقارىء الكريم صورة منها (2) ، جاء في السطر الأول منها .

דאד בד · תאדך · דכא

الذي ننطق به wàw . tù'en . rabbà

ونترجمه "واو . ابن تئوس (3) . الكبير"

من هذا نرى أن ربّ (דבא) rabbà آرامية ، أو على الأقل كانت مستعملة في الآرامية في الوقت الذي نُقِشَت فيه الصفيحة التي نتحدث عنها وهو القرن الثاني الميلادي (4) ، أي قبل ظهور الاسلام بحوالي خمسة قرون ، وهو أمر بالغ الأهمية لأنه يعزز ما ذهبت إليه لذا أسجله باعتزاز .

وليست الأوائل من الحفريات هي التي تنقصنا ، ذلك أننا نتوفر الآن على كتابة آرامية وردت فيها "رب" في هذه

---

(1) اعتمدت في توضيح هذه المفردة على ما نشره A. Dupont Sommer في كتابه

La doctrine gnostique de la lettre wàw d'après une la melle araméenne snédite .

طبعة باريس 1946 .

(2) تجدون صورة لهذه الصفيحة الآرامية في الرسم رقم 2 . والصورة تمثلها بأبعاد الوثيقة الحقيقية أي 10 سنتمتر على 6 سنتمتر . وقد اشتراها Charles Virolleaud الذي كان رئيسا لمصلحة الآثار القديمة بسوريا من احد تجار المصنوعات القديمة ببيروت سنة 1925 . وقد ضاعت هذه الصفيحة اثناء نقلها من باريس الى اكسفورد ولم يبق منها الا الصورة التي تنقلها اليوم مجلة البحث العلمي .

(3) تئوس هو الاله باللغة الاغريقية وهو منقول في الوثيقة على صيغة المفعولية

(4) A. Dupont Sommer في كتابه

La doctrine gnostique

صفحة 99 السطر 22 .



الالفاظ الارامية في القرآن الكريم (رسم رقم 2)

اللغة بمعنى الكبير أو العظيم في نقش غوزنة بتركيا ، وهو أثر من القرن الخامس قبل الميلاد (1) ، يتحدث عن

בעלשמין רבא

be ᶜ elšmin rabbà

الذي ننطق به

ونعثر على نفس الكلمة في كتابة النقش الذي عثر عليه في Arebsun ، والذي يرجع تاريخه إلى قرنين قبل الميلاد (2) والذي يتحدث عن

בעל רבא

bèl rabbà

42 ـ ربانـي آتٍ من اللفظة السابقة وربّاني وحنا rabono يدل في الآرامية على المعلم أو على عالم في شريعة اليهود ، حاخام (3) . ولها نفس هذا المعنى في اللغة العبرية الحديثة وهم ينطقون الآن ها רִבּוֹנִי ribbùni (4) وتدل عندهم على سيد وعلى الاستاذ ، كما يدل على مولى ورب ومتسلط وبعل .

ذكر موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر ناقلا عن أبي عبيدة : " أحسب الكلمة ليست بعربية ، إنما هي عبرانية أو سريانية " .

ثم يعلق الجواليقي على كلام أبي عبيدة هذا

(1) نشر هذه الكتابة المستشرق J. A. Montgomery في الدورية Journal of the Américan Oriantal Society, المجلد الثامن والعشرون ، الصادر سنة 1907 من صفحة 164 الى صفحة 167 .

(2) Lidzbarski, Ephimeris für semetische Epigraphik. المجلد الاول صفحة 72 ، طبعة Giessen في السنوات ما بين 1900 و 1915

(3) غرائب اللغة العربية ، صفحة 182 .

(4) المغرب من كلام الاعجمي عى حروف المعجم ، تحقيق وشرح احمد محمد شاعر صفحة 161 السطر الاول ـ طبعة طهران 1966 .

فيقول (1) : "إنَّ أَبا عبيد زعم أَنَّ العرب لا تعرف الربانيين."

وذكر هذه اللفظة أبو القاسم بن سلام فقال عنها (2) : ربانيون ، يعني علماء وافقت لغة السريانية .

ثم أخذ كل ما تقدم جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن السيوطي ، ولخصه ، فقال (3) : "ربانيون ، قال الجواليقي ، قال أبو عبيد : العرب لا تعرف الربانيون ، عرفها الفقهاء وأهل العلم . قال وأحسِبُ الكلمة ليست بعربية وإنما هي عبرية أو سريانية (4) . وجزم بأنها سريانية أبو القاسم ، صاحب لغات القرآن (5) ، وأبو حاتم في كتابه الزينة والواسطي في الارشاد ، وقال الراغب في المفردات قيل ربانيون لفظ سرياني ، وأخلق بذلك فقلّ ما يوجد في كلامهم" ، وفسرها الحسين بن محمد الدامغاني بقوله : "الرباني العالم الصابر (6) ".

لكن جمال الدين أبا الفرج عبد الرحمن الجوزي يرى أ نَّها لفظة فارسية ينقل ذلك عن ابن قتيبة (7) .

أما شهاب الدين أحمد الخفاجي ، فيرى أنها عبرية

---

(1) لغات قبائل العرب في اسفل تفسير الجلالين ، صفحة 58 من الجزء الاول .

(2) المهذب فيما وقع في القران من المغرب ، مخطوط الاسكوريال ، اللوحة 45 ابتداء من السطر 19 ـ انظر كذلك الاتقان ، الجزء الاول صفحة 139 السطر الثامن عشر

(3) في كلام الامام السيوطي خلط كبير لايوافق بالضبط ما نقله الجوالقي عن ابي عبيد ، في ترتيبه على الاقل .

(4) ان أبا القاسم لم يجزم بانها سريانية ، بل يفهم من كلامه بوضوح انها عربية وافقت السريانية .

(5) سقطت من نص السيوطي الذي املك كلمة « أصل » الموجودة في « المفردات ،،، »

(6) اصلاح الوجوه والنظائر في القرءان الكريم ، تحقيق عبد العزيز سيد الاهل ، طبعة بيروت 1970 ـ صفحة 189 السطر الثامن عشر .

(7) فنون الافنان في عيون علوم القران . نشر وتقديم أحمد الشرقاوي اقبال ، صفحة 78 ، السطر الثاني ، طبعة الدار البيضاء سنة 1970 .

ويقول : "ربانيون ، أي علماء قيل هي عبرانية لأن العرب لا تعرفها (1) .

ويرى يونس وقطرب أن هذه اللفظة تدل ، حين تقرأ بضم الراء على الفرق والجماعات (2) .

وردت هذه المفردة أربع مرات في القرآن الكريم ، جاءت بفتح الراء ومد الباء بنفس الحركة ثلاث مرات ، مرتين في المائدة في قوله تعالى : "إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونور يحكم بها النبيئون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون (3)"

ومرة ثانية في قوله تعالى : "لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ، لبيس ما كانوا يصنعون (4) "

ومرة ثالثة في قوله جلت قدرته : "ما كان لبشر أن يوتيه الله الكتاب والحكم والنبوءة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون (5) "

---

1) شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، تصحيح وتعليق ومراجعة محمد عبد المنعم خفاجي ، صفحة 133 السطر الثاني عشر ، طبعة القاهرة .
2) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءآت والايضاح عنها لابي الفتح عثمان بن جني .الجزء الاول صفحة 173 ، السطر الخامس عشر ، طبعة القاهرة سنة 1386 ولقد احصيت في تفسير المحيط لابي حيان الغرناطي اربعة عشر شرحا دون المعاني التي اعطتها الصوفية لهذه اللفظة ـ انر البحر المحيط الجزء الثاني، صفحة 506 ، ابتداء من السطر الحادي عشر ، طبعة الرياض بدون تاريخ .
4) السورة الخامسة ، المائدة ، الآية 44 ـ
5) نفس السورة الاية 63 .
6) السورة الثالثة ال عمران الاية 79 .

ولم تأت إلا مرة واحدة بكسر الراء والباء وبدون مد في قوله تعالى : "وكأين من نبيئٍ قتل معه رِبيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا ، وما استكانوا، والله يحب الصابرين (1) "

وستتضح غرابة هذه اللفظة أكثر عندما نتعرض ولو بشيء من السرعة لقراءتها .

إن جماعة من القراء هم علي وابن مسعود وابن عباس والحسن وعكرمة وأبو رجاء وعمر بن عبيد وعطاء بن السائب (2) قرأوا هذه اللفظة بضم رائها . ويظهر أن ابن عباس قرأها بالفتح ، نقلها عنه قتادة .

ويظهر أن أبا حيان لم يقتنع بوجهة نظر ابن جني حين علل قراءة الضم بأنها لهجة تميمية ، ولم ير فيها إلا قضية جمال مجانسة الحركات ، فقال :

" وقرأ علي وابن مسعود وابن عباس وعكرمة والحسن وأبو رجاء وعمرو بن عبيد وعطاء بن السائب بضم الراء وهو منسوب إلى الدهر الطويل (3) .

43 ـ رحيق ، الموجودة في قوله تعالى "يسقون من رحيق مختوم (4) "

ومعلوم أن مدلول هذه اللفظة الآن هو "بعيد" وقد أتتها هذه الدلالة من معناها في اللغة الآرامية .

غير أنه يحق لنا أن نتساءل وكيف تدرّجت معنى هذه اللفظة من "الخمر" التي تدلُ عليها في الآرامية إلى معنى "بعيد " التي توحي به الآن في أغلب، استعمالاتها ؟

---

1) نفس السورة الاية 146 .

2) ذكرهم ابن جني في محتسبه وقال : « ان الضم في ربيون تميمية وان الكسر لغة» الجزء الاول صفحة 173 ، السطر الثالث عشر . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على انهم يحسون انها من غير لغة الضاد .

3) البحر المحيط ، الجزء الثالث ، صفحة 74 السطر الثامن عشر .

4) السورة 83 المطففون الاية 25 .

كان الآراميون يسمون الخمر " Rahiqu وسما لأنها كانت تأتيهم إلى جزيرة العرب من بلاد بعيدة جدا عنهم (1) .

ومن هنا نجد أن الشراح مثل إسماعيل بن أحمد الجوهري يشرحون الرحيق بـ "صفوة الخمر" (2) ، بينما يكتفي الراغب الأصفهاني بقوله "رحيق خمر" (3) .

وقال الخليل أنه أجود الخمر ، ويرى الأخفش والزجاج أنه الشراب الذي لا غش فيه " (4).

ويظن أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي أن الرحيق من أسماء الخمر (5) .

44 ـ رحيم و رحمان

وهما نعتان مختصان بالحق سبحانه وتعالى ، وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شاركه في الصفة الأولى (6)

اعتقد أن أصل رحيم آت من الكلمة الآرامية وسُطبا rahmunu (7) ومعلوم أن لفظة رحيم وردت بكثرة في القرآن الكريم ، وإذا صدقنا ديتلف نيلسن ، فإن هذه المفردة توجد في النقوش الصفوية (8) كاسم الإله . جاء في كتابه

---

(1) غرائب اللغة العربية صفحة 182 .

(2) الصحاح ، الجزء الرابع ، صفحة 1480 ، مادة « رحق » اخر العمود الثاني .

(3) المفردات في غريب القران ، صفحة 191 السطر السادس عشر من العمود الاول.

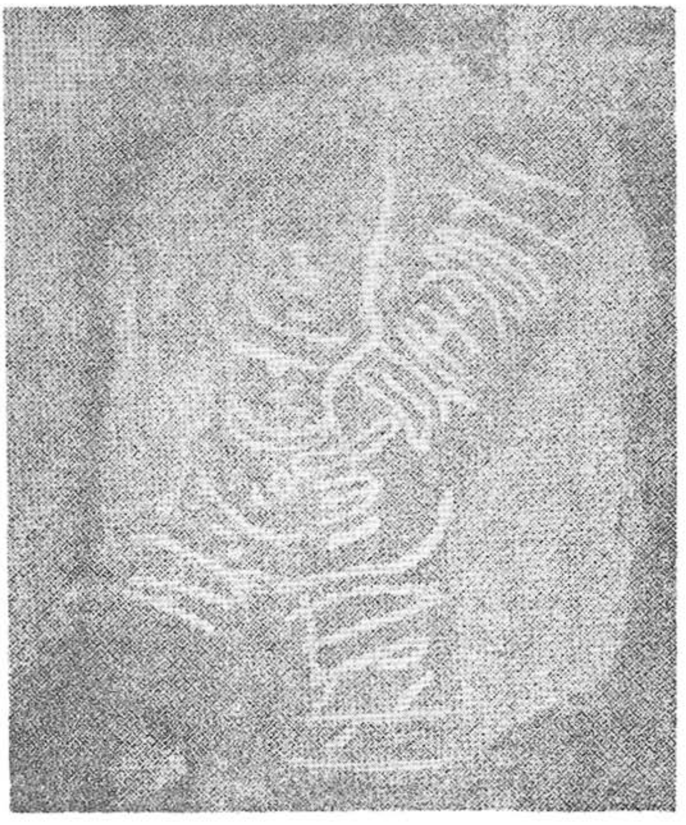
(4) البحر المحيط ، الجزء الثامن ، صفحة 438 ـ السطر العشرون .

(5) تفسير القران الكريم ، الجزء الرابع صفحة 486 السطر السابع والعشرون .

(6) اقرأ الآية 128 من السورة التاسعة ، التوبة ـ

(7) غرائب اللغة العربية ، صفحة 182 .

(8) حتى يكون القاريء العربي فكرة صحيحة عن الصعوبات التي لاقاها العلماء المستشرقون الذين كان لهم الفضل في العثور على هذه النقوش الت يتزخر بها متاحف اوروبا والتي تساعدنا على معرفة لغات ميتة هي اصلا لغتنا العربية انقل لهم على اللوحة رقم 3 نقشا صفويا .



الالفاظ الآرامية في القرآن الكريم
نقش صفوي ـ ر. رسم ـ 3 ـ



الالفاظ الآرامية في القرآن
الكريم ـ رسم ـ 4 ـ

التاريخ العربي القديم قوله : "الرحيم استعمله القرآن كثيرا كلقب لله ، وهو يوجد في النقوش الصفوية كاسم (هرحم لإله) (هرحم) (1) ، وفي النقوش السبائية (رحيم) (رحم) (2) .

ويرى Ditlef Nielsen أن كلمة الرحيم في[1] العربية الشمالية ، أي فيما يشبه كثيرا اللغة العربية الفصحى الآن ما هي إلا (رحمن أن) الموجودة في العربية الجنوبية (3) .

فإذا أردنا أن نخرج من هذا الغموض الذي أحاط بهذه اللفظة عند نيلسن ومن تبعه في آرائه ، وهو جماء غفير ، رجعنا إلى ما كتبه عنها المستشرق Jacques Jomier لنشفي غليلنا (4) .

أما عن لفظة الرحمن فإن نيلسن ذكرها في كتابه "التاريخ العربي القديم" (5) ، فقال : "الرحمن استعمله القرآن في العصر المكي كثيرا عوضا عن (الله) ولفظ (الرحمن) هو في الواقع اسم لاله في السبائية (رحمن أن) .

ويظن هذا المستشرق أن النبي العربي الكريم استمدّ توحيده من بلاد العرب القديمة بدليل استعمال القرآن العظيم لهذه اللفظة ، بينما ينقد في نفس اللحظة فكرة أتى بها المستشرق هوبرت جريمة لا تبعد عن رأيه السابق لا قليلا ولا كثيرا . ونظرا لأهمية هذا النص

---

1) ان الفرق الموجود بين الصيغتين هو زيادة أداة التعريف (هـ) المستعملة الآن في اللغة العبرية والتي كانت مستعملة في اللغة العربية الشمالية .

2) انقل صورة لحجر كريم سبايء عليه كتابة . وهو محفوظ بالمتحف البريطاني — انظر الرسم رقم 4 .

3) Handruch Der Altarabischer Altertumskunde
تأليف الدكتور ديتليف نيلسن ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على ، صفحة 242 السطر الخامس طبعة القاهرة 1958

4) Jacques Jomier, Al-Rahmàn dans le Coran (Melanges Louis Massignon) .
دمشق 1957 الجزء الثاني ابتداءمن صفحة 366 .

5) صفحة 242 — السطر الثالث .

بالنسبة لأصل لفظة رحمن فإنني أنقله برمته ، قال نيلسن (1) :

وإذا بحثنا عن الذين مهّدوا للتوحيد الذي يدعو إليه القرآن ، فإنه يجب أن نلجأ إلى القرآن نفسه ، فالكتاب الكريم يشير إلى توحيدمستمد من بلاد العرب القديمة . وهنا نلمس التطور والتدرج الذي انتهى إلى محمد وختم به . فهو خاتم الأنبياء ، والرسل حقا . ويرى (هوبرت جريمه) أن التوحيد الاسلامي انعكاس للتوحيد العربي الجنوبي . ونظرة التوحيد الاسلامي إلى الله نظرة عربية جنوبية فهو (رحمن) وعند الجنوبيين (رحمن أن) (2) وهو سيد السماوات والأرض . ويحاول هذاالعالم أن يثبت من عبارات القرآن وألفاظه أثر العرب الجنوبيين في الاسلام ، إلا أن (جريمه) لم يوفق فيما ذهب إليه ، ومثله مثل (مرچوليوث) الذي ذهب بعيدا في آرائه" .

وإنه لمن الانصاف أن نذكر أن العلماء المسلمين قد تنبهوا قديما إلى غرابة هذين اللفظين عن اللغة العربية .

يخبرنا ابن كثير القرشي الدمشقي أن ابن الأنباري نقل في كتابه الزاهر عن المبرد أن الرحمن اسم عبراني ليس بعربي (3) .

أما أبو حيان ، فإنه لا يقبل أن تكون الرحمن كلمة أجنبية عن اللغة العربية الفصيحة ، فيقول رادا على من يرى غير ذلك : "ومن غريب ما قيل فيه أنه أعجمي بالخاء المعجمة فعرب بالحاء ، قاله ثعلب (4) "

---

(1) نفس المصدر اعلاه ، صفحة 243 ابتداء من السطر الثاني عشر .

(2) يخيل الي ان في هذه العبارة اضطرابا مصدره الترجمة العربية .فالنص الاصلي لاشك يقول : « ::: فهو في الشمال (رحمن) وعند الجنوبيين (رحمن ان) ... »

(3) تفسير القران الكريم ، الجزء الاول صفحة 20 السطر عشرون .

(4) البحر المحيط ، الجزء الاول ، صفحة 15 السطر 25 .

وذكره جلال الدين السيوطي فقال : (1)

"الرحمن . ذهب المبرد وثعلب إلى أنه عبراني وليس بعربي ، وأصله بالحاء المعجمة " .

فإذا كان السيوطي لم يشر إلا إلى لفظة الرحمن في مهذبه وأغفل اختها الرحيم ، فإنه ذكرهما معا في إتقانه . أما اللفظة الأولى فأوردها بنص المهذب ، وأما الثانية فقال عنها : "وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر وشرحبيل ، قال "الرحيم" بلسان الحبشة" (2) .

يحسن ، قبل أن ننهي الحديث عن هذه الكلمة ، التي اغتنم بعض المستشرقين ورودها المبكر في القرآن الكريم . ليطلقوا العنان لتأويلات بين العلم الحديث أنها غير صائبة .

لقد ظن فعلا العلماء Noldeke و Sprenger (3) و Grünboum أن ورود لفظة الرحمٰن هو أثر من آثار اليهودية (4) ، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يتردد في أول الوحي في ذكر اسم الله ، واضعا مكانه الرحمن (5) .

ونعتمد على ردّ رأي هؤلاء المستشرقين لا على القرآن والأحاديث النبوية ولا على أقوال المفسرين وعلماء

(1) المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب ، مخطوط الاسكوريال ، اللوحة 45 — السطر الخامس .

(2) الاتقان في علوم القران ، الجزء الاول — صفحة 138 — السطر 31 .

(3) لقد اوضح الشيخ المرحوم عبد الوهاب النجار التأويلات الخاطئة التي ذهب اليها هذا العالم فيما يخص ورود ابراهيم في القران الكريم والفرق الموجود في زعم هذا المستشرق بين ابراهيم في القران المكي وابراهيم في القران المدني ، في كتابه القيم « قصص الانبياء » صفحة 73 ، ابتداء من السطر التاسع عشر — الطبعة الرابعة ، مصر 1375 ، فانظره ، واضف اليه ما نذكره لك هنا تتق الانسياق مع اراء لايعززها عقل ولا نقل .

(4 René Dussaut

« La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam »

طبعة باريس سنة 1955 صفحة 155 السطر العاشر

5) تعالى الله عما يقولون . ما نقلت هذا الا لعلمي بان حاكي الكفر ليس بكافر .

الاسلام ـ فقد لا يقبلون منا ذلك ـ وإنما على حفريات ، توجد جل أصولها في متاحف أوروبا ، وعلى استنتاجات علماء غربيين .

لقد اعتمد G. Ryckmans على حجج كثيرة ليبيّن أن لفظة (رحمانا) موجودة بهذه الصيغة في حفريات حميرية (1) .

وأقوى من هذا تلك الأسكفة (2) التي نشرها Maurice Dunand (3) والتي تمثل إلها (مؤنثا) لا تحمل إلا سخافا وأساور وخلاخل وحقوا .

ويهمنا نحن الآن منها تلك الكتابة التي كان الفضل في رسمها للعالم Vogüé (4) ، وهي كتابة تحمل أربعة أسماء إلاهية هي (5) : عد عويد ورحيم ويميت وروضة .

وبما أن هذا النقش (6) صفوي ، فإننا نستطيع أن نجزم أن كلمة الرحمن كانت معروفة عند الصفويين قبل ظهور الاسلام بكثير .

ومن المحتمل جدا أن يكون الصفويون الذين كانوا في أغلبيتهم الساحقة عربا رُحّلا استعاروا هذه اللفظة من أهل حوران الذين كانوا أهل حضر (7) .

---

1) انظر الدورية Le muséon المجلد السابع والستين لسنة 1954 من صفحة 99 الى صفحة 105 .

(2) انقل للقارىء صورة لهذه الاسكفة الرسم رقم 5 .

(3) انظر الرقم 3 من اللوحة الخامسة من بحثه Le musée de Souweida

(4) انظر . Syrie Centrale, Inscriptions sémitiques

(5) انظر G. Ryckmans Les religions arabes préislamiques الطبعة الثانية صفحة 22

(6) انقل هنا صورة لهذه النقش على اللوحة 6 .

(7) انظر . La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam صفحة 142 ـ السطر 26 وكذا صفحة 147 السطر 18 .

45 ـ راعـنــا الـواردة فـي قـولـه تـعـالـى : "يــا أيـهـا الـذيـن آمـنـوا لا تـقـولـوا راعـنـا ، وقـولـوا انـظـرنـا واسـمـعـوا ، ولـلـكـافـريـن عـذاب ألـيـم" (1)

قـال الـزمـخـشـري (2) : "وكـانـت لـلـيـهـود كـلـمـة يـتـسـابـون بـهـا عـبـرانـيـة أو سـريـانـيـة وهـي "راعـيـنـا" فـلـمـا سـمـعـوا بـقـول الـمـؤمـنـيـن : راعـنـا ، افـتـرصـوا وخـاطـبـوا بـه الـرسـول صـلـى الـلـه عـلـيـه وسـلـم ، وهـم يـعـنـون بـه تـلـك الـمـسـبـة ، فـنـهـى الـمـؤمـنـون عـنـهـا وأمـروا بـمـا هـو فـي مـعـنـاهـا وهـو (أنـظـرنـا) .

وأكـد أبـو حـيـان الـغـرنـاطـي هـذه الـنـظـريـة نـاسـبـا هـو أيـضـا هـذه الـلـفـظـة إلـى الـعـبـرانـيـة أو الـسـريـانـيـة ، ورادا الـرأي الـذي يـقـول أن الـمـفـردة مـخـتـصـة بـالانـصـار ، قـائـلا (3) : " ومـن زعـم أن راعـنـا لـغـة مـخـتـصـة بـالانـصـار فـلـيـس قـولـه بـشـيء لـأن ذلـك مـحـفـوظ فـي جـمـيـع لـغـة الـعـرب" .

نـعـرف لـهـذه الـلـفـظـة ثـلاث قـراءات :

1 ـ قـراءة الـجـمـهـور "راعـنـا" بـكـسـر الـعـيـن .

2 ـ قـراءة عـبـد الـلـه بـن مـسـعـود وقـد كـتـبـت فـي مـصـحـفـه طـبـقـا لـقـراءتـه هـذه "راعـونـا" بـإسـنـاد الـفـعـل لـضـمـيـر الـجـمـع . ويـقـال أنـهـا كـتـبـت أيـضـا فـي مـصـحـفـه "ارعـونـا" (4) .

3 ـ وقـرأ الـحـسـن (5) وابـن أبـي لـيـلـى وأبـو حـيـوة وابـن مـحـيـصـن "راعـنـا" بـالـتـنـويـن جـعـلـه صـفـة لـمـصـدر مـحـذوف" (6) .

---

1) السورة الثانية ، البقرة ، الاية 104 .

2) الكشاف ـ الجزء الاول ، صفحة 130 ، السطر الثامن .

3) البحر المحيط ، الجزء الاول ـ صفحة 339 السطر الرابع .

4) البحر المحيط الجزء الاول صفحة 338 ـ السطر التاسع والعشرون .

5) لم يذكر الزمخشري في هذه القراءة الا الحسن ، انظر الكشاف الجزء الاول صفحة 130 السطر الثاني .

6) البحر المحيط ـ الجزء الاول ، صفحة 338 السطر العشرون .

السكونيون

عبد القادر زمامة

هناك في ميدان البحث عن المؤلفات التي عنيت بدراسة التفكير الاسلامي وفلسفة العقائد في الأندلس والأقطار المغربية نجد أمامنا أسرة علمية تسلسل العلم في أعلامها مدة طويلة وهذه الأسرة هي أسرة السكونيين...!

ولقد سجلت المعاجم المؤلفة في طبقات الرجال وكذلك بعض المصادر التاريخية كثيرا من أعلام أسرة السكونيين يوم كانوا في الأندلس في يابُرة ولبلة . وإشبيلية . وقرطبة. وكذلك يوم هاجر بعضهم إلى المغرب وتونس وبلاد المشرق ...!

وسجلت المعاجم والمصادر أيضا لأعلام هذه الأسرة تضلعا من العلم . واستقامة في الخلق . وزهدا واضحا في أعراض الدنيا ومفاتنها... كما سجلت لبعضهم اتجاها آخر في الحياة والسلوك !

والتفكير الاسلامي في العقائد على الطريقة الأشعرية يكاد يكون قدرا مشتركا بين اهتمامات هؤلاء الأعلام . يكتبون فيه . ويؤلفون الكتب والرسائل . ويناظرون ويجادلون بحماس المومنين . وحجج العلماء المفكرين .

وآثار السكونيين في علوم القرآن والعقائد كثيرة احتفظت المعاجم والمصادر ببعض أسمائها . كما أن يد الدهر أبقت على بعض مخطوطاتها في الخزائن العامة والخاصة...!

ولقد كان لي لقاء طويل مع رسالة علمية كتبها أحد أعلام هذه الأسرة . وجرني هذا اللقاء إلى البحث عن المؤلف وأسرته والاتجاه العام لأعلامها .

لهذا سنتحدث في هذا المقال عن الأسرة العلمية...!

وفي مقال آخر عن الرسالة والمؤلف.

ولنَبْدَأْ بضبط الكلمة وتحقيق النسبة .

كيف نضبط السين من كلمة السكوني . بالفتح أم بالضم...؟ وإلى أي شيء وقعت النسبة...؟ هنا. يحدثنا الإمام ابن حزم في كتاب ـ الجمهرة ـ عن السكونيين في الأندلس ونسبتهم العربية اليمنية إلى جد أعلى هو أشرس بن كندة...! ويختم حديثه قائلا :

"وكانوا ينتمون تجيبيين! وإنما كانوا سكونيين فقط! وإنما تجيب بنو عمهم... !(1)"

ونشاهد ضبط السين في النسخة المطبوعة من الجمهرة بحركة الفتحة

والحازمي الهمداني يذكر في كتاب (عجالة المبتدي) هذه النسبة إلى السَّكون بن أشرس بن كندة . ويختم كلامه قائلا :
"ويقال فيه السَّكَنِي ...!"

ونشاهد ضبط السَّكوني . والسَّكَني في كلام الحازمي بفتح السين (2) .

وفتح السين في النسبة إلى السكون بن أشرس هو المعروف في كتب اللغة (3) لكن المستغرب أن نجد في كتاب :

"طُرفة الأصحاب في معرفة الأنساب" تأليف السلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول ملك اليمن المتوفى سنة 696 ه وهذا الكتاب مطبوع بدمشق سنة 1949 م وهو من مطبوعات المجمع العلمي العربي...

نجد المؤلف يذكر من بطون كندة السكون مرتين!.. في المرة الأولى ينص على فتح السين وضمها ...!! (4) وفي المرة الثانية ينص على فتح السين...!! (5)

وعلى كل فالمشهور المعروف هو فتح السين...!

بعد هذا ننتقل إلى نقطة أخرى تلفت النظر عند الحديث عن هؤلاء السكونيين . وهي إننا نجد في بعض التراجم المتعلقة بأعلام هذه الأسرة . إضافة خاصة هكذا : ابن خليل...! السكوني...!

ولا شك أن هذه الإضافة ترجع إلى جد لهؤلاء يسمى خليلا... كما سنرى...!

وهو خليل بن إسماعيل السكوني حدث ابن خير الأندلسي عنه وأجاز له سنة 557 هـ كما يقول ابن الآبار (6) .

ولخليل هذا أبناء وأحفاد من الأعلام...!

وله أخ من أعلام الأسرة يسمى عبد الغفور بن إسماعيل السكوني له ترجمة مشرقة في كتاب صلة الصلة لابن الزبير وكان من جملة الآخذين عن أبي الحكم بن برجان . وأبي العباس بن العريف . ورحل إلى المشرق وبه توفي سنة 540 هـ وأخذ عنه في الأندلس أبناء أخيه خليل الآتي ذكرهم (7) .

هذا هو سبب إضافة بعض أعلام السكونيين إلى خليل...!

بعد هذا نذكر الأعلام من أبناء خليل السكوني .

1) أحمد المكنى بأبي العباس المتوفى سنة 581 هـ له ترجمة مختصرة في تكملة ابن الآبار (8) . وأخرى حافلة في الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي...(9) وفي آخر ترجمته من الذيل نجد هذه المنظومة في ترتيب العلوم حسب اتجاهه واتجاه أسرته في ذلك العصر .

إن العلوم لجمة وأجلها
علم القرآن وسنة المختار
فاحفظ كتاب الله واحو علومه
فإذا انتهيت فمل إلى الآثار
واعرف صحيح رواية وسقيمها
وتحر هدي السادة الأبرار
وعلى الإمام الأصبحي فَعَوِّلَنْ
فهو العليم بموقع الأخبار
وانْحُ من علم الكلام جوامعا
تهديك يوم تحير النظار
واقفُ الإمام الأشعري تسر على
غراء واضحة الضوى للساري
والنحو من شرط العلوم فإنه
لغوامض الأقوال كالمسبار

2) عبد الحق المكنى بأبي محمد روى عن عياض

وابن العربي وجماعة ورحل من الأندلس إلى مدينة فاس ليأخذ علم الكلام والأصول على أبي عمرو السلالجي...! وأخذ العلم عنه أبناء أخيه أحمد سابق الذكر... وهم خمسة كما يقول ابن الزبير (10).

3) عبد الله بن خليل المكنى بأبي محمد له ترجمة في الذيل والتكملة لابن عبد الملك قصيرة ولكنها مشرقة (11).

ولعل لخليل ابنا رابعا يسمى عبد الرحمن ويكنى بأبي زيد كما يظهر ذلك من إشارة لابن الزبير وردت في الصفحة 194 من صلة الصلة...!

وبمراجعة تراجم هؤلاء الأعلام من أبناء خليل السكوني ندرك القيمة العلمية والاجتماعية التي كانوا يتمتعون بها في المدن الأندلسية. والطابع العام الذي يطبعهم...! بين معاصريهم من أهل العلم والمعرفة...!

ونذكر الأعلام الخمسة من أبناء أحمد بن خليل السكوني وهم كما يقول ابن الزبير :

أبو بكر يحيى بن أحمد. والمحمدون الأربعة. أبو الحكم وأبو عمر، وأبو الفضل وأبو الخطاب ...!

فأما الأول وهو أبو بكر يحيى فله ترجمة في تكملة ابن الآبار (12) وصلة ابن الزبير (13) حافلة بالأخبار والمؤلفات والمجالس العلمية التي كان يملي بها معارفه الواسعة ...!

ويحفظ التاريخ لأبي بكر هذا موقفا متصلبا في سبيل العقيدة حيث هاجم مهاجمة عنيفة عبد الحق ابن سبعين المتصوف المشهور. وانتقد ما أبداه من غلو في مذهبه ...! حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم يجد منجاة إلا بالهجرة إلى الشرق والإقامة بمكة. حيث وقف موقفا سياسيا من قضية بيعة أهل الحرمين للمستنصر الحفصي ...! وكتبها بخطه ـ تنويها بذكره عند السلطان والكافة. وتأميلا للكرة ...! كما يقول ابن خلدون ...! (14)

وأما المحمدون الأربعة فلهم تراجم عند ابن عبد الملك المراكشي في كتابه الذيل والتكملة (15).

ويلفت النظر أن أبا الخطاب منهم كانت له رواية واسعة وألف فهرسة حافلة نجد النقل عنها عند المؤرخين كما عند ابي العباس المقري في نفح الطيب (16) كما يلفت النظر أن ابن عبد الملك ذكر شيئا كثيرا من آثار أبي الخطاب وأخباره وتنقلاته وآخلاقه ...!
وذكر ابن عبد الملك أنه رأى بمراكش أبا عمر بن أحمد بن خليل السكوني حينما ورد عليها . كما رأى ابنه أبا الحكم بها...! ولا شك أن ابن عبد الملك قدر هذه الأسرة وقدر أعلامها إما لمسه في أعمالهم وآثارهم من سمو واستقامة وإخلاص في سبيل نشر العلوم وتدوين المعارف ...! ونحن مدينون له بكثير من المعلومات التي دونها في كتابه عن السكونيين وأخبارهم .

وإلى جانب هذه السلسلة التي عرفنا ارتباطاتها الخاصة من أبناء وأحفاد خليل بن إسماعيل السكوني ...

نجد شخصيات أخرى تحمل هذه النسبة (السكوني) ولكننا نجهل ارتباطاتها بهؤلاء . وهذه الشخصيات كثيرة نجدها موزعة في المصادر التاريخية ... أندلسية ومشرقية .

ويمكننا الإشارة إلى هذه المصادر من دون حصر ...!
صلة الصلة لابن الزبير
التكملة لابن الآبار
الكتيبة الكامنة
نفح الطيب
فهرسة ابن جابر الوادي آشي (مخطوطة)
رايات المبرزين
المغرب في حلى المغرب
اختصار القدح المعلى
برنامج الرعيني
المقتضب من تحفة القادم
شذرات الذهب

ولما حلت بالمدن الأندلسية الفواجع العظمى خلال القرن السابع الهجري شاهدنا الأندلسيين وفيهم عدد كبير من أهل العلم والمعرفة يهاجرون إلى بر العدوة وإلى أقطار الشرق ومن

هؤلاء أسرة السكونيين التي نقلت كتبها وآثار رجالها وأخبارهم معها ومن أجل ذلك احتلت من المعاجم التاريخية هذه المكانة المرموقة . وبقيت بعض مؤلفات أعلامها محفوظة في بعض الخزائن ... ومنها الرسالة التي سنتحدث عنها ...!

وفي المغرب وفي ناحية فيچيچ بالخصوص نجد هناك أسرة علمية تسمى بأسرة السكونيين وقد ظهر منها أعلام هناك نشروا العلم وألفوا الكتب وكان منهم من تولى منصب القضاء ...!

وهذه الأسرة العلمية في فچيچ كان لها اتصال بالأسرة العلمية الأخرى هناك وهي أسرة بني عبد الجبار الورتديغيين أصحاب الخزانة العلمية الشهيرة هناك ...!

ولا ندري الصلة التي بين السكونيين الأندلسيين والسكونيين الفيچيچيين...! وعلى كل فالمشاركة في الإسم واقعة .. وهذا كل ما نعرف لحد الآن ...!

التعليقات

(1) انظر كتاب الجمهرة لابن حزم . ص 429 – 430 دار المعارف القاهرة
(2) انظر كتاب (عجالة المبتدي) للحازمي ص 72 . القاهرة 1965 م
(3) انظر مادة سكن في تاج العروس
(4) انظر ص 11 من كتاب طرفة الاصحاب .
(5) انظر ص 34 من طرفة الاصحاب . ولب اللباب للسيوطي ص 138
(6) التكملة ج ا ص 310 . ط القاهرة 1955 م
(7) صلة ص 37 . ط الرباط 1937 م
(8) التكملة ج ا ص 83 .
(9) القسم الاول من السفر الاول ص 111
(10) صلة الصلة ص 4 . وانظر السلوة ج 3 ص 173
(11) بقية السفر الرابع ص 224
(12) انظر من طبعة مدريد ص 728 . ج . 2
(13) انظر ص 193
(14) انظر ذلك في العبر ج 6 ص 635
(15) انظر التراجم من ص 630 الى ص 636 من القسم الثاني من السفر الخامس
(16) انظر ج 4 ص 304 . من طبعة بيروت

السلطان نور الدين بن زنكي السلجوقي

(511 - 577)

في نظر ابن قاضي شهبة

الامدادات الاسلامية على عصره منذ عام 565 حتى وفاته

ـ 2 ـ

للدكتور عبده اسماعيل الطهطاوي

سنة خمس وستين*

فيها نزل الفرنج ـ خذ لهم الله تعالى ـ على دمياط .
قال ابن الأثير : كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا ، وأيقنوا بالهلاك ، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية يستنجدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر وانهم خائفون على بيت المقدس من المسلمين وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، وقصدوا دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ظهيرا يملكون به ديار مصر . فلما نازلوها حصروها ، وضيقوا على من بها فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل وحشر فيها كل من عنده ، وأمدهم بالمال والرجال والسلاح والذخائر وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المحارب وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء ، وخرجوا من طاعته ، وصاروا من خلفه ، والفرنج من أمامه ، فجهز إليه نور الدين العساكر إرسالا ، كلما تجهزت طائفة أرسلها ، فصارت الجيوش يتبع بعضها بعضا . ثم صار نور الدين في من عنده من العساكر ، فدخل بلاد الفرنج فنهبها ، وأغار عليها ، واستباحها ، ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد عن ممانع .

---

* ـ تابع لما نشر في العدد الاول من هذه المجلة

فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين بلادها ونهبها وإخرابها رجعوا خائبين ، ولم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل (السائر) :ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين ، فوصلوا بلادهم فرأوها خاوية على عروشها وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما ، أخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى حكى لي عنه أنه قال : مارأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب (وغيرها) . إنتهى . وذكر الذهبي أن إقامتهم بدمياط واحد وخمسون يوما . وقال الكتبي : ثلاثة وخمسون يوما . قال : وجيش صلاح الدين الجيوش مع ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهين شاه ومع خاله شهاب الدين محمود . ووقع في الفرنج الوباء والفناء ، فرجعوا بعد أن مات منهم خلق كثير . وقال العماد الكاتب : بلغني من شدة اهتمام نور الدين ـ رحمه الله (تعالى) بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية ، فجاء في جملة الأحاديث مسلسل بالتبسم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك ، وقال : إني لأستحي من الله تعالى أن يراني متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج .

وفيها وصل نجم الدين أيوب إلى مصر ، فخرج صلاح الدين وجمع الأمراء ، وخرج العاضد لتلقيه إلى باب الفتوح عند شجرة الأهليلج إكراما لولده ، ولم تجر بذلك عادة ، وكان أعجب يوم شهده الناس . وخلع العاضد عليه ، ولقبه الملك الأفضل ، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا . وقال له صلاح الدين : يا أبتاه هذا الأمر لك ، ونحن بين يديك . فقال : يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له ، فلا ينبغي أن تغير موقع السعادة . فحكمه في الخزائن كلها ، وكان رحمه الله كريما ، يطلق ولا يرد ، وأقطعه صلاح الدين الأسكندرية ودمياط والبحيرة ، وأقطع شمس الدولة أخاه قوص وأسوان وعيذاب ، وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف دينار (وستين ألف دينار) . وسبب توجه نجم الدين إلى مصر أن صلاح الدين أرسل يطلبه

من نور الدين ليكمل له السرور . وتجمع القصة مشاكله ما جرى للنبي يوسف ـ صلى الله عليه وسلم ـ . قال ابن شداد، وقال ابن أبي طي : إن سببه أن الخليفة المستنجد بالله أرسل من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة بمصر فأحضر الأمير نجم الدين أيوب والزمه الخروج إلى الديار المصرية ، وحمله رسالة منها : "وهذا أمر تجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة، والمنقبة المثيلة ، قبل هجوم الموت ، وحصول الفوت ، ولا سيما وأمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته ، وهو عنده من أعظم أمنيته .

وفيها توجه نور الدين إلى الكرك ، فنازلها ، ونصب عليها المجانيق ، وأقام عليها أربعة أيام فأتاه الخبر أن الفرنج ، قد جمعوا ، وساروا إليه وأن ابن الهنقرى وابن الرفيق ، وهما فارسا الفرنج في وقتهما في المقدمة إليه ، فرحل نور الدين نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج ، فحاد عن طريقه . فقصد نور الدين وسط بلادهم ، ونهب ما كان على طريقه ، ثم نزل إلى البلقاء . قال ابن الأثير : وكان سبب توجه نور الدين إلى الكرك (أن) نجم الدين لما أراد التوجه إلى مصر اجتمع معه من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة مالا يعد ، فخاف نور الدين عليهم ، فسار (معهم) إلى الكرك ، وسار نجم الدين ومن معه من هناك .

وفيها كانت الزلزلة الكبرى (التي) لم ير الناس من أول الإسلام مثلها ، (وقد) عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق والعواصم وأنطاكية واللاذقية وجبلة وجميع بلاد الساحل إلى الداروم ، وتهدمت الأسوار والقلاع والدور ، وهلك من الناس ما يخرج عن العدو الإحصاء ووقع معظم دمشق وشرفات الجامع ، وسقف رؤس المنابر وكانت تهتز مثل النخل في يوم (عاصف) وكانت بحلب أعظم بحيث وقع نصف القلعة والبلد ، وهلك من أهلها ثمانون ألفا تحت الردم ، ولم يمت بدمشق إلا رجل واحد أصابه حجر وهو على درج جيرون لأن أهلها خرجوا إلى الصحراء ، قاله الكتبي في تاريخه . وبقي من نجا من

أهل حلب لا يقدرون أن يأووا إلى بيوتهم (السالمة من الخراب) خوفا من الزلزلة ، فإنها عاودتهم غير مرة ، وكانوا يخافون من الفرنج ويقيمون بظاهر حلب ، فحضر نور الدين وأمر بعمارة ما تهدم من البلاد والقلاع والأسوار والجوامع وأخرج من الأموال ما لا يقدر قدره ، ورتب في كل بلد طائفة صالحة من العسكر خوفا من الفرنج ـ (خذلهم الله) ـ وأما بلاد الفرنج ـ (خذلهم الله تعالى) ـ فإن الزلزلة فعلت بها أيضا قريبا من هذا ، وهم أيضا خائفون على بلادهم من نور الدين ، ووقعت قلعة حصن الأكراد (بحيث لم يبق للسور أثر) ، ولولا أن نور الدين كان بالبلقاء والفرنج قبالته لسار ، وأخذ حصن الأكراد وجاءه ما اشغل قلبه من ناحية الشرق ودمشق . أما الشرق فوقاه أخوه قطب الدين مودود بالموصل وأما دمشق فوقاه العمادي ، وكان نائبه في حلب وغيرها ، وكانت له بعلبك وتدمر ، وكان عزيزا عنده ، وصاحبه وحاجبه . وبلغه أيضا وفاة مجد الدين بن الداية بحلب ، وكان صاحب أمره .

وفيها أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن ، وكان قديما عند أبي سليمان الداراني فأحرقه الفرنج لما نزلوا على داريا أيام مجير الدين آبق ، فعمره نور الدين في هذه السنة ، وجعله وسط القرية ، وعمر بها أيضا مشهد أبي سليمان الداراني .

وفيها كانت حروب كثيرة بين ملوك الغرب بجزيرة الأندلس وكذلك بين ملوك الشرق .

سنة ست وستين

فيها سار نور الدين إلى سبخار ففتحها ، وهدم سورها بالمجانيق ، وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي ، ثم سار إلى الموصل ، وكان بها سيف الدين غازي ابن مودود أخو نور الدين باستخلاف من والده ، وكان المتولي لأموره فخر الدين عبد المسيح وهو المتحكم في المملكة وليس لسيف الدين من الأمر إلا الإسم ، وكان عبد المسيح هذا نصرانيا ، فأظهر الإسلام وكان يقال : إن له كنيسة في جوف داره ، وكان سيء السيرة خبيث السريرة في حق

المسلمين والعلماء خاصة فراسل عبد المسيح (نور الدين) يسأله الرجوع وعدم التعرض للموصل ؛ فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته ، وقال لرسوله قل لصاحبك أنا أرفق ببني أخي منك فلا تدخل بيننا ، وذكر له تهديدا كبيرا ، وكان كل من بالموصل مع نور الدين ، وكاتبوه بالوثوب على عبد المسيح ، وتسليم البلد إليه . فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه ، وتقريره على سيف الدين ، ويطلب الأمان لنفسه ، وإقطاعا يكون له فأجابه إلى ذلك ، وقال : لا سبيل إلى إبقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام فإنني لم آت لأخذ البلد من أولادي ، وإنما جئت لأخلص الناس منه وأتولى أنا تربية أولادي ، فاستقرت القاعدة على ذلك ، وسلمت الموصل إليه ، وسكن القلعة وأقر سيف الدين غازي على الموصل وولي بقلعتها خادما يقال له سعد الدين كمشتكين ، وجعله دردارا (فيها وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده) بمقتضى الفريضة الشرعية ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها ، فلما دخل الموصل خلعها على ابن أخيه سيف الدين غازي ،وأطلق المكوس (جميعها) من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأعطى الشيخ عمر الملا ستين ألف دينار من فتوح الفرنج ، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل فبني بالموصل وأقام بالموصل نحو عشرين يوما وسار إلى الشام ، فقيل له : إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك (قد) أسرعت العود ، فقال : قد تغير قلبي فيها ، فإن لم أفارقها ظلمت ، ولمعني آخر أيضا إنني ها هنا لا أكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد . كذا قاله صاحب الروضتين . وقال الشيخ عماد الدين (بن كثير) : إن نور الدين لما كان في آخر ليلة من إقامته بالموصل رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وهو يقول (له) طابت لك بلدتك ، وتركت الجهاد ، وقتال أعداء الله ! فنهض من فوره إلى السفر ، وما أصبح إلا سائرا إلى الشام ، واستفتى الشيخ أبا سعد بن أبي عصرون ، وكان معه على سنجار ونصيبين والخابور ، فاستناب فيها ابن أبي عصرون

نوابا ، وأخذ معه عبد المسيح إلى دمشق ، وغير اسمه (إلى) عبد الله ، وأقطعه إقطاعا حسنا .

وفيها كانت وفاة أمير المؤمنين المستنجد ، وخلافة ابنه المستضيء ، وذلك أن المستنجد كان قد مرض في هذه السنة ثم عوفي فعمل ضيافة عظيمة بسبب ذلك ، وفرح الناس ، وكان قد تغير على قطب الدين قيماز مقدم جيوشه وعلى ولده المستضيء وأمر في مرضه بالقبض عليهما ، فبلغ قيماز ذلك ، فخلا بابن صفية الطبيب ، وقال له : لا بد من التدبير في الخلاص منه وإلا فعلت بك وصنعت فقال : لا شيء أضر عليه من الحمام (قال : فأشر عليه به) . فأشار عليه ، فقال : لست أريده ولا أطيق الحرارة ، وطال الأمر على قيماز فدخل على المستضيء واستوثق منه باليمين ثم دخل إلى الدار قهرا وحمل المستنجد في فراشه وأدخله الحمام وهو يستغيث ويقول : لا أريده ، وقيماز يقول له : يا مولانا هذا هو الذي ينفعك . ولا بد منه ولما حصل في الحمام أغلق عليه الباب حتى مات رحمه الله (تعالى) وكان حسن السيرة ، فيه محبة لأهل العلم والخير وإكرام لهم وإحسان إليهم آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، فطنا ذكيا فصيحا . يحكى عنه أنه التقى بابن شبيب (في البرية ، فقال له ابن شبيب ؟ فقال : عبدك يا أمير المؤمنين . أراد الخليفة ابن شبيب وأراد ابن شبيب) عبدك وكان رحمة الله من خيار الخلفاء وأعدلهم وأرفقهم بالرعايا . وضع عنهم المكوس والضرائب ولم يترك بالعراق مكسا ، وكان شديدا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس . قال ابن الأثير : بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ، ويكتب فيهم السعايات فأطال حبسه فحضر بعض أصحابه ، وشفع فيه ، وبذل عنه عشرة آلاف دينار ، فقال (له) : أنا أعطيك عشرة آلاف دينار ، وتحضر لي إنسانا (آخر) مثله أحبسه وأكف شره عن الناس . وحكى الشيخ عماد بن كثير أن المستنجد رأى في (منامه) النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة وكان آخرهن قبل أن يلي بأربعة أيام وهو يقول (له) : قل اللهم أهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت دعاء

القنوت بتمامه . وذكر الذهبي أنه ما زالت الحمرة الكثيرة تعرض في السماء منذ مرض المستنجد وكانت ترمي ضوءها على الحيطان وكانت (مدة) خلافته إحدى عشرة سنة وشهرا ، وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس، وهذا العدد (له) بحساب الجمل اللام والباء وفيه يقول بعض الأدباء .

أضحيت لب بني العباس كلهم
إن عددت بحساب الجمل الخلفا

وولي بعده ابنه المستضيء أبو محمد الحسن ، وخلع يومئذ على الناس أكثر من ألف خلعة وأطلق الأموال للأمراء والعلويين والهاشميين والقضاة والعلماء (وجميع الناس) ورد المظالم وأسقط المكوس قال ابن الجوزي : وأظهر من العدل والكرم ما لم نره في الأعمار . قال : واحتجب فلم يركب إلا مع الخدم ولم يل الخلافة من اسمه الحسن وكنيته أبو محمد غير الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما والمستضيء .

وفيها عزل صلاح الدين قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة وولي قضاء القضاة لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراداني الشافعي ، فاستناب في سائر المعاملات قضاة شافعية وبني صلاح الدين بالقاهرة موضع شجرة المعونة مدرسة للشافعية ، وبني دار العز مدرسة للمالكية .

وفيها اشترى تقي الدين عمر بن شاهين شاه منازل العز بمصر ، وعملها مدرسة للشافعية ووقف عليها حمام الذهب والروضة وغيرهما .

وفيها بنى الملك الناصر دار سعيد السعداء (وهو) خادم من خدام القصر خانقة للصوفية ، وصنع بيمارستانا للمرضى وبنى على تربة الشافعي ـ رضي الله عنه بالقرافة مدرسة .

وفيها خرج صلاح الدين إلى الغزاة ، وأغار على الرملة وعسقلان ، (وهجم ربض) غزة ، وكأن بأيلة قلعة في البحر

قد حصنها أهل الكفر ، فعمر لها مراكب ، وحملها إلى الساحل على الجمال ، وركب بها الصناع هناك ، وشحنها بالرجال والعدد وكان على الحاج منها خطر عظيم .

وفيها توجه صلاح الدين إلى الأسكندرية وأمر بعمارة أسوارها وإبراجها وأبدانها وسمع بها حينئذ من السلفي .

وفيها شرع صلاح الدين في عمارة سور القاهرة لأنه كان قد تهدم أكثره ، وصار طريقا لا يرد داخلا ولا خارجا ، وولاه لقراقوش الخادم .

وفيها أمر بتغير شعار الإسماعيلية ، وقطع الآذان " بحي على خير العمل من ديار مصر (كلها) وشرع في تمهيد الخطبة لبني العباسي .

وفيها ظهر بدمشق مغربي ادعى الربوبية ، وأرى الناس خوارق من السحر ، فضربت عنقه .

سنة سبع وستين

فيها خطب بمصر لبني العباس ، وسببه أن صلاح الدين لما استولى على مصر ، وضعف أمر العاضد كتب إليه نور الدين يأمره بقطع خطباء المصريين لبني العباس ، فخاف من أهل مصر أن لا يجيبوه (إلى ذلك) لميلهم إلى العلويين ، وربما وقعت فتنة لا تتدارك ،

فكتب إلى نور الدين يخبره (بذلك) ، فلم يصغ إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه بذلك الزاما لا فسحة له فيه .

واتفق أن العاضد مرض فجمع صلاح الدين الأمراء والأعيان ، واستشارهم ، فمنهم من أجاب ، ومنهم من خاف ذلك ، إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين ، وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي يعرف بالأمير العالم ، فلما رأى

ما هم عليه من الإحجام قال : أنا أبتديء بها ، فلما كان أول - جمعة من المحرم صعد المنبر (قيل الخطيب) ، ودعا للمستضيء بأمر الله ، فلم ينكر أحد ذلك عليه ، فلما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة (الخطبة) المستضيء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان ، وكتب بذلك الى سائر البلاد المصرية . وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلم بذلك وقيل : بلغه ، فارسل الى صلاح الدين يستدعيه ليوصي اليه ، فخاف أن تكون خديعة ، فلم يذهب اليه ، ومات العاضد يوم عاشوراء ، فندم صلاح الدين على الاستعجال بقطع خطبته . كذا قاله ابن الاثير . وقال ابن ابي طي الحلبي : لما عول صلاح الدين على الخطبة لبني العباس أمر والده الأمير نجم الدين بالنزول إلى الجامع في جماعة من أصحابه وأمراء دولته وذلك في أول جمعة من السنة وأمره أن يحضر الخطيب إليه ، ويامره بما يختاز . وإنما فعل ذلك الملك الناصر ووكل ، الأمر إلى غيره استظهارا خوفا من فادحة ربما طرأت ، أو عدو ربما ثار ، فيكون هو معتذرا من ذلك . ولما حضر الخطيب إلى عند نجم الدين قال له : إن ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت عنقك . قال فلمن أخطب ؟! قال : للمستضيء العباسي . فلما صعد المنبر) ، وخطب ووصل إلى ذكر الخليفة لم يذكر أحدا ؟ ، لكنه دعا للأئمة المهديين وللسلطان الملك الناصر ، ونزل فقيل له في ذلك ، فقال : ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته ، ولاتقرر معي في ذلك قبل الجمعة ، وفي الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله تعالى ما يجب فعله من تحرير الإسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك . وقيل أن العضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة قال : لمن خطب ؟ قيل له : لم يخطب لأحد مسمى . قال في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمى . واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية . وقيل : أنه فكر ، واستولى عليه الفكروالهم حتى مات . وقيل : أنه لما سمع ذلك اهتم ، وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط ، فقام متعللا خمسة أيام ، ومات . قيل أنه امتص فص خاتمه وكان تحته سم فمات ولما اتصل موته

بالملك الناصر قال : لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة . وحكى أن القاضي الفاضل قال للسلطان (صلاح الدين) لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت . (أشار إلى أن العاضد قتل نفسه) . قال وحكى ابن المارستاني في سيرة ابن هبيرة الوزير قال : (أنه) من عجب ما جرى في أمر المصريين أنه رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر ، والأنور منهما مسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول ، ويهب أدنى نسيم فيحركها وأنه حركها وظلها في الأرض ، وكان الرجل يتعجب من ذلك ، وكأنه سمع أصوات جماعته يقرؤون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها فسأل من حضر ، وقال :ما هذا ؟ فقالوا : قد استبدل الناس بإمامهم . قال : وكان الرجل (قد) استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماما برا تقيا واستيقظ الرجل ، وبلغ المنام ابن هبيرة الوزير (إذذاك ببغداد) ، فعبر المنام بأن الإمام الذي بمصر يستبدل به ، وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللحية ، وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أول مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده ، وقيل في ذلك الزمان أشعار في (هذا) المعنى ،منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن نزكان ، وكان صاحب ابن هبيرة ، قالها حين سمع تأويل المنام

ليهنك يا مولاي الإمام بشارة
بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الأعادي بهمة
تقاصر عنها السمهري المثقف
بعثت إلى شرق البلاد وغربها
بعوثا من الأراء تحيي وتتلف
فقامت مقام السيف والسيف قاطر
ونابت مناب الرمح والرمح يرعف
وقدت لها جيشا من الروع هائلا
إلى كل قلب من عدائك يرجف

ملكت به أقصى المغارب عنوة
وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ليهنك يا مولاي فتحا تتابعت
إليك به خوض الركائب توجف
أخذت به مصرا وقد حال دونها
من الشرك ناس في لها الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصبة
يعاف التقي والأين منهم ويأنف
فطهرها من كل شرك وبدعة
أعز عزيز بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا
تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو أن والت ليوسف مصرة
وكانت إلى عليائه تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف
وخلصها من عصبة الرفض يوسف

قال يحيى بن أبي طي : يريد بيوسف الأول يوسف الصديق (النبي ـ صلى الله عليه وسلم) وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذ ، وقاله على سبيل الفأل ، ألا تراه قال بعد هذا البيت

فشابهته خلقا وخلقا وعضه
وكل عن الرحمن في الأرض يخلف

وجرى الفأل في البيت باسم الملك الناصر يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس ، وهذا من أعجب الإتفاقات . قال العماد : ولما توفي العاضد جلس السلطان الملك الناصر للعزاء ، وأغرب في الحزن والبكاء ، وبلغ الغاية في اجمال أمره والتوديع له إلى قبره ثم تسلم القصر بما فيه ، وكان منذ قتل مؤتمن الخلافة قد وكل السلطان بالقصر بهاء الدين قراقوش ، وجعله مكانه ، واستنابه مقام نفسه وأقامه ، فما دخل إلى القصر شيء وخرج إلا بمرأى منه ومسمع ،

ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشروع ، فلما توفي العاضد أمر السلطان بالإحتياط على أولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الإنفراد ، وقرر ما يكون لهم برسم الكشوات والأقوات والأزواد ، وجميع الباقين من عمومتهم وعترتهم في إيوان ، واحترز عليهم في ذلك المكان ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا وهم إلى الآن محصورون محشودون لم يظهروا ، ثم عرض من بالقصر من الجواري والعبيد والعدة والعديد والطريف والتليد فوجد أكثرهن حرائر ، فأطلقهن ، وجمع الباقيات فوهبهن ، وفرقهن وأخلى دوره وأغلق قصوره ، وسلط جوده على الموجود وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود . وأخذ ما صلح له ولأهله من خيار الذخائر ، وزواهر الجواهر ، ونفائس الملابس ، ومحاسن العرائس ، وقلائد الفرائد ، والدره اليتيمة والياقوته (العالية) الغالية القيمة والموصوغات التبرية . والمصنوعات العنبرية والأواني الفضية ووصف العماد أشياء عديدة ثم قال : وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق ، ولبيس وسحيق ، وبال وأسمال ، ورخيص وغال ، وكل منقول ، ومحمول ، ومصوغ ، ومعمول . واستمر البيع فيها مدة عشر سنين ، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين ، الواردين والصادرين . وقال ابن أبي طي لما تسلم القصر لم يجد من المال كبير امر ، لان شاور كان قد ضيعه في اعطائه الفرنج في المرات الذي تقدم ذكرها ، ووجد فيها ذخائر جليلة من الملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر ومن عجيب ما وجد (فيه) قضيب زمرد طوله شبر ، وكسر قطعة واحدة وكان سمت حجمه مقدار الإبهام ووجد فيه طبل للقولنج ، إذا ضرب عليه أحد فيه ريح غليظ أو غيره خرج منه ذلك الريح من دبره . ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المانع ووجد (فيه) سبعمائة يتيمة من الجوهر . فأما قضيب الزمرد فان السلطان اخذه ، وامر صانعا ليقطعه فأبى الصانع قطعه ، فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع ، ففرقه على نسائه وأما طبل القولنج فأخذه بعض الأكراد ولم يدر ما هو ، فضرب به فحبق أي ضرط ولم يدر ما شأنه ذكره وأما الإبريق فأنفذه السلطان إلى بغداد ، وفرق على الأمراء شيئا كثيرا من قطع البلخش والياقوت والذهب

ثم باع الباقي . وقال الكبيبي في تاريخه : كان في القصر من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند خليفة ، ولا عند ملك مما قد جمع على طول السنين ، فمنه الدرة اليتيمة مثل بيضة الحمام والياقوتة الحمراء (وتسمى حافر الحمار) ، ووزنها أربعة عشر مثقالا ، والحبل للياقوت الأحمر وأرسل إلى نور الدين من ذلك عدة من الأمتعة المستحنة ، والآلات المثمنة وقطع البلور واليشم والأواني التي لا يتصور وجودها في الوهم وثلاث قطع من البلخسن أكبرها نيف وثلاثون مثقالا ، (والثاني ثمانية عشر مثقالا) ، والأخرى دونهما وفرق بها من الآلىء مصونها وسكونها ومن الذهب ستين ألف دينار ومن الطيب والعطر ما لم يسمع بمثله ومن ذلك عمامة القائم بطيلسانه . فلما أحضرت بين يدي نور الدين وكان بحلب قال : والله ما كان بنا من حاجة إلى هذا ، ما وصل إلينا عشر معشار ما انفقناه في العسكر التي جهزناها إلى مصر ، وما قصدنا بفتحها إلا فتوح الساحل . ومن جملة ما بيع خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا ، يقال : أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر . ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ويقال أنها كانت تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف مجلد ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة ، وحصل القاضي الفاضل نخبها ، وذلك أنه دخل إليها واعتبرها ، فكل كتاب صالح له قطع جلده ، ورماه في بركة (كانت) هناك ، فلما فرغ الناس من شرى الكتب اشترى هو تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها محرمة ، ثم جمعها بعد ذلك ، ومنها حصل ما حصل من الكتب . (وقال العماد الكاتب : كانت الكتب) قريبا من مائة وعشرين ألف مجلد . وقال ابن الأثير : كان فيه من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد . قال ابن أبي طي : واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر ، وأعطى السلطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة ، وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري ونقل

الملك العادل إلى مكان آخر منه وأخذ باقي الأمراء (دور) من كان ينتمي إليهم ، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن دارا أخرج منها صاحبها وسكنها ، وانقضت تلك الدولة برمتها ، وذهبت تلك الأيام بجملتها بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد ، واستخدموا (العباد) مائتين وثمانين سنة وكسور . قال : وحكى أن الشريف الجليس (وهو رجل كان قريبا من العاضد ، يجلس معه ، ويحدثه ، عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السلطان بعد انقراض دولتهم ، وحضر معه جماعة من أكابر الأمراء ، فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة للشريف ، حدثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم . قال : نعم طلبني العاضد يوما فحضرت مع جماعة ، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهما أقبية مثل أقبيتكم ، وقلانس كقلانسكم ، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم . فقلنا له : يا أمير المؤمنين ما هذا الذي ما رأيناه قط ؟ فقال : هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ، ويأخذون أموالنا وذخائرنا . قال : ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم ، وأذلوهم ، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم وإذا وجد أحد من الأتراك مصريا أخذ ثيابه ، وعظمت الأذية بذلك وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد ، وفرح الناس بذلك وكتبت الكتب به إلى الأقطار ، وتحدث به السمار ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب البشارة به إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عصرون وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها فسار إلى أن وصل من بغداد ، فخرج الموكب في تلقيه وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده معظمين لجليل مورده ، ونثرت عليه دنانير الأنعام ، وجيء بكل إحسان وإكرام ، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين . وقال الذهبي في تاريخ الإسلام : ووصل الأستاذ عماد الدين صندل الطواشي إلى دمشق رسولا من دار الخلافة في جواب البشارة بالخلع والتشريفات لنور الدين وصلاح الدين ، فلبس نور الدين الخلعة ، وهي فرجية وجبة وقباء وطوق ذهب وألف دينار وحصان بسرج خاص ، وسيفان ولواء وحصان

آخر بحليته يخب بين يديه . وقلد السيفين إشارة إلى الجمع له بين مصر والشام ، وخرج إلى دست السلطنة واللواء منشور والذهب منثور إلى ظاهر دمشق ، وانتهى إلى آخر المدينة ، ثم عاد وسير إلى صلاح الدين تشريف فائق ، لكنه دون تشريف نور الدين (بقليل:) وكان أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية ، وقضى أهلها العجب ، وكان معها إعلام وبنود واهب عباسية للخطباء بمصر وسير إلى العماد الكاتب خلعة ومائة دينار من الديوان .

فائدة

العاضد آخر خلفاء العبيديين ، فكان قاطعا لدولتهم لأن العاضد في اللغة القاطع لا يعضد شجرها : أي لا يقطع . يقال : إن المعز لما أتي إلى القاهرة قال لديوان الإنشاء اكتبوا لنا ألقابا يصلح لنا أن نتلقب بها . فكتبوا له ألقابا ، آخر ما كان فيها لقب العاضد وهو اتفاق غريب ، وفال عجيب واسم العاضد عبد الله ، ولد سنة ستة وأربعين ، (وبويع له سنة خمس وخمسين وعمره تسع سنين) ، وعاش إحدى وعشرين سنة ، (وخلافته إحدى عشرة سنة) وما نقلناه من كون مولده سنة ست قاله ابن كثير وقال الكتبي : ولد سنة أربع وأربعين ، وعاش ثلاثا وعشرين سنة وكانت سيرته مذمومة ، وكان شيعيا خبيثا ، لو أمكنه قتل (كل) من يقدر عليه من أهل السنة فعل وكان هؤلاء الطائفة يدعون (أنهم) شرفاء فاطميون ، فملكوا البلاد وقهروا العباد . وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلا ، ولا نسبهم صحيحا ، بل المعروف أنهم بنو عبيد ، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي . وقيل كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام ، وكان حدادا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ، وزعم أنه علوي فاطمي ، وادعى نسبا ليس بصحيح لم يذكره أحد من مصنفي الأنساب العلوية ، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك ، وتسمى بالمهدي وبنى المهدية بالمغرب ، ونسبت إليه ، وكان زنديقا خبيثا ، وعدوا للاسلام ، متظاهرا

بالتشيع متسترا به ، حريصا على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والمحدثين الصالحين جماعة وكان يرسل على الفقهاء والعلماء فيذبحون في فرشهم ، وكان قصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم ، فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالتهم والله متم نوره ولو كره الكافرون وكان له شيعة ببغداد وخراسان وكانوا يرجفون أن المهدي يظهر بالمغرب ويغلب على الأرض كلها ، وكان له دعاة بالمغرب يدعون الناس إليه وإلى طاعتة ويأخذون عليهم العهود ويلقون إلى الناس بأمره بحسب عقولهم ، واحتمال كل طبقة منهم . فمنهم من يلقون إليهم بأنه المهدي بن رسول الله وحجة الله على خلقه ، ومنهم من يلقون إليهم أنه الله الخالق الرزاق ، وكان إذا ضج الناس من هذا أخذ الدعاة ، فمرة يحبسهم ، ومرة يقتلهم ، ويقول : ما أمرت بهذا وتقول الدعاة : هو آمرنا ، وبأمره فعلنا ، وله أن يمتحننا وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها ، وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى هذه السنة . وفي أيامهم كثرت الرافضة ، واستحكم أمرهم ، ووضعت المكوس على الناس ، واقتدى بهم غيرهم ، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام كالنصرية والدرزية والحشيشية نوع منهم . وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة حتى أخذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان وكرك الشوبك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد وطرابلس وأنطاكية وجميع ما والى ذلك إلى بلاد سبس ، واستحوذوا على بلاد آمد والرها ورأس العين وبلاد شتى وغير ذلك ، وقتلوا من المسلمين خلقا وأمما لا يحصيهم إلا الله ، وسبوا ذراري المسلمين من النساء والولدان مما لا يحد ، ولا يوصف وكادوا أن يتغلبوا على دمشق ولكن الله سلم ، إلى أن من الله على المسلمين بظهور البيت ـ الأتابكي ومن يلوذ به مثل صلاح الدين، (فاستردوا البلاد) وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد وكانوا أربعة عشر مستخلفا عدة خلفاء بني أمية لكن بني أمية كانت مدتهم نيفا (وثمانين) سنة ، وكان ثلاثة من هؤلاء

المستخلفين بإفريقية ، (وهم الملقبون بالمهدي والقائم والمنصور واحد عشر بمصر) وهم الملقبون بالمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظاهر والفائز والعاضد . فالمهدي تولى خمسا وعشرين سنة ، (ثم تولى بعده ابنه القائم بالله اثنتي عشرة سنة) وسبعة أشهر وكان أسوأ حالا من أبيه ، وزاد على شره أضعافا (مضاعفة) . جاهر لعنه الله بشتم الأنبياء ، وكان ينادي في الأسواق بإفريقية والمهدية : ألعنوا عائشة وبعلها ، ألعنوا الغار ومن حوى . وقتل الفقهاء والعلماء القتل الذريع ، (ثم تولى بعده ابنه المنصور بالله سبع سنين وستة عشر يوما) ، ثم تولى بعده المعز لدين الله ثلاثا وعشرين سنة وخمسة أشهر ، وله بنيت مدينة القاهرة ، وهو أول من خطب له بمصر منهم وأذن فيها بحي على خير العمل ، ثم تولى بعده ابنه الحاكم بأمر الله وعمره أحد عشرة سنة وستة أشهر خمسا وعشرين سنة وشهرا وكان أسوأهم سيرة وأقبحهم سريرة وكان يجري منه ما لو جرى من الصبيان حالة لعبهم لاستنكر ، ولنذكر شيئا من أفعاله القبيحة ، وسيرته الملعونة ـ (أخزاه الله تعالى) ـ كان قبحه الله تعالى كثير التلون في أقواله وأفعاله ، وكانت أخلاقه متضادة بين شجاعة وإقدام ، وجبن وإحجام ، ومحبة العلم وانتقام من العلماء وميل إلى الصلحاء وقتل الصلحاء والغالب عليه السخاء ، وربما بخل بما لم يبخل به أحد ، ولبس الصوف سبع سنين ، وامتنع من دخول الحمام ، وبقي ثلاث سنين يجلس في الشمع ليلا ونهارا ثم عن له ألا يحبس إلا في الظلمة ، وكان يتوصل إلى القتل بكل وجه ، وقتل من العلماء والكتاب مالا يحصى ، وجرى في أيامه أمور كثيرة عجيبة ، منها أنه أمر بسب الصحابة رضي الله عنهم وأمر أن يكتب ذلك على أبواب المساجد والشوارع ، ثم محاه ، (ونهى عنه) ، ثم أمر بقتل الكلاب ، ثم نهى عنه ، ومنع التراويح عشر سنين ، ثم أباحها ، وهدم قمامة وبنى مكانها مسجدا ثم أعادها كما كانت أولا ، وبنى المدارس ، وجعل فيها العلماء والمشايخ ، ثم هدمها وقتلهم وكانت أفعاله كلها في هذه النسبة ،

فمنها أنه كان يعمل الحسبة بنفسه ، فيدور في الأسواق على حمار له ، فمن (وجده قد) غشى في معيشة امر عبدا أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى ، ولم يسبقه الى هذا الامر المنكر عثره الله ومنها أنه منع النساء من الخروج الى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع الاساكفة من عمل الخفاف المتخذة للنساء ، ولم تزل النساء ممنوعات من الخروج الى الطرقات الى خلافة الظاهر . قال ابن خلكان : وكان مدة منعهن سبع سنين وسبعة أشهر . ومنها أنه أمر بغلق الاسواق نهارا وفتحها ليلا ، فامتثلوا ذلك دهرا طويلا حتى مر يومابشيخ يعمل النجارة بعد العصر، فوقف عليه وقال : ألم أنهكم عن هذا ؟ فقال ياسيدي ماكنا نسهر لما كنا نتعيش في النهار فهذا من جملة السهر فتبسم وتركه ، وأعاد الناس على أمرهم الاول ومنها أنه نهى عن أكل الملوخية والجرجير وعلل تحريم الملوخية بميل معاوية إليها ، وعلل تحريم الجرجير بكونه منسوبا الى عائشة رضي الله عنها وعذره - قبحه الله - أنحس من ذنبه وأطلع على جماعة أكلوا الملوخية فضربهم بالسياط وطاف بهم القاهرة ، ثم ضرب رقابهم على باب زويلة ومنها أنه نهى عن بيع الرطب ، وجمع منه شيئا كثيرا، وأحرقه وكان مقدار النفقة على إحراقه خمسمائة دينار ونهى عن بيع العنب وأنفذ شهودا الى الجيزة ومعاملتها حتى قطعوا أشياء كثيرة من كرومها ، ورموها الى الارض وداسوها بالبقر ، وجمع ماكان في مخازنها من جرار العسل فحملت الى شاطئ النيل وكسرت ، وقلبت في البحر . ونهى عن بيع الزبيب على اختلاف أنواعه ، ومنع التجار من حمله إلى مصر ، ثم جمع منها شيئا كثيرا ، وأحرقه . ونهى عن بيع السمك الذي لاقشر له ، ثم ظفر بمن باعه فقتله ومنها أنه أمر النصارى أن يحملوا في أعناقهم الصلبان وأن يكون طول الصليب ذراعا ووزنه خمسة أرطال ، وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرامي خشب زنة الصلبان ، وأن يلبسوا العمائم السود ، ولايكتروا من مسلم حمارا ولا بهيمة ثم أفرد لهم حمامات وأمرهم أن يدخلوا إليها والصلبان

والقرامي في أعناقهم وأمرهم في وقت بالدخول في الاسلام كرها ، ثم أمرهم بالعود الى أديانهم ، فارتد منهم في سبعة أيام ستة آلاف نفر ، وخرب كنائسهم ثم أعادها وكان يفعل ذالك إختبارا لطاعة العامة ليترقى الى ادعاء الربوبية كما ادعاها فرعون في زمن موسى صلى الله عليه وسلم وكان أمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوم الناس صفوفا واحتراما لاسمه ، وكان يفعل ذلك في سائر مملكته حتى في الحرمين الشريفين وكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خروا سجدا حتى أنه يسجد بسجودهم من في الاسواق من الرعاع وغيرهم ثم ادعى الربوبية وكتب له : " باسم الحاكم الرحمن الرحيم " وصار القوم الجهال اذا رأوه يقولون : ياواحد ياأحد يامحيي يامميت . وادعى علم الغيب في وقت وكان يقول : فلان قال في بيته كذا وكذا وفعل كذا وكذا ، وكان ذلك باتفاق اعتمده مع العجائز اللواتي يدخلن الى بيوت الامراء وغيرهم ويعرفنه ذلك . فرفعت إليه في أثناء ذلك رقعة مكتوب فيها:

بالجور والحكم قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أوتيت علم غيب ... بين لنا كاتب البطاقة

فحين قرأها سكت عن الكلام في المغيبات وكان هو وأصحابه من الخلفاء بمصر يدعون السيادة ويقول : نحن من ولد فاطمة بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يريدون الافتخار بذلك على بني العباس خلفاء بغداد ، فيقولون : أبونا على ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه وأمنا فاطمة ـ رضي الله عنها . وكان الحاكم يقول ذلك في كل جمعة على المنبر ، وكانت ترفع إليه رقعة مكتوب فيها :

إنا سمعنا نسبا منكرا ... يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما قلته صادقا ... فانسب لنا نفسك كالطائع
أو كان حقا كل ما تدعي ... فاعدد لنا بعد الأب السابع
أو فدع الأشياء مستورة ... وادخل بنا في النسب الواسع

شردها من يده ، ولم ينتسب بعدها . وحكى سبط بن الجوزي في مرآة الزمان أن المحضر الذي برز من ديوان القادر بالله بالقدح في الحاكم وفي أنسابه كان من شهد فيه وأثبت إسمه في هذا الكتاب من السادة الاشراف والقضاة والعلماء والعدول والاكابر والاماثل ما يعرفونه من نسب الديصانية الكفار ـ (نطف الشيطان) المنسوبين إلى ديصان بن مسعود الحربي شهادة يتقربون بها الىالله تعالى ، معتقدين ما أوجب الله تعالى على العلماء أن يبينوه للناس ، ولايكتموه ، شهدوا جميعا أن الناجم بمصر وهو منصور ابن نزار الملقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال والاستئصال ـ بن معد ابن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد ـ لا أسعده الله (تعالى) وإنه لما صار إلى الغرب تسمى بعبيد الله ولقب نفسه المهدي . ومن تقدمه من سلفة الأنجاس الروافض الكلاب الأرجاس ـ عليه وعليهم لعنة الله تعالى ولعنة اللاعنين ـ أدعياء ، لانسب لهم في ولد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ولا يتعلقون منه بسبب من الأسباب وأنهم كفار فجار ملحدون زنادقة معطلون ، وللإسلام جاحدون ، ولمذهب المجوس معتقدون ، قد عطلوا الحدود ، (وأباحوا الفروج) ، وأحلوا الخمور) ، وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وادعوا الربوبية وكتب فيه من الأعيان الرضى والمرتضي والشيخ أبو حامد الاسفرايني والشيخ الحسن القدوى وجماعة من العلماء ببغداد وأعيانها وصنف له بعض الباطنية كتابا ذكر فيه أن روح آدم انتقلت ألى علي ، وروح علي انتقلت إلى الحاكم ، وقريء هذا الكتاب بجامع القاهرة ، فقصد الناس قتل، مصنفه ، فسيره الحاكم إلى جبال الشام فنزل بوادي اليتم ، وناحية بايناس فاستمال الناس وأعطاهم المال وأباح الخمور والفروج وأقام عندهم مدة يدعوهم إلى معتقد الحاكم فأفضل منهم خلقا كثيرا وهناك قرى كثيرة (إلى يومنا هذا) يعتقدون خروج الحاكم ، وإنه لا بد أن يعود ويمهد الأرض وهذه خيالات فاسدة ، وظنون كاذبة نعوذ بالله منها ـ وكان السبب في هلاك الحاكم أنه أراد قتل أخته سيدة الملوك ، وهم أن يرسل إليها القوابل ليتحقق، بكارتها . وقال

لبعض قهارمتها : سمعت أنكم تجمعون الجموع ، وتدخل إليكم الرجال ، ولا بد من قتلكم (أجمعين) وتكرر هذا القول منه مرارا . فعلمت أخته أن سيقتلها لا محالة لما تعلمه من خبث طويته ، ومؤاخذته بالصغائر ، وإصراره على الكبائر ، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه ، وكانت من النساء المدبرات ، فخرجت ليلا ، وأتت إلى دار الأمير سيف الدين بن دواس ، وكان الحاكم قد عزم على قتله وقتلها ، فاجتمعت به ، وعرفته ذلك ، فقال لها : كيف الحيلة في أمره قالت : الرأي عندي أن نجهز له رجالا يقتلونه عند خروجه إلى حلوان فإنه ينفرد بنفسه وأنت تكون المدبر لدولة ولده والوزير له . فاتفقا على ذلك ، ثم رجعت إلى قصرها . فلما كانت صبيحة النهار خرج الحاكم على عادته وانفرد بنفسه على المقطم . وكان ابن دواس قد أحضر عشرة عبيد وأعطى كلا منهم خمسمائة دينار ، وعرفهم كيف يقتلونه ، فسبقوه إلى الجبل . فلما انفرد خرجوا عليه ، وقتلوه بالقرب من حلوان فخرج الناس على عادتهم يلتمسون رجوعه ومعهم دواب المواكب ففعلوا ذلك سبعة أيام ، ثم رأوا حماره الأشهب المدعو بالقمر وقد قطعت يداه عليه سرجه ولجامه ، فتتبعوا أثر الحمار إلى أن انتهوا إلى القصبة التي في شرقي حلوان ، فنزل رجل إليها ، فوجد فيها ثيابه مزررة لم تحل أزرارها ، وفيها أثار السكاكين ، فلم يشكوا في قتله ثم تولى ابنه الظاهر لاعزاز دين الله خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ، ثم تولى بعده ابنه المستنصر بالله سبعا وستين سنة وكان في أيامه غلاء (وشدة) ، ثم تولى بعده ابنه المستعلي بالله أبو القاسم أحمد سبع سنين وشيئا ، ثم تولى بعده ابنه الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور . بويع وله (من العمر) خمس سنين ، وقام بدولته الأفضل بن أمير الجيوش تسعا وعشرين سنة هو العاشر من صلب عبيد الله الملقب بالمهدي ثم تولى بعده ابن عمه الحافظ لدين الله ابن الأمير أبي القاسم محمد بن المستنصر تسع عشرة سنة وشيئا ، ولم يلي منهم منذ قام المهدي من أبوه غير خليفة إلا هذا والعاضد ، (ثم تولى بعده ابنه الظافر (بأمر) الله خمس

سنين ونصفاً) ، ثم تولى بعده ابنه الفائز بنصر الله ست سنين وأشهرا ثم تولى العاضد لدين الله وانقطعت تلك الدولة ، فالحمد لله على ما يسر من هلكهم وإبادة ملكهم ، ورضي عمن سعى في ذلك وإزالهم ، ورحم من بين مخرفهم وكذبهم ومحالهم .

وفيها بدت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين لأن نور الدين كتب، إلى صلاح الدين بأن يجمع العساكر ويقدم إلى الشام ، ليحصر الكرك ، ويجتمعا هناك لتدبير امور لا يمكن ذكرها في كتاب ، فبرز صلاح الدين إلى بلبيس وكتب إلى نور الدين يخبره بأنه واصل ، وخرج نور الدين من دمشق ، فنزل على البلقاء ، وأقام ينتظره ، وشاور صلاح الدين أصحابه ، فخوفوه من نور الدين ، وثنوا عزمه ، فكتب يعتذر من اختلال البلاد ، وأنه متى أبعد عنها لا يأمن (من) أهلها . فشق (ذلك) على نور الدين ، ولم يقبل عذره ، وعزم على قصد مصر وإخراج صلاح الدين منها ، وشرع يتجهز . وبلغ الخبر صلاح الدين ، فجمع الأمراء وأهله وقال : ما ترون ؟ فلم يجبه أحد منهم بشيء . فقام ابن أخيه تقي الدين (عمر) ، وقال : إذا جاءنا قابلناه ، وصددناه عن البلاد ، ووافقه غيره من أهله ، فشتمهم نجم الدين أيوب ، وأنكر ذلك ، واستعظمه ، وكان ذا رأي وعقل ، وقال لتقي الدين : أقعد وسبه وقال (لصلاح الدين أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين خالك . أنظر في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟. فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا (إلا) أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه . ولو أمرنا بقتلك لفعلنا ، فإذا كنا نحن فكيف غيرنا ؟ وهذه البلاد له ، ونحن مماليكه ، (وأنت نائبه) فيها ، وإذا أراد عزلك فأي حاجة له بالمجيء ؟ ينفذ كتابا مع نجاب يأمرك بالمسير إليه حتى تقصد خدمته ، ويولي بلاده من يريد . وتفرقوا على هذا . فكتب أصحاب الأخبار إلى نور الدين صورة الحال وما قال نجم الدين . وأما نجم الدين فإنه خلا بابنه ، وقال له يا قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير ، وتطلعهم على ما في نفسك ؟! ومتى بلغ نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد قصدك بعساكر الشام والشرق

وديار بكر والروم وغيرهم ، ولم يبق معك أحد وأولهم خالك وغيره ممن نافسك في الملك وفي قلوبهم منك ما فيها . وقد كتب أصحاب الأخبار إلى نور الدين بما قلت فاكتب إليه كتابا تذعن فيه بالطاعة له ، وقل له : ما حاجة إلى قصدي بنفسك ، ابعث أحد غلمانك يحملني إلى بين يديك ، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو اهم عنده ، والأيام تتدرج والله كل وقت في شأن . ففعل (صلاح الدين) ذلك . فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن قصده ، واستحيى منه ، واشتغل عنه بالفرنج . وكان الأمر كما قال نجم الدين ، وتوفي نور الدين ولم يقصده، ولا ازاله وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها .

وفيها اتخذ نور الدين الحمام الهوادي وهو المناسب التي تطير من البلاد البعيدة الى أوكارها ، وكتب بذالك الى جميع البلاد ، فاتخذت الابراج ، وكتب منشورا لاربابها واعزاز أصحابها ، ونودي بالتهديد لمن اصطاد منها شيئا ، وكان سبب ذالك أن مملكته قد اتسعت ، فكانت من حد بلاد النوبة الى همدان لا يتخللها سوى بلاد الفرنج وكان - الفرنج - لعنهم الله - ربما نازلوا بعض الثغور ، فإلى أن يصله الخبر ، ويسير إليهم (يكونون) قد بلغوا بعض الفرص فحينئذ أمر بذالك فوجد به راحة كثيرة ، فكانت الاخبار تأتيه لوقتها لانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم حمام المدينة التي تجاورهم ، فإذا رأوا أو سمعوا أمر كتبوه لوقته ، وعلقوه على الطائر ، وسرحوه الى المدينة التي هو منها في ساعته ، فتنتقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين ، وهكذا الى أن تصل الاخبار إليه ، فاحتفضت الثغور بذالك حتى إن طائفة من الفرنج نازلوا ثغرا له، فأتاه الخبر ليومه فكتب إلى العساكر المجاورة لذالك الثغر بالاجتماع ، والمسير بسرعة ، وكبس العدو ، ففعلوا ذلك ، فظفروا بهم ، وكان قد أمنوا لبعد نور الدين عنهم - فرحمه الله ، ورضي عنه ، فما كان أحسن نظرة في الرعايا والبلاد ، ووفق الملوك إلى الاقتداء بسيرته ، وما أحسن قول القاضي الفاضل في وصف الحمام : "الطيور ملائكة الملوك

يشير بذلك إلى نزولها على الملوك من جو الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء مع فرط ما فيها من الأمانة ، لا يتوهم من جهتها خيانة ، وقد أطنب في ذلك العماد الكاتب وأطرب وأعجب وأغرب .

وفيها أسقط الملك (الناصر) صلاح الدين عن أهل مصر المكوس والضرائب ، وقرىء المنشور بذلك على رؤوس الأشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة وكان مقدار ما أسقطه في السنة من العين مائة ألف دينار .

وفيها عزل الخليفة المستضيء (وزيره) ابن رئيس الرؤساء ، وقبض على ابنه كمال الدين هذا كثير الظلم والعسف في الأحكام ، فكان سببا في عزل والده . تظلمت إليه (يوما) امرأة كان يعذب زوجها ، وقالت له : خف من دعوة تصادف إجابة فاستهزأ ، وقال : تحرى لها وقت السحر . فلم يكن بعد ذلك إلا أيام قلائل حتى نكب ، وأنشد بعضهم (في هذا المعنى) .

أتحتقر الدعاء وتزدريه　　وعند الله ما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطي ولكن　　لها أمد وللامد انقضاء

ويقال أن المرأة صادفته بعد ذالك ، فقالت (له) : ياهذا انتفعت برأيك ومشورتك.

سنة ثمان وستين

فيها بعث صلاح الدين الى نور الدين هدية فيها فيل وحمار عتابي مخطط كثوب عتابي ، فأهدى نور الدين الفيل الى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شئ من تحف الثياب والعود والعنبر . وجهز الحمار العتابي الى بغداد مع هدايا وتحف سنايا وخرج الناس للفرجة عليه ، وكان فيهم رجل عتابي كثير الدعاوي وهو بليد ناقص الفضيلة فقال رجل : إن كان (قد) بعث إلينا حمار عتابي فنحن عندنا عتابي حمار.

وفيها سار نور الدين إلى الموصل ، وصلى في الجامع الذي بناه ، وتصدق بمال كثير فلما علم صلاح الدين بتوجهه

الى الموصل خرج بعساكر مصر الى الشام وحاصر الكرك والشوبك ونهب أعمالها وكان جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الاخبار الى الفرنج وإذا أغاروا على البلاد وتوهم على المسلمين فنهبهم صلاح الدين وقتل بعضهم وأجلى من بقي عن أرض الكرك ثم عاد الى مصر . قال ابن شداد : وهي أول غزاة غزاها صلاح الدين من مصر... وعاد نور الدين من الموصل ، وقطع الفرات ، وقصد بلاد الروم وسببه أن الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمن السلجوقي قصد دا الون بن داشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرها، وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريدا ، فسار الى نور الدين مستجيرا به فأكرمه وأحسن اليه ووعده النصر والسعي في رد ملكه إليه. وراسل قليج أرسلان وشفع إليه في إعادة ما (غالبه) من بلاده ، فلم يجبه الى ذالك فسار نور الدين نحوه ؛ وفتح من بلاده بهسنا ومرعش ومرزبان ومابينهما من الحصون ، وسير طائفة من عسكره الى سيواس فملكوها. فلما رأى قليج أرسلان ذلك خاف منه ، وراسل نور الدين يستعطفه ، ويسأله الصلح والصفح عنه ورد بلاد الداشمند فأجابه الى ذلك بشروط منها : أن يجدد إسلامه الى يد رسول نور الدين لانه كان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة ، ومنها إنه إذا طلب عسكره الى الغزاة يسيره، ومنها أن يزوج ابنته لسيف الدين غازي ولد أخي نور الدين ، وذكر أمورا غيرها. فلما سمع قليج أرسلان الرسالة قال : ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة ، وقد أجبته الى ما طلب . أنا أجدد إسلامي على يد رسوله واستقر الصلح ، وترك عسكرا في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ابن الداشمند ، فأقام عنده حتى توفي نور الدين ، فرحل العسكر، عنها ، وعاد قليج أرسلان ملكها.

وفيها شرع نور الدين في بناء مدرسة للشافعية بقرب الجاروخية وهي المدرسة المعروفة بالعادلية الآن ، فأدركه أجله وقد وضع المحراب وبعض البنيان ، وبقي أمرها على حاله إلى ان جاء العادل أبوبكر فأزال تلك العمارة، وبناها هذا البناء المتقن المحكم ودفن بها.

وفيها اجتمع الفرنج بالشام لقصد زرع فوصلوا الى سمكين فبرز إليهم نور الدين ، فهربوا منه الى الفوار ثم الى الشلالة فبعث سرية الى طبرية ، فعاثوا هنالك ، وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا سالمين ، ورجع الفرنج خائبين.

وفيها اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة ، وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين تملك بلاد مصر ، وصاروا الى أعمال الصعيد ، وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها وكان بها كنز الدولة ، فأنفذ يعلم الملك الناصر ، وطلب منه نجدة ، فأنفذ قطيعة من جيشه مع الشجاع . فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن خربوا أرضها فاتبعهم الشجاع وكنز الدولة ، فجرى بينهم حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم ، ورجع الشجاع إلى القاهرة ، وأخبر أهل الناصر أخاه شمس الدولة فيعسكر كثيف ، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة ، فسار إليها ونزل على قلعة إبريم، وافتتحها بعد ثلاثة أيام ، وغنم (جميع) ما كان فيها من المال والكراع والميرة ، وخلص جماعة من الأسرى ، وأسر من وجد فيها ، وهرب صاحبها ثم رجع شمس الدولة ، وخلا بالقلعة شخص من الأكراد يقال له إبراهيم ، وانضم إليه جماعة من الأكراد البطالين ، فشنوا الغارات على بلاد النوبة حتى برحوا بهم ، واكتسبوا أموالا كثيرة ، ثم إنهم قصدوا جزيرة في البحر ، فغرق أميرهم وجماعة من أصحابه ، ورجع من بقي (إلى قلعة إبريم) ، وأخذوا جميع ما كان فيها، وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين ،فعاد النوبة إليها وملكوها ، وأنفذ ملك النوبة (منهم) رسولا إلى شمس الدولة وهو مقيم ومعه كتاب فيه طلب الصلح ، ومع الرسول هدية عبد وجارية ، فكتب له جواب كتابة ، وأعطاه زوجي نشاب ، وقال : ما لك عندي جزاء إلا هذا ، وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبي ، وأوصاه أن يكشف له خبر بلاد هم (ليدخلها) ، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل (مدينة) دنقلة وهي مدينة الملك . قال مسعود : فوجدت بلادا ضيقة ، وليس لهم زرع إلا الذرة ، وعندهم نخل صغار منها

أدامهم . قال : ودنقلة ليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط وباقيها أخصاص . قال ابن أبي طي .

وفيها كانت وفاة الأمير نجم الدين أيوب بن شادي والد صلاح الدين . سقط عن فرسه فمات بعد ثمانية أيام . رحمه الله تعالى ـ وكان صلاح الدين قد عاد من الكرك ، فبلغه خبره بالطريق ، فحزن عليه ، وتأسف حيث لم يحضره .

وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد وقد أدى الرسالة بالخطبة العباسية ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وضريقين (وهما) قريتان من أعمال العراق كانتا قديما لأبيه عماد الدين زنكي ، فأراد نور الدين أن ينشيء ببغداد مدرسة على حافة الدجلة ، ويقف عليها القريتين ، فأدركه أجله ، وعاقه القدر عن ذلك وجاء مع شهاب الدين خمسون دينارا مع دنانير النثار التي نثرت يوم دخوله إلى بغداد بالبشارة وزن كل دينار عشرة دنانير .

وفيها بعث صلاح الدين سرية صحبة قراقوش مملوك تقي الدين بن شاهنشاه إلى بلاد إفريقية فملكوا طائفة كبيرة منها ، من ذلك مدينة طرابلس الغرب وعدة مدن منها .

وفيها بعث نور الدين وزيره الموفق خالد بن القيسراني إلى صلاح الدين ليقيم حساب الديار المصرية ، (وذلك لأن نور الدين استقل الهدية التي أرسلت إليه من خزائن العاضد ، وكان مقصوده أن يقرر على الديار المصرية) خراجا يحمل إليه في كل سنة .

سنة تسع وستين

قال ابن الجوزي في المنتظم : انه سقط ببغداد برد كبار كالتاريخ ، ومنه ما وزنه سبعة أرطال ، ثم أعقب ذلك سيل عظيم ، وزيادة عظيمة في دجلة لم يعهد مثلها أصلا فخربت شيئا كثيرا من العمران والقرى والمزارع حتى القبور ، وخرج الناس إلى الصحراء ، وكثر الضجيج والابتهال إلى الله (تعالى) حتى حصل الفرج ، وتناقص الماء . قال : وأما

الموصل فإنه كان بها نحو ما كان ببغداد ، وانهدم بالماء نحو من ألفي دار واستهدم بسببه مثل ذلك وهلك تحت الهدم خلق كثير ، وكذلك الفرات زادت زيادة عظيمة هلك بسببها شيء كثير من القرى ، وغلت الأسعار بالعراق في هذه السنة في الزروع والثمار ، ووقع الموت في الغنم وأصيب كثير ممن أكل منها بالعراق وغيرها .

وفيها قال ابن الساعي : توالت الأمطار بديار بكر (وغيرها) والموصل أربعين يوما وليلة لم يروا الشمس سوى مرتين لحظتين يسيرتين ، ثم تستر بالغيوم ، فتهدمت بيوت كثيرة ومساكن على أهلها وزادت دجلة بسبب ذلك زيادة عظيمة ، وغرق كثير من مساكن بغداد والموصل ثم تناقص الماء بإذن الله تعالى .

وفيها سار نور الدين نحو بلاد الروم وفي خدمته الجيش وملك الأرمن وصاحب ملطية وخلق من الملوك والأمراء ، فافتتح عدة من حصونهم ، وحاصر قلعة الروم ، فصالحه صاحبها بخمسين ألف دينار جزية ثم عاد إلى حلب ، وقد وجد النجاح في كل ما طلب ثم أتي دمشق مسرورا محسورا.

وفيها توجه توران شاه أخو صلاح الدين إلى اليمن فملكها قال ابن أبي طيء : وكان سبب خروج توران شاه إلى اليمن أنه كان كريما جوادا وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بقوته ولا ينهض بمروءته . وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر ، وكان من أهل اليمن ، فكان إذا خلا به وصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها وضعف من فيها وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها ، ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم ، وأطمعه في المعاونة، لأن صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدى (على) هذا الشريف ، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه ، وتجهز ثم دخل على أخيه صلاح الدين واستأذنه في دخول اليمن فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة وزوده فوق ما كان في نفسه ، (وأصحبه جماعة من الأمراء والجند)، وسار في البر والبحر ، في البر العساكر ، وفي البحر الأزواد

والعدد . فوصل إلى مكة ـ زادها الله شرفا ، فاعتمر بها ، ثم خرج إلى اليمن ، فلقيه الشريف هاشم بن غانم الحسيني وجميع الأشراف (من) بني سليمان في جمع كبير ، فوصل زبيد ، فخرج إليه عبد النبي فقاتله ، فهزمه توران شاه ، وأسره وأسر زوجته الحرة وكانت ذات أموال جزيلة ، (فاستقرها على أشياء جزيلة) وذخائر جليلة ، ونهب الجيش زبيد ، ثم سار إلى عدن ففتحها عنوة ، وولاها عز الدين الزنجيلي ثم فتح صنعاء وحصون اليمن . ويقال : أنه فتح ثمانين حصنا ومدينة ، واستولى على أموالها وذخائرها وقتل عبد النبي بن مهدي ، وكان هذا قد تغلب على بلاد اليمن ، ودعا إلى نفسه وتسمى بالإمام ، وزعم أنه سيملك الأرض كلها وقد كان أخوه علي بن مهدي قد تغلب قبله عليها وانتزعها من أيدي أهل زبيد واستقر توران شاه في ملك اليمن وخطب للخليفة العباسي وصفت اليمن من أكدارها وأعادت ما سبق من مضمارها . وكتب إلى أخيه الملك الناصر يخبره بما فتح الله عليه ، وأحسن إليه فكتب الملك الناصر بذلك إلى نور الدين وكذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن والخطبة بها وبكسر الروم مرة ثانية ، وكان مما تضمنه كتاب البشارة ولم ينج من عشرة آلاف حمر مستنفرة ، فرت من قسورة .

وفيها أكثر نور الدين من الصدقات والصلات ، وزاد في الأوقاف ، وكسا اليتامى وزوج الأرامل وأغنى الفقراء ، وكشف المظالم بحيث لم يبق في بلاده مظلمة .

وفيها وصل رسول نور الدين الموفق خالد بن القيسراني الى الديار المصرية ، واجتمع بالملك الناصر ، وانهى إليه رسالة نور الدين وطالبه بحساب جميع ماحصله وارتفع اليه من ارتفاع البلاد ، فصعب ذلك على صلاح الدين وأراد شق العصا ، (وان) يواجه بالمخالفة والاباء ، لكنه عاد الى طباعة الحسنة وأظهر الطاعة المستحسنة ، وأمر بكتابة الحساب وتحرير الجواب فبادر الى ذلك جماعة الدواوين والحساب ، وعرضه على ابن القيسراني ، وأراه جرائد الاجناد بمبالغ إقطاعاتهم وكميات ، جا مكياتهم، ورواتب نفقاتهم . فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية الى نور الدين على يد

الفقيه عيسى وهي خمس ختمات شريفات إحداها ثلاثون جزءا مغشاة بأطلس أزرق ، مضببة بصفائح الذهب ، وعليها أقفال ذهب مكتوبة بالذهب بخط يانس ، وختمة مغشاة بديباج فستقى عشرة أجزاء بخط راشد وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد ، وختمة بخط مهلهل جزء واحد وختمة بخط الحاكم البغدادي ، وثلاثة أحجار بلخسن وزن إحداها اثنان وعشرون مثقالا، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف وست قصبات زمرد، (وقصبة) وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع (وسدس)، وقصبته وزنها ثلاثة مثاقيل، (وقصبة) وزنها مثقالان ونصف ، وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس ، وقصبة وزنها مثقالان) وثلث، وحجر (ياقوت) وزنه سبعة مثاقيل، (وحجرأزرق وزنه ستة مثاقيل) وسدس ومائة عقد من الجواهر النفيسات وزنها جميعا ثمانمائة وخمسون مثقالا وخمسون قارورة دهن بلسان ، وعشرون قطعة بلور ، وأربع قطع جزع ، وإبريق يشم، وطسة يشم وسقرق ميناء مذهب وصحون صيني ، وزبادي وسكارج أربعون قطعة، وكرتان عود قماري وزن أحدهما ثلاثون رطلا بالمصري ، والاخرى واحد وعشرون رطلا ومائة ثوب أطلس ، وأربعة وعشرون ثوبا (من الحرير وأربعة وعشرون ثوبا من) الوشي (أبيض) ، وحلة قلفلي مذهبة ، (وحلة مرايش صفراء مذهبة) وغير ذالك أنواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية ، وعدة من الخيل (والغلمان) والجواري وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه ومن الذهب عشرة صناديق مقفلات مختومات لم يعلم مقدار مافيها . فلما فصلت العير عن الديا رالمصرية لم تصل الى الشام حتى مات نور الدين رحمه الله (تعالى) فمنها ما أعيد ، ومنها ما استهلك لان (الفقيه) عيسى وابن القيسراني وضعا عليها من نهبها ، واستبدا بأكثرها وقيل: أنها وصلت جميعها الى السلطان لانه اتصل به خبر موت نور الدين فأنفذ من ردها .

وفيها صلب عمارة اليمني الشاعر وأصحابه ، وسبب ذلك أنه اجتمع جماعة من رؤوس الدولة الفاطمية الذين كانوا فيها حكاما ، فاتفقوا فيما بينهم أن يردوا الدولة الفاطمية ، فكتبوا الى الفرنج يستدعونهم إليهم ، وعينوا

وعينوا خليفة من الفاطميين ووزيرا وذلك في غيبة السلطان ببلاد، الكرك ، ثم اتفق مجيئه، فحرص عمارة شمس الدولة (توران شاه) على المسير إلى اليمن ليضعف بذلك الجيش عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين. فخرج توران شاه ولم يخرج معه عمارة، بل أقام بالقاهرة يفيض في هذا الحديث ويداخل المتكلمين فيه ويصافيهم وكاد أمرهم أن يتم ويأبي الله إلا أن يتم نوره ، فأدخلوا في الشورى الواعظ زين الدين بن نجا فأظهر لهم أنه معهم ثم جاء إلى صلاح الدين وأخبره بما قالوا (وتعاقدوا) عليه وطلب من السلطان ما لابن كامل من الحواصل والعقار، فبذله له وأمره بمخالطتهم ، وتعريفه شأنهم فصار يعلمه بكل متجدد . فجاء رسول ملك الفرنج بالساحل إلى صلاح الدين بهدية ورسالة وفي الباطن إليهم، وأتى الخبر إلى صلاح الدين (من بلاد الفرنج). بجلية الحال وقيل أن عبد الصمد الكاتب كان يلقى القاضي الفاضل بخضوع زائد، فلقيه يوما فلم يلتفت إليه ، فقال القاضي الفاضل ما هذا إلا لسبب فأحضر ابن نجا الواعظ وأخبره الحال وطلب منه كشف الأمر فأخبره بأمرهم فبعثه إلى صلاح الدين فأوضح له الأمر، فاستدعاهم السلطان واحدا واحدا وقررهم فأقروا بذلك ، فاعتقلهم، ثم استفتى الفقهاء في أمرهم فأفتوه بقتلهم، فعند ذلك أمر بقتل رؤوسهم وأعيانهم وأتباعهم وغلمانهم وأمر ينفي من بقي من جيش العبيديين إلى أقصى البلاد، وأفرد ذرية العاضد وأهل بيته في دار فلا يصل إليهم إصلاح ولا فساد، وأجرى عليهم ما يليق بهم من الأرزاق والثياب. وقد كان عمارة معاديا للقاضي الفاضل، فلما حضر بين (يدي) السلطان قام الفاضل إلى السلطان ليشفع فيه عنده، فتوهم عمارة أنه يتكلم فيه، فقال : يا مولانا السلطان لا تسمع منه، فغضب الفاضل، وخرج من القصر ، فقال له السلطان : إنما كان يشفع فيك . فندم ندما عظيما. ولما ذهب به ليصلب طلب أن يمروا به على مجلس القاضي الفاضل، فاجتازوا به عليه، فأغلق بابه ، فقال عمارة :

عبد الرحيم قد احتجب أن الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة بين القصرين وكان من الذين صلبوا : الفضل بن كامل القاضي ، وهو أبو القاسم هبة الله قاضي قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين وابن عبد القوي داعي الدعاة، وقد كان يعلم بدفائن القصر، فعوقب ليدل عليها فامتنع من (ذلك) فمات واندرست ؟ والعويرس وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصمد أحد أمراء المصريين، ونجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني (أرمني)، وكان قد قال لهم : (إن) أمرهم يتم بطريق علم النجوم ، وعمارة اليمني وكان عمارة هذا ينسب إلى الرفض، ويتهم بالزندقة والكفر ذكر العماد الكاتب في الخريدة أنه قال في قصيدته التي يقول في أولها :

العلم مذ كان محتاجا إلى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
قد كان أول هذا الدين من رجل
سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

قال العماد : ويجوز أن يكون هذا البيت معمولا عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله . قال : ولعمارة في مصلوب بمصر يقال له طرخان ، وكان (قد) خرج على الصالح (بن) رزبك، فظفر به الصالح فصلبه، فقال فيه عمارة :

أراد علو مرتبة وقدر فأصبح فوق جذع وهو عال
ومد على صليب الجذع منه يمينا لا تطول على شمال
ونكس رأسه لعتاب قلب دعاه إلى الغواية والضلال

قال العماد : فكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره . وحكى القاضي تاج الدين بن بنت الأعز أن القاضي العويرس رأى عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم كأنه أخرج رأسه من السماء، فقال له العويرس : الصليب حق ؟ فقال له (عيسى) بن مريم : نعم . فعبرها العابر ، وقال صاحب هذه الرؤيا يصلب لأن عيسى معصوم، ولا يمكن أن يكون ذلك راجعا إليه. لأن الله تعالى قص لنا أنه لم يصلب، فينبغي أن يكون (ذلك) راجعا إلى الرائي، فكان الأمر كما

قال وكتب صلاح الدين إلى نور الدين يعلمه بما وقع منهم وبهم من الخزي والنكال . قال العماد : فوصل الكتاب يوم وفاة نور الدين.

وفيها وصل أسطول الفرنج من صقلية ، فنازلوا الأسكندرية بغتة ،وجاء بناء على مراسلة الذين صلبوا وكان معهم ألف وخمسمائة ، فرس وعدتهم ثلاثون ألف مقاتل ما بين فارس وراجل وكان معهم مائتا شيني وست سفن كبار (وأربعون مركبا) . فبدر إلى حربهم أهل الثغر فحملوا على المسلمين حملة أوصلتهم إلى السور ففقد من المسلمين فوق المائتين . فلما أصحبوا زحفوا على الأسكندرية ، ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها وهي كالأبراج، وثلاثة مناجيق ترمي بحجارة سود استصحبوها من صقلية، وزحفوا إلى أن قاربوا السور، فرأى الفرنج من شجاعة أهل الأسكندرية ما راعهم، وبعثت بطاقة إلى الملك صلاح الدين، فبادر وحضر، واستمر القتال يومين، وفي اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد، وكسبوا الفرنج على غفلة، وأحرقوا الدبابات، وصدقوا اللقاء، ودام القتال الى العصر، ونزل من الله النصر . وقتل من الفرنج خلق (كثير)، ورد المسلمون إلى البلد لأجل الصلاة ، ثم كبروا عند المغرب، وهاجموا الفرنج في خيامهم، فتسلموها بما حوت، وقتلوا من الرجالة ما لايحصى ، واقتحم المسلمون البحر ، فغرقوا المراكب، وحرقوها ، وهربت بقية المراكب وصار العدو بين أسير وقتيل وغريق واحتمى ثلاثمائة فارس في تل، فأخذوا أسرى وغنم المسلمون غنيمة عظيمة، فلله الحمد (والمنة) .

وفيها كانت وفاة الملك العادل نور الدين ،وكان - رحمه الله - قد ركب يوم عيد الفطر إلى الميدان الأخضر القبلي وصلى فيه صلاة العيد ، ورمى القبق في الميدان الأخضر الشمالي ، ومد سماطا حافلا ، وظهر ولده الملك الصالح إسماعيل في هذا اليوم وزينت له البلد ، وضربت البشائر، وكان ذلك اليوم) يوم الأحد ثم ركب يوم الإثنين ، وأركب على العادة، وكان معه همام الدين مودود، فقال لنور الدين هل

تكون ها هنا في مثل هذا اليوم في العام (القابل) ؟ فقال نور الدين : قل ، هل نكون بعد شهر فإن السنة بعيدة فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السابق فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر ، وهمام الدين لم يصل إلى العام . ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه، فاعترضته بعض الأمراء وقالوا له : باش !! فغضب لذلك ، ولم يكن ذلك من سجيته، وساق ، ودخل في القلعة ، وحصل له سوء مزاج واشتغل بنفسه واوجاعه ، وتنكدت عليه جميع حواسه وطباعه واحتبس أسبوعا عن الناس، والناس في شغل (عنه) بما هم فيه من اللعب والانشراح في الزينة التي نصبوها لأجل ظهور ولده، فانعكست تلك الأفراح بالا تراح ، ونسخ الجد ذلك المزاج وحصل للملك العادل خوانيق في حلقه منعته من النطق ، وكان قد أشير عليه بالقصد فلم يقبل ، وبالمبادرة إلى المعالجة فلم يفعل، وكان أمر الله قدرا مقدورا . فلما كان (في) يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال من هذه السنة قبض إلى رحمة الله تعالى وقت طلوع الشمس عن ثمان وخمسين سنة ، مكث منها في الملك ثمانًا وعشرين سنة ، وصلى عليه بجامع القلعة ودفن بالقلعة ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة جوار الخواصيين وكانت دار سليمان بن عبد الملك (رحمة الله تعالى) ، وقبره بها يزار، ويخلق شباكه ويطيب ويتبرك به كل مار، ويقول : قبر نور الدين الشهيد (لما حصل له من الخوانيق، وكذا يقال لأبيه الشهيد) ، لأنه قتل ظلما .

وفيها بويع بعد موت نور الدين لولده الملك الصالح إسماعيل وكان صغيرا لم يبلغ الحلم بعد، وجعل أتابكه الأمير شمس الدين بن المقدم، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام (وأطاعه صلاح الدين) وخطب له بمصر، وضرب السكة باسمه فيها ، ثم بعد ذلك اختلف الأمراء وحارت الآراء ، وظهرت الشرور وكثرت الخمور وقد كانت لا توجد في زمانه ولا يجسر أحد أن يتعاطى شيئا منها ولا من الفواحش، (وانتشرت الفواحش)

وظهرت حتى أن ابن أخي نور الدين (سيف الدين) غازي بن مودود صاحب الموصل لما تحقق موت عمه ، وكان محصورا منه، نادى مناديه بالبلد بالمسامحة في اللعب واللهو والشراب المنكر والطرب ، ومع المنادي دف وقدح ومزمار الشيطان، فإنا لله وإنا إليه راجعون ؟ وقد كان ابن أخيه هذا وغيره من الأمراء والملوك الذين له حكم عليهم ، لايستطيع (واحد منهم) أن يفعل شيئا من المناكر والفواحش . فلما مات مرج أمرهم، وعاشوا في الأرض فسادا وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين ، وعزم الفرنج على قصد دمشق وانتزاعها من أيدي المسلمين ، فبرز إليهم ابن المقدم الأتابك ، فواقعهم عند بايناس . وضعف عن مقاومتهم، فهادنهم مدة ، ودفع إليهم أموالا جزيلة عجلها لهم، لولا أنه خوفهم بقدوم الملك الناصر صلاح الدين لما هادنوه . ولما بلغ ذلك صلاح الدين كتب إلى الأمراء خاصة ابن المقدم يلومهم على ما صنعوا من المهادنة ودفع الأموال إلى الفرنج وهم أقل وأذل وأخبرهم أنه عزم على قصد البلاد الشامية ليحفظها منن الفرنج ، فردوا إليه كتابا فيه غلظة وكلام فيه بشاعة وكتبوا إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل ليملكوه عليهم ليدفع عنهم كيد صلاح الدين ، فلم يجبهم لانه خاف ان تكون مكيدة (له) ثم توجه الملك الصالح الى حلب وأقام بها الى أن توفي في سنة سبع وسبعين وكان صالحا لما سمي . ولما اشتد به المرض وضعف وصف له الاطباء قليل خمر، فقال : لاأفعل حتى أسأل الفقهاء . فأفتاه بعضهم بالجواز فلم يفعل وقال : إن كان الله قد قرب أجلي يؤخره شرب الخمر ؟ قيل له : لا. قال : فوالله لالقيت الله وقد فعلت ماحرم علي (الله) . فمات ولم يشربه رحمه الله (تعلى) ، ورحم آباه وجده ، وعوضهم الجنة بمنه وكرمه ، والحمد لله رب العالمين .

وهذا آخر ما يسره الله من سيرة الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى - على يد مؤلفه سيدنا الشيخ الامام العلامة أقضى القضاه بدر الدين أبي الفضل محمد بن

مولانا وسيدنا وشيخنا قاضي القضاة شيخ الاسلام ، بركة الانام حسنة الايام ، صدر الشام تقي الدين ابي الصدق أبي بكر ابن قاضي شهبة الاسدي الشافعي ، أسبغ الله ظلالهما ، وختم بالصالحات اعمالهما بمنه وكرمه آمين ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين .

القاهرة د. عبده الطهطاوي

فهرس

من مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة

صدر في سلسلة "والقلم" :

محمد الصباغ

شجرة محار

1

عبد الرحمن الفاسي

عمي بوشناق

قصص

بتقديم محمد الصباغ

2

عبد المجيد بن جلون

لولا الإنسان

قصص

3

طبع هذا الكتاب بصندوق حروف
الاستاذ أحمد الأخضر غزال
الذي لا يتعدى 90 حرفا
مطبعة محمد الخامس الثقافية
والجامعية فاس
ذو القعدة 1392 موافق دجنبر 1972
رقم 85 - 2000 نسخة

1972

العام الدولى للكتاب

مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية - فاس